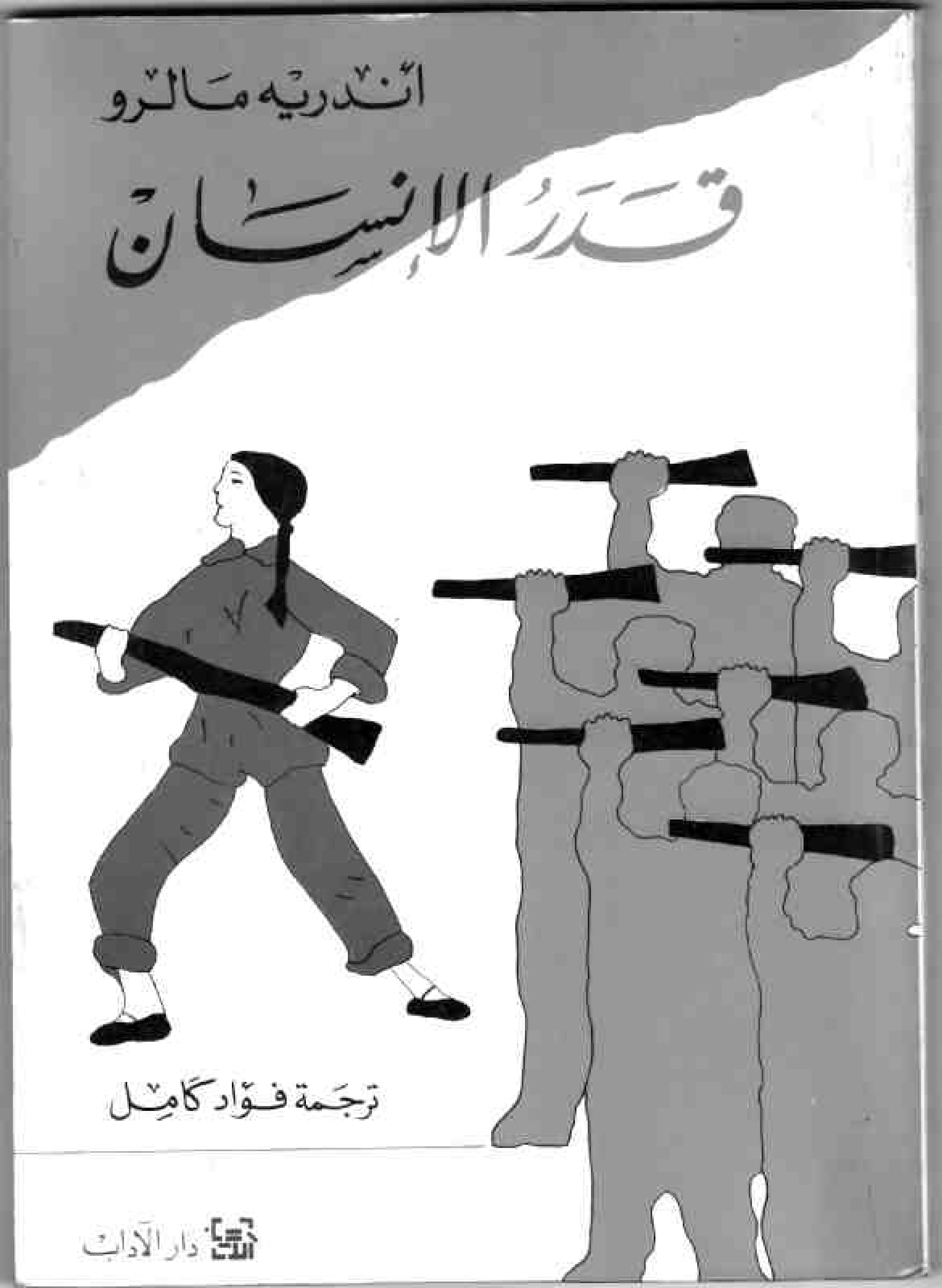

أندريه مالرو
قدر الإنسان
ترجمة فؤاد كامل
دار الآداب

الطبعة الأولى
١٩٨٨

تقديم

بقلم المترجم

«أندريه مالرو» كاتب ثوري، يسعى إلى الموت في مظانه، ويبحث عن مواطن الأحداث التاريخية التي اجتاحت عصره ليخوض غمارها، ويفتش عن أشد التجارب توتراً وغرابة وعنفاً فيرتمي في أتونها، ليكتب عنها بعد ذلك كتابة من اكتوى بنارها وكابد سعيرها، وذاق مرارتها.

ولن يجد القارئ المتابع للآداب العالمية كاتباً لابس أحداث عصره ملابسة وثيقة كما فعل «مالرو»، وربما كانت السمة الأولى التي تبرز للدارس له أنه «شاهد على العصر»، كما اجمع على ذلك النقاد والمترجمون لسيرته. بل لا أعدو الحق، ولا أجاوز الواقع إن أضفت الى ذلك أنه لا يعد من شهود العصر فحسب، بل من صانعيه أيضاً: يكفي أن نشير إلى الثورات الكبرى التي لعب فيها دوراً بارزاً، وإلى الحروب التي قاتل فيها جندياً وقائداً، وإلى القضايا الانسانية التي دافع عنها دفاع المستميت، وإلى المناصب والمهام الخطيرة التي اضطلع بمسؤولياتها، وقام على أعبائها.

فهذا كاتب اتخذ لحياته شعار فلسفة نيتشه: «عش في خطر» فتحدى الموت مرات ومرات، وألقى بنفسه في التهلكة عامداً متعمداً ليسبر غور الحياة، وينفذ إلى ما في أعماقها من جوهر ولباب، كاتب لم يفصل قط بين الفكر والعمل، بين الفن والتجربة، بين الوجود والفعل، فجاءت أعماله الفنية مطابقة لحياته، وانعكست تجاربه وتجارب عصره فيما صنّف من روايات، وأنشأ من كتب.

«ومالرو» على وعي حاد بـ «الوضع الانساني»، ذلك الوضع الذي تنسجه القلق واليأس، ومصيره العذاب والموت، ولكنه في الوقت نفسه في صراع مستمر مع هذا الوعي، وإرادته تراجعه بلا انقطاع إلى تجاوز ذلك الوضع الإنساني. ولقد استطاع «مالرو» أن ينتزع نفسه من الآف المقاطع التي تنسجها الحياة اليومية من ابتذال ولا مبالاة، فعاش حياة متوترة

كأشد ما يكون التوتر، مرهفة كحد الموسى، حياة يدور فيها الصراع العنيف بين الوجود الثائر ومصيره.

إن عالم «مالرو» يتخلق في القلق واليأس، وشخصيات رواياته تصل إلى الوعي بذاتها في تجربة يتكشف لها من عبثية العالم وضاعة المصير. وهذا الإحساس يمتزج في الوقت نفسه بيقين لا ريب فيه وهو أنه لا مهرب، وأن هذه اللحظة، وهذه الحياة التافهة هما لحظتنا الوحيدة، وحياتنا الوحيدة. ويقول أحد أبطال «مالرو»: «الحياة لا تساوي شيئاً، ولكن شيئاً لا يساوي الحياة!».

عالم «مالرو» مغلف بظلال كثيفة تدفعنا إلى اليأس من إشراق الشمس إلى الأبد. عالم يتحكم فيه «القدر» تحكماً عابثاً لا شفقة فيه ولا رحمة. وما أعمال «مالرو» سوى ملحمة طويلة يصف هبوط البؤس الانساني إلى قرارة الجحيم. إنها تضعنا في شيء من القسوة الصارمة إزاء عدم الانسان، وعدم الكون الذي لن يلبث أن يبدد آثارنا، ويجر عليها أستار النسيان، ثم يمحي بدوره، ويغوص في لجة الزوال والفناء.

وقد يحسب القارئ أن «مالرو» كاتب قدري يخضع للقدر ويستسلم له... والواقع أنه أبعد ما يكون عن ذلك. فإن إحساسه بقدر الانسان أو بوضعه في الوجود لا يقل عن إحساسه بالحرية. بل قل إن الوضع الانساني نفسه صراع بين القدر والحرية. وحين يفتتن «مالرو» بالجانب المظلم الوحشي من الحياة، فإنما يترك نفسه له لمعرفة قدرة الانسان على الخروج من هذا الجانب منتصراً... الأمل لا يبدأ عند «مالرو» إلا في الجانب الآخر من اليأس والشقاء. والانسان الحديث لن يصل إلى كرامته قبل الالتقاء باحتقاره..

لقد كان «مالرو» من أوائل الكتّاب الذين اعتقدوا أن البشرية في هذا العصر موعودة بالمأساة، وأن المأساة هي ذلك المصير الساخر الدامي لعالم يعتقد أنه جدير بالسعادة، فلا يلقى إلا بالثورة والحرب ومعسكرات الاعتقال والاستبداد والاستغلال بكل صوره. والمشاهد الغريبة البشعة التي تزخر بها رواياته: «قدر الإنسان» و«الأمل» و«عصر الاحتقار» قد أصبحت الآن من الوقائع المألوفة جداً في عالمنا، وأضحى أبعد الناس عن الشذوذ ومن المألوف يعيشون حياة مأساوية أعواماً متصلة. والغريب أن «مالرو» نفسه تنبأ بهذا كله حين قال: «سيأتي يوم تتوافق فيه أحداث العالم مع كتبي». فيا لها من نبوءة؟ ففي هذا العالم الدامي... هذا الحمام من الدم الذي يساق إليه المعذبون، لم يعد عالماً غريباً... إنه يقع تحت أبصارنا ليلاً ونهاراً. من يتردد الآن في التعرف على هذا العالم؟ ومن منا لا يربط بينه وبين وجه أحد الأصدقاء؟

إن أبرز ما يلتقي به القارئ لأعمال «مالرو» هو أن هذا الكاتب يتحدث عن تجربة شخصية وإن لم يتحدث عن نفسه (أعني لم يتحدث بضمير المتكلم)، فهو لا يحيا في برج عاجي، وإنما يتحدث بلغة العصر، شكلاً ومضموناً. بل لا أغالي إذا قلت إنه يتحدث بلغة كل عصر. لأنه لا يصور المجتمع، ولا يصور أفراداً. بل لا يصور نفسه، وإنما هو يصور الوضع الانساني الأبدي، أو بالأحرى إنه يرثيه ويمجده في آن واحد.

فؤاد كامل

٢١ مارس ١٩٢٧

الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل.

أيحاول «تشن» أن يرفع الكلة؟ أم يضرب من خلالها؟ واعتصر القلق أحشاءه. لقد كان يعرف أنه صادق العزم، ولكنه لم يكن يستطيع في هذه اللحظة إلا أن يفكر في أمره ببلاهة. وقد أبهظه هذا الركام من النسيج الأبيض الرقيق (الموسلين) الذي ينسدل من السقف فوق جسد أخفى من الطيف. لا تبرز منه سوى القدم التي أرخاها النوم، ولكنها تنبض مع ذلك بالحياة، لأنها جزء من جسد الرجل. أما الضوء الوحيد فكان يتسلل من المبنى المجاور. مستطيل كبير من نور الكهرباء الشاحب تشطره قضبان النافذة. وكان أحد هذه القضبان يلقي ظله على السرير عند قدم الرجل تماماً، وكأنما ليضفي عليها ضخامة وحياة. وانطلق نفير أربع أو خمس آلات تنبيه في وقت واحد. هل افتضح أمره؟ عليه إذن أن يقاتل!.. أن يقاتل أعداء متأهبين للدفاع عن أنفسهم، أعداء متيقظين! فيا له من خلاص!

وانحسرت موجة الضوضاء. وكانت مجرد ارتباك في حركة المرور (كانت ثمة ارتباكات في حركة المرور، هناك في عالم الناس..) وألفى نفسه مرة أخرى وجهاً لوجه أمام تلك القطعة الكبيرة المتهدلة من النسيج الرقيق (الموسلين)، وذلك المستطيل من الضوء اللذين لا يتحركان في هذه الليلة حيث توقف الزمان عن الوجود.

وطفق يردد لنفسه ـ ترديداً أحمق ـ أن هذا الرجل يجب أن يموت.. إذ كان يعلم أنه لا بد قاتله. وسواء ألقي القبض عليه، أم لا، وسواء أعدم أم لم يعدم، فإن الأمر يستوي لديه. لا وجود لغير هذه القدم. ولغير هذا الرجل الذي ينبغي عليه أن يسدد إليه ضربته قبل أن يستطيع الدفاع عن نفسه. لأنه لو دافع عن نفسه، فقد يصيح مستنجداً.

واختلجت أجفان «تشن» حين اكتشف في نفسه ـ وهذا الكشف يبلغ به إلى حد الغثيان ـ أنه لم يكن المقاتل الذي يتوقعه. وإنما شخص يقدم قرباناً. ولم يكن هذا القربان للآلهة الذين اختارهم فحسب. بل كان قرباناً للثورة. يتصاعد وراءه عالم من الظلمات العميقة الذي يعد هذه الليلة الطاحنة من القلق بالقياس إليه نوراً وهاجاً. إن الاغتيال

والسعادة ـ لا يعني القتل فحسب . . وفي جيبه كانت قبضتاه المترددتان ، تضمان : اليمنى موسى مقفلة ، واليسرى خنجراً صغيراً . وكان يدسهما في أبعد مكان ممكن ، وكأن الليل لا يكفي لإخفاء حركاته . وكانت الموسى أضمن . إلا أن « تشن » كان يحس أنه لن يستطيع استخدامها على الإطلاق ، أما الخنجر فقد كان تقززه منه أقل . وتخلى عن الموسى التي كان ظهرها يتخلل أصابعه المطبقة ، وكان الخنجر عارياً في جيبه بلا غمد ، فنقله إلى يده اليمنى ، بينما ترك يسراه تسقط على صفحة قميصه الصوفي ، وهناك ظلت ملتصقة بها . ورفع ذراعه اليمنى قليلاً ، وقد راعه استمرار السكون الذي أحاط به ، وكأن حركته تلك كانت كفيلة بإحداث كارثة . . . ولكن شيئاً لم يقع ، وظل الإقدام على الأمر متروكاً له ، كما كان دائماً .

القدم نابضة كأنها حيوان نائم . أهي حقاً نهاية جسد ؟ « هل أصابني مس من الجنون ؟ » ينبغي أن يرى هذا الجسد . . أن يراه ، وأن يرى هذا الرأس ، ودون ذلك لا بد من أن يدخل منطقة الضوء ، وأن يدع ظله المكتنز يمر على السرير . ترى كيف تكون مقاومة الجسد ؟ وفي حركة تشنجية ، أغمد « تشن » الخنجر في ذراعه اليسرى . وكان في تلك اللحظة عاجزاً عن إدراك أنها ذراعه هو ، غير أن الألم ، وفكرة البطش المؤكد به إذا استيقظ النائم أعاداه برهة إلى الواقع : فالعقاب أهون من جو الجنون الذي يحيط به . . والقدم . . هذا هو نفسه الرجل الذي رآه منذ ساعتين في النور الساطع . وفجأة ، دارت القدم التي كادت تلمس سروال « تشن » كما يدور المفتاح في القفل ، ثم عادت إلى وضعها القديم في النوم الهادئ . ربما أحس النائم بحضوره إحساساً لا يكفي مع ذلك لإيقاظه . . . وسرت القشعريرة في أوصال « تشن » : إنها حشرة تزحف على جسده . . كلا ، بل الدم يتساقط قطرات من ذراعه الجريحة ، وما برح شعور أشبه بدوار البحر أن سيطر عليه .

حركة واحدة يموت بعدها الرجل . إن قتله ليس أمراً عسيراً : وإنما لمسه هو المحال . ولا بد أن يسدد الطعنة تسديداً دقيقاً . ولم يكن النائم الراقد على ظهره ـ في سرير من الطراز الأوروبي ـ يرتدي سوى سروال قصير ، غير أن ضلوعه من تحت جلده السمين لم تكن ظاهرة . فكان على « تشن » أن يحدد هدفه مسترشداً بطرفي الثديين القاتمين . وكان يدرك مدى صعوبة الضرب من أعلى إلى أسفل ، ومن ثم فقد شهر نصل الخنجر في الهواء ، غير أن الثدي الأيسر كان أشد بعداً : فكان عليه من خلال شبكة الكلة ، أن يضرب إلى أقصى ما تصل إليه ذراعه في حركة منحنية أشبه بضربة « السوينج » في الملاكمة . وغير من وضع الخنجر ، فجعل نصله أفقياً

إن لمس هذا الجسد الساكن لا يقل صعوبة عن ضرب جثة . . وربما كان ذلك للأسباب نفسها . وانبعثت من الرجل حشرجة كأنما أهابت بها فكرة الجثة هذه . ولم يعد « تشن » قادراً حتى على التراجع ، فقد لانت ساقاه وذراعاه تماماً ، وانقطعت الحشرجة ، ذلك أنها لم تكن حشرجة بل كانت شخيراً . لقد عاد من جديد حياً ، قابلاً للإصابة . وخامر « تشن » في الوقت نفسه شعور الخزي من ذلك الاستهزاء به . وانزلق الجسد في حركة خفيفة إلى اليمين . هل سيستيقظ الآن ؟ وأوقفه « تشن » بطعنة كافية لاختراق لوح من الخشب وسط حفيف « الموسلين » المتمزق الذي اختلط بصوت الضربة المكتوم . وامتد إحساسه حتى طرف الخنجر ، فأحس بانتفاضة الجسد نحوه ، مدفوعاً بهزة « الملة » المعدنية ، فشد ذراعه خانقاً لكي يوقفه في مكانه . وهنا تراجعت الساقان معاً صوب الصدر ، وكأنهما مربوطتان إليه ، ثم تراختا فجأة . وكان ينبغي عليه أن يضرب مرة أخرى ، ولكن كيف ينزع الخنجر ؟ وكان الجسم راقداً على جنبه دائماً في غير استقرار ، وعلى الرغم من تلك الانتفاضة التي جعلته يهتز منذ لحظة . فقد أحس « تشن » أنه إنما يثبته إلى السرير بسلاحه القصير الذي ضغط عليه بثقله كله . ومن ثغرة واسعة في الكلة . كان يستطيع أن يراه جلاء : الجفنان مفتوحان . . أمن الممكن أن يكون قد استيقظ في تلك اللحظة ؟ وكانت العينان بياضاً كلهما . وبدأ الدم يسيل على نصل الخنجر . . دم أسود في ذلك الضوء الزائف . وكان يبدو أن الحياة ما زالت تتردد في ثقل هذا الجسد المتهيئ للسقوط يمنة أو يسرة . ولم يستطع « تشن » أن يتخلى عن الخنجر وعبر هذا السلاح ، وعبر ذراعه المتصلبة ، وكتفه المتوجعة سرى تيار من القلق يصل بين ذلك الجسم وبينه ، حتى أعماق صدره ، وحتى قلبه المتشنج ، وهو الشيء الوحيد الذي كان يتحرك في تلك الحجرة . ووقف جامداً جموداً مطلقاً . وخيل إليه أن الدم الذي ما زال يسيل من ذراعه اليسرى هو دم الرجل الراقد ، ودون أن يطرأ شيء جديد ، أيقن فجأة أن هذا الرجل قد مات . وكان لا يكاد يتنفس ، ولكنه ظل يسند الرجل على جنبه في ذلك النور الثابت العكر ، وفي تلك الوحشة التي خيمت على الحجرة ، ولم يبد أثر ما على وقوع عراك ، حتى ذلك التمزق في قطعة الموسلين الذي كاد يشطرها إلى نصفين : لا شيء سوى السكون ونشوة ساحقة غاص فيها ، معزولاً عن عالم الأحياء ، متشبثاً بسلاحه . واشتد انقباض أصابعه أكثر فأكثر ، غير أن عضلات ذراعه ارتخت ، وبدأت ذراعه كلها ترتجف كما يرتجف الوتر . ولم يكن ما به خوفاً ، ولكنه كان ذعراً فظيعاً مهيباً في الوقت نفسه ، ذعراً لم يعد يعتريه منذ طفولته . لقد كان وحيداً مع الموت ، وحيداً في مكان خلا من البشر ، وقد سحقه الرعب ، وطعم الدماء في آن واحد ، فأذلاه .

واستطاع أن يبسط قبضته ، فانزلق الجسد برفق على بطنه ، وعين الخرف مقبض

الخنجر عن موضعه، انتشرت على الملاءة بقعة قاتمة. أخذت تتسع شيئاً فشيئاً وكأنها كائن حي. وإلى جانبها، أخذ يتسع مثلها أيضاً، ظل أذنين مدببتين.

كان الباب قريباً. وكانت الشرفة أبعد، ومن هذه الشرفة كانت تأتي الظلال. وعلى الرغم من أن «تشن» لم يكن يؤمن بالعفاريت، إلا أنه ظل مشلولاً عاجزاً عن أن يتلفت. وقفز عن موضعه، فقد تناهى إلى سمعه مواء. وأحس بشيء من الخلاص، فتجرأ على النظر. كانت قطة قذرة تسللت عن طريق النافذة بأقدامها الصامتة، وقد سددت إليه عينيها. واستولى على «تشن» غضب اشتد احتداده كلما تقدم الظل، ولم يكن هذا الغضب موجهاً ضد الحيوان نفسه، وإنما ضد هذه الحضرة، فما كان ينبغي لكائن حي أن يتسلل إلى المنطقة الوحشية التي ألقي فيها. إن النظرة إليه تمسكاً بتلك المدية كانت تمنعه من العودة إلى عالم الناس. وفتح الموسى، وتقدم خطوة إلى الأمام. فلاذ الحيوان بالفرار من الشرفة، وانطلق «تشن» في أعقابه، وفجأة، ألفى نفسه وجهاً لوجه أمام شنغهاي.

وبات الليل - وقد سرى فيه ما يهز «تشن» من قلق - يعلو كسحابة هائلة من الدخان الأسود مليئة بالشرر، وعلى إيقاع أنفاسه التي خفت لهاثها شيئاً فشيئاً، سكن الليل. وبين مزق السحب، استقرت نجوم في حركتها الأزلية التي اجتاحته مع هواء الخارج الذي يرد. وانطلقت صفارة، ولكنها لم تلبث أن تبددت في ذلك السكون المقبض. وهناك في أسفل المدينة تماماً، حيث تنعكس أضواء منتصف الليل من خلال الضباب الأصفر على صفحة الأسفلت المبتل وخطوط القضبان الباهتة.. هناك كانت تخفق حياة الناس الذين لا يقتلون. ملايين من الحيوات التي تتبدد الآن جميعاً حياله، ولكن أين تقع ادانتهم التعسة إذا قيست بالموت الذي بات ينحسر عنه، والذي كان يبدو له انه يتدفق من جسده دفقات طويلة مثل دم الرجل الآخر؟ إن هذه الظلال جميعاً الساكنة منها والمتأرجحة هي الحياة، إنها كالنهر، كالبحر البعيد الذي لا يبلغه البصر - البحر... وتنفس أخيراً من أعماق صدره، وخيل إليه أنه عاد إلى الحياة مرة أخرى، فأحس بعرفان لا حد له، وأوشك على البكاء، وانتابته الحيرة التي استولت عليه منذ لحظة: «ينبغي الفرار...». ولبث في مكانه، يتأمل حركة السيارات، والمشاة الذين يهرولون تحت قدميه في الشارع المضيء، وكأنه أعمى استرد بصره، أو جائع يلتهم طعامه. وود في نهمه الذي لا يرتوي إلى الحياة أن يلمس هذه الأجساد. وانطلقت الصفارة مرة أخرى، وانتشرت في الأفق، عبر النهر.. إنها تعلن انتهاء «وردية» عمال الليل في الترسانة. ألا تباً لهم من عمال حمقى ذهبوا ليصنعوا الأسلحة المخصصة لقتل هؤلاء الذين يجاهدون من أجلهم! وهل قدر على تلك المدينة المضاءة أن تبقى في حوزة ذلك الدكتاتور العسكري كأنها حقل عمله، وأن تؤجر حتى الممات - كأنها القطيع - إلى

قواد الحرب، وتجار الغرب؟ إن جريمة القتل التي ارتكبها تعادل إنتاج أيام طويلة تقوم به ترسانات الصين: فالثورة الوشيكة التي تهدف إلى وضع شنغهاي في أيدي القوات الثورية لا تملك مائتي بندقية. أما إذا ملكت الثورة العدارات (وعددها حوالي ثلاثمائة) التي كان يتفاوض ذلك الوسيط المقتول ليبيعها إلى الحكومة، فإن فرص الثوار تتضاعف، ذلك أن أول عمل ينبغي أن يقوموا به هو أن يجردوا البوليس من أسلحته، ليزودوا بها رجالهم. ولكن «تشن» لم يفكر في شيء من ذلك ولو مرة واحدة خلال الدقائق العشر الأخيرة.

ولم يكن قد أخذ بعد الورقة التي قتل من أجلها هذا الرجل. فعاد أدراجه، وكأنه يعود إلى السجن. وكانت الثياب معلقة عند قدم السرير تحت الكلة. وفتش الجيوب.. فوجد منديلاً، وسجائر.. ولم يجد المحفظة، والحجرة ما زالت على حالها لم تتغير: الكلة، والجدران البيض، والمستطيل المحدد من الضوء. إن جريمة القتل لا تغير إذن شيئاً.. ومد يده تحت الوسادة وقد أغمض عينيه، فأحس بالحافظة، صغيرة جداً، أشبه بحافظة النقود. أكان خجلاً أم قلقاً ما أحس به؟ وزاد من قلقه ضغط الرأس الخفيف على الوسادة ففتح عينيه مرة أخرى. لم تكن ثمة دماء على الحشية، ولا يكاد يبدو على الرجل أنه ميت. أينبغي عليه إذن أن يقتله مرة أخرى؟ ولكن سرعان ما التقت عيناه بالعينين البيضاويين وبالدماء التي لطخت الملاءة، فتخلص من هذا الإحساس وانسحب إلى حيث يوجد الضوء لكي يفتش في الحافظة. وكان هذا الضوء آتياً من مطعم زاخر بالمقامرين. ووجد الوثيقة فاحتفظ بالحافظة، واجتاز الحجرة ركضاً، وأدار المفتاح في قفل الباب مرتين، ثم وضع المفتاح في جيبه. وفي نهاية دهليز الفندق - وكان يحاول أن يخفف من سرعته - لم يجد المصعد. أيقرع الجرس؟ ونزل على السلم. وفي الطابق السفلي حيث المرقص والبار وموائد البلياردو، كان نحو عشرة أشخاص ينتظرون المصعد، الذي لم يلبث أن وصل. وسار في أثرهم. وخاطبه الرجل المجاور له بالانجليزية قائلاً: «إن الراقصة ذات الرداء الأحمر رائعة حقاً»، وكان يبدو عليه أنه من بورما أو سيام، وأنه في حالة سكر خفيفة. وود «تشن» في آن واحد أن يصفعه ليرغمه على الصمت، وأن يعانقه لأنه كان حياً. فغمغم بكلمات على سبيل الإجابة، فربت الآخر على كتفه مؤيداً. «إنه يظن أنني مخمور أنا أيضاً..» غير أن المتحدث فتح فمه من جديد، فبادره «تشن» قائلاً بلغة أهل بكين: «إنني أجهل اللغات الأجنبية». فأطبق الآخر شفتيه، ولكنه حدق في اهتمام إلى هذا الشاب الذي لا يرتدي ياقة، وإنما يلبس صديرياً من الصوف الممتاز. وكان «تشن» يقف في مواجهة مرآة المصعد الداخلية. إن الجريمة لم تترك أي أثر على وجهه... فلم تتغير ملامحه التي هي أشبه بملامح المغول منها بملامح القسس، وجنتان بارزتان، وأنف أفطس جداً، وإن يكن ذا طرف خفيف، أشبه

بالمنقار ... لم تتبدل ملامحه، وإن ارتسم عليها التعب.. بل إن كتفيه الراسخين، وشفتيه الغليظتين اللتين تنمان عن رجل طيب، بقيت على حالها لا تعبر عن شيء غريب يثقله.. اللهم إلا ذراعه التي أحس بلزوجتها وسخونتها حين ثناها. وتوقف المصعد، فخرج مع الآخرين.

الساعة الواحدة صباحاً.

وابتاع زجاجة من المياه المعدنية، واستدعى سيارة أجرة: سيارة مغلقة، وفيها غسل ذراعه، وعصبها بمنديل. وكانت قضبان الترام المهجورة وبرك مياه الأمطار الخفيفة التي تساقطت في الأصيل تلمع لمعاناً باهتاً، وعليها انعكست السماء المضيئة. ورفع إليها «تشن» بصره، دون أن يدري لذلك سبباً: وما كان أقربه إليها منذ لحظة حين فطن إلى النجوم! وإنه ليتأى عنها كلما أخذ حماسه في الفتور، وعاد إلى عالم الناس.. وفي أقصى الشارع، كانت السيارات ذات المدافع رمادية بلون برك المياه، وثمة حاجز متألق من الخوذات التي تحملها ظلال صامتة: إنها فصيلة من الجنود تدل على نهاية منطقة النفوذ الفرنسي. إن سيارة الأجرة لا تستطيع أن تمضي إلى أبعد من ذلك. وأبرز «تشن» جواز مرور مزيفاً يثبت أنه كهربائي يعمل في منطقة النفوذ، ونظر الحارس في الورقة بلا مبالاة: «إن ما فعلته لتوي لا يبدو للعيان بكل تأكيد»، ثم أذن له بالمرور. وأمامه امتد شارع الجمهوريتين، الذي يعد حداً للمدينة الصينية.

وحشة وسكون... وهزيم الأمواج المحملة بجلبة أكبر مدينة صينية تضيع في هذا المكان، كما تضيع الأصوات المنبعثة من أعماق الأرض في قاع البئر: جلبة الحرب، والهزات العصبية الأخيرة لحشد لا يريد أن يخلد إلى النوم. على أن الناس كانوا يعيشون بعيداً، وأما هنا، فلم يبق شيء من العالم غير ليل استسلم له «تشن» بغريزته كما يستسلم لصداقة مفاجئة: فهذا العالم الليلي المضطرب لا يتعارض مع القتل. إنه عالم اختفى منه الناس.. عالم أبدي، فهل سيعبر الفجر مرة أخرى هذه الأسقف القرميدية الخربة، وهذه الأزقة التي في أحنائها يضيء مصباح جداراً بلا نوافذ، وعشاً من أسلاك البرق؟ واستغرقه عالم الجريمة، فبقي فيه كما يبقى المرء في الدفء. ولم تكن ثمة حياة أو وجود، أو صوت قريب، أو حتى صيحة الباعة الصغار، أو نباح الكلاب الضالة.

وأخيراً، وصل إلى حانوت قذر: «جرامونات لو - يو - شن وهملريش» لا بد من العودة إلى الناس. ولكنه انتظر بضع دقائق لا يستطيع لنفسه انتزاعاً، وأخيراً طرق مصراعاً خشبياً، فانفتح أحد الأبواب على الفور. إنه حانوت مليء بالاسطوانات المرتبة في عناية، فله مظهر مكتبة الحي العامة، وهناك في الجزء الخلفي من الحانوت، وهو فسيح، كان أربعة من الرفاق يرتدون الأقمصة

وحين أغلق الباب تأرجح المصباح، فاختفت الوجوه، ثم ظهرت من جديد: على اليسار وجه «لو - يو - شن» المستدير تمام الاستدارة، ثم رأس هملريش الحليق وكأنه ملاكم مراهق مكسور الأنف، عالي الكتفين، وإلى الخلف، في الظلام، كان كاتوف، وعلى اليمين، كيوجيسور، وحين عبر المصباح فوق رأسه أظهر في جلاء، وكلي فمه الهابطين كأنه صورة من الصور اليابانية المطبوعة، وما أن ابتعد المصباح حتى تحولت الظلال، وبدا هذا الوجه الهجين أشبه بوجه أوربي. وتزايدت سرعة تأرجح المصباح، فجعل وجها «كيو» يظهران كل بدوره، وأخذ الاختلاف بينهما يقل رويداً رويداً.

كان التلهف على السؤال يسيطر عليهم جميعاً، فتطلعوا إلى «تشن» في توتر أبله، ولكنهم لم ينطقوا بشيء. أما هو فقد نظر إلى بلاط الأرضية الذي تناثرت عليه بذور عباد الشمس. إنه يستطيع أن يزود هؤلاء الرجال بالمعلومات، ولكنه لا يستطيع مطلقاً أن يشرح لهم ما يدور بنفسه. وكانت مقاومة الجسد للخنجر تسيطر عليه، فقد كانت أشد من مقاومة ذراعه: «ولولا سورة المفاجأة، ما نفذ السلاح عميقاً في جسد الرجل. وما كنت أتوقع قط أن يكون الجسم بهذه الصلابة...».

قال: «لقد تم كل شيء».

وفي تلك الحجرة، وجهاً لوجه إزاء الجسد، كان على يقين من شيء واحد، إنه «أحس بالموت».

وأخرج التصريح بتسليم الأسلحة. وكان النص طويلاً، فشرع «كيو» في قراءته: - أجل، ولكن..

وانتظر الجميع. ولم يكن «كيو» متعجلاً أو مجتداً، وظل يقرأ بلا حراك وإن انقبض وجهه قليلاً. غير أن الجميع أحسوا بأن ما اكتشفه خطير، وأخيراً أعلن قائلاً: «إن ثمن الأسلحة لم يدفع.. الدفع عند التسليم».

واشتد الغضب بـ «تشن»، وكأنه في غفلة من أمره. لأكد من أن هذه هي الورقة التي كان يبحث عنها، دون أن يتسع له الوقت لقراءتها. على أي حال، ما كان يستطيع أن يغير شيئاً. وأخرج الحافظة من جيبه وناولها لـ «كيو»: لم يكن فيها غير صور فوتوغرافية، «انفصالات» ولا ورق غير ذلك.

قال كيو: «نستطيع أن ندبر الأمر - على ما أعتقد - مع إحدى فرق الهجوم».

وأجاب كاتوف: «إن كنا نستطيع أن نسلل إلى ظهر السفينة، فمن الممكن أن نحوز كل شيء على ما أزعم».

وساد الصمت. وانتزع حضورهم «تشن» من وحدته الرهيبة في رفق، كما تنتزع نباتاً من الأرض ما زالت جذوره الدقيقة تشده إليها. وكلما عاد إليهم في الوقت نفسه، رويداً، رويداً، كان يبدو له أنه يتعرف عليهم للمرة الأولى، كما تعرف على أخته حين عاد إليها بعد أن زار للمرة الأولى في حياته منزلاً للبغاء. كان هناك التوتر الذي يشيع في قاعات القمار حين يشرف الليل على نهايته.

وسأل كاتوف: «هل سار كل شيء سيراً حسناً؟» ووضع أسطوانته أخيراً. وتقدم حيث يوجد الضوء.

وتأمل «تشن» - دون أن يحير جواباً - رأس هذا الروسي الطيب بعينيه الضيقتين الساخرتين وأنفه المرفوع في الهواء ـ ذلك الرأس الذي كان لا يستطيع حتى هذا الضوء أن يضفي عليه مسحة درامية. أما هو، فكان يعرف ما هو الموت. ونهض وتقدّم ليلقي نظرة على «الجدجد» النائم في قفصه الصغير. وكان يمكن أن تكون لـ «تشن» أسبابه التي تدعوه إلى الصمت، لقد راح يراقب حركة الضوء التي أتاحت له أن يكف عن التفكير: غير أن صيحة الجدجد المتهدجة - وكان قد استيقظ عند مجيئه - اختلطت باهتزازات الظلال الأخيرة على الوجوه. وما برحت فكرة صلابة الجسد مسيطرة عليه، ورغبته في أن يتكئ بذراعه في قوة على أول شيء يصادفه. ولم يكن الكلام مجدياً اللهم إلا في تعكير ألفته بالموت، تلك الألفة التي استقرت في فؤاده. وسأله كيو: «متى خرجت من الفندق؟».

- «منذ عشرين دقيقة».

وألقى نظرة على ساعته.. إنها الواحدة إلا عشر دقائق.

- «جميل.. فلننه أمورنا هنا، ثم نغادر المكان».

- «أريد أن أقابل أباك يا كيو».

- «أنت تعلم أن الأمر سيحدث غداً بكل تأكيد!»

- «فليكن».

وكانوا يعلمون جميعاً ما يعنيه كيو.. إنه يشير إلى وصول القوات الثورية إلى المحطات الأخيرة في الخط الحديدي، وهذا الوصول إشارة البدء بالثورة.

وردد تشن قوله: «فليكن».. ذلك أن الشعور بالخطر، كجميع الأحاسيس العنيفة، يخلف وراءه فراغاً، فكان يسعى إلى استعادته.

- «ومع ذلك، أريد أن أراه».

- «اذهب إليه هذه الليلة، فإنه لا ينام مطلقاً قبل الفجر».

- «سأذهب إليه حوالي الساعة الرابعة».

وكان «تشن» بنجحه بوحي من غريزته إلى الأب جيسور حين يحتاج إلى من يفهمه، ومع أنه يعلم أن موقفه هذا يؤلم كيو - وعلى الأخص لأنه يخلو من كل غرور - فإنه لم يكن يستطيع أن يمتنع عنه. لقد كان «كيو» أحد منظمي الثورة، وكانت اللجنة المركزية تثق به، وكان تشن أيضاً يثق به. غير أنه ما كان يقدم على القتل أبداً اللهم إلا إذا اشترك في قتال. أما «كاتوف» فكان أقرب إلى نفسه. كاتوف الذي حكم عليه بالأشغال الشاقة خمس سنوات سنة ١٩٠٥ حين اشترك، وهو إذ ذاك طالب بكلية الطب، في الهجوم - الصبياني على سجن أوديسا، ومع ذلك...

وكان الروسي يأكل قطعاً صغيرة من الحلوى المسكرة، واحدة إثر أخرى، دون أن يكف عن النظر إلى «تشن». وفجأة أدرك «تشن» معنى الشراهة. فالآن، وقد قتل شخصاً، كان من حقه أن يشتهي أي شيء. أجل.. الحق، ولو كان ذلك شيئاً صبيانياً ومذ كفه المربعة.. فظن «كاتوف» أنه يريد مغادرة المكان، ولهذا صافحه. ونهض تشن فربما كان من الخير كذلك أن ينصرف إذ لم يعد أمامه ما يفعله في هذا المكان. فقد أحيط «كيو» بكل شيء، وعليه أن يتصرف وفقاً لهذه المعلومات. أما هو تشن - فإنه يعرف ما يريد أن يفعله الآن. وبلغ الباب. عاد ثانية وقال:

- «ناولني هذه الحلوى».

فناوله - كاتوف - كيس الحلوى. وكان يريد أن يتقاسمها معه، ولكنه لم يجد ورقاً، فملأ تجويف راحته، وحشا فمه، ثم خرج.

وقال كاتوف: «لا بد أنها كانت مهمة شاقة».

وكان «كاتوف» قد لجأ إلى سويسرا وأقام بها من سنة ١٩٠٥ إلى سنة ١٩١٢، حيث عاد خفية إلى روسيا. وعلى الرغم من أنه كان ينطق الفرنسية دون أن تشوبها أية لكنة روسية، إلا أنه كان يبلع بعض حروف الحركة، وكأنما يريد أن يعوض على هذا النحو عن روح النطق الواضح حين يتحدث بالصينية. ومع أنه كان في هذه اللحظة يكاد يقف تحت المصابيح، إلا أن الضوء على وجهه كان قليلاً. وكان «كيو» يفضل رؤيته على هذه الصورة، ... عليه تعبير عن السذاجة الساخرة، تضفيه على وجهه تلكما العينان الضيقتان، وعلى الأخص ذلك الأنف المرفوع (وكأن عصفوراً يشبهه بعصفور يسخر دون أن يضحك!) هذا النعم الذي كان يريد من إيراءته له بخالف ملامحه، فما كان يصارعه ...

قال كيو : «فلننته من هذا الموضوع . ألديك الاسطوانات يا لو؟».

وبابتسامة عريضة تنم عن استعداده لأداء آلاف الانحناءات المعبرة عن الاحترام، وضع [لـ]و ـ يو ـ تشن الاسطوانتين كلاً على جراموفون، بعد أن فحصهما كاتوف، وكان لا بد أن [تبـ]ـدأ كل منهما في الحركة في وقت واحد.

وشرع كيو في العد قائلاً : «واحد، اثنين، ثلاثة»..

وطغى صفير الاسطوانة الأولى على الاسطوانة الثانية، وفجأة، انقطع هذا الصفير، واتضحت كلمة : «أرسلوا»، ثم عاد الصفير مرة أخرى، واتضحت كلمة أخرى «ثلاثين».. تبعها صفير آخر، تلته كلمة «رجلاً».. ثم امتد الصفير. وهتف كيو : «رائع»، ثم أوقف الحركة، وأدار الاسطوانة الأولى وحدها : صفير.. سكون.. صفير [تو]قف. حتى. ضع عليها ما يجعلها غير صالحة للاستعمال.

والآن، فلنستمع إلى الاسطوانة الأخرى : الدرس الثالث. يجري.... يمشي، يذهب، يجيء، يرسل، يتلقى. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، ثمانية، تسعة، عشرة، عشرون، ثلاثون، أربعون، خمسون، ستون، مائة. رأيت عشرة رجال يركضون. عشرون امرأة هنا. ثلاثون...

وكانت هذه الاسطوانات المزورة لتعليم اللغات رائعة، والبطاقة الموضوعة عليها بارعة التقليد.. ومع ذلك كان «كيو» قلقاً:

ـ «أكان تسجيلي رديئاً؟».

ـ «إنه جيد جداً.. بديع».

وانفجرت أسارير «لو» عن ابتسامة، بينما بدا عدم الاكتراث على هملريش. وفي الطابق العلوي، صرخ الطفل متألماً.

ولم يعد «كيو» قادراً على الفهم:

ـ «إذن لماذا غيرتموه؟».

فأجاب لو : «إنه لم يتغير، إنه صوتك نفسه. ومن النادر أن يتعرف المرء على صوته، كما ترى، حين يسمعه للمرة الأولى».

ـ «الحاكي يشوهه؟».

ـ «كلا.. ليس هذا هو السبب، فإن كلاً منا يعرف بلا عناء أصوات الآخرين، ولكننا لم نألف، كما ترى، سماع أنفسنا».

وكان «لو» مغتبطاً اغتباط الصيني حين يشرح لرجل مثقف شيئاً يجهله.

ـ «وهذا الكلام ينطبق على لغتنا أيضاً...».

ـ «تماماً.. أما زالت الخطة أن يأتي من يأخذ الاسطوانات الليلة؟».

ـ «ستبحر السفن فجر غد متجهة صوب (هان ـ كيو)».

وكانت الاسطوانات ذات الصفير مرسلة على إحدى السفن، بينما كانت الاسطوانات التي تحمل الكلام مرسلة على سفينة أخرى.. وكانت هذه الاسطوانات الأخيرة فرنسية أو انجليزية تبعاً للبعثة الموجودة في المنطقة، بروتستانتية كانت أم كاثوليكية. وكان الثوار يستخدمون أسطوانات حقيقية لتعليم اللغات تارة، واسطوانات مسجلة بأصواتهم تارة أخرى.

وقال كيو لنفسه مفكراً : «حين يطلع النهار.. وكم من أشياء قبل أن يطلع النهار!..» ونهض من مكانه.

ـ «لا بد من متطوعين، لأجل الأسلحة.. وبعض الأوربيين، إن أمكن».

واقترب منه هملريش. وفي الطابق العلوي، صرخ الطفل من جديد. قال هملريش : «ها هو الطفل يجيبك. أيكفيك هذا؟ ماذا أنت صانع بالطفل الذي أوشك أن ينفق، والمرأة التي تئن في الطابق العلوي بصوت خافت حتى لا ترعجنا...».

وكان الصوت الذي يشوبه شيء من البغض هو صوت الرجل صاحب الأنف المكسور، والعينين الغائرتين اللتين وضع مكانيهما الضوء العمودي ـ بقعتين سوداوين.

أجاب كيو : «لكل عمله.. والاسطوانات ضرورية أيضاً.. وأستطيع أن أنصرف أنا وكاتوف. فلنذهب للبحث عن بعض رجالنا (وسنعرف خلال ذلك إن كنا سنقوم بالهجوم غداً أم لا) وأنا...».

فقال كاتوف : «لاحظ أنه من الممكن أن يكتشفوا الجثة في الفندق».

ـ «لن يكون ذلك قبل الفجر. فقد أغلق تشن باب الحجرة بالمفتاح. وليست هناك دوريات».

ـ «ولما كان الوسيط على موعد ما؟».

ـ «في هذه الساعة بالذات؟ هذا شيء بعيد الاحتمال. ومهما يحدث فإن المهم هو تغيير مرسى السفينة. فإذا حاولوا أن يصلوا إليها، أصاعدا على الأقل ثلاث ساعات قبل العثور عليها.. إنها تقف الآن عند عمود البناء».

- « إلى أين تريد أن ننقلها؟ »

- « إلى قلب المياه.. حيث لا ترسو على رصيف بالطبع.. فهناك مئات من السفن.. كذلك نضيع ثلاث ساعات على الأقل.. على الأقل ».

- « ربما ارتاب القبطان فيما يحدث... »

ولم يكن وجه « كاتوف » يفصح مطلقاً عن عواطفه، وإنما يستقر عليه دائماً ذلك التعبير من المرح الساخر.. أما في هذه اللحظة، فقد كانت نغمة صوته وحدها تشي بقلقه... ولهذا كان تعبيره قوياً.

قال كيو: « انني أعرف خبيراً في صفقات الأسلحة، وسيضع فيه القبطان ثقته. ونحن، وإن لم نملك كثيراً من المال، إلا أننا نستطيع أن ندفع لهذا الخبير أجره.. وأعتقد أننا متفقون على أن نستخدم التصريح للصعود إلى ظهر السفينة وأن ندبر أمرنا بعد ذلك؟ »

وهز « كاتوف » كتفيه، وكأن الأمر واضح لا يحتاج إلى جدال. وارتدى معطفه الخشن الذي لا يقفل بياقته قط، وتناول كيو سترة كانت معلقة على أحد المقاعد، وصافح كل منهما صاحبه في حرارة. فما كان المعطف إلا ليزيد من إذلاله. وانصرفا.

وتركا الشارع على الفور، ودخلا الحي الصيني.

وكانت السحب المتكاثفة الواطئة التي تنفرج في بعض الأماكن لا تدع نجوم آخر الليل تظهر إلا من أعماق الثغرات الممتدة بينها. وكانت هذه الحياة التي تشع بين السحب تضفي حياة على الظلمة التي تخف تارة، وتشتد تارة أخرى، وكأن ظلالاً هائلة تأتي لتزيد الليل قتامة. وكان كاتوف وكيو ينتعلان أحذية للرياضة ذات نعال من المطاط، فما كانا يسمعان خطواتهما إلا حين ينزلقان على الوحل. وعلى جانبي مناطق النفوذ - حيث يوجد العدو - كان ثمة وهج يحف بأسطح المنازل. وانبعث في الجو صوت صفارة طويلة أخذ يتضخم في بطء، حتى ملأ الرياح التي تحمل ضوضاء المدينة المحاصرة، تلك الضوضاء التي أوشكت أن تتلاشى، كما حملت صفير الزوارق الصغيرة التي انضمت إلى السفن الحربية - هبت هذه الرياح على المصابيح الكهربائية البائسة التي تضيء جوف الأزقة والحارات، وحول تلك المصابيح برزت من الظلال المهجورة جدران متآكلة كشف عنها بكل ما فيها من ثغرات، هذا النور الذي لم يكن شيء يؤرجحه، وكأنها تصدر عن أزلية قذرة. هذه الجدران تحجب نصف مليون من الناس: أهل مصانع النسيج، أولئك الذين يعملون منذ طفولتهم ستة عشرة ساعة يومياً.. شعب من القروح والعاهات والبطون الجائعة. وغاصت الزجاجات التي يغطي المصابيح الكهربائية، ولم تلبث أمطار الصين العنيفة المنهمرة أن اجتاحت المدينة في دقائق معدودات.

وناجى كيو نفسه قائلاً: « إنه حي طيب ».. ذلك أنه كان ينتقل منذ أكثر من شهر - من اجتماع إلى آخر ليعد الثورة، فلم يعد يرى الشوارع.. لم يكن يسير في الوحل، وإنما يسير في خطة معينة.. واختفى صراع ملايين الحيوانات الصغيرة اليومية، وقد سحقته حياة أخرى. ولم يعد لمناطق الامتيازات، وللأحياء الغنية بأسوارها التي تغسلها الأمطار عند أطراف الشوارع.. لم يعد لهذه الأحياء وجود إلا بوصفها أخطاراً تهدد، وحواجز وجدران سجن ممتدة لا نوافذ فيها. أما الأحياء الفظيعة التي منها تألفت معظم قوات الثورة، فكانت على العكس من ذلك تنبض بانتفاضة شعب متربص. وعند منعطف أحد الأزقة، غاصت نظراته فجأة في أعماق الضوء المنبعث من شارع عريض. وعلى الرغم من الأمطار المنهمرة التي كانت تحجب هذا الشارع، فقد ظل يراه في صورة امتداد أفقي، إذ كان لا بد من مهاجمة هذا الشارع في مواجهة بنادق ومدافع رشاشة، تطلق نيرانها من فضاء. وكانت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني قد عهدت إلى كيو - بعد فشل مظاهرات فبراير - بتنسيق قوات الثورة. وفي كل شارع من هذه الشوارع الهادئة التي اختفت معالم منازلها تحت سيل المطر ذي الرائحة الشبيهة برائحة الدخان، ضوعف عدد المقاتلين. كان « كيو » قد طلب رفع العدد من ألفي رجل إلى خمسة آلاف، فتمكنت القيادة من ذلك في خلال شهر.. غير أنهم لم يكونوا يمتلكون سوى مائتي بندقية (وكان هناك ثلاثمائة غدارة على السفينة « شان تونج » التي ترقد ساهرة وسط النهر المتلاطم الأمواج). وكان « كيو » قد تولى تنظيم مائة واثنين وتسعين فرقة مقاتلة، تضم كل منها خمسة وعشرين رجلاً، ولا يحمل السلاح إلا رئيس الفرقة...

وتفقد أثناء مروره مرآباً شعبياً مليئاً بسيارات النقل القديمة التي حولت إلى أوتوبيسات. وكانت المرائب كلها « مندرجة » في القائمة. وكانت الإدارة العسكرية قد شكلت هيئة أركان حربية، وانتخب مجلس الحزب لجنة مركزية، فإذا بدأت الثورة كان لا بد أن يكون بتلك الهيئات على اتصال مستمر بفرق الهجوم. وأنشأ كيو وحدة اتصال أولى مؤلفة من مائة وعشرين راكب دراجة، بحيث إذا انطلقت الرصاصات الأولى.. كان على ثماني فرق أن تحتل المرائب، وأن تستولي على السيارات. وكان رؤساء هذه الفرق قد فحصوا تلك المرائب، ومن ثم فإنهم لن يرتكبوا أية أخطاء. أما الرؤساء الآخرون، فقد [illegible] إلى أن [illegible] منذ عشرة أيام.. الحي الذي سيقاتل فيه.. كم عدد الزوار الذين دخلوا [illegible] ذلك اليوم نفسه - إلى الأبنية الرئيسية، طالبين مقابلة صديق لا يعرفه أحد،

فتحدثوا وقدموا الشاي قبل رحيلهم؟ وكم من العمال، رغم المطر المنهمر، عكفوا على إصلاح السقوف؟ لقد أصبحت كل المراكز المفيدة للقتال الذي سينشب في الشوارع معروفة. وأفضل المواقع لاطلاق النار كانت مبينة على الخرائط الموجودة في المركز الدائم لفرق الهجوم. وكان ما يعلمه كيو عن الحياة الدفينة للثورة يعوضه عما يجهل. ثمة شيء يتجاوز إلى ما لا نهاية، كان يتصاعد من أجنحة المدينة الكبيرة المحرقة.. من تشاباي وبوتونج اللتين تكسوهما المصانع ويكسوهما البؤس.. شيء يتصاعد لتفجير مراكز الأعصاب الهائلة الكامنة وسط المدينة، وكان حشد خفيّ ينعش ليل القيامة هذا.

قال كيو: «غداً؟».

وتردد كاتوف، وكف عن هز راحتيه الكبيرتين. كلا، ان هذا السؤال ليس موجهاً إليه.. أو إلى أحد.

وسارا صامتين. وتحول المطر الغزير شيئاً فشيئاً إلى رذاذ، وخفتت الضجة التي يحدثها المطر بسقوطه على أسقف المنازل، وامتلأ الشارع الأسود بخرير جداول المياه. وارتخت عضلات وجهيهما، أما كيو فحين اكتشف الشارع كما يبدو في الواقع... شارع طويل، أسود، لا يكترث بشيء - فقد توسم فيه ماضياً انتهى عهده.. ذكرى ملحة تدفعه إلى الأمام.

وتساءل كيو: «أين تعتقد أن تشن قد ذهب؟ لقد قال إنه لن يذهب إلى أبي إلا في حوالي الساعة الرابعة. أتراه قد ذهب لينام؟».

وكان في سؤاله إعجاب يشيع فيه لون من الارتياب.

- «لا أدري... ربما ذهب إلى ماخور... فهو لا يدمن الشراب...».

ووصلا إلى حانوت: «شبا.. تاجر مصابيح». المصاريع مغلقة، كما هي الحال في كل مكان.. وفتح الباب وأمامهما انتصب رجل صيني قصير القامة نحيف لا تبين ملامحه في الضوء المعتم الذي ينبعث من الخلف؛ ومن هالة الضوء المحيطة برأسه كانت أقل حركة تصدر منه، ترسل شعاعاً زيتياً على أنفه الضخم الذي حفرته البثور. وكانت مئات الزجاجات التي تحيط «بمصابيح - العاصفة» المعلقة تعكس وهج مصباحين قائمين على منضدة الحساب، ولا يلبث هذا الوهج أن يتبدد في الظلمة التي تجثم على أعماق الحانوت المحتجبة.

قال كيو: «وبعد؟».

ونظر إليه «شبا» وهو يحرك كفيه في ترحيب، ثم قفل على أعقابه دون أن يقول شيئاً.

وتقدم بضع خطوات، وفتش في مكان خفي. واحتكت أظافره بشيء من الصفيح فضرست أسنان كاتوف، وسرعان ما عاد تتأرجح حمالات بنطلونه المتدلية يمنة ويسرة.. وقرأ الورقة التي أتى بها، في ضوء صادر من أسفل نحو رأسه الذي كاد يلتصق بأحد المصابيح. كان ذلك تقريراً من المنظمة العسكرية المكلفة بالاتصال برجال السكك الحديدية، وقد ورد فيه أن الإمدادات التي تدافع عن شنغهاي ضد الثوار تأتي من نانكين، وأن عمال السكك الحديدية قرروا الإضراب عن العمل، غير أن جنود الحرس الأبيض والجيش الحكومي.. كانوا يرمون بالرصاص أولئك الذين يمتنعون عن قيادة القطارات الحربية.

ومضى الرجل الصيني في قراءته قائلاً: «وأخرج أحد رجال السكك الحديدية المعتقلين القطار الذي يقوده عن الخط الحديدي... وكان مصيره القتل. وخرجت ثلاثة قطارات حربية عن الخط أمس، بعد انتزاع القضبان».

وهنا قال كيو: «أصدر الأوامر بتعميم أعمال التخريب، واذكر في نفس التقارير طريقة الإصلاح في أسرع وقت ممكن».

- «إن رجال الحرس الأبيض يطلقون النار على كل من يقوم بالتخريب».

- «لعرف اللجنة ذلك.. ونحن نطلق النار بدورنا.. شيء آخر أريد أن أسألك عنه: ألا توجد قطارات أسلحة؟».

- «كلا».

- «ألا تعرف متى تصل قطاراتنا إلى تشنج - تشيو[1]؟».

- «لم تصلني بعد أخبار منتصف الليل. ومندوب النقابة يعتقد أنها ستصل الليلة أو غداً...».

إذن، فستبدأ الثورة غداً أو بعد غد.. ولا بد من انتظار تعليمات اللجنة المركزية. واحس «كيو» بالعطش. وخرج الاثنان.

ولم يكونا بعيدين عن المكان الذي كان عليهما أن يفترقا عنده. وانطلقت من احدى السفن صفارة أخرى ثلاث مرات متقطعات، أعقبتها مرة أخرى طويلة. وكان يبدو كأنما تسمع صرخها في هذه الليلة المشبعة بالماء، وتساقطت أخيراً كما يسقط الصاروخ. «هل بدأ العمال يساورهم على ظهر السفينة شانج تونج؟». محال. إن القبطان لا ينتظر ربانه إلا في الساعة الثامنة. وواصلا سيرهما، أسيرين لتلك الباخرة الراسية هناك في المياه الباردة الخضراء، حاملة صناديق العدادات. وانقطع المطر.

(1) تشنج - تشيو Tcheng - Tcheou هي أهم محطة قرب شنغهاي

قال كيو : سيتم كل شيء على ما يرام، ما دمت سأجد الشخص الذي أريده.. ولكنني أكون أهدأ بالاً لو أن « شانغ ـ تونغ » عرفت مرساها ».

ولم يعد طريقهما واحداً. فتواعدا، وافترقا.. وذهب « كاتوف » للبحث عن الرجال.

وبلغ « كيو » أخيراً بوابة منطقة الامتيازات ذات القضبان الحديدية. وأقبل لفحص أوراقه جنديان من « أنام »، وجاويش من جيش الاستعمار. وكان يحمل جواز سفره الفرنسي. ولإغراء الحرس وضع تاجر صيني شطائر صغيرة على أطراف الأسلاك الشائكة. (وقال كيو لنفسه : طريقة صالحة لتسميم مركز للحراسة إذا لزم الأمر ».)

وأعاد إليه الجاويش جواز المرور. ولم يلبث « كيو » أن وجد سيارة أجرة، وألقى للسائق بعنوان « القط الأسود ».

والتقت السيارة التي كان السائق يقودها في سرعة فائقة ببعض دوريات المتطوعين الأوروبيين. وكانت الصحف تقول عنها : « إن جنود ثماني دول تحرس هذا المكان ». ولم يكن لذلك أهمية. لما كان الكومنتانغ ينوي الهجوم على مناطق النفوذ.. وامتدت أمامه الشوارع المهجورة، وتناثرت ظلال التجار الصغار الذين يحملون حوانيتهم على أكتافهم على هيئة موازين.. ووقفت السيارة عند مدخل حديقة صغيرة تنيرها لافتة مضيئة عليها هذه الكلمات : « القط الأسود » وحين مر كيو بحجرة إيداع الملابس نظر إلى الساعة : الثانية صباحاً. « من حسن الحظ أن كل أنواع الأزياء تقبل هنا » ذلك أنه كان يرتدي صداراً تحت سترته الرياضية المصنوعة من وبر الصوف الرمادي القاتم.

وكانت موسيقى الجاز تحطم الأعصاب.. ولقد حافظت هذه الموسيقى منذ خمس ساعات ـ لا على جو من المرح، بل على ضرب من النشوة الوحشية التي تتشبث بها كل زوج من الراقصين في لهفة. وفجأة، توقفت الموسيقى، وتفكك الجمع ؛ وجلس الزبائن في المؤخرة، بينما جلست الراقصات المحترفات على الجانبين؛ بعضهن صينيات في أثوابهن الضيقة من الحرير المشغول، وبعضهن الآخر روسيات أو تجري في عروقهن دماء مختلطة. مبتكرة لكل رقصة، أو لكل محادثة. وفي وسط الحلبة، وقف رجل عجوز تحسبه قساً انجليزياً، محولاً بأي عرفقيه حركات أشبه بحركات البطة. وكان قد قضى ليلته ـ وهو في سن الثانية بعد الخمسين ـ خارج منزله لأول مرة، فلم يجرؤ على الرجوع إليه، خوفاً من زوجته، وهكذا أخذ يقضي لياليه منذ ثمانية أشهر في تلك النوادي الليلية عاجزاً عن تنظيف علاقاته. فكان يعبر ثيابه الداخلية ـ بين سارتين ـ في محلات القمصان الصينية. وثمة رجال الأعمال الذين يواجهون الافلاس، والراقصات والعاهرات، جميع أولئك الذين

يعرفون أنهم مهددون ـ ثبتوا أنظارهم على هذا الشبح، وكأنه وحده الذي يستطيع أن يمنعهم من السقوط في هوة العدم. فإذا حان الفجر سعوا للنوم، وقد طحنهم الارهاق، في الوقت الذي تبدأ فيه من جديد، جولة اخلاء في المدينة الصينية. ولم يكن هناك في تلك الساعة، غير رؤوس مجزورة في الأقفاص السوداء، ورؤوس يسح شعرها في المطر.

ـ « ... كالقرود، يا صديقتي العزيزة. سوف نلبسهم ثياباً كالقرود ».

وكان الصوت المهرج الذي يستوحي « القراقوز » ـ يبدو منبعثاً من أحد الأعمدة. ولم يكن يتنافر مع جو المكان. هذا الصوت الأخنف المرير ـ المنعزل في صمت حافل بقعقعة الزجاجات فوق رأس القس المخبول: لقد كان الرجل الذي يبحث عنه « كيو » موجوداً.

شاهده حين دار حول العمود القائم في مؤخرة القاعة حيث صُفّت ـ بعضها وراء بعض ـ الموائد التي لا تشغلها الراقصات. وفوق خليط من الظهور والنحور الملفوفة في ركام من الأسمال الحريرية، كان مهرج نحيف غير محدودب الظهر، يتلاءم مظهره مع صوته، يلقي خطابه موجهاً إلى امرأة روسية وأخرى فلبينية مولدة تجلسان إلى مائدته. وكان يتحدث واقفاً وبكل عضلات وجهه، وقد ألصق مرفقيه إلى جسده، وجعل يلوح بيديه، تعوقه في ذلك هذه الحركات ملفعة من الحرير الأسود تغطي عينه اليمنى التي كانت مصابة بلا شك. وربما كان ما يرتديه البارون كلابيك ـ وقد كان يلبس هذه الليلة بذلة « سموكنج » ـ فإنما يبدو عليه مظهر من يريد التنكر. وقرر « كيو » ألا يقترب منه في هذا المكان، وآثر أن ينتظره حتى يخرج.

ـ تماما يا صديقتي العزيزة. تماماً! سيدخل تشانج ـ كاي ـ شيك هنا مع ثواره صائحاً ـ بأسلوب كلاسيكي... أقول لك. بأسلوب كلاسيكي! على النحو الذي يصيح به عندما يستولي على المدن : « اخلعوا على هؤلاء التجار أمامي ثياب القرود، وعلى هؤلاء الجنود ملابس الهنود (كما يحدث حين يجلسون على أرائك طليت بدهان لم يجف)! والصعد ـ يا صديقتي العزيزة ـ إلى السفن الامبراطورية، كأننا آخر أمير من أسرة « ليتج » ـ ولتأمل الضحايا الذين ارتدى كل منهم ـ للترويح عنا ـ لون خرقته من أزرق وأحمر وأخضر ـ ووضعوا ضفائر وشراريب، لا تتفوهي بكلمة واحدة... يا صديقتي العزيزة... بكلمة واحدة، أقول لك؟ ».

ثم همس كمن يفضي بسر :

ـ الموسيقى الوحيدة المسموح بها هي موسيقى الأعراس الصينية ».

ـ « وماذا أنت صانع، وسط هذا كله ؟ ».

فأجاب متأوهاً، متنحياً:

ـ «كيف؟ ألا تستطيعين أن تحمي يا صديقتي العزيزة؟ سأكون منجم البلاط، وسألقى مصرعي ذات ليلة وأنا أسعى مخموراً إلى الإمساك بالقمر في بركة ماء ـ لعلها هذه الليلة؟».

ثم بلهجة متعالية:

ـ «... كالشاعر «تو ـ فو»، الذي تسحر أعماله بكل تأكيد

ـ لا تتفوهي بكلمة، انني على يقين من ذلك ـ أماكنَ الفارغة.. وفضلاً عن ذلك...

وانطلقت صفارة سفينة حربية فملأت القاعة.. وسرعان ما امتزجت بها طرقات الصنوج الثائرة، وبدأ الرقص من جديد. وكان البارون قد جلس، واستطاع «كيو» أن يظفر من خلال الموائد وأزواج الراقصين بمائدة خالية وراء مائدة البارون بمسافة قريبة. وطغت الموسيقى على كل ضجة، ولكنه بعد أن اقترب من كلابيك، استطاع أن يسمع صوته من جديد. وكان البارون يداعب المرأة الفلبينية ولكنه ظل يتحدث إلى الراقصة الروسية ذات الوجه النحيف الذي تحتله بأكمله عينان فقط.

ـ «... من المؤسف يا صديقتي عزيزة، أنه لم يعد للناس خيال. من حين إلى آخر..» وهنا يرفع سبابته ويواصل حديثه ثانياً: «يبعث وزير أوروبي إلى زوجته طرداً بريدياً، وتفتح الزوجة الطرد ـ لا تتفوهي بكلمة ـ» ويضع سبابته على شفتيه: «.. فاذا برأس عشيقها.. ويدور الحديث عن هذا الموضوع ثلاثة أعوام متعاقبة!».

ثم يقول بصوت المفجوع: «شيء مؤثر يا صديقتي العزيزة.. شيء مؤثر! انظري إليّ، أترين رأسي؟ هذا ما أدت إليه عشرون سنة من الخيال الوراثي.. إنه يشبه مرض الزهري،

ـ لا تتفوهي بكلمة!».

ويتخذ صوته لهجة الأمر: «يا ولد! شمبانيا لهاتين السيدتين، ولي». ثم يعود صوته وكأنه يهمس بسر: «كأس صغيرة من المارتيني».

ويصطنع القسوة: «جاف جداً».

(وحدث كيو نفسه قائلاً: «إذا افترضت أسوأ الفروض، مع وجود هذا البوليس، فقد بقيت أمامي ساعة كاملة.. ولكن، أيطول الأمر أكثر من ذلك؟»).

وضحكت الفلبينية، أو تظاهرت بالضحك، بينما حاولت الروسية أن تفهم بكل عينيها. واستمر كلابيك في الإتيان بحركاته وإشاراته، مستخدماً سبابته وكأنها كائن حي، قاسياً في لهجته الآمرة، داعياً إلى الانتباه عند الافضاء بسر. وأوشك «كيو» ألا يسمعه. ذلك أن حرارة الجو كانت تخدر حواسه، وبالاضافة إليها قلق خفي تفتح في هذا الليل

تحول إلى تعب مختلط.. هذه الاسطوانة، وصوته الذي لم يتعرف عليه، منذ لحظة، عند ملرليش. كان يفكر بنفس القلق المعقد الذي انتابه وهو طفل أثناء تأمله للوزتيه، بعد أن استأصلها الجراح.. ولكنه عجز عن متابعة فكرته.

وصاح البارون وهو يغمز بجفنه المكشوف، وملتفتاً صوب المرأة الروسية:

«وباختصار... كان يملك قصراً في شمال المجر».

ـ «وهل أنت مجري؟».

ـ «كلا.. إنني فرنسي (وهو شيء يؤسفني يا صديقتي العزيزة.. يؤسفني أشد الأسف!) غير أن والدتي كانت مجرية».

«وهكذا.. كان جدي العجوز يسكن هناك قصراً.. له قاعات واسعة.. واسعة جداً ـ تحت أرضه دفن أجدادي. وحوله أشجار الشربين.. كثير من أشجار الشربين... أرمل. كان يعيش وحيداً، مع بوق صيد هائل معلق على المدفأة.. وذات مرة، أقبل سيرك.. ومعه فارسة.. جميلة..».

واستأنف يقول بلهجة فخمة: «أقول.. إنها جميلة». ثم غامزاً بعينه مرة أخرى: «خطفها.. ولم يكن الأمر صعباً.. وحملها إلى إحدى تلك الغرف الواسعة...».

ويسترعي الانتباه، رافعاً يده: «لا تتفوهي بكلمة!... إنها تعيش هناك.. باستمرار.. «أصابها السأم.. وأنت أيضاً يا صغيرتي» ـ (ويدغدغ المرأة الفلبينية) ـ «ولكن صبراً، فانه فضلاً عن ذلك لم يبذل أي جهد لتسليتها: إذ كان يقضي نصف فترة ما بعد الظهر في تقليم أظافر يديه وقدميه بواسطة حلاقه الخاص (كان لديه أيضاً حلاق ملحق بالقصر) بينما كان سكرتيره ـ وهو ابن عبد قذر ـ يقرأ له، ويقرأ ـ بصوت مرتفع ـ تاريخ الأسرة... عمل ساحر ـ يا صديقتي العزيزة ـ وحياة كاملة! وفضلاً عن ذلك، فقد كان مخموراً بوجه عام ـ أما هي...».

وهنا تساءلت الروسية: «فوقعت في غرام السكرتير؟».

ـ «رائعة.. هذه الصغيرة.. را ـ ئعة! يا صديقتي العزيزة، أنت رائعة. فراسة عظيمة!».

ولثم يديها.

«غير أنها كانت تضطجع مع مقلم أظافر القدمين، لأنها لم تقدر ـ كما تقدرين ـ ثقافة العقل. ثم لاحظت أن الجد العجوز يضربها.. لا تتفوهي بكلمة، لا جدوى: هكذا افترقا.

«وطفق الرجل المهجور، يجول في قاعاته الفسيحة (وأسلافه يرقدون دائماً تحت أرضها)، موهداً هذين الصعلوكين اللذين جعلا منه أضحوكة، بينما كان هذان الأبلهان

يتلهان عرضه ما طاب لها النوم في أحد فنادق الأقاليم الصغيرة كتلك التي يصفها جوجول، حيث إبريق ماء مشروخ في الغرفة، والعربات في الفناء. وأنزل بوق الصيد الهائل من مكانه على المدفأة. ولكنه لم يستطع أن ينفخ فيه. فبعث وصيفه يهيب بالفلاحين إلى حمل السلاح (وكانت لا تزال له حينذاك حقوق) وسلّح الفلاحين: كان لديه خمس من بنادق الصيد، وغدارتان.. ولكن، يا صديقتي العزيزة كان عددهم أكثر من اللازم!»

«لهذا حملوا كل ما في القصر من متاع.. وشرع أولئك التعساء في المسير. تصوري.. أقول لك.. تصوري.. مسلحين بسيوف قصيرة، وبالقربينات، وبالبنادق القديمة.. وبأي شيء آخر.. بالمعاول(١)، وبآلات أخرى غريبة الشكل، وعلى رأسهم جدّي متجهين صوب البندر.. الانتقام يتعقب الجريمة.. وانتشر خبر هذه الحركة، وسرعان ما وصل الخفراء ومعهم بعض رجال البوليس. فيا لها من لوحة رائعة!»

- «وبعد؟».

- «لا شيء. جردوهم من أسلحتهم. ونجح جدّي مع ذلك في الوصول إلى المدينة. غير أن المجرمين كانا قد رحلا عن فندق جوجول بأقصى سرعة، في عربة من تلك العربات المتربة. واستبدل جدي لاعبة السيرك بفلاحة، ومقلم الأظافر بمقلم آخر للأظافر، وراح يتعاطى الخمر مع سكرتيره.. وكان يعمل من حين إلى آخر.. في وصية من وصاياه الصغيرة...»

- «ولمن أوصى بأمواله؟»

- «هذه مسألة لا أهمية لها يا صديقتي العزيزة.. ولكنه عندما مات»، وهنا اتسعت حدقتا البارون، ثم قال:

«... اتضح كل شيء.. كل ما كان يدور برأسه - ذلك النبيل السكير - أثناء تقليم أظافره، وقراءة كتب الأنساب! ونفذت وصيته، ودفن تحت أرض الكنيسة، في فجوة هائلة.. واقفاً فوق جواده المقتول، مثل اتيلا...»

وانقطعت جلبة الجاز.. وواصل كلابيك حديثه، ولكنه كان في هذه المرة أقل ميلاً إلى التهريج، وكأنما خفف السكون من شعوذته:

«حين مات أتيلا، وضعوه فوق حصانه المشرئب، فوق الدانوب، وألقت الشمس الغاربة منه ظلاً هائلاً عبر السهل، جعل الفرسان يولون الأدبار مذعورين، كما يتطاير الغبار...»

(١) سيوف عريضة.

وأصابته نوبة من الشرود بفعل أحلامه وبفعل الخمر والسكون المباغت. وكان كيو يعرف ما ينبغي أن يعرض عليه من اقتراحات، ولكنه لم يكن يعرفه جيداً - كما يعرفه والده - وبخاصة في هذا الدور الذي يقوم به. واستمع إليه نافذ الصبر (فبمجرد أن تخلو مائدة أمام البارون سينتقل إليها، ويومىء إليه بالخروج، إذ لم يكن يريد أن يبادره بالحديث أو أن يناديه نداء ظاهراً)، ومع ذلك فإن شعوره لم يكن خالياً من حب الاستطلاع. وكانت المرأة الروسية هي التي تتحدث الآن بصوت متئد مبحوح - وربما كانت تهذي من فرط السهاد:

- «كان أبو جدّي يملك هو أيضاً مزارع جميلة.. وقد هاجرنا بسبب الشيوعيين. أليس كذلك؟ وحتى لا نكون مع الناس جميعاً، ولكي نكون محترمين، أما هنا فنجلس ثلاثين على المائدة الواحدة، وننام أربعة في الحجرة الواحدة! أربعة في الحجرة الواحدة.. وفوق ذلك لا بد من دفع الإيجار.. محترمين... ليت الخمر على الأقل لا يسبب لي مرضاً!..»

وتأمل كلابيك كأسه: لم يكن قد شرب منها شيئاً يذكر. أما الفليبينية، فعلى العكس، كانت هادئة تصطلي كالقطة في حرارة النشوة الخفية التي سرت فيها. لا خير في أن يلقي إليها بالاً. فالتفت إلى الروسية:

- «أليس معك نقود؟».

فهزت كتفيها. وهنا نادى الساقي، وأخرج ورقة ماليه من فئة المائة دولار.. وحين أعاد الساقي بقية النقود، أخذ منها عشرة دولارات، وأعطى الباقي للمرأة، فنظرت نظرة محددة كليلة، وقالت: «طيب» ثم نهضت. فقال البارون: «كلا».

وكان منظره منظر كلب وفيّ يبعث على الرثاء.

- «كلا.. ذلك قد يضايقك هذه الليلة».

وكان ممسكاً بيدها، فنظرت إليه مرة أخرى وقالت: «أشكرك».

ثم قالت في تردد: «ومع ذلك، اذا كان يسرك..»

- «سوف أكون أشد سروراً بهذا يوم لا أملك من المال شيئاً..»

وعاد الهرج فيه إلى الظهور:

- «ولن يتأخر ذلك طويلاً».

وضم احدى راحتيها إلى الأخرى، ثم لثمها عدة مرات، وخرج به كيو - الذي كان قد دفع حسابه - في الدهليز الخالي

ـ « فلنخرج معاً .. هل تريد ؟ » .

فنظر إليه « كلايبك » وتعرف عليه، وقال: « أنت هنا ؟ شيء عجيب ولكن.. »

وكف عن هذا التلعثم بأن رفع سبابته قائلاً: « لقد فسقت أيها الشاب ! »

ـ « فليكن ! »

وكانا قد خرجا فعلاً. وعلى الرغم من أن المطر قد انقطع، إلا أن الماء كان حاضراً في الجو حضور الهواء.. وسارا بضعة خطوات فوق حصباء الحديقة.

قال كيو: « في الميناء سفينة مشحونة بالأسلحة.. »

وتوقف « كلايبك ». وكان ينبغي على كيو أن يستدير إليه، بعد أن تقدم إلى الأمام خطوة. وكاد وجه البارون ألا يبين في الظلمة، غير أن القطة الكبيرة المضيئة شعاراً للحانة أحاطت برأسه كالهالة:

قال: « هي شانغ ـ تونغ ! »

وكانت العتمة ووقفته بحيث يولي الضوء ظهره، لا يتيحان له التعبير عن شيء، فلم يضف شيئاً.

واستطرد كيو قائلاً: « لقد قدمت الحكومة عرضاً: ثلاثون دولاراً للمسدس الواحد. ولم يصل إليها الرد بعد، ولكني حصلت على مشتر يدفع خمسة وثلاثين دولاراً، علاوة على ثلاثة دولارات عمولة والتسليم فوراً في الميناء.. حيثما يريد القبطان، على شرط أن يكون ذلك في الميناء. ويستطيع أن يغادر مرساه حالاً ويتم التسليم الليلة، مع دفع النقود. وقد وافق مندوبه. وهذا هو العقد ».

وناوله الورقة، وأشعل قداحته، وهو يحميها بيده.

وحدث كلايبك نفسه قائلاً وهو يتأمل العقد: إنه يريد أن يفسد الصفقة على المشتري الآخر.. قطع منفصلة، والحصول على خمسة دولارات عن كل سلاح. هذا واضح، ولكن ماذا يعنيني من هذا كله، إذا كنت سأحصل على ثلاثة دولارات لنفسي.

قال بصوت مرتفع: « اتفقنا.. وتترك لي العقد طبعاً ».

ـ « أجل، وهل تعرف القبطان؟ »

ـ « يا صديقي، هناك أشخاص أعرفهم معرفة أفضل من ذلك، ولكنني على كل حال، أستطيع أن أقول إنني أعرفه ».

ـ « من الممكن أن يرتاب في الأمر (وخاصة، وهو موجود في مكانه ذاك من النهر). تستطيع الحكومة أن تستولي على الأسلحة، بدلاً من أن تدفع، أليس كذلك؟ »

ـ « مطلقاً ! »

وعاد مهرجاً مرة أخرى. غير أن كيو كان ينتظر الجزء التالي من كلامه. فماذا يملك القبطان حتى يستطيع أن يمنع رجاله هو (لا رجال الحكومة) من الاستيلاء على الأسلحة؟ واستطرد « كلايبك » قائلاً بصوت مكتوم:

ـ « لقد بعث هذه الأشياء مورّد رسمي، وإني لأعرفه ».

ثم بلهجة المتهكم: « إنه خائن.. »

ورن الصوت رنيناً غريباً في الظلام، إذ لم يصاحبه أي تعبير بالوجه.. لقد صدر عنه وكأنه يطلب كأساً من الكوكتيل:

ـ « إنه خائن حقيقي. عالي الخيانة! إذ يمر هذا كله عن طريق مفوضية تقوم.. لا تتفوه بكلمة! سأتولى هذا الموضوع. ولكن ذلك سيكلفني أولاً مبلغاً حسياً أدفعه لسيارة الأجرة: فالسفينة بعيدة!.. ولم يبق معي.. »

وفتش في جيوبه، فلم يجد ورقة مالية واحدة، واستدار لكي يسقط عليها ضوء اللافتة.

« عشرة دولارات، يا عزيزي! هذا لا يكفي، وسأشتري حالاً من عمك « كاما » بعض لوحاته بلا شك من أجل فيرال، ولكن في هذه الأثناء... »

ـ « خمسون.. أيكفيك هذا؟ »

ـ « هذا أكثر مما ينبغي.. »

وأعطاه كيو النقود.

ـ « ستخطرني في منزلي حالما ينتهي الأمر ».

ـ « اتفقنا ».

ـ « في ظرف ساعة؟ »

ـ « أكثر من ذلك، على ما أظن. ولكن حالما أستطيع ».

وبنفس اللهجة التي قالت بها الروسية هذه العبارة « لو أن الخمر لا يسبب لي مرضاً »، وبنفس الصوت تقريباً، كأنما استولى ذلك اليأس بعينه على كل من في هذا المكان، قال « أليس هذا كله عجباً؟.. » وابتعد، خافض الأنف، محني الظهر، عاري الرأس، وقد وضع يديه في جيبي الأسموكنج.

واستدعى كيو سيارة أجرة، قادته إلى حدود منطقة الامتيازات. عند أول زقاق في المدينة الصينية، حيث كان قد تواعد مع « كاتوف ».

* * *

وصل « كاتوف » ـ بعد أن ترك كيو بعشر دقائق ـ وصل إلى حجرة بيضاء عارية من الأثاث، تضيئها إضاءة حسنة مصابيح ـ العاصفة، وذلك بعد أن اجتاز دهاليز، وعبر أبواباً، ولم تكن ثمة نوافذ. وتحت ذراع الرجل الصيني الذي فتح له الباب، شاهد خمسة رؤوس منكبة على المائدة، ولكنها تركز نظراتها عليه، على قوامه الفارع الذي تعرفه فرق الهجوم جميعاً: ساقان متباعدتان، وذراعان متأرجحتان، وصديري غير مقفل في أعلاه، وأنف مشرع في الهواء، وشعر غير ممشط. وكانوا يفحصون قنابل يدوية من أحجام مختلفة. إنها فرقة « تشون » tchon إحدى منظمات القتال الشيوعية التي أنشأها هو وكيو في شنغهاي.

وسأل باللغة الروسية: « كم تطوع من الرجال؟ »

ـ « مائة وثمانية وثلاثون ». وكان الشخص الذي أجابه أصغر شاب صيني من الموجودين.. مراهقاً ذا رأس صغير، تبرز في عنقه « تفاحة آدم » بروزاً واضحاً، وله كتفان متهدلتان، وقد ارتدى ثياب العمال.

ـ « لا بد لي من اثني عشر رجلاً هذه الليلة ».

وكانت كلمة « لا بد » تتردد على لسان كاتوف بكل اللغات التي يعرفها.

ـ « متى؟ »

ـ « الآن ».

ـ « هنا؟ »

ـ « كلا، أمام حوض السفن ين ـ تانج ».

وألقى الرجل الصيني بضعة تعليمات، فغادر المكان واحد من الرجال.

وقال الرئيس: « سيكونون هناك قبل الساعة الثالثة ».

وكان يبدو بوجنتيه الغائرتين وجسمه الطويل الهزيل، شديد الضعف، غير أن التصميم الذي يشع في لهجته، وثبات عضلات وجهه، كانا يشهدان بإرادة مستندة تمام الاستناد على الأعصاب.

وسأل كاتوف: « والتعليمات؟ »

ـ « فيما يتعلق بالقنابل اليدوية، تم كل شيء.. ويعرف الرفاق الآن أنواع قنابلنا. أما بالنسبة للمسدسات ـ من طرازي ناجان ومويزر على الأقل ـ فستسير الأمور على ما يرام أيضاً. وقد جعلتهم يعملون بخراطيش فارغة، ولكن يجب أن يطلقوا رصاصات حقيقية، حتى ولو كان ذلك على غير هدف.. وهناك من عرض علي أن يعيرنا كهفاً مأموناً تماماً ».

وأثير هذا السؤال نفسه، في كل حجرة من الحجرات الأربعين التي تعد فيها الثورة.

ـ « لا وجود للذخيرة، ولعلها تصل. أما في اللحظة الحاضرة، فلا داعي للحديث عنها. والبنادق؟ »

ـ « ستصل هي أيضاً. وإنما المدفع الرشاش هو الذي يقلقني، إذ لم نتدرب قليلاً على إطلاق الرصاص الحي ».

وكانت « تفاحة آدم » ترتفع وتنخفض تحت جلده، في كل إجابة من إجاباته. ومضى قائلاً: « ولكن، ألا توجد وسيلة للحصول على مزيد من الأسلحة؟ سبع بنادق، وثلاثة عشر مسدساً، واثنتان وأربعون قنبلة يدوية محشوة، هذا معناه أن نصف الرجال لا يملكون أسلحة على الإطلاق ».

ـ « سنمضي لنأخذها ممن يملكونها. وربما استطعنا أن نحصل على المسدسات حالاً. وإذا تم لنا ذلك غداً، فكم من الرجال في قسمك لن يعرفوا استخدام أسلحتهم النارية؟ »

وفكر الرجل هنيهة، وقد أصغى عليه الانتباه استغراقاً تاماً. وقال كاتوف لنفسه: « إنه مثقف ».

ـ « حين نستولي على بنادق رجال البوليس؟ »

ـ « لا بد من ذلك ».

ـ « أكثر من النصف ».

ـ « والقنابل اليدوية؟ »

ـ « الجميع يستطيعون استخدامها، وبصورة جيدة جداً. ولدي هنا ثلاثون رجلاً يمتون بصلة القرابة إلى الذين عُذّبوا في فبراير.. إلا إذا.. »

وتردد، ثم ختم جملته بحركة غامضة.. وكانت يده مشوهة، ولكنها مرهفة.

ـ « إلا إذا..؟ »

ـ « إلا إذا استخدم هؤلاء الأوغاد الدبابات ضدنا ».

ونظر الرجال الستة إلى كاتوف، فأجاب: « لا أهمية لذلك. وعليك أن تأخذ قنابلك اليدوية، وأن تربط كل ست منها معاً. وأن تدسها تحت الدبابة، ولن تلبث أن تتطاير في الهواء بعد ثوان. وإذا ساءت الأمور فإنكم تستطيعون أن تحفروا حفراً في اتجاه واحد، على الأقل. ألديكم أدوات؟ »

ـ « قليلة جداً. ولكني أعرف أين نستولي عليها ».

ـ « حاول أن تستولي أيضاً على الدراجات. فإذا بدأت الثورة، ينبغي على كل قسم أن يكون لديه مندوب اتصال، بالإضافة إلى مندوب مركز القيادة ».

ـ « وهل أنت على ثقة من أن الدبابات سوف تنفجر ؟ »

ـ « تماماً ! ولكن لا تشغل بالك بهذه المسألة . لأن الدبابات لن تغادر الجبهة . وإذا غادرتها ، فسوف أحتضر مع فريق خاص . هذا شأني » .

ـ « وإذا بوغتنا ؟ » .

ـ « من الممكن رؤية الدبابات عن بعد : ولدينا مراقبون إلى جوارنا . فاحلل أنت حزمة من القنابل اليدوية ، وأعط واحدة لكل شخص من الثلاثة أو الأربعة أشخاص الذين نعتمد عليهم كل الاعتماد » .

وكان رجال هذا القسم يعرفون جميعاً أن كاتوف ـ الذي حكم عليه بالنفي عقب مسألة أوديسا ـ في معتقل للأشغال الشاقة أقل قسوة من سواه ـ قد طلب أن يرافق عن طيب خاطر بعض أولئك التعساء الذين أرسلوا إلى مناجم الرصاص ليقوم بتعليمهم . كانوا يثقون به ، ولكنهم ما برحوا قلقين . ولم يكونوا يخشون البنادق أو المدافع الرشاشة ، ولكنهم كانوا يخافون الدبابات . إذ يعتقدون أنهم عزل في مواجهتها . بل حتى في هذه الحجرة التي لم يكن فيها غير متطوعين ، وكلهم أقارب الأشخاص الذين عذبوا ـ كانت الدبابة في نظرهم وريثة قوة الشياطين .

واستأنف « كاتوف » الحديث قائلاً : « لا تخشوا شيئاً من مجيء الدبابات ، فسوف نكون لها بالمرصاد » .

ولكن ، كيف يخرج عقب هذا القول الذي لا يجدي فتيلاً ؟ وكان قد قام ـ بعد الظهر ـ بالتفتيش على خمسة عشر قسماً ، ولكنه لم يلتق بالخوف .. ولم يكن هؤلاء الرجال أقل شجاعة من الآخرين ، ولكنهم أكثر دقة في التفكير . وكان يعلم أنه لن يستطيع تخليصهم من خوفهم ، وأن التشكيلات الثورية خليقة بأن تلوذ بالفرار أمام الدبابات ، فما عدا الخبراء الذين يتولى هو قيادتهم . وكان من المحتمل ألا تستطيع الدبابات مغادرة الجبهة ، ولكنها إذا وصلت إلى المدينة ، فإنه يكون من المحال حينئذ إيقافها بواسطة حفر في تلك الأحياء التي تقطعها أزقة كثيرة .

قال : « لن تغادر الدبابات الجبهة على الإطلاق » .

وسأله أصغر شاب صيني بين الموجودين : « ولكن ، كيف نحزم القنابل اليدوية معاً ؟ » .

وأخذ « كاتوف » يشرح له الطريقة ، وخف جو التوتر ، وكأن هذه العملية اليدوية ضمان النصر ضد الطوارئ المقبلة . واستغل « كاتوف » هذه الفرصة للانصراف ، ولكنه ما ... [illegible] أن نصف الرجال لا يعرفون استعمال أسلحتهم ، ولكنه يستطيع ـ على الأقل ـ أن

نعتمد على أولئك الذين شكل منهم فرقاً للقتال ، وكلفهم بتجريد البوليس من سلاحه غداً . ولكن ماذا بعد غد ؟ إن الجيش يتقدم ويقترب ساعة بعد أخرى ، ويعتمد على قيام المدينة بالثورة . وربما استولى فعلاً على المحطة الأخيرة . وحين يعود كيو ، سيعرفان ذلك بلا شك من أحد مراكز الاستعلامات . أما تاجر المصابيح فلم يصل إلى علمه شيء منذ الساعة العاشرة .

وانتظر « كاتوف » برهة في الزقاق ، دون أن يكف عن المشي . وأخيراً وصل كيو ، فأطلع كل منهما الآخر على ما فعل . واستأنفا سيرهما في الوحل بحذاءيهما المصنوعين من المطاط الثقيل : كيو ، صغيراً مرناً كالقط الياباني ، وكاتوف ، مؤرجحاً كتفيه ، ومفكراً في الجنود الذين يتقدمون ـ ببنادقهم اللامعة من جراء المطر ـ نحو شنغهاي المتوهجة في أعماق الليل . وكان كيو يريد بدوره أن يعرف ما إذا كان هذا الزحف قد أوقف .

أما الزقاق الذي مضيا يسيران فيه ، وهو أول زقاق في المدينة الصينية ـ فكان بسبب مجاورته للمنازل الأوربية ـ هو زقاق تجار الماشية . وكانت الحوانيت كلها مغلقة ، ولم يكن ثمة حيوان واحد في الخارج ، وما من صوت يعكر صفو السكون بين نداءات الصفارة وقطرات المطر الأخيرة التي تتساقط في برك المياه من سقوف المنازل ذات القرون . كانت الحيوانات نائمة . ودلفا إلى أحد هذه الحوانيت بعد أن طرقا بابه . إنه حانوت أسماك حية . وكان الضوء فيه قاصراً على شمعة غرست في حامل ، ينعكس ضوؤها الخافت على الجرار المشعة المرصوصة كأنها جرار « علي بابا » ، وفيها ترقد أسماك الشبوط الصينية الشهيرة دون أن يمسها العين .

سأل كيو : « غداً ؟ » .

ـ « غداً ، الساعة الواحدة » .

في مؤخرة الحانوت ، خلف منضدة الحساب ، كان يرقد شخص غير واضح المعالم على ذراعه المثنية . إنه لم يكد يرفع رأسه لكي يجيب . لقد كان هذا الحانوت أحد المراكز الأربعة والعشرين التي يستخدمها الكومنتانج لنقل الأخبار .

ـ « وهل تقرر ذلك رسمياً ؟ » .

ـ « أجل . الجيش قد وصل الآن إلى تشنج ـ تشيو . والإضراب العام عند الظهيرة » .

ولم يسمع شيء في الظلال ، ولم يبد التاجر الراقد في مؤخرة حانوته الصغير أية حركة ، وإنما بدا السطح المشع الذي تؤلفه تلك الجرار يهتز اهتزازاً خفيفاً ، وصعدت أمواج رخوة سوداء منحنية في هدوء ... ذلك أن رنين الأصوات أيقظ الأسماك النائمة ... ودوت صفارة مرة أخرى ، ولكنها لم تلبث أن تبددت في الأفق البعيد .

وحرجا، واستأنفا سيرهما، دون أن يتجاوزا شارع الجمهوريتين. واستدعيا سيارة أخرى، انطلقت في الحال بأقصى سرعة كما تنطلق السيارات في الأفلام. وانحنى «كاتوف» الذي كان يجلس على اليسار، ونظر إلى السائق بانتباه.

– «إنه من مدمني الأفيون.. وا أسفاه! إنني مصر على ألا أقتل قبل مساء الغد. تمهل.. يا بني!».

قال كيو: «وعلى هذا سيتولى كلاييك إحضار الزورق، ويستطيع الرفاق الذين يعملون بمخازن مهمات الحكومة أن يزودونا بثياب رجال البوليس....».

– «لا داعي لذلك. فلدي أكثر من خمس عشرة حلة بالمخزن».

– «فلنأخذ رجالك الاثني عشر في الزورق البخاري».

– «يستحسن ألا نكون معهم....».

ونظر إليه كيو دون أن يقول شيئاً.

– «ليس الأمر شديد الخطورة، ولكنه ليس يسيراً كل اليسر، كما ترى. إنه أخطر من الركوب مع هذا السائق المعتوه الذي يوشك أن يستأنف إسراعه. وليس هذا هو الوقت المناسب لمصرعك».

– «ولا لمصرعك أنت أيضاً».

– «ليس الأمر سواء، فمن الممكن أن يحل مكاني أحد سواي الآن.... فاهم... وأفضل أن تهتم أنت بسيارة النقل التي سوف تنتظر، وبتوزيع الأسلحة».

وتردد، وقد أصابه الارتباك، ووضع يده على صدره، وقال لنفسه: «ينبغي أن أدعه يفكر في الأمر ملياً». ولم يتفوه كيو بشيء. وواصلت السيارة انطلاقها بين صفين من الأضواء التي غشيها الضباب. ولم يكن ثمة شك في أنه أنفع من كاتوف: فاللجنة المركزية تعرف تفاصيل خططه كلها، ولكن بالأرقام، أما هو فقد كان يحيا هذه التفاصيل، وكانت المدينة تسري مسرى الدماء في عروقه، وكأن مواطن ضعفها هي جروحه الخاصة. ولم يكن بين رفاقه من يستطيع أن يتصرف بمثل سرعته وسداده.

قال: «اتفقنا».

وأخذت الأضواء تتكاثر شيئاً فشيئاً... وظهرت من جديد السيارات المصفحة في مناطق الامتيازات، ثم خيمت الظلمة مرة أخرى.

ووقفت السيارة، ونزل منها كيو.

قال كاتوف: «إني ذاهب لإحضار الثياب وسأصحبك حين يتم الاستعداد».

* * *

كان كيو يقطن مع أبيه منزلاً صينياً لا يعدو الطابق الأرضي، ويتألف من أربعة أجنحة تحيط بحديقة. واجتاز الجناح الأول ثم الحديقة، ودلف إلى قاعة قد زينت جدرانها البيض على اليمين وعلى اليسار، رسوم ترجع إلى عهد أسرة سونج[1] song وعقارات زرقاء على طريقة شاردان[2]، وفي المؤخرة تمثال لبوذا من أسرة «واي» منحوت على الطراز الروماني، ومتكآت نظيفة، ومنضدة للأفيون. وبدت النوافذ خلف كيو عارية كنوافذ المرسم. وما كاد والده يسمع صوته، حتى دخل. لقد كان يعاني منذ عدة سنوات من داء الأرق، فلم يكن يغفو أكثر من بضع ساعات عند الفجر، ولهذا كان يرحب مسروراً بكل ما يمكن أن يملأ ليله.

– «مساء الخير يا أبتاه... سوف يأتي تشن لزيارتك».

– «جميل».

ولم تكن ملامح «كيو» هي ملامح أبيه، ومع ذلك، كان يبدو أن دماء والدته اليابانية كانت كافية لتخفيف صرامة رأس الراهب المتنسك الذي يحمله «جيسور» العجوز – وهي صرامة أبرزها هذه الليلة رداؤه المصنوع من وبر الإبل – لتحيل ابنه وجه مقاتل من «الساموراي».

– «هل حدث له شيء؟».

– «أجل».

ولم يوجه سؤالاً آخر. وجلس الاثنان. ولم يكن «كيو» يشعر بالنعاس، فأخذ يقص على والده قصة «كلاييك» دون أن يذكر شيئاً عن الأسلحة. ولم يكن ذلك لأنه لا يثق بوالده، وإنما حرصه على أن يكون المسئول الوحيد عن مصيره، فما كان يطلع أحداً على أكثر من مجمل لأفعاله. ومع أن هذا الشيخ – أستاذ علم الاجتماع بجامعة بكين الذي طرده «تشانج – تسو – لين» بسبب تعاليمه – قد شكل أفضل إطار ثوري في الصين الشمالية، إلا أنه لم يكن يشارك في العمل الثوري نفسه. وما أن يلج كيو هذا المكان حتى يشعر أن إرادته

---

(1) هي الأسرة المالكة الصينية التاسعة عشرة، وقد حكمت من سنة ٩٦٠ م إلى سنة ١٢٨٠ م. (المترجم)

(2) مصور فرنسي ١٦٩٩ – ١٧٧٩، يعد من أعظم المصورين الفرنسيين الواقعيين في القرن الثامن عشر. (المترجم)

تتحول إلى عقل، وهو شيء لا يكاد يحبه، فهو يهتم بالكائنات بدلاً من أن يهتم بالقوى. ولأنه كان يتحدث عن كلابيك إلى أبيه الذي يعرفه معرفة طيبة، فقد بدا له البارون أشد غموضاً من الشخص الذي كان ينظر إليه منذ لحظة.

ـ «... وانتهى به الأمر إلى أن طلب مني خمسين دولاراً...»

ـ «إنه لا يريدها لنفسه، يا كيو...»

ـ «ولكنه كان قد أنفق لتوه مائة دولار: شاهدته يفعل ذلك بعيني رأسي. إن جنون الكذب شيء محير دائماً».

وكان يريد أن يعرف إلى أي مدى يستطيع أن يواصل استخدام كلابيك. أما والده فكان ـ كعهده دائماً ـ يبحث عما في الرجل من صفات جوهرية أو فريدة. غير أنه من النادر أن تجعل رجلاً ما يتصرف مباشرة بوحي من أعمق شيء فيه، وكان كيو يفكر في غداراته.

ـ «إذا كان في حاجة إلى الاعتقاد بأنه غني، فلماذا لا يحاول أن يغتني؟»

ـ «لقد كان أكبر تاجر للتحف في بكين...»

ـ «لماذا ينفق إذن كل أمواله في ليلة واحدة، إن لم يكن ذلك لإيهام نفسه بأنه غني؟»

واختلجت عينا جيسور، وألقى بشعره الأبيض الطويل إلى الوراء، واتخذ صوته ـ على الرغم مما يشيع فيه من وهن الشيخوخة ـ طابعاً واضح المعالم كالخط المنتمي:

ـ «إن جنونه بالكذب وسيلة لإنكار الحياة... لا النسيان أليس كذلك؟ ويحسن بك ألا تثق في مثل هذه المسائل...»

وبسط كفه في حركة مضطربة، وكانت إيماءاته القصيرة لا تتجه يميناً أو يساراً، وإنما تتجه أمامه: كان يبدو أن حركاته التي يكمل بها جملة ما لا تنحي شيئاً، وإنما تقبض على شيء.

ـ «كان يبدو عليه وكأنه يريد أن يثبت لنفسه ليلة أمس أن الثراء لا وجود له، على الرغم من أنه قد عاش ساعتين كما يعيش الأثرياء... ولأنه في هذه الحالة لا يعود للفقر وجود أيضاً. وهذا هو جوهر الموضوع. لا وجود لشيء. وما الأشياء كلها غير حلم. ولا تنس الخمر الذي يساعده...»

وابتسم جيسور. وكانت ابتسامة شفتيه الهزيلتين، بطرفيها المتهدلين، تعبر عنه تعبيراً أدق من الكلمات التي ينطق بها. وكان قد راض عقله منذ عشرين عاماً على محبة الناس بالتماس المعاذير لهم، ولهذا كانوا يقدرون عطفه، دون أن يفطنوا إلى أن هذا العطف إنما

يضرب بجذوره في الأفيون. وبينما كانوا يرون في حلمه سجية من سجايا البوذيين، كان هذا الحلم في الواقع هو حلم مدمني الأفيون.

أجاب كيو: «لا يستطيع إنسان أن يواصل الحياة إذا أنكرها».

ـ «إنها طريقة سيئة للحياة. ولكنه في حاجة إلى أن يحيا حياة سيئة».

ـ «فهو مضطر إلى ذلك».

ـ «اضطراراً من صنع تجارة التحف، وربما المخدرات، وتهريب الأسلحة بالتواطؤ مع البوليس الذي يمقته بالطبع، ولكنه يتعاون في هذه الأعمال الصغيرة كنوع من الجزاء العادل...»

ولم يكن لذلك خطر في رأي البوليس، الذي كان يعلم أن الشيوعيين لا يملكون ما يكفي من المال لشراء الأسلحة ممن يستوردونها في الخفاء.

قال كيو: «إن لكل إنسان نوع الألم الذي يلائم طبيعته. ولكن ما الذي يجعله يتعذب؟»

ـ «لم يعد لألمه من الأهمية، أو من المعنى ـ أليس كذلك؟ ـ ولا من العمق ما يفوق أكاذيبه أو سروره، إنه يخلو تماماً من كل عمق، وربما كان هذا ما يصوره أحسن تصوير، لأنه شيء نادر. وهو يفعل ما في وسعه من أجل ذلك، ولكنه يحتاج إلى مواهب... وحين لا تكون مرتبطاً بشخص ما يا «كيو» فلا بد من أن تفكر فيه لكي تتنبأ بأفعاله، وأفعال كلابيك...»

وأشار إلى حوض الأسماك، حيث كانت تصعد وتهبط كيفما اتفق أسماك الشوط السوداء، الرخوة، المدببة الأطراف كأعلام القتال.

ـ «ها هي ذي... إنه يشرب الخمر، ولكنه خلق لتعاطي الأفيون، فالناس يخطئون أحياناً في انتقاء رذائلهم، وكثير منهم لا يلتقون بالرذيلة التي يمكن أن تنقذهم. شيء مؤسف، لأنه أبعد من أن يكون بلا قيمة. غير أن محاله لا يعنيك».

وكان هذا حقاً. لقد كان «كيو» إذا انقطع هذه الليلة عن التفكير في القتال فإنه لم يكن يستطيع أن يفكر إلا في نفسه. سرى فيه الدفء شيئاً فشيئاً، كما حدث له ذلك في «القط الأسود» منذ لحظة. ومن جديد، استولى عليه خاطر الأسطوانة الملح، كما يمشي وقع الراحة الخفيف في ساقيه. وقص على والده ما أحس به من دهشة أمام الأسطوانات، غير أن قصته كانت توحي بأن الأمر يتعلق بتسجيل من تلك التسجيلات التي تتم في المحلات الانجليزية. وأنصت إليه جيسور، وهو يربت على ذقنه المدببة بيده اليسرى

وكانت يداه بأناملها النحيلة بديعتين جداً. وكان قد أمال رأسه إلى الأمام، فسقط شعره على عينيه رغم اتساع جبينه. ولكنه لم يلبث أن أزاحه بحركة من رأسه دون أن يفارق الشرود نظراته.

- «لقد تصادف أن وجدت نفسي أمام مرآة. فلم أتعرف على نفسي...»

وكان يدلك بإبهامه أصابع يده اليمنى تدليكاً رقيقاً، وكأنه ينثر مسحوقاً من الذكريات. وكان يتحدث إلى نفسه، متعقباً فكره، دون أن يدخل في حسابه وجود ابنه:

- «لا شك أنها مسألة وسائل: فنحن نسمع صوت الآخرين بآذاننا».

- «وصوتنا؟».

- «عن طريق الحلق: فإنك إذا سددت أذنيك، سمعت صوتك. والأفيون ينتمي هو أيضاً إلى عالم لا نسمعه بآذاننا...» ونهض كيو، دون أن يلحظه أبوه.

- «ينبغي أن أخرج مرة أخرى هذه الليلة».

- «هل أستطيع أن أفيدك بشيء يتعلق بكلاييك؟».

- «كلا... أشكرك... نعمت مساء».

- «نعمت مساء».

* * *

انتظر «كيو» راقداً في محاولة لتخفيف إحساسه بالتعب. لم يوقد ضوءاً، ولم يتحرك من مكانه. ولم يكن يفكر في الثورة، وإنما الثورة التي تحيا في كثير من الرؤوس كما يحيا النوم في رؤوس أخرى - هي التي كانت تجثم عليه بحيث لم يعد سوى قلق وانتظار. مجموع المدققات أقل من أربعمائة... إنه النصر، أو الرمي بالرصاص، مع بعض التجويد! غداً... كلا: في الحال. مسألة سرعة: تجريد البوليس من سلاحه، وتسليح فرق القتال بخمسمائة مسدس موزر قبل أن يتدخل الجنود الذين يحملهم القطار الحكومي المصفح. من المقدر أن تبدأ الثورة في الساعة الواحدة - والإضراب العام، بالتالي، عند الظهر. فينبغي أن يتسلح الشطر الأكبر من فرق القتال قبل الساعة الخامسة. أما الجماهير فكانت على أهبة الاستعداد. وليس من شك أن نصف رجال البوليس الذين يعانون هم أنفسهم من شظف العيش، سينضمون إلى الثوار. ويبقى النصف الآخر. وجال في خاطره: «الصين السوفيتية...» الاعتراف بكرامة قومه، ورفع تعداد الاتحاد السوفيتي إلى ستمائة مليون نسمة. وسواء أكان النصر أم الهزيمة... فإن مصير العالم يحوم الليلة بالقرب من هذا المكان... اللهم إلا إذا حاول الكومنتانج - بعد الاستيلاء على شنغهاي - أن يسحق حلفاءه الشيوعيين... وقفز من مكانه: ها هو باب الحديقة يفتح... وطغت الذكرى على القلق... أهي زوجته؟ وأرهف سمعه... أغلق باب المنزل ثانية. لقد دخلت «ماي». كان معطفها المصنوع من الجلد الأزرق الذي يكاد يشبه معاطف العسكريين يضاعف من طابع الرجولة في مشيتها، بل وفي ملامحها: فم واسع، وأنف قصير، ووجنتان ناتئتان تميزان أهل شمال ألمانيا.

- «هل سيبدأ كل شيء حالاً، يا كيو؟

- «أجل».

كانت طبيبة بأحد المستشفيات الصينية، ولكنها كانت قادمة من هيئة النساء الثوريات التي كانت تشرف على إدارة مستشفاها السري.

- «إنه دائماً نفس الشيء كما تعلم: فقد تركت لتوي صبية في الثامنة عشرة من عمرها حاولت أن تنتحر بحد الموسى في محفة العرس، إذ أرغمها أهلها على الزواج من حيوان محترم. وحملوها إلى المستشفى في ثوب الزفاف الأحمر الذي لطخته الدماء، وسارت وراءها أمها أشبه بطيف قزم صغير، تنتحب بالطبع. وحين أخبرتها بأن الفتاة لن تموت قالت لي: «يا للمسكينة الصغيرة!» ومع ذلك فقد سنحت لها فرصة الموت...» فرصة... إن هذه الكلمة تقول وحدها أكثر مما تقوله خطبنا جميعاً عن حالة النساء هنا...».

كانت ألمانية الأصل، ولكنها ولدت في شنغهاي، وتخرجت في الطب من هيدلبرج وباريس، وتتحدث اللغة الفرنسية دون أن تشوبها أية لكنة. وألقت بقلنسوتها على السرير. وكان شعرها المتموج مرسلاً إلى الوراء، حتى يسهل تمشيطه. وراودته رغبة في أن يربت على شعرها. وكان لجبينها العريض طابع رجولي أيضاً، غير أنها منذ أن كفت عن الحديث - ولم تحول «كيو» عنها نظراته - عاودتها الأنوثة أولاً: لأن تخليها عن الإرادة أضفى على قسماتها شيئاً من الوداعة، وثانياً: لأن التعب أرخى عضلاتها، وثالثاً لأنها خلعت غطاء رأسها. وتشع الحياة في محياها فم شهواني، وعينان واسعتان، شفافتان، صافيتان إلى درجة أن نفاذ نظراتها لا يبدو صادراً عن حدقتيها، بل عن الظل الذي يلقيه جبينها على محجريها الضاويين.

واجتذب الضوء كلباً بكينياً أبيض، أثيل يخب في مشيته، فداعبته قائلة بصوت مكدود: «أيها الجرو، ذو الشعر الكثيف المهفهف الغزير».

أمسكت به بسراها، ورفعته إلى وجهها تعانقه، وقالت باسمة:

- «أيها الأرنب... المتأرنب...».

قال كيو: «إنه يشبهك».

- «أليس كذلك؟».

ونظرت في المرآة إلى الرأس الأبيض الملتصق برأسها، فوق أقدام صغيرة متقاربة. لقد صدر ذلك الشبه الطريف بينهما عن وجنتيها الجرماليتين البارزتين. وعلى الرغم من أنها لم تكن جميلة إلا لماماً، فقد تذكر تلك التحية التي ألقاها عطيل بعد أن أدخل عليها شيئاً من التعديل: «يا فارستي العزيزة».

ووضعت الكلب على الأرض، ثم نهضت، ولم معطفها نصف المفتوح عن نهدين كاعبين يذكران المرء بوجنتيها. وقص عليها «كيو» ما حدث له تلك الليلة.

وأجابت: «استقبل المستشفى هذا المساء ما يقرب من ثلاثين فتاة من هيئة الدعاية، استطعن الهرب من الجنود البيض... جريحات. وما زال المستشفى يستقبل المزيد منهن. وتقول الفتيات إن الجيش قريب جداً... وأن هناك كثيراً من القتلى...»

ـ «ونصف الجرحى سيموتون... لا يمكن أن يكون للألم معنى إلا حين لا يؤدي إلى الموت، وإنه ليؤدي إليه دائماً».

واستغرقت ماي في التفكير. ثم قالت أخيراً: «أجل. ومع ذلك ربما كانت هذه الفكرة من أفكار الرجال. أما بالنسبة لي... أنا المرأة، فإن الألم ـ وهذا شيء غريب ـ يجعلني أفكر في الحياة أكثر مما أفكر في الموت... ربما بسبب أوجاع الولادة».

واستغرقت مرة أخرى في التفكير: «كلما زاد عدد الجرحى، واقتربت الثورة كثرت المضاجعة».

ـ «هذا واضح».

ـ «ينبغي أن أخبرك بشيء، ربما ضايقك قليلاً...»

وكان يتكىء على مرفقه، فنظر إليها متسائلاً. وكانت ذكية جريئة، ولكنها تفتقر في كثير من الأحيان إلى اللباقة.

ـ «لقد انتهى بي الأمر إلى مضاجعة «لنجلين» بعد ظهر اليوم».

وهز كتفيه وكأنه يريد أن يقول: «هذا شيء يعنيك وحدك». غير أن حركته، والتعبير المتوتر المرتسم على وجهه، لم يكونا ملائمين لعدم الاكتراث هذا. وسددت إليه بصرها، تلوح عليها علامات الإرهاق الشديد، وقد بالغ في إبراز خديها ما يسقط عليها من ضوء عمودي. ونظر بدوره في عينيها المحتجبتين في الظل، الخاليتين من أية نظرة، ولم يقل شيئاً. وسأل نفسه: ألا يمكن أن يكون التعبير الشهواني الذي يتسم به وجهها ناشئاً عن التقابل القائم بين عينيها هاتين المحجوبتين، واكتناز شفتيها اكتنازاً خفيفاً، وبين سمنة ملامحها... هذا التقابل الذي يؤكد أنوثتها تأكيداً عنيفاً. جلست على السرير وأمسكت يده. وكاد يسحبها، ولكنه استسلم لها. غير أنها أحست بحركته.

ـ «أيؤلمك هذا؟»

ـ «قلت لك إنك حرة». وأضاف في مرارة: «فلا داعي لأن تطلبي ما هو أكثر من ذلك».

ودلت الجرو على السرير، فسحب يده، ربما لكي يربت عليه. وأعاد قوله: «أنت حرة. وكل ما عدا ذلك قليل الأهمية».

ـ «ومع ذلك، فقد كان ينبغي أن أخبرك... ولو كان ذلك من أجل راحة نفسي».

ـ «نعم».

أما أنه كان من واجبها أن تخبره، فأمر لم يكن يشك فيه أحدهما. وأحس برغبة في أن ينهض فجأة. فإن وضعه وهو راقد على هذا النحو، وهي جالسة على سريره كأنه مريض يسهر عليه... ولكن، لأية غاية؟ لقد بات كل شيء بلا جدوى... ومع ذلك، واصل النظر إليها، واكتشف أنها تستطيع أن تعذبه، ولكنه أحس أيضاً منذ شهور أنه سواء نظر إليها أم لم ينظر، فإنه لم يعد يراها... وقد يرى أحياناً بعض التعبيرات المرتسمة على وجهها... أما ذلك الحب العنيف الذي كثيراً ما كان يوحد بينهما كالطفل المريض، وهذا المعنى المشترك لحياتيهما وموتيهما، وهذا الاندماج الجسدي بينهما... فلم يعد لشيء من هذا وجود إزاء المصير المحتوم الذي تبهت دونه الصور التي نشعث بها أنظارنا. وساءل نفسه: «ألعلي أحبها أقل مما أظن؟» كلا... فحتى في هذه اللحظة كان واثقاً من أنها لو قضت نحبها، فإنه لن يخدم قضيته كما يخدمها الآن مجافياً الأمل، بل مجبراً بأسه، وكأنه ميت هو أيضاً. غير أن شيئاً لن يحول دون زوال لون هذا الوجه المدفون في أعماق حياتهما المشتركة، كأنما يكتنفه الضباب، أو يطويه الثرى. وتذكر صديقاً قدر عليه أن يشهد أفول عقل المرأة التي يحبها بعد أن أصيب بالشلل عدة شهور، وخيل إليه أنه يشهد «ماي» وهي تموت على هذا النحو، وأنه يشهد اختفاء صورة سعادته اختفاء لا مبرر له، كما تتلاشى سحابة في السماء الرمادية. كأنها ماتت مرتين، مرة بفعل الزمن، ومرة بفعل الاعتراف الذي أفضت به إليه.

ونهضت من مكانها، ثم سارت حتى بلغت النافذة. كانت تسير بخطوات ثابتة رغم ما تعانيه من إرهاق. وآثرت بدافع من الخوف والحياء العاطفي ممتزجين ألا تعاود الحديث عن الاعتراف الذي أدلت به منذ لحظة، ما دام هو قد التزم الصمت. آثرت أن تنسحب تلك الحادثة التي كانت تشعر مع ذلك أنها لن يسقطها نسيانها. فحاولت أن تعبر عن حنانها بأن تقول أي شيء ولو كان تافهاً، فعمدت ـ بوحي من غريزتها الأنثوية ـ إلى الإهابة بروح الطبيعة فيها. ففي مواجهة النافذة كانت شجرة من أشجار مارس قد تفتحت أثناء

الليل، وكان نور الحجرة يسطع على أوراقها التي ما زالت منكمشة بحيث تعلو خضرة رقيقة جسمها المعتم. وقالت:

- «لقد أخفت أوراقها في جذعها خلال النهار، وها هي ذي تخرجها الليلة بينما لا يراها أحد».

وكانت يبدو كأنها تناجي نفسها، ولكن هيهات أن يخفى على «كيو» معنى النغمة التي شاعت في صوتها.

قال دون أن يفتح ما بين فكيه: «كنت تستطيعين اختيار يوم آخر».

وكان يرى نفسه هو أيضاً في المرآة متكئاً على مرفقه: وجه ياباني صميم بين هذه الملاءات البيضاء. «لو لم أكن مولداً..» ويبذل مجهوداً عنيفاً لكي يطرد الأفكار الحاقدة أو الوضيعة المتأهبة لتبرير غضبه واشتعاله. ونظر إليها، وأطال النظر، وكأنما يريد - بقسوة الألم الذي يحسه - أن يعيد إلى هذا الوجه ما فقده من نضارة.

- «ولكن اليوم - يا كيو - هو اليوم الذي تصبح فيه هذه المسألة بالذات شيئاً لا أهمية له.. و...».

وكادت تضيف: «وما أشد ما كان اشتهاؤه!». وفي مواجهة الموت، يهون ذلك، ولكنها قالت: «... وأنا أيضاً، يمكن أن أموت غداً...».

هذا أفضل. وكان كيو يعاني أشد الآلام إذلالاً للنفس: الألم الذي يحتقر المرء نفسه لأنه يعانيه. لقد كانت في الواقع حرة في أن تضاجع من تشاء من الرجال.. فما مصدر هذا العذاب الذي لا يعترف له بحق واحد عليه، بينما يستأثر دونه بكل تلك الحقوق؟

- «وحين فهمت يا كيو أنني متمسكة بك، سألتني ذات يوم - وربما لم يكن ذلك بطريقة جدية تماماً - إذا كنت أعتقد أنني أستطيع الذهاب معك إلى معسكر الاعتقال، فأجبتك بأنني لا أدري، وأن العسير في المسألة هو بلا شك البقاء في ذلك المكان.. ومع ذلك، فقد جال بخاطرك أنني أستطيع أن أفعل ذلك، ما دمت أنت أيضاً تتمسك بي... فلماذا تنصرف الآن عن ذلك الاعتقاد؟».

- «ذلك أن الذين يذهبون إلى معسكر الاعتقال أشخاص معينون. كاتوف يمكن أن يذهب، حتى ولو كان يحب حباً عميقاً.. إنه يذهب من أجل فكرته عن الحياة.. وعن نفسه.. والمرء لا يذهب إلى معسكر الاعتقال من أجل شخص ما».

- «يا لها من أفكار تنتمي إلى عالم الرجل وحده.. يا كيو!».

وطفق يفكر، ثم قال: «ومع ذلك، فأن يحب الإنسان أولئك الذين يستطيعون أن

يفعلوا ذلك، أو أن يحظى بحبهم، ماذا ينتظر الإنسان من الحب أكثر من ذلك؟ يا له من جنون أن يحاسبهم بعد هذا على سلوكهم! وحتى لو فعلوا ذلك بدافع من أخلاقهم...».

قالت في لهجة متئدة: «ليس ذلك من أجل الأخلاق.. فإنني لن أكون قادرة بكل تأكيد أن أفعل ذلك في سبيل الأخلاق».

وقال هو أيضاً بلهجة متمهلة «غير أن هذا الحب لم يمنعك من مضاجعة ذلك الشخص، مع أنك كنت تدركين - كما قلت منذ لحظة - أن هذا العمل سوف يثير ثائرتي؟».

- «كيو، سأقول لك شيئاً غريباً، ولكنه صادق مع ذلك.. كنت أعتقد منذ خمس دقائق فحسب، أن الأمر سواء لديك. وربما لأن هذا الاعتقاد كان يريحني. ثمة نداءات - وخاصة حين يكون المرء قريباً إلى هذا الحد من الموت (وإنه لموت الآخرين الذي اعتدت على مواجهته حتى الآن يا كيو..) ... لا علاقة لها بالحب...».

وعلى الرغم من هذا كله، فقد كانت الغيرة موجودة، وربما كانت أدعى للحيرة بقدر ما كانت الشهوة الجنسية التي أثارتها في نفسه قائمة على الحنان. كانت عيناه مغمضتين، وقد استند على مرفقه، وحاول - ويا لها من عملية تعسة! أن يفهم. ولم يكن يسمع سوى أنفاس «ماي» المبهورة وأخاديش مخالب الكلب الصغير. إن جرحه راجع أولاً (ثمة جروح أخرى - وا أسفاه! كان يشعر بها متوارية داخل نفسه كزملائه الذين يتوارون خلف الأبواب التي ما زالت موصدة) إلى تفكيره في أن الرجل الذي ضاجع «ماي» (لا أستطيع أن أدعوه مع ذلك عشيقها) يضمر لها الاحتقار. وكان هذا الرجل زميلاً من زملاء ماي فيما مضى، أما هو فلم يكن يعرفه تقريباً، وإنما كان يعرف العداوة التي يضمرها جل الرجال للنساء. «إن فكرة أن هذا الرجل قد ضاجعها، ونتيجة لأنه ضاجعها يستطيع أن يقول عنها: «هذه العاهرة الصغيرة...» هذه الفكرة تجعلني أود قتله. أو لن نغار أبداً إلا مما نفترض أن الآخر يفترضه؟ يا لها من إنسانية بائسة!» ولم يكن الجنس بالنسبة لماي، علامة على ارتباطها بشيء. وهذا ما كان ينبغي أن يعرفه ذلك الشخص. فليضاجعها - هذا شيء مفروغ منه - ولكن لا يتخيلن أنه بهذا يملكها. «لقد أصبحت مثاراً للرثاء..» ولكنه كان عاجزاً عن مقاومة مشاعره.. وكان يعلم أن هذا ليس هو الشيء الجوهري. فالشيء الجوهري والذي كان يعذبه إلى درجة القلق، هو أنه قد انفصل عنها فجأة.. لا بالبغض.. وإن يكن في نفسه كثير من البغض - ولا بالغيرة «أو لعل هذه هي الغيرة نفسها؟» وإنما شعور لا اسم له.. شعور يحمل من التدمير ما يحمله الزمان أو الموت: إنه لا يستطيع أن يستردها. وفتح عينيه مرة أخرى.. أي كائن بشري هذا الجسد الرياضي المألوف، وهذا الوجه الغائب؟ عين مسحوبة تبدأ من الصدغ ثم تغوص بين الجبهة السافرة

وبين الوحدة. أهي المرأة التي ضاجعت لتوها رجلاً؟ أو ليست هي أيضاً تلك التي كانت تحمل ضعفاته وآلامه، وسخطه، المرأة التي عالجت معه رفاقه الجرحى، وسهرت معه في حضرة أصدقائه الموتى.. إن عذوبة صوتها ما زالت تشيع في الجو.. إننا لا نشتهي ما نريد نسيانه. ومع ذلك فقد اتخذ هذا الجسد مرة أخرى طابع السر المؤلم لكائن نعرفه لم يلبث أن تحول فجأة. فبدا لنا أصم ضريراً مجهولاً... تلك كانت امرأة. لا نوعاً من جنس الرجال.. وإنما شيء مختلف...

لقد أفلتت منه تماماً. ولعل ذلك ما جعله يشعر بنداء مهتاج إلى الاتصال بها اتصالاً قوياً. وهذا النداء كان يحمي بصيرته، ولكن نتائجه ما تكون: فزع.. صرخات.. ضربات.. فنهض، واقترب منها. كان يعلم أنه اجتاز أزمة نفسية، وأنه ربما لم يفهم غداً شيئاً مما يعانيه اليوم، ولكنه كان في مواجهتها وكأنه ازاء شخص يحتضر. ولهذا كانت غريزته تدفعه نحوها.. فالمرء يريد أن يلمس وأن يحس، وأن يحتفظ بأولئك الذين يرحلون عنه، وأن يتعلق بهم... ونظرت إليه في قلق، وهو يقف على بعد خطوتين منها. وأخيراً فطن - في ومضة خاطفة - إلى ما يريده.. إنه يريد أن ينالها، وأن يلوذ بهذا من الدوار الذي يفقدها فيه بأكملها... وما كان على كل منهما أن يعرف صاحبه حين يستخدمان كل قواهما في احتضان جسديهما بأذرعهما.

واستدارت بغتة، فقد دق الجرس. لم يحن بعد موعد مجيء كاتوف. فهل افتضح أمر الثورة؟ تلاشى في عنف كل ما دار بينهما من حديث، وما عانياه من الألم، وما أحياه، وما أنعشاه. ودق الجرس من جديد. فتناول مسدسه المدسوس تحت الوساد، واجتاز الحديقة، وفتح الباب وهو يرتدي (البيجاما): لم يكن كاتوف، وإنما كان «كلابيك» ببدلته السموكنج دائماً ولم يبرحا الحديقة.

- «ماذا وراءك؟»

- «أريد - قبل كل شيء أن أعيد إليك وثيقتك: ها هي ذي. كل شيء على ما يرام.. السفينة قد رحلت، وستلقي مرساتها في مقابل القنصلية الفرنسية، قريباً من الضفة الأخرى للنهر»

- «وهل هناك أية متاعب؟»

- «لا تتفوه بكلمة. الثقة القديمة، وإلا، لأمكن أن تتساءل كيف كان من الممكن أن يحدث ذلك. ففي هذه المسائل تكبر الثقة أيها الشاب بقدر ما تقل دواعيها...»

- «تلمح؟»

أشعل كلابيك لفافة تبغ، ولم ير «كيو» غير ملفعة الحرير الأسود، بقعة على وجه

بهم.. وذهب لاحضار محفظته. وكانت ماي تنتظر.. ثم عاد كيو ودفع للبارون عمولته التي تم الاتفاق عليها. ووضع البارون الأوراق النقدية في جيبه دون أن يعدها، ثم قال:

- «إن الطيبة تجلب الحظ السعيد. وإن قصة ليلتي يا صديقي - قصة أخلاقية رائعة: ذات بالاحسان، وختمت بالثراء. لا تتفوه بكلمة!»

ومال على كيو، رافعاً سبابته:

- «فانتوماس يحييك»، ثم دار على عقبه، وانصرف.

وكأنما كان «كيو» يخشى العودة إلى الداخل، فتعقبه ببصره وهو ينصرف وقد راح «الاسموكنج» يترنح بحذاء الحائط الأبيض، وقال لنفسه: «إنه في الواقع يشبه فانتوماس في هذه الحلة.. على حين، أو افترض أن...»

وتناهى الى كيو صوت سعال، سرعان ما عرف صاحب هذا الصوت فقد كان ينتظره: إنه كاتوف. الكل يسرعون هذه الليلة.

كان كاتوف يسير في وسط الطريق، وربما كان ذلك لكي تصعب رؤيته، غير أن كيو خمن سيره، أكثر من أن يراها، وهناك في الظلمة، كان أنفه المشرع في الهواء، وقد أحس خاصة بتأرجح ذراعيه. واتجه صوبه وسأله كما سأل كلابيك من قبل: «ماذا وراءك؟».

- «كل شيء على ما يرام، والسفينة؟»

- «في محاذاة القنصلية الفرنسية، بعيدة عن رصيف الميناء.. في بحر نصف ساعة».

- «إن الزورق البخاري والرجال على بعد أربعمائة متر من ذلك المكان.. هيا بنا».

- «والملابس؟»

- «لا تشغل بالك بها. إن الرجال على أهبة الاستعداد تماماً».

دخل المنزل، وارتدى ملابسه في خفة قصيرة: سروال وصديري من الصوف، وحذاء من المطاط (فربما أرغمته الظروف على التسلق) وصار على أهبة الاستعداد.. ومدت إليه ماي شفتيها، وكانت نفس كيو تريد تقبيلها.. أما فمه - فلا، وكأنما قد احتفظ هذا الفم في استقلال - بشيء من الحقد.. وأخيراً، قبلها، قبلة مرتبكة. فنظرت إليه في حزن [illegible]، ومالت عيناها الشاحبتان بالظلال أن أصبحتا معبرتين تعبيراً قوياً حين [illegible] على عضلات وجهها.. ورحل.

[illegible] مرة أخرى إلى جانب كاتوف، ومع ذلك لم يستطع أن يتخلص من التفكير فيها [illegible] في [illegible] خطة صوتية أو [illegible].. [illegible] أستطيع أن أعرف عنها [illegible] لا

الرفقة الا [illegible] ما [illegible] ، الا في اتجاه حبي لها . وصدق أبي حين قال إننا لا نملك من [illegible] لنا [illegible] إلى نعبره فيه ... وماذا بعد ؟ ، وغاص في قرارة نفسه ، كما [illegible] في ذلك الزقاق الذي أخذت عتمته تشتد شيئاً فشيئاً ، حتى لم تعد عوازل أسلاك [illegible] على صفحة السماء . وعاوده القلق وتذكر الأسطوانات ! ، إننا نسمع صوت الآخرين [illegible] ، ونسمع صوت أنفسنا بواسطة حلقنا ، أجل .. وحياتنا أيضاً نسمعها عن طريق الحلق ، أما حياة الآخرين ؟ .. كانت هناك الوحدة قبل كل شيء - الوحدة الثابتة وراء [illegible] . كالليل النهائي العظيم الذي يكمن وراء هذه الليلة الكثيفة الواطئة التي [illegible] تحتها المدينة الموحشة الخافقة بالأمل والبغض . « فأنا ، بالنسبة لنفسي ، للحديث الذي يسمعه الحلق ، من أكون ؟ ضرب من التوكيد المطلق . التوكيد صادر عن مجنون ، [illegible] من توتر الباقين جميعاً . أما بالنسبة للآخرين ، فلست إلا ما فعلته ، ولم يكن - بالنسبة لماي وحدها - ما قام بفعله ، لقد كان - بالنسبة لها وحدها - شيئاً آخر غير تاريخ [illegible] . ولم يكن العناق الذي يبقي على العاشقين ملتصقين أحدهما بالآخر في مواجهة الوحدة . لم يكن هذا العناق يحمل إلى الرجل فيه أية معونة ، وإنما كان يحملها إلى المجنون [illegible] في نفسه ، إلى الوحش الفريد ، المفضل على كل شيء ، والذي يكونه كل إنسان بالنسبة إلى [illegible] ، ويعتز به في أعماق فؤاده . ومنذ أن توفيت والدته ، أصبحت « ماي » هي [illegible] الوحيد الذي لا [illegible] إليه باعتباره كيو جيسور ، وإنما الشريك الحميم ، وإنها [illegible] ، مكتسبة [illegible] بها الطرفان ، بهذا حدث كيو نفسه ، وهو في حالة من [illegible] مع الليل ، وكأن فكره لم يعد خليقاً بأن يعيش في النور . « والناس ليسوا [illegible] ، بل هم أولئك الذين ينظرون ويحكمون علي . إنما أشباهي أولئك الذين يحبونني ، [illegible] إلى ، يحبونني على الرغم من كل شيء ، يحبونني على الرغم من السقوط ، والخسة ، [illegible] ، يحبونني أنا نفسي ، لا ما صنعته ، أو ما سأصنعه ، أولئك الذين يحبونني إلى المدى الذي [illegible] نفسي ، حتى ولو أشرف في هذا الحب على الانتحار ، بما في ذلك الانتحار [illegible] وحدها التي أشاطرها هذا الحب المحترق أو غير المحترق ، كما يشترك الآخرون معاً في [illegible] بأطفالهم المرضى الذين يمكن أن يموتوا ... » لم تكن هذه هي [illegible] بكل تأكيد ، وإنما كان شيئاً بدائياً يتمشى مع الظلمات ، ويشيع في أوصاله دفئاً من [illegible] ، كما يلاصق الخد الخد ... الشيء الوحيد في نفسه الذي يعد قوياً [illegible] .

« [illegible] ، [illegible] لا [illegible] قد [illegible] أيامها »

* * *

الساعة الرابعة صباحاً

فرك جيسور العجوز قطعة الورق المهلهلة التي كتب عليها « تشن » اسمه بالقلم الرصاص ، ووضعها في جيب ردائه المنزلي . كان في لهفة إلى رؤية تلميذه القديم ثانية . وألقى نظرة أخرى على محدثه وكان شيخاً صينياً له رأس منتفخ من أعضاء « جمعية الهند » ، ويرتدي الثوب الفضفاض ، واتجه صوب الباب بخطوات قصيرة رافعاً سبابته ، ومتحدثاً بالانجليزية : « من المستحسن أن تخضع المرأة خضوعاً مطلقاً ، وأن يوجد التسري ، ونظام البغاء » .

« إنني سأواصل نشر مقالاتي . ولأن أجدادنا كانوا يفكرون على هذا النحو ، فقد وجدت هذه اللوحات الجميلة (وأشار بعينيه إلى العنقاء الزرقاء دون أن يحرك وجهه ، وكأنه يغمز إليها) التي نفخر بها ، وأفخر بها أنا أيضاً . إنما تخضع المرأة للرجل ، كما يخضع الرجل للدولة . غير أن خدمة الرجل أخف وطأة من خدمة الدولة . فهل نعيش عن لأنفسنا ؟ إننا لسنا شيئاً . وإنما نعيش للدولة في الوقت الحاضر ، ومن أجل الموتى الأمجاد عبر الأحقاب المتتابعة ... »

أين يرحل ؟ هذا الرجل المتشبث بماضيه - حتى في الوقت الحاضر (أفلا تكفي صفارات السفن الحربية لملء هذا الليل ؟) إنه في مواجهة الصين التي أغرقتها طوفانات من الدماء كهائلة [illegible] أثناء تقديم القرابين . قد اكتسب شاعرية بعض المجانين . الموتى الأمجاد هنا كل عقلية لا حصر لها في ثياب موشاة ، ضائعة في أعماق الزمن في اجتماعات صامتة . وفي مواجهة « تشن » ومائتا ألف من عمال النسيج ، وجمهور الكادحين الساحق . خضوع النساء ؟ لقد كانت « ماي » تروي كل ليلة قصص انتحار الفتيات المخطوبات ... ورحل الشيخ [illegible] « النظام ، يا سيد جيسور ... » قال ذلك بعد أن حياه - وانثنى برأسه وكتفه - تحية أخيرة .

وما أن تناهى إلى سمعه صوت إغلاق الباب ، حتى نادى على « تشن » ، وعاد معه إلى قاعة [illegible] .

أخذ « تشن » يذرع الحجرة جيئة وذهاباً . وفي كل مرة كان يعبر أمام الأريكة التي جلس عليها جيسور ، كانت صفحة وجهه الجانبية تذكر جيسور بصقر مصري من البرونز [illegible] ، [illegible] صورته جيداً « تشن » ، [illegible] ما بينهما من تشابه . وكان جيسور [illegible] ، مع ما يعبر عنه هاتان الشفتان [illegible] من طيبة . وناجى جيسور نفسه قائلاً : « [illegible] ، إنه أشبه بصقر عرش في قلعة الأوثان القديمة [illegible] الأسى » .

ووقف «تشن» إزاءه وقال: «أنا الذي قتلت تان ـ ين ـ تاه».

لقد لمح في نظرة جيسور شيئاً يكاد أن يكون حناناً. وكان يزدري الحنان، بل ويخاف منه. وكان رأسه الغائص بين كتفيه، والذي تجعله مشيته يميل إلى الأمام، وعظمة أنفه المقوسة قد أبرزا التشابه بين ملامحه وملامح الصقر، على الرغم من جسده المكتنز، بل إن عينيه الضيقتين، اللتين تخلوان تقريباً من الأهداب، تذكّران المرء بطائر من الطيور.

ـ «أمن هذا أتيت لتحدثني؟».

ـ «أجل».

ـ «وهل يعلم كيو بهذا؟».

ـ «نعم».

وأمعن «جيسور» في التفكير. وما دام لا يريد أن يجيب بأحكام سابقة تعارف عليها الناس، فليس في استطاعته إلا أن يؤيده فيما فعل. ومع ذلك، فقد كان يجد مشقة في هذا التأييد، وناجى نفسه قائلاً: «لقد هرمت».

وانقطع «تشن» عن المشي. وقال وهو يتفرس أخيراً في وجه جيسور: «إنني وحيد وحدة غير عادية».

وانتاب «جيسور» شيء من الاضطراب. ولم يكن تعلق «تشن» به هو موضع دهشته. فقد ظل أعواماً طويلة أستاذه بالمعنى الصيني للكلمة ـ أي أقل من أبيه، وأكثر من أمه. واحق أنه منذ وفاة والديه، كان جيسور هو الشخص الوحيد الذي يحتاج إليه تشن، بيد أن الشيء الذي لم يفهمه، هو أن تشن الذي التقى هذه الليلة ـ بلا شك ـ بقومه من الإرهابيين، ما دام قد التقى بكيو ـ كان يبدو بعيداً عنهم كل البعد.

وسأله: «وماذا عن الآخرين؟».

ولاحوا مرة أخرى على صفحة ذاكرته، وهم جالسون في مؤخرة حانوت تاجر الاسطوانات، غارقين في الظلام، أو خارجين منه وفقاً لتأرجح المصباح، بينما كان الحد[illegible]

ـ «إنهم لا يعلمون».

ـ «لا يعلمون أنك أنت الذي فعلت ذلك؟».

ـ «إنهم يعلمون ذلك، غير أن هذا لا أهمية له على الإطلاق».

ولاذ بالصمت مرة أخرى. وتحاشى جيسور أن يستجوبه، وأخيراً استأنف تشن حديثه قائلاً: «إنهم لا يعلمون أن هذه هي المرة الأولى».

وأحس جيسور على حين غرة أنه فهم. وأدرك تشن ذلك فقال:

ـ «كلا... إنك لم تفهم».

وكان يتكلم الفرنسية بلهجة يؤكد فيها حلقه الكلمات ذات المقطع الأنفي الواحد، [illegible] أن تمتزج ببعض العبارات المحلية التي أخذها عن كيو. وكانت ذراعه اليمنى ممدودة [illegible] إلى جانبه. فأحس من جديد بالجسد المطعون الذي ردته الملة المرنة إلى الخنجر. ولم [illegible] لذلك أية دلالة.. فلسوف يعيد الكرة، ولكنه كان يلتمس ـ في أثناء ذلك ـ ملاذاً [illegible] إليه. وقد كان تشن يعرف أن «كيو» هو الشخص الوحيد الذي يحمل له [illegible] جيسور» تلك العاطفة العميقة التي لا تحتاج إلى أي تفسير. وكيف يمكن أن يشرح ما [illegible] في نفسه؟

ـ «إنك لم تقتل من قبل أي إنسان، أليس كذلك؟».

ـ «إنك لتعرف».

وكان هذا الأمر يبدو جلياً في نظر «تشن». ولكنه كان يرتاب اليوم في مثل هذه الأمور الجلية. ومع ذلك، فقد بدا له ـ فجأة ـ أن شيئاً ما ينقص جيسور.. ورفع عينيه. وكان هذا يصعد فيه بصره، وقد بدا شعره الأبيض أطول مما هو حقيقة بسبب تحرك رأسه إلى الوراء. وأدهشه عجزه عن التلويح بيديه أثناء الحديث. وكان هذا راجعاً إلى جرحه الذي لم يخبره «تشن» بشيء عنه. ولم يكن ذلك لأنه يتألم منه (فقد قام بتطهيره أحد رفاقه المرضين) ولكنه كان يعوقه عن الحركة. وكان «جيسور» يلف بين أصابعه لفافة تبغ وهمية كما هي عادته دائماً حين يستغرق في التفكير:

ـ «ربما».

وتوقف عن الكلام، وقد سدد عينيه الصافيتين المستقرتين في قناع فارس خليق من [illegible] المعبد... وانتظر تشن، وواصل جيسور حديثه في لهجة تكاد تكون وحشية:

ـ «لا أعتقد أن مجرد ذكر جريمة قتل كاف لأن يشيع الاضطراب في نفسك على هذا النحو».

وحاول تشن أن يقنع نفسه، بأن جيسور لا يدري تماماً ما يقول، غير أن «جيسور» [illegible] في الصميم. وجلس «تشن» وهو ينظر إلى قدميه، ثم قال: «لا أعتقد.. أنا أيضاً. إن مجرد الذكرى كافية.. ثمة شيء آخر، هو جوهر الموضوع والتي أعرف ما هو».

ـ «ألأنه يريد أن يعرف هذا الشيء، أقبل لزيارته؟»

وسأله جيسور : « أول امرأة ضاجعتها ، كانت عاهرة .. طبعاً ؟ » .
فأجابه « تشن » في شيء من الحقد : « إنني رجل صيني » .

وحدث جيسور نفسه قائلاً : « كلا » .. إن تشن لم يكن صينياً اللهم إلا فيما يتعلق بالناحية الجنسية فيه . فقد أثبت المهاجرون الذين تغص بهم شنغهاي من جميع البلاد .. أثبتوا لجيسور أنهم حين يحاولون الانفصال عن أمتهم فإنهم يفعلون ذلك بطريقة قومية . غير أن تشن لم يعد ينتمي إلى الصين حتى في طريقة تخليه عنها ؛ ذلك أن حرية كاملة قد أسلمته إلى فكرة تسليماً تاماً .

وسأله جيسور : « وماذا أحسست بعد ذلك ؟ » .

فأطبق تشن أصابعه وقال :

ـ « بالزهو » .

ـ « لأنك رجل ؟ » .

ـ « لأنني لست امرأة » .

ولم يعد صوته معبراً عن الحقد ، وإنما عن احتقار معقد .

واستطرد قائلاً : « أظن أنك تريد أن تقول إنه كان يجب أن أشعر بنفسي .. منفصلاً عنهم ؟ » .

وحافظ جيسور على صمته .

ـ « أجل . أحسست بذلك إحساساً رهيباً .. وأنت على حق في حديثك عن النساء . وربما كان المرء يحتقر من يقتله احتقاراً شديداً .. وإن يكن ذلك أقل من احتقاره للآخرين .. » .

وبحث جيسور عن المعنى ، دون أن يتأكد من أنه قد فطن إليه ، فسأله :

ـ « تقصد احتقاره لأولئك الذين لا يقتلون ؟ » .

ـ « أجل .. لأولئك الذين لا يقتلون .. صغار البراغيث » .

وعاد يذرع الحجرة من جديد ، وكانت الكلمتان الأخيرتان قد سقطتا وكأنهما عبء انتزع من صدره ، واتسع الصمت حولهما . وبدأ جيسور يشعر بدوره ـ دون أن يكون ذلك مصحوباً بحزنه ـ بالانفصال الذي تحدث عنه تشن . وتذكر بغتة أن « تشن » قد ذكر له مرة أنه يفزع من صيد الحيوانات .

ـ « ألم يتملكك الفزع من منظر الدماء ؟ » .

ـ « بلى .. ولكنه لم يكن الفزع (فحسب) » .

قال هذه الجملة وهو يبتعد عن جيسور ، ولكنه ، التفت إليه على حين غرة ، وسأله وهو يتأمل العنقاء ، وكأنه يحدق مباشرة في عيني جيسور :

ـ « وبعد ؟ إنني أعرف كيف أعاملهن حين يردن الاستمرار في امتلاكك ، أن تعيش معهن .. فهل ينطبق هذا على الموت ؟ » .

واستطرد قائلاً في مرارة أشد ، دون أن يحول عينيه عن العنقاء :

ـ « أهذا معاشرة أيضاً ؟ » .

وكانت طبيعة ذكاء جيسور تدفعه دائماً إلى المسارعة في معونة محدثيه ، وكان يحب تشن ، ولكنه بدأ يرى الموقف رؤية واضحة : إن العمل في جماعات الهجوم لم يعد كافياً لهذا الشاب ؛ فقد أضحى الإرهاب بالنسبة إليه غواية مستبدة .

وقال وهو يلف دائماً تلك اللفافة الوهمية ، وقد مال رأسه إلى الأمام وكأنه ينظر إلى السجادة ، وخصلة من شعره الأبيض ترف على أنفه النحيف .. قال مجتهداً في إعطاء صوته نبرة اللامبالاة :

ـ « أظن أنك لن تخرج أبداً من هذا المأزق ... » .

ولكنه لم يلبث أن فقد السيطرة على أعصابه ، فختم عبارته مستهزئاً :

ـ « خوفك من .. هذا .. القلق .. هو الذي دفعك إلى الالتجاء لي » .

وصمت ، وأخيراً قال تشن من بين أسنانه : « قلق ؟ كلا .. أيكون القدر ؟ » .

وصمت مرة أخرى . وأحس جيسور أنه لا يستطيع الاتيان بأية حركة وأنه لا يمكنه أن يأخذ بيده ، كما كان يفعل من قبل ، واستقر رأيه هو الآخر ، فقال بصوت مكدود ، وكأنه ... فجأة عادة القلق :

ـ « إذن ، فلا بد من التحكم في هذا القدر ، ودفعه إلى أقصى غايته .. وإذا أردت أن ... » .

ـ « ... » .

وتساءل جيسور : أليس هذا هو ما يريده بالذات ؟ إنه لا يطمع في أي مجد ، أو أية ... لقد كان قادراً على الانتصار ، ولكنه لا يملك القدرة على الحياة في انتصاره ، فما هذا الذي ... إلا أن لم ... الموت ؟ أليس من شك أنه يريد أن يضفي عليه المعنى الذي يضفيه الآخرون على الحياة . الموت في أسمى صوره ... نفس طموح ، واضحة الإدراك .

مستعصية إلى حد ما عن الناس أو لعلها من المرض بحيث تحتقر موضوعات طموحها جميعاً، بل طموحها نفسه؟

— إذا كنت تريد أن تعاشر .. هذا القدر . فليس أمامك غير سبيل واحد لذلك، هو أن تنقله إلى سواك».

وسأله «تشن»، وهو ما يزال يعض على أسنانه: «ومن هو الجدير بذلك؟».

وثقلت وطأة الجو أكثر فأكثر، وكأن كل ما استحضرته هذه العبارة من قتل، كان حاضراً .. ولم يعد «جيسور» قادراً على أن يقول شيئاً: إذ اتخذت كل كلمة رنيناً مزيفاً، طائشاً، سخيفاً.

قال تشن: «شكراً ..» وانحنى أمامه بنصفه الأعلى كله، على الطريقة الصينية (وهذا ما لم يفعله قط)، وكأنه قد آثر ألا يلمسه، وانصرف.

وعاد «جيسور» إلى مجلسه، وشرع يلف اللفافة الوهمية من جديد. ولأول مرة ألفى نفسه وجهاً لوجه لا إزاء الكفاح ـ وإنما أمام الدماء. وتذكر كيو كما هي عادته دائماً. إن كيو كان خليقاً بأن يجد هذا الكون الذي يتحرك فيه تشن خانقاً للأنفاس. وتكن. أكان هذا شيئاً مؤكداً؟ إن «تشن» يمقت الصيد أيضاً كما يفزع من منظر الدماء .. كل هذا كان من قبل. وعند هذا المدى من الأغوار، ماذا يعرف عن ابنه؟ حين لا يستطيع حبه أن يقوم بأي دور، وحين لا يستطيع أن يسترجع كثيراً من الذكريات. كان يعرف حقاً أنه قد انقطع عن معرفة كيو. وهزه شوق شديد إلى رؤيته .. رغبة شبيهة برغبتنا في رؤية أمواتنا المرة الأخيرة .. وكان يعلم أنه قد رحل.

فمن؟ إن حضور «تشن» ما زال يشيع الحياة في الحجرة. لقد ارتمى «تشن» في عالم ... ولن يخرج منه أبداً، وإنه ليدخل حياة الإرهاب ـ مما جبل عليه من عناد ـ وكأنه ... سجناً. ولن تنقضي سنوات عشر حتى يؤخذ ـ ليعذب أو ليقتل، وسيعيش حتى ... كما يعيش إنسان ممسوس هنيد، في عالم التصميم والموت. لقد كان يحيا من ... أفكاره. والآن، هذه الأفكار هي التي ستقتله

... هذا ما يتألم بسببه جيسور، فإن يتغمس كيو في القتل .. هذا هو دوره .. وإن لم ... الأمر كذلك، سيان: إن ما يفعله كيو يبرر نفسه. ولكنه كان مفزعاً بهذا الإحساس ... يقينه من حتمية القتل، ويمقعولها السام، في الوقت الذي يدرك فيه قلة حيلته إزاء هذا المفعول. ويشعر بأنه لم يستجب للمعونة التي طلبها «تشن» كما ينبغي أن ... الاستجابة، وبالوحدة التي تحيط بجريمة القتل ـ وبأن كيو قد ابتعد عنه، نتيجة لهذا القلق

ولأول مرة ارتبطت تلك العبارة التي كان يرددها في كثير من الأحيان «لا سبيل إلى معرفة الكائنات» ـ ارتبطت في ذهنه بوجه ابنه.

أكان يعرف تشن حقاً؟ إنه ما كان يعتقد قط أن الذكريات تسمح بفهم الإنسان. ... التربية الأولى التي تلقاها تشن. وكانت هذه التربية دينية. وحين بدأ يهتم بهذا المراهق ... الذي قتل أباه أثناء نهب مدينة كالجان ـ والذي كانت وقاحته وقاحة صامتة، كان ... قد تخرج من الكلية اللوثرية حيث كان تلميذاً لمدرس مثقف مصاب بداء الصدر تحول إلى ... في سن متأخرة. وكان يكافح في صبر ـ وهو في سن الخمسين للتغلب ـ بأعمال ... الإحسان ـ على حيرة دينية شديدة. وكان الخجل من الجسد. ذلك الخجل الذي كان ... عذاب القديس أغسطين ـ قد اشتد بهذا الراعي ـ الخجل من الجسد الساقط الذي لا ... الحياة فيه مع المسيح، وكذلك الفزع من مدنية الصين الخاضعة للطقوس التي تحيط ... التي جعلت نداء الحياة الدينية الصحيحة أشد إلحاحاً. واستطاع هذا الراعي ـ بما ... في نفسه من قلق ـ أن يصل في نهاية الأمر إلى تفسير للوثر كان يطلع عليه جيسور ... الآخر: «لا حياة إلا في الله، غير أن الإنسان ـ بارتكابه للخطيئة، قد بلغ ... من السقوط، وتدنس دنساً لا شفاء منه بحيث أصبح الوصول إلى الله ضرباً من ... ولهذا جاء السيد المسيح، وكان صلبه تكفيراً أبدياً». تبقى بعد ذلك مسألة النعمة ... أي الحب اللامحدود أو الخوف وفقاً لقوة الأمل أو ضعفه، وكان هذا الخوف ... جديدة. ويبقى الإحسان أيضاً، غير أن الإحسان لا يكفي دائماً لاستيعاب القلق.

وكان الراعي متعلقاً بـ «تشن»، ولم يخطر له أن عم تشن المتولي لأمره لم يبعث به إلى ... إلا لكي يتعلم الإنجليزية والفرنسية، وإنه قد حذره من تعاليمها، ومن فكرة ... بوجه خاص، تلك الفكرة التي كان يشك فيها هذا الكونفوشيوسي. أما الطفل الذي ... المسيح ولم يلتق بالشيطان أو بالله، والذي علمته تجربة الراعي أن الناس لا يهتدون ... إلا من طريق وسطاء، فقد أسلم الحب بتلك الشدة التي يأخذ بها نفسه في كل ... ولكن احترامه لأستاذه ـ وهو الشيء الوحيد الذي غرسته الصين في نفسه غرساً قوياً ... أن يدرك القلق الذي اشتد بالراعي ـ على الرغم من الحب الذي يدعو إليه ـ هذا القلق ... «تشن» ... أشد هولاً وإقناعاً من ذلك الجحيم الذي حاولوا تحصينه ضده.

وعاد ... فهاله العذر الذي أصاب ... وجه. ومع ذلك أظهر شيئاً من الرضا ... وبعث ... من سحر ... إلى مدير المدرسة، وإلى الراعي ... فهم ... كاد ... ثمانية أيام، حتى استدعى «تشن» إلى منزله، وفي نهاية ... إلى ... عاصفة ...

وحاول جيسور ... وهو يلف سجائره الوهمية دائماً ... وقد ... في ذهول

المستغرق في التفكير ـ أن يتذكر المراهق الذي كانه «تشن» في تلك الأيام الخوالي. ولكن، كيف يفصله أو يعزله عما صار إليه الآن؟ «إني أفكر في روحه الدينية لأن كيو لم تكن له هذه الروح قط. ولأن كل اختلاف عميق بيننا في هذه اللحظة يبعث في نفسي شيئاً من الارتياح. لماذا أشعر بأنني أعرفه خيراً مما أعرف ابني؟» ذلك لأنه يرى بصورة أوضح في حالة «تشن» الجوانب التي استطاع أن يعيره فيها. وهذا التغير الرئيسي ـ الذي هو من صنعه ـ كان دقيقاً، محدوداً، وهو لا يعرف شيئاً في الناس أفضل مما حمله إليهم. ومنذ أن التقى «تشن» أدرك للوهلة الأولى أن هذا المراهق لا يستطيع أن يعيش بأيديولوجية لا تتحول مباشرة إلى أفعال. ولما كانت فلسفته تخلو من فكرة الإحسان، فإن الحياة الدينية لم يكن تستطيع أن تقوده إلا إلى التأمل أو إلى الحياة الباطنة، ولكنه كان يمقت التأمل، ولا يهتم إلا بأداء رسالة دينية لا تتلاءم مطلقاً مع خلوه من الإحسان. وكان ينبغي لكي يعيش، أن يتحرر أولاً من تربيته المسيحية (ويبدو من بعض أحاديثه الخاصة أن معرفته بالعاهرات والطلبة قد مكنت تشن من التغلب على الخطيئة الوحيدة التي كانت أقوى من إرادته دائماً، وهي الاستمناء، والتغلب معها على الإحساس المتكرر دائماً بالقلق والسقوط). وحين عارض أساتذة الجدد تربيته المسيحية لا بالحجج المنطقية وإنما بصورة أخرى للعظمة، تسرب الإيمان من بين أصابع تشن شيئاً فشيئاً، دون أن تصيبه أية أزمة. ولما كان هذا الإيمان يفصله عن الصين، ويعزله عن العالم بدلاً من أن يخضعه للعالم، فقد فهم خلال جيسور أن كل شيء قد مضى على نحو يجعل هذه الفترة من حياته مدخلاً إلى معنى البطولة: فماذا يصنع امرؤ بنفسه، إن لم يكن ثمة وجود لله أو للمسيح؟

وهنا كان «جيسور» يشعر أن ابنه قد عاد إليه. لامبالياً بالمسيحية، وإن تكن تربيته اليابانية (عاش كيو في اليابان منذ أن كان في الثامنة من عمره حتى بلغ السابعة عشرة) قد دفعته إلى الاعتقاد بأنه ينبغي ألا نفكر في الأفكار، بل أن نحياها. وقد اختار «كيو» العمل بصورة جدية مدبرة، كما يختار غيره من الشبان الجيش أو البحرية: وكان قد ترك الدرس، وعاش في كانتون وتيِنتسين، حياة المناورات، واختلط بالعمال الكادحين ممن يجرون العربات لتنظيم النقابات. أما تشن، الذي أخذ عمه رهينة، دون أن يستطيع دفع فديته، بالمال المعدم بعد الاستيلاء على سواتاو ـ فقد وجد نفسه مفلساً، حائزاً على دبلومات لا قيمة لها، في مواجهة أربعة وعشرين عاماً من عمره، ووجهاً لوجه أمام الصين. اشتغل سائق سيارة نقل ما دامت طرق الشمال خطرة، ثم مساعداً كيميائياً، ثم لا شيء على الإطلاق. كان كل شيء يدفعه إلى العمل السياسي: الأمل في عالم مختلف، إمكانية الحصول على الطعام ... في بؤس (كان تشن متقشفاً بطبيعته، وربما كان ذلك بدافع من كبريائه)، إرضاء

اعتقاداته، وتفكيره، وشخصيته.. وفضلاً عن ذلك فقد كان العمل السياسي يبث في عزلته معنى. أما بالنسبة لكيو فقد كان كل شيء أبسط من ذلك. فإحساسه البطولي كان بالنسبة إليه بمثابة نظام يفرضه على نفسه، لا تبريراً للحياة. ولم يكن «كيو» قلقاً: فحياته لها معناها الذي يعرفه. وهو إعطاء كل إنسان من أولئك الذين تقتلهم المجاعة في هذه اللحظة الذات كالوباء البطيء، الشعور بكرامته. إنه ينتمي إليهم. وأعداؤهم هم بعينهم أعداؤه. لا يحاول «كيو» وهو المولد المنبوذ المحتقر من البيض، ومن البيضاوات على وجه الخصوص أن يخلبهم، بل لقد بحث عن قومه، ووجدهم «لا كرامة، ولا حياة حقيقية لإنسان يكدح اثنتي عشرة ساعة في اليوم دون أن يعرف لأي غرض يكدح». فلا بد من أن يتخذ هذا العمل معنى، وأن يصبح وطناً. أما المسائل الفردية فلم يكن لها وجود بالنسبة إلى كيو، إلا في حياته الشخصية.

كان «جيسور» يعلم هذا كله. «ومع ذلك فلو دخل كيو، وأخبرني كما أخبرني تشن قبل لحظة: أنا الذي قتلت تانج ـ ين ـ تا». لو قال هذا لدار في نفسي: «أنني كنت أعرف ذلك». إن كل ما هو ممكن فيه، يتجاوب مع نفسي بقوة، إلى درجة أن كل ما يحدث له، يبدو لي، أعتقد، أنني كنت أعرفه، ونظر عبر النافذة إلى الليل الساكن غير المكترث، ولكن، لو كنت أعرف حقاً، لا على تلك الصورة الغامضة المروعة. لأنقذته» يا له من ... أشد مؤلم، لا يريد أن يصدقه.

إنه لم يستخدم فكره منذ انصراف كيو ـ إلا لتبرير حركة ابنه، تلك الحركة المزيلة التي بدأت في مكان ما (لم يكن يعرف في كثير من الأحيان ـ خلال ثلاثة أشهر ـ أين تجري تلك الحركة)، في الصين الوسطى، أو في مقاطعات الجنوب. وإذا كان الطلاب الثائرون قد شعروا بأن هذا العقل يسارع إلى تحديثهم بكل تلك الحرارة والنفاذ، فإن الأمر لم يكن حيذاك كما يعتقد حقاً بعضهم، من أنه كان يجد لذة في مشاركة الطلاب حياتهم التي يفصله عنها سنه، وإنما تفسير ذلك أنه كان يجد في كل دراما من تلك التي قد تحدث للطلاب، شيئاً يمكن أن يقع لابنه. وحين كان يبين لطلابه ـ كانوا كلهم تقريباً من الطبقة البرجوازية الصغيرة ـ أنهم مجبرون على الانضمام إما للرؤساء العسكريين أو للبروليتاريا (العمال)، وحين كان يقول لهؤلاء الذين اختاروا عملاً «إن الماركسية ليست مذهباً، وإنما إرادة، إنها بالنسبة للبروليتاريا أو أنصارها ـ الذين هم أنتم ـ إرادة لمعرفة الذات، والإحساس بوضعهم الذي يعيشون فيه، وللانتصار وفقاً لهذا الوعي. ولا ينبغي أن تكونوا ماركسيين لأنكم على حق، وإنما لكي تنتصروا دون خيانة لأنفسكم»، إنما كان يوجه إلى ... هذا الحديث، ورائع ... وإذا كان يعرف أن نفس «كيو» الصارمة لم

تكن هي التي تجاوبه حين كان يجد حجرته - عقب هذه المحاضرات - ملأى بالزهور البيضاء التي حملها الطلاب وفقاً للتقاليد الصينية. فإنه كان يعرف على الأقل أن تلك الأيدي التي تتدرب على الاغتيال وهي تحمل إليه في نفس الوقت زهور الكاميليا، سوف تصافح غداً يد ابنه الذي سيكون في حاجة إليها. وهذا هو سبب انجذابه إلى قوة الشخصية، وسبب ارتباطه بـ «تشن». ولكنه حين أحب «تشن»، أكان يتنبأ بتلك الليلة المظلمة التي أتى إليه فيها الشاب - قبل أن تتجمد دماء ضحيته، ليقول له: «لم أكن أشعر بالفرح لحسب...»؟

وبعض. ثم فتح درج المنضدة التي يضع فيها صينية الأفيون، فوق مجموعة من الصبار الشمع. وتحت الصينية، كانت هناك صورة: صورة «كيو» - سحبها، ثم نظر إليها دون أن يفكر في شيء واضح. إذ كان مستغرقاً - استغراقاً تشوبه المرارة - في يقينه بأنه هناك في العالم الذي يوشك أن يلجه، لم يعد يعرف أحد أحداً، بل إن حضور كيو نفسه الذي طالما عاناه منذ لحظة، لم يغير من الموقف شيئاً، اللهم إلا أن يجعل فراقها أشد يأساً، وكأنه حضور أصدقاء نعانقهم في الحلم بعد أن طواهم الموت منذ أعوام. وظل محتفظاً بالصورة بين أصابعه: كانت دافئة، كراحة اليد. فتركها تسقط مرة أخرى في الدرج، وسحب الصينية، وأطفأ نور الكهرباء، وأشعل المصباح.

عليونان. وكان في سالف الأيام حين يبدأ نهمه في الارتواء، ينظر إلى الناس نظرة المثقف، ويرى العالم زاخراً بإمكانيات لانهائية. أما الآن، فلم تعد الإمكانيات تجد - في قرارة نفسه - متسعاً؛ فقد بلغ الستين من عمره وأصبحت ذكرياته مليئة بالقبور. ولم يعد إحساسه المرهف بالفن الصيني، وبتلك الصور الضاربة إلى الزرقة التي يلقي عليها مصباحه ضوءاً خافتاً، وبكل حضارة الصين الموحية التي تحيط به.. تلك الحضارة التي استطاع أن يمنح بها انتفاعاً بديعاً قبل ثلاثين عاماً مضت - لم يعد إحساسه بالسعادة غير غطاء رقيق يسقط تحته القلق ووسواس الموت - كالكلاب الملتهبة التي تضطرب في نهاية نومها.

ومع ذلك، أخذ فكره يتسكع حول العالم، وحول الناس، تصاحبه عاطفة نهمة لم يطلقها عدم السن. ولقد كان مقتنعاً منذ زمن طويل، بأن في كل إنسان - وفيه هو على الأخص - مريض بالاضطهاد. وكان يعتقد قديماً - في إحدى مراحل تطوره الغابرة - أنه يصبح بطلاً. كلا - ان هذه القوة، هذا الخيال الثائر الكامن في أغوار نفسه (طالما قال لنفسه، لو اصبحت مجنوناً، لبقيت هذه القوة وحدها مني) كانت على استعداد للتشكل بجميع الأشكال مثل النور. وتذكر - كما تذكر كيو من قبل، وربما لنفس الأسباب - الاستجوابات التي حدثه عنها، وكان يفكر فيها على نحو ما كان يفكر فيها كيو تقريباً، لأن

طرائق تفكير كيو كانت نابعة من طرائق تفكيره. وكما أن كيو لم يتعرف على صوته لأنه سمعه عن طريق حلقه، فكذلك كان وعي جيسور بنفسه لا يمكن أن يرد بلا شك، إلى الوعي الذي يستطيع أن يكتسبه شخص آخر، لأنه ليس مكتسباً بنفس الوسائل. ولم يكن [illegible] دخل في ذلك. وكان يشعر أنه اقتحم بماله من وعي دخيل - مجالاً ينتمي إليه أكثر من [illegible]، وأنه يملك في قلق - عزلة محرمة على غيره من الناس، لن يلحق به فيها أحد، وأحس في لحظة خاطفة - بأن «هذا» هو ما سيفلت من الموت. وارتجفت يده التي كانت تحمل كرة جديدة من الأفيون رجفة خفيفة. هذه العزلة التامة. لا يستطيع حتى حبه [illegible] أن ينتزعه منها، ولكنه إن لم يكن يستطيع الهروب في شخص آخر، فإنه يعرف طريقاً آخر للخلاص: الأفيون.

خمس كريات. إنه منذ سنوات يقف عند هذا القدر، رغم ما يجد في ذلك من عناء، [illegible] في بعض الأحيان. وقام بتنظيف غليونه، وظل يده يصعد من الحائط إلى السقف. وأرخى المصباح بضعة سنتيمترات. ففقد الظل ملامحه، وكذلك فقدت الأشياء قسماتها، وعلى الرغم من أشكالها لم تتغير، فإنها لم تعد متميزة عنه، بل انضمت إليه في أعماق عالم مألوف حيث تمرح بين الأشياء، كلها عدم اكتراث رقيق - عالم أصدق من العالم الآخر لأنه أكثر دواماً، وأشبه بنفسه. عالم ثقة كالصداقة، متسامحاً دائماً، مستعداً دائماً: أشكال وذكريات، وأفكار... كانت كلها تغوص في بطء نحو كون متحرر. وتذكر أصيل يوم من أيام سبتمبر، هناك خلع لون السماء الرمادي البديع على مياه البحيرة بياض اللبن، وهي تلوح في فجوات حقول واسعة من أزهار المشمش الحريرية، وبدا له العالم بأسره، ابتداء من الطرف المائل في ذلك الجناح المهجور، حتى الأفق الرائع الحزين - بدا له العالم وقد تملكته كآبة مهيبة. وثمة راهب بوذي قد اتكأ على حافة ذلك الجناح دون أن يحرك ساكناً، تاركاً خوانه للغبار، ولعطر الأخشاب الشذية التي كانت تحترق، وكان الفلاحون الذين يجمعون بذور المشمش يتزلقون على صفحة الماء بزوارقهم دون أن يحدثوا صوتاً، وعلى مقربة من الزهور الأخيرة، تولد من دفة الزورق خطان طويلان من الماء، لم يلبثا أن انعقدا في الماء الرمادي بلا اكتمال. وفي نفسه أيضاً تبددت أفكار، كانت تضم بين ثناياها شقاء العالم. ولكنه شقاء يخلو من المرارة، شقاء حوله الأفيون إلى صفاء علوي، واحد صبور يتأمل وحدته، مغمض العينين، محمولاً على أجنحة ثابتة؛ وحشة تتصل بالملأ الأعلى، مثلما تتسع إلى ما لانهاية هذا الأخدود من الطمأنينة الذي يختفي في رفق أعماق الموت.

* * *

نزل الرجال واحداً واحداً في زي جنود الحكومة، واضعين معاطفهم الواقية من المطر على ظهورهم، إلى الزورق البخاري الذي يتأرجح وفقاً لحركة نهر «اليانج تسي».

قال كيو لكاتوف: «إن اثنين من البحارة ينتميان إلى الحزب ولا بد من سؤالهما، فهما يعرفان بلا شك مكان الأسلحة». وكان الزي العسكري لا يغير إلا قليلاً من منظر كاتوف، إذا استثنينا الحذاء ذا الرقبة الطويلة؛ كما كانت سترته العسكرية غير محكمة الأزرار كالسترة الأخرى. غير أن القبعة الجديدة التي لم يألفها والتي وضعت على رأسه في وقار، قد أضفت عليه شيئاً من البلاهة. وحدث كيو نفسه قائلاً: «يا له من تركيب مدهش، قبعة ضابط صيني على أنف بهذا الشكل!» وكانت الظلمة ما برحت جاثمة...

وقال كيو: «ضع قلنسوة معطفك الواقي من المطر».

وغادر الرصيف الزورق البخاري وانطلق أخيراً في مغامرته الليلية، ولم يلبث أن اختفى وراء إحدى السفن الضيقة. وتقاطعت كالسيوف تلك الأضواء الكاشفة الصادرة عن الطرادات والتي تكنس في هبوطها من السماء كل ما يعج به الميناء من اضطراب.

ولم يحول «كاتوف» الواقف في مقدمة الزورق عينيه عن السفينة «شان - تونج» التي بدت وكأنها تقترب شيئاً فشيئاً. وبينما استولت على حواسه رائحة الماء العطن والسمك والدخان المنبعث من الميناء (فقد كان قريباً جداً من سطح الماء) التي طغت رويداً رويداً على رائحة الفحم السائدة في رصيف الميناء، استولت على روحه مرة أخرى تلك الذكرى التي يهب بها قربه من كل معركة. في الجبهة اللتوانية، أسر «البيض» كتيبة، وكان الرجال الذين جردوا من سلاحهم يقفون صفوفاً متراصة في السهل الجليدي المترامي الأطراف الذي يكاد لا يبين في ضوء الفجر المائل إلى الاخضرار. «فليخرج الشيوعيون من الصفوف!» وكانوا يعرفون أن هذا معناه الموت. وتقدم خارج الصفوف ثلثا الكتيبة. «اخلعوا [illegible]كم». «احفروا الحفرة». وصدعوا بما أمروا به، في بطء. إذ كانت الأرض متجمدة. وكان الحراس البيض، يقبض كل منهم على مسدس في كلتا يديه (فقد كان من المحتم استعمال الفؤوس كأسلحة)، ينتظرون على اليمين وعلى اليسار وقد استبد بهم القلق لنفاد صبرهم، بينما كانت منطقة الوسط خالية بسبب المدافع الرشاشة المصوبة نحو الأسرى. وكان الصمت بلا حدود، مترامياً كهذا الجليد الذي تبلغ العين مداه. كانت قطع الأرض المتجمدة هي وحدها التي تتساقط محدثة صوتاً مكتوماً تتزايد سرعته شيئاً فشيئاً: فعلى الرغم من الموت الذي ينتظرهم - إذا انتهوا من هذا العمل، فقد كانوا يسرعون في عملهم

ليظفروا بشيء من الدفء. وبدأ كثير منهم يعطسون. «كفى. توقفوا!» واستداروا إلى [illegible]. وهناك، فيما وراء رفاقهم، حشد نساء وأطفال وشيوخ القرية، قبل أن يرتدوا ثيابهم [illegible]، وقد تلفعوا بالأغطية. حشدوا ليشاهدوا هذه العبرة، وهم يهزون رؤوسهم، [illegible] يحاولون جاهدين ألا ينظروا أمامهم. غير أن القلق يجتذبهم. «اخلعوا [illegible]» ذلك أن الملابس العسكرية كانت نادرة. وتردد الأسرى، بسبب وجود [illegible]. «اخلعوا سراويلكم!». وظهرت الجروح، واحداً واحداً، معصوبة بأسمال بالية [illegible] المدافع الرشاشة قد أطلقت في مستوى منخفض فأصيب الجميع بجراح في سيقانهم، [illegible] بطوون سراويلهم، ولو أنهم ألقوا بمعاطفهم العسكرية جانباً، واصطفوا من جديد [illegible] الحفرة هذه المرة في مواجهة المدافع الرشاشة، واضحين فوق الجليد. هذه أجساد [illegible] داخلة بيضاء. وطفقوا يعطسون بلا توقف، من شدة البرد، بعضهم إثر بعض، [illegible] هذه العطسات عميقة إنسانية في ذلك الفجر الذي شهد اعدامهم إلى درجة أن [illegible] الذين تمسكوا بالمدافع الرشاشة انتظروا بدلاً من اطلاق مدافعهم. انتظروا حتى [illegible] الفتاة. وأخيراً [illegible] عزمهم. وفي مساء اليوم التالي، استولى الحمر على [illegible] وألفوا سبعة عشر جريحاً لم تكن إصاباتهم قاتلة، ومنهم كاتوف. هذه الأشباح التي [illegible] على خلفية الفجر المائل إلى الاخضرار. هذه الأشباح الشفافة التي تهزها [illegible] العطسات [illegible] في مواجهة المدافع الرشاشة، كانت تصاحبه في المطر، وفي ذلك [illegible] أطلال السفينة «شان - تونج».

[illegible] يتقدم [illegible]، وفي حركة قوية كافية لأن تجعل طيف السفينة [illegible] على صفحة النهر، وكانت السفينة تكاد تخلو من [illegible] المدمر [illegible] لا يوصفها كتلة أشد ظلاماً من السماء المفتوحة [illegible] «شان - تونج» مخاطة بالغرابة.

[illegible] من أحد الطرادات بالزورق البخاري. تعقبه برهة، ثم تحول عنه. [illegible] صوب السفينة من الآخرة، منحرفاً إلى [illegible] الرجال جميعاً [illegible] معاطف [illegible] على ظهورهم [illegible] أوامر سلطات [illegible] إلى سلم «شان - تونج» [illegible] التي أخفاها في معطفه. كان معلقاً على بعد متر من سطح الماء [illegible] الذي لا يملكون منه شيئاً. فعلى [illegible] إلى سطح السفينة [illegible] على الرجال [illegible] أن يقفزوا واحداً وراء

الآخر من الزورق البخاري، وقد يتعذر إبقاء الزورق تحت سلم السفينة. أما إذا حاول أصحاب السفينة أن يسحبوا سلمها فإنه يستطيع أن يطلق النار على من يقومون بهذه العملية: فليس تحت البكرات الحرارة، ما يصد الرصاص عنهم. غير أن السفينة يمكن أن على حالة الدفاع.

وانحرف الزورق البخاري ٩٠ درجة، واتجه صوب «شان ـ تونغ» فحمل عليها التيار الذي يشتد في هذه الساعة بالذات. وكانت السفينة التي بدت مرتفعة ارتفاعاً كبيراً في هذه اللحظة (وكانوا عند أقدامها) ـ تلوح وكأنها تنطلق في الليل بأقصى سرعتها، أشبه بشبح سفينة. وترك سائق الزورق البخاري للمحرك أقصى قوته: فبدت «شان ـ تونغ» كأنما تبطئ من سرعتها، وتتوقف عن الحركة، ثم تتراجع. واقترب من سلم السفينة، وهناك أمسك به كاتوف، وفي وثبة واحدة، صعد إليه.

وسأله الرجل الواقف على مدخل السلم: «التصريح؟»

سلمه «كاتوف» التصريح ـ فناوله الرجل إلى شخص آخر، وظل في مكانه قابضاً على مسدسه. كان لا بد إذن من أن يتعرف القبطان على وثيقته الخاصة: وقد رجح أن الأمر كذلك. لأن القبطان قد تعرف الوثيقة من قبل، حين أوصلها إليه كلابيك.. وفي هذه الأثناء، كان الزورق البخاري المظلم الواقف عند قدم السلم، يصعد ويهبط مع النهر..

وعاد الرسول قائلاً: «تستطيع أن تصعد»، فلم يتحرك كاتوف من مكانه، وغادر الزورق البخاري رجل من رجاله يحمل على كتفيه شارة الملازم (وكان هو الوحيد الذي يتكلم الانجليزية)، وصعد، ثم سار في أعقاب الملاح الرسول الذي قاده إلى القبطان.

وكان القبطان، وهو نرويجي حليق الوجه، منتفخ الأوداج ـ ينتظره في قمرته وراء مكتبه. وخرج الرسول.

قال الملازم بالانجليزية: «لقد جئنا لاستلام الأسلحة».

وحملق فيه القبطان مذهولاً، دون أن يجيب. ذلك أن القواد هم الذين دفعوا ثمن الأسلحة والبا[illegible]. وقد تم التفاوض سراً على هذه الصفقة بواسطة ملحق إحدى القنصليات، حين [illegible] إرسال الوسيط «تانغ ـ ين ـ تا»، وذلك كله نظير نسبة عادلة. فإذا لم يتمسكوا [illegible] تجاه المستوردين السريين، فمن يقوم حينئذ بتمويلهم؟ ولكنه، ما دام لا يتعامل إلا مع [illegible] شنغهاي، فإنه يستطيع أن يحاول إنقاذ أسلحته.

«حسن!... هذا هو المفتاح».

وفتش متظاهراً بالهدوء في جيب صداره الداخلي، وعلى حين غرة، سحب منه مسدسه

صوبه إلى صدر الملازم الذي لم يكن يفصله عنه سوى المنضدة. وفي هذه اللحظة نفسها سمع خلفه صوتاً يقول: «ارفع يديك!» وكان كاتوف يصوب إليه مسدسه من النافذة المفتوحة المطلة على الدهليز. ولم يفهم القبطان شيئاً. إذ كان «كاتوف» يرتدي بزة بيضاء، ولم يسعه في هذه اللحظة إلا الاستسلام، فقد كانت حياته أغلى عنده من صناديق الأسلحة. قال لنفسه: «إنها رحلة خاضعة للمكسب والخسارة»، ولسوف يرى ما يمكن أن يفعله مع تجارته. فوضع المسدس، الذي تناوله الملازم.

ودخل «كاتوف» ثم قام بتفتيشه: ولم يكن القبطان يحمل سلاحاً آخر.

قال كاتوف بالانجليزية: «ما فائدة أن تكون لك كل تلك المسدسات على ظهر السفينة، دون أن تحمل أنت نفسك غير مسدس واحد». ودخل وراءه ستة من رجاله الواحد إثر الآخر في صمت. وكانت خطوة كاتوف الثقيلة وهيئته الضخمة، وأنفه المشرع، وشعره الأشقر الفاتح.. كل هذه الملامح كانت تدل على أنه روسي.. أو لعله البلطيقي؟ ولكن، هذه اللهجة..

ـ «ولكنك لست من موظفي الحكومة.. أليس كذلك؟»

ـ «لا شأن لك بذلك».

وحمل مساعد القبطان، مربوطاً كما ينبغي من رأسه وقدميه، بعد أن باغتوه أثناء نومه [illegible] الرجال القبطان. وبقي اثنان منهم لحراسته، ونزل الباقون مع كاتوف. وقادهم [illegible] المساعد إلى الجزء المخصص إلى المكان الذي خبئت فيه الأسلحة، وكان الاحتياط الوحيد الذي اتخذه مستوردو «ماكاو» هو أنهم كتبوا على الصناديق هذه العبارة: «قطع منفصلة». وشرع الرجال في إنزال الشحنة. ولم يجدوا في ذلك أية صعوبة بعد أن خفضوا السلم. إذ كانت الصناديق صغيرة الحجم. وما أن وضع آخر صندوق في الزورق البخاري حتى ذهب [illegible] لإفساد مركز اللاسلكي في السفينة، ثم دخل حيث يوجد القبطان وقال له: «إذا [illegible] مسموحاً في النزول إلى البر فإني أنذرك بأنك سوف تلقى مصرعك عند أول منعطف في الشارع. [illegible] مساء».

[illegible] غير أن الحبال التي كانت تحز في أذرع الأسرى كانت تضفي عليه قوة.

[illegible] يصحبهم البحارة اللذان أرشداهم إلى الزورق البخاري، الذي انفصل عن [illegible] صوت الرصيف، في خط مستقيم هذه المرة. وبينما كان الزورق يعلو ويهبط بفعل الأمواج، شرع الرجال يتبادلون تأملاتهم في [illegible] من القلق، فما زال الخطر [illegible] حتى بلغوا الشاطئ

وهناك، كانت تنتظرهم سيارة نقل، يجلس فيها « كيو » إلى جانب السائق

ـ « ماذا حدث؟ »

ـ « لا شيء... إنها مهمة يمكن أن يقوم بها مبتدئون. »

وما أن انتهى نقل الصناديق، حتى انطلقت السيارة تحمل كيو وكاتوف وأربعة من الرجال، احتفظ أحدهم بزيه العسكري، بينما تفرق الآخرون.

وقطعت السيارة شوارع المدينة الصينية في جلبة شديدة. وكانت جوانبها القريبة من الاطارات مزينة بصفائح البنزين. وعند كل « مركز » هام، سواء أكان حانوتاً أم كهفاً أم شقة، كانت السيارة تتوقف برهة، لينزل منها صندوق. قد وضع كيو على أحد جوانبه مذكرة بالشفرة مرموقة تتضمن تعليماته الخاصة بتوزيع الأسلحة، وكان لا بد من توزيع بعضها على منظمات الكفاح الثانوية. ولم تكن المدة التي تقفها السيارة تزيد عن خمس دقائق، ومع ذلك كان لا بد أن تمر على أكثر من عشرين مركزاً

وما كانوا يخشون شيئاً سوى الخيانة. ذلك أن هذه السيارة ذات الجلبة الشديدة والتي يقودها سائق في زي الجيش الحكومي، لم تكن تثير أية ريبة. وصادفوا في طريقهم دورية من الجنود. فقال كيو لنفسه « لقد أصبحت بائع اللبن الذي يقوم بجولته المعتادة ».

وأشرق الفجر.

الجزء الثاني

٢٢ مارس

الساعة الحادية عشرة صباحاً

ناجى فيرال نفسه قائلاً: «الأمر على غير ما يرام». كان يقود سيارته بحذاء رصيف [illegible]. وكانت سيارته هي الوحيدة التي تحمل ماركة «فوازان» الفرنسية في شنغهاي، إذ لم يكن من المستساغ أن يستخدم رئيس الغرفة التجارية الفرنسية سيارة أمريكية. وعلى اليمين، [illegible] الرايات العمودية المغطاة بالشعارات: «يوم العمل لا يزيد عن اثنتي عشرة ساعة»، «لا عمل للأطفال دون سن الثامنة»... تحت هذه الرايات كان آلاف من عمال النسيج، واقفين، أو جالسين القرفصاء، أو راقدين على الرصيف في فوضى شاملة. وجاورت السيارة جماعة من النسوة احتشدن تحت شعار «حق الجلوس للعاملات». وكانت الترسانة نفسها خالية، إذ انضم عمال التعدين أيضاً إلى الإضراب. وعلى اليسار، آلاف من الملاحين في ثيابهم الزرقاء ينتظرون دون أن يحملوا أعلاماً، وقد جلسوا القرفصاء على طول النهر. كان جمهور المتظاهرين يمتد على جانب الرصيف حتى يتلاشى في أعماق الشوارع المتعامدة عليه، وعلى شاطئ النهر احتشدت الجموع حتى لم يعد من الممكن رؤية مياه النهر. واجتازت السيارة الرصيف، ودخلت «شارع الجمهوريين»، ولكنها لم تستطع أن تتقدم بعد أن اشتركت الآن في حركة الجموع العصبية التي اندفعت من كل الشوارع لاجئة إلى منطقة الامتيازات الفرنسية. وكلما يسبق الجواد جواداً آخر برأسه أو برقبته أو بجزء من صدره، كانت الجماهير تتغلب على السيارة في بطء، ولكن باستمرار. وازدحم الطريق بعربات اليد ذات العجلة الواحدة تطل منها رؤوس أطفال متدلية بين أوان خزفية، وعجلات بكينية، وعربات أطفال، وجياد صغيرة غزيرة الشعر، وعربات تجرها أذرع الآدميين، وسيارات نقل تحمل ستين شخصاً، ومراتب ضخمة تضم أثاث منزل بأكمله، وقد برزت منها أرجل المناضد، وعائلة يحملون بأذرعهم الممدودة إلى أقصى ما تستطيع والتي يتدلى منها قفص فيه [illegible]، يحملون نسوة صغيرات يحملن أطفالهن خلف ظهورهن. واستطاع السائق أن يمر أخيراً، ودخل في شوارع خاصة بالناس [illegible] صوت آلة التنبيه كان يزيح الجماهير في [illegible] أمام السيارة. وأخيراً وصل إلى المباني الضخمة التي تضم فيها البوليس الفرنسي

وصعد «فيرال» درجات السلم ركضاً. وعلى الرغم من شعره المرسل إلى الوراء، وحلته الفاتحة اللون التي تكاد تكون حلة رياضية، وقميصه المصنوع من الحرير الرمادي، فقد كان وجهه يحتفظ بشيء من ملامح جيل ١٩٠٠، حين كان شاباً. وكان يسخر من الناس الذين يتنكرون على هيئة رؤساء الصناعة، ويجعل من ذلك مبرراً لكي يتنكر هو على هيئة دبلوماسي. ولم يكن قد تخلى عن شيء سوى المونوكل. وكان شاربه المتدلي الذي وخطه الشيب، الذي يبدو أنه يطيل التجاعيد التي تحيط بشفتيه، يضفي على صورة وجهه الجانبية وحشية مرهفة. وكانت قوته تتبدى في التوافق بين أنفه المعقوف ودقته البارزة التي لم يحلقها بعناية هذا الصباح، فقد كان موظفو خدمات توزيع المياه مضربين، والصابون لا يذوب جيداً في الماء الطباشيري الذي جلبه الخادمون. واختفى وسط موجة من التحيات.

وفي مؤخرة مكتب «مارسيال» مدير البوليس، وقف نحو صيني هرقلي الجثة. يسأل قائلاً: «أهذا هو كل شيء يا سيدي الرئيس؟»

فأجابه مارسيال موليا إياه ظهره: «حاولوا أيضاً أن تقوضوا تنظيمات النقابة، وخلصوني من ذلك العمل الملتوي. إنكم لا تستحقون إلا الركل بالأقدام. فنصف رجالكم خونة ملاعين. وأنا لا أدفع لك ما أدفع لكي تقوم بالترفيه عن ثوريين لا يجرؤون على الافصاح عن حقيقتهم. فليس البوليس مصنعاً لتزويد الناس بما يثبت براءتهم. تخلص من كل العملاء الذين يتعاونون مع الكومنتانج دون أن تكون في حاجة إلى أن آمرك بذلك وحاول أن تفهم، بدلا من أن تنظر إلي في بلاهة. ولو أنني كنت أجهل نفسية رجالي كما تجهل أنت نفسية رجالك، لكان في ذلك دماري!»

- «سيدي الـ....».

- «انتهى الأمر... مفهوم - انصراف، وليكن ذلك بأسرع ما يمكن... صباح الخير يا سيد فيرال».

واستدار ناحيته. كانت له سحنة عسكرية، وقسمات ضخمة منتظمة لاشخصية وأقل دلالة من كتفيه.

- «صباح الخير يا مارسيال... ما أخبارك؟»

- «الحكومة مضطرة - للمحافظة على السكة الحديدية - إلى تعبئة آلاف الرجال... فليس من الممكن الصمود - كما تعلم - أمام شعب بأكمله، إلا بالاعتماد على بوليس مثل بوليسنا. والشيء الوحيد الذي تستطيع الحكومة الاعتماد عليه، هو القطار المشحون بالأسلحة وما يحمله من مرتزقة من الروس البيض... فالأمر جد خطير».

- «أعلم، ولكنها تضم أفاقين من الجميع... أنت على حق في ذلك».

- «إن كل شيء يتوقف على ما يدور في جبهة القتال... أما هنا، فسيحاولون إشعال نار الثورة. وربما ارتدت هذه المحاولة إلى نحرهم... لأنهم لا يكادون يملكون أية أسلحة».

ولكن «فيرال» يستطيع إلا أن يصغي وينتظر. وهذا أبغض شيء إلى نفسه في العالم. ولم تكن المفاوضات التي اشترك فيها رؤساء الهيئات الانجلو - سكسونية واليابانية، من ناحية، ومن بعض القنصليات، مع الوسطاء الذين تغص بهم الفنادق الكبرى في منطقة الامتيازات - لم تكن هذه المفاوضات قد أسفرت عن نتيجة حاسمة وربما طرأ بعد الظهر...

وكان على الكومنتانج - إذا وقعت شنغهاي في أيدي جيش الثورة - أن يختار أخيراً بين الديموقراطية والشيوعية. إنما الديموقراطيات تقدم دائماً زبائن طيبين، ويستطيع أي مجتمع أن يحصل على منافع دون أن يلجأ بالضرورة إلى معاهدات... وعلى العكس من ذلك، إذا أصيبت المدينة بالنظام السوفيتي فسوف ينهار الاتحاد الفرنسي الآسيوي، ومعه التجارة الفرنسية في شنغهاي. وكان فيرال يعتقد أن الدول الكبرى سوف تتخلى عن مواطنيها، كما فعلت انجلترا في هانكاو. ولهذا كان هدفه المباشر هو ألا تسقط المدينة قبل وصول الجيش، حتى لا يتمكن الشيوعيون من العمل وحدهم.

- «كم عدد الجنود يا مارسيال، بالإضافة إلى القطار المسلح؟»

- «ألف من رجال البوليس، وفصيلة من المدفعية، يا سيد فيرال».

- «وكم عدد الثوار الذين يستطيعون أن يفعلوا غير مجرد الثرثرة؟»

- «المسلحون منهم، عدة مئات على أكثر تقدير... أما الآخرون فلا أظن أنهم يستحقون عناء الحديث عنهم. إنهم لا يعرفون استخدام البندقية نظراً لعدم وجود نظام الخدمة العسكرية هنا، لا تنس ذلك. وقد كان هؤلاء الثوار - في فبراير - ألفين أو ثلاثة آلاف - إذا حسبنا الشيوعيين... وليس من شك أن عددهم الآن زاد قليلاً».

ولكن... لم يكن جيش الحكومة قد تحطم في فبراير.

واستأنف مارسيال حديثه قائلاً: «وكم منهم سيستمر في تعضيد الشيوعيين؟ غير أن هذا لا يفيدنا كثيراً يا سيد فيرال... فلا بد من معرفة نفسية الزعماء... أما نفسية الرجال، فإني أعلم بها... ذلك أن الرجل الصيني...».

وكان من النادر أن ينظر فيرال إلى مدير البوليس كما يفعل في هذه اللحظة وهذه النظرة كنظرة [illegible] نظرة لا تعبر عن الاحتقار والغضب كما تعبر عن الحلم. فلم يقل بصوته القاطع، الآلي إلى حد ما: «هل سيستمر هذا طويلاً؟» وإنما أفصح عن ذلك

يتطرق إليه .. ولم يكن يستطيع أن يحتمل أن يعزو مارسيال إلى حصافته المعلومات التي استقاها من جواسيسه.

ولو تجاسر مارسيال لأجابه: «وماذا يعنيك من هذا كله؟» غير أنه كان خاضعاً تمام الخضوع لفيرال، وكانت علاقته به قائمة على الأوامر التي لا يستطيع إلا أن يصدع بها، بل كان يشعر من الناحية الإنسانية، أن فيرال أقوى منه أيضاً، ولكنه لم يكن يستطيع احتمال هذه الاستهانة الوقحة، وتلك الطريقة التي تحيله إلى مستوى الآلة، وتنكر وجوده حين يريد أن يتكلم باعتباره فرداً، لا مجرد ناقل للمعلومات. لقد تحدث إليه مبعوثو البرلمان عن أعمال فيرال - قبل سقوطه - في لجان مجلس النواب. كان فيرال في الجلسات يطلق العنان لخصاله - وهي التي تعطي لخطبه وضوحها وقوتها - إلى الحد الذي جعل بعض زملائه له يتزايد عاماً بعد عام، فقد كانت له موهبة فريدة في إنكار وجودهم. وبينما كان نائب مثل «جوريس» أو «بريان» يضفي عليهم حياة شخصية طالما حرموا منها، ويوحي إليهم بأنه يخاطب كلاً منهم بالذات، وبأنه يحاول إقناعهم، وإشراكهم أو توحيدهم في تجربة مشتركة عن الحياة والناس، كان فيرال يواجههم بصرح من الوقائع، ويختم خطبته بقوله: «وإزاء هذه الظروف، فلا مندوحة أيها السادة من اعتبار هذا باطلاً...» فهو إما أن يرغمهم على الأخذ برأيه، أو يندحر في هذه المحاولة. ولاحظ مارسيال أن «فيرال» لم يتغير قيد شعرة.

وسأله فيرال: «وهل بلغك شيء من هانكاو؟»

- «تلقينا معلومات هذه الليلة.. هناك ٢٢٠,٠٠٠ عامل بلا عمل، أي ما يكفي لتشكيل جيش أحمر جديد...»

وكانت بضائع ثلاث من الشركات التي يشرف عليها فيرال قد تسرب إليها الفساد، بعد أن ظلت ملقاة على رصيف الميناء الفحم طيلة أسابيع، دون أن يقبل الحمالون الصينيون القيام بنقلها.

- «وما أنباء الاتصالات بين الشيوعيين وتشانج - كاي - شيك؟»

أجابه مارسيال: «هذه هي خطته الأخيرة.. ولكنني - كما تعلم - قلما أؤمن بما يقال في الخطب...»

- «أما أنا فأؤمن بالخطب.. بما قيل في هذه الخطة على الأقل... ما علينا.»

ودق جرس التلفون، وتناول مارسيال السماعة، وقال: «إنها لك يا سيد فيرال.»

- «ألو.. ألو.. نعم.»

- «إنه يقدم لك حبلاً لتشنق نفسك به... إنه يعارض في التدخل وهذا أمر مسلم به. والمسألة هي أن تعرف هل من الأفضل أن تتهمه بالشذوذ الجنسي، أو بأنه مرتش.. هذا كل ما في الأمر.»

- ....

- «وبالطبع إنه ليس هذا ولا ذاك. وبالاضافة إلى ذلك، لا أحب أن يعتقد أحد من أني قادر على مهاجمة رجل بسبب شذوذ جنسي يتصف به حقاً.. أتظنني رجل أخلاق؟ إلى اللقاء.»

ولم يكن مارسيال يجرؤ على أن يسأله عن شيء. وكان يبدو له أن امتناع فيرال عن إحاطته بخططه، وما يتوقعه من مفاوضاته مع أنشط أعضاء الغرفة التجارية الدولية، ومع رؤساء الهيئات التجارية الصينية الكبرى.. كان يبدو له ذلك عملاً مهيناً وطائشاً في وقت واحد. ومع ذلك، إذا كان مما يثير سخط مدير البوليس أن يجهل ما يفعله، فإن أشد من ذلك إثارة لسخطه أن يفقد منصبه. وكان فيرال الذي ولد في الجمهورية كما يولد في اجتماع عائلي، والذي تزدحم ذاكرته بوجوه شخصيات طيبة كرينان، وبرتلو، وفيكتور هنجو، ابن المستشار القانوني العظيم والحاصل على درجة الأستاذية في التاريخ وهو في سن السابعة والعشرين، والمشرف على أول كتاب جامعي عن تاريخ فرنسا العام وهو في التاسعة والعشرين، والنائب الصغير جداً (الذي استغل وجوده في عصر وصل فيه بوانكاريه وبارتو إلى الوزارة قبل أن يبلغا سن الأربعين)، ورئيس اتحاد الشركات الفرنسي الآسيوي.. كان فيرال هذا يحظى - على الرغم من سقوطه السياسي - بقوة ومكانة تعادلان على الأقل قوة ومكانة قنصل فرنسا العام الذي كان فضلاً عن ذلك صديقاً له. ولهذا كان مدير البوليس يظهر له وداً يتسم بالاحترام. وناوله الخطبة التي جاء فيها:

«لقد أنفقت ثمانية عشر مليوناً من القروش [*] لا غير، واستوليت على ست مقاطعات في خمسة شهور. فليبحث الساخطون، إذا راق لهم ذلك، عن قائد آخر ينفق القليل ويحصل على الكثير مثلي.»

قال فيرال: «من البين، أن مسألة المال سوف تحل بالاستيلاء على شنغهاي، فسوف تعطيه الجمارك ثلاثة ملايين من القروش شهرياً.. أي ما يكفي تقريباً لسد العجز الذي يحدثه الجيش.»

- «أجل.. ولكن يقال: إن موسكو قد أمرت مبعوثيها السياسيين بأن يسمحوا بهزيمة قواتهم أمام شنغهاي.. ويمكن أن تنتهي الثورة هنا نهاية سيئة...»

(*) piastres هكذا في النص.

- « ولماذا أصدرت موسكو هذه الأوامر ؟ »

- « لالحاق الهزيمة بتشانج - كاي - شيك ، وتحطيم مكانته ، واستبداله بقائد شيوعي ينسب إليه شرف الاستيلاء على شنغهاي. ويكاد يكون مؤكداً أن الحملة على شنغهاي قد تقررت دون موافقة لجنة هانكاو المركزية. ويؤكد الجواسيس أنفسهم أن هيئة أركان الجيش الأحمر تعارض هذا النظام.. وبدا الاهتمام على فيرال، وإن لم يكن مقتنعاً. وواصل قراءة الخطبة:

وعلى الرغم من خروج عدد كبير من أعضائها ، فإن اللجنة المركزية التنفيذية في هانكاو تعد نفسها - وهي في هذه الحال من النقص - السلطة العليا في حزب الكومنتانج .. وأنا أعلم أن صين - يات - صن قد سمح للشيوعيين بأن يتعاونوا مع الحزب ، فلم أرتكب أي عمل ضدهم ، بل أعجبت بروحهم في كثير من الأحيان. ولكنهم بدلاً من أن يقنعوا بالتعاون ، يريدون أن يفرضوا الآن أنفسهم سادة للحزب ، وأن يتحكموا فيه بالعنف والوقاحة .. ولقد حذرتهم بأني سأعارض هذه الادعاءات المسرفة التي تجاوزت حدود الاتفاق الذي سمح لهم بدخول الحزب . . . »

وهكذا أصبح استخدام - تشانج - كاي - شيك أمراً ممكناً. فلم تعد للحكومة الحالية أية « دلالة » إلا ما تملكه من قوة (وستفقدها بهزيمة الجيش) ، وما يبثه الشيوعيون المنضمون إلى الجيش من رعب في قلوب البورجوازيين. ولم يعد يهتم ببقائها سوى نفر قليل من الناس. أما وراء تشانج ، فقد كان يقف جيش ظافر ، والبورجوازية الصينية الصغيرة كلها

وتساءل فيرال بصوت مرتفع : « أهناك شيء آخر ؟ »

- « كلا. يا سيد فيرال. »

- « شكراً. »

والتقى في نزوله من السلم بحسناء كستنائية الشعر ترتدي تايوراً رشيقاً ، وتتخذ ملامحها هيئة قناع رائع لا يفصح عن أي تعبير. كانت روسية من القوقاز يقال إنها تقوم بدور عشيقة مارسال اذا اقتضت المناسبات. وجال في خاطره : « كم يطيب لي أن أرى وجهك ، أنت ، حين سيسعفني ؟ »

- « معذرة يا سيدتي . »

وتجاوزها ، وهو ينحني لها ، ثم استقل سيارته التي بدأت تغوص وسط الجلبة ، ضد التيار هذه المرة ، وكانت الفوضى تبدو دون جدوى ، فأضعف خروج هذه الجحافل ، وإزاء

ذلك الغليان الأولي الذي تثيره الغزوات أمامها. ووسط صغار الباعة وهم أشبه بالموازين بدأت كفتاها في الهواء ، واضطربت محاورها ، وبين الهوادج والعربات الجديدة بأباطرة أسرة تانج ، وبين العجزة ، والأقفاص ، أخذ فيرال يتقدم وسط عيون جعلها القلق تنظر إلى الداخل ... إنه لم يكن بد من أن تنتهي حياته الطفيلية ، فلتنته إذن وسط هذا الضجيج ، وبين هذا اليأس المذعور الذي يرتطم بنوافذ سيارته ! وعلى نحو ما يتأمل معنى حياته ، لو كان مريعاً ، دفعه الخطر الذي يهدد مشروعاته إلى أن يتأملها ، وإلى أن يحس بموطن الضعف في نفسه. ولم يكن قد اختار هذا الصراع بمحض إرادته ، وإنما أجبر على الاهتمام بمصالحه الصينية لكي يجد منافذ جديدة لإنتاجه في الهند الصينية ، فكان يقوم هنا بدور المنتظر ، متجهاً ببصره صوب ما يجري في فرنسا ، ولكن لم يعد في وسعه أن ينتظر أكثر من ذلك.

كان ضعفه الأعظم يرجع إلى غياب الدولة. ذلك أن التوسع في مثل هذه المشروعات الكبيرة أمر لا ينفصل عن الحكومات. وقد كان منذ شبابه - حين لم يكن إلا نائباً في البرلمان - يعمل دائماً للدولة ، فقد كان رئيساً لجمعية الطاقة الكهربائية والأجهزة التي كانت تنتج المواد الكهربائية للدولة الفرنسية ، ثم قام بعد ذلك بالإشراف على إنشاء ميناء بيونس - ايرس - ولما كان نزيهاً .. تلك النزاهة الأبية التي ترفض تناول أية عمولة ، ولكنها تتلقى الدفعات ، فقد كان ينتظر أن تمده المستعمرات الآسيوية بالأموال التي احتاج إليها عقب سقوطه ، ذلك أنه لم يكن يريد أن يقامر من جديد ، بل أن يغير قواعد اللعب. وقد استطاع بالاستناد على مركز أخيه الشخصي الذي كان يشغل منصباً أهم من منصبه هو كمدير للمصارف العامة للخزانة ، وببقائه رئيساً لجماعة قوية من الممولين الفرنسيين.. استطاع فيرال أن يقنع حكومة الهند الصينية بانفاق أربعمائة مليون فرنك على المرافق العامة - ولم يغضب خصومه أنفسهم من إمداده بالوسائل التي تمكنه من الخروج من فرنسا. وما كانت الجمهورية تستطيع أن تحول بين شقيق أحد كبار موظفيها وبين تنفيذ برنامجه الذي يهدف إلى نشر المدنية في البلاد الآسيوية ، وكان التنفيذ ممتازاً وباعثاً على الدهشة في تلك البلاد التي تسود فيها المدخات دون أي اكتراث. وكان فيرال حسن التصرف ، والعمل النافع لا يضيع أبداً ، وانتقلت الجماعة إلى تصنيع الهند الصينية. وظهرت تدريجياً : مؤسستان للتسليف (المصارفي والزراعي) وأربع شركات زراعية : المطاط والنباتات الاستوائية ، والقطن ، والسكر ، تشرف بنفسها على تحويل موادها الأولية مباشرة إلى منتجات مصنوعة ، وثلاث شركات للتعدين : الفحم والفوسفات ، ومناجم الذهب ، وجمعية ملحقة « لاستغلال الغابات » وخمس شركات صناعية : الإضاءة والطاقة ، والكهرباء ، والزجاج ، والورق ،

والطباعة، وثلاث شركات للنقل: صنادل السفن، والمقطورات، والترام. وفي المركز تسود شركة الأشغال العامة، كمالكة على هذه الشركات جميعاً، أو كأم أو قابلة لهذه الشركات الشقيقات العاكفة على التزاوج فيما بينها والعيش بروابط النفع المحرمة. وقد استطاعت هذه الشركة أن تفوز بحقوق إنشاء الخط الحديدي في أثناء الوسطى، وهو الخط الذي يخترق - ومن كان يستطيع أن يصدق هذا؟ - الشطر الأكبر من مناطق امتيازات جماعة فيرال.. وكان نائب رئيس مجلس الإدارة يقول: «لا بأس بسير الأمور» لفيرال الذي بعثت وقد استغرقه الاشتغال بتكديس ملايينه حتى تصبح سلماً يرتقيه ليشرف على باريس من أعلاه.

ولو وجد مشروع لإنشاء شركة صينية جديدة في كل جيب من جيوبه، فإنه لم يكن يفكر إلا بباريس. أن يعود إلى باريس، وقد بلغ درجة من الثراء تؤهله لشراء وكالة هافاس أو على الأقل للتفاوض معها، واستئناف لعبة السياسة، ثم الوصول في حذر إلى كرسي الوزارة، واستغلال الاتحاد بين الوزارة وبين رأي عام يشتريه بالمال، ضد البرلمان. هنا تكمن القوة. بيد أن الأمر لم يكن يتعلق اليوم بأحلامه، ذلك أن تشعب مشروعاته في البلد الصيني قد شغل جماعته كلها في التغلغل التجاري في حوض نهر يانغ - تسي، وها هو شانغ - كاي - شيك يزحف على شنغهاي بجيش الثورة... وضغطت الحشود التي أخذت تتكاثف أكثر فأكثر على أبواب سيارته. ما من شركة في الصين يملكها أو يشرف عليها الفرنسي الأسيوي قد سلمت من التأثر بهذه الثورة: فشركات الإنشاءات الملاحية في هونغ كونغ قد تأثرت بعدم استقرار الملاحة، وكذلك سائر الشركات الأخرى. المرافق العامة، الإنشاءات، ، الكهرباء، التأمينات، البنوك، كلها تأثرت بالحرب وبالخطر الشيوعي. وما تستورده هذه الشركات من سلع بقي في مخازنه في هونغ كونغ أو شنغهاي، وما تصدره بقي في مخازن هانكاو، وأحياناً على رصيف الميناء.

وتوقفت السيارة. وأعلن السكون - والجمهور الصيني يعد من أشد الجماهير صخباً - نهاية العالم... ثم طلقة مدفع. هل اقترب الجيش الثوري بهذه الدرجة؟ كلا، إنه مدفع الظهر. وأفسح الجمهور طريقاً للسيارة، غير أن السيارة لم تتحرك من مكانها.. وأمسك فيرال بأنبوبة الصوت. لا جواب: لقد اختفى السائق، والخادم أيضاً.

ولبث ساكناً مذهولاً في تلك السيارة الثابتة التي أحدقت بها الجموع بكل ثقلها من كل جانب. وخرج صاحب أقرب حانوت، حاملاً على كتفه مصراعاً ضخماً. واستدار على نفسه فأوشك أن يحطم نوافذ السيارة. وأوصد حانوته. وعلى اليمين، وعلى اليسار، وفي مواجهته، أصحاب حوانيت أخرى، وعمال يهرعون حاملين مصاريع كتب عليها شعارات فوق أكتافهم. وهكذا بدأ الإضراب العام.

وما [illegible] هذا الإضراب شبيهاً بإضراب هونغ كونغ، الذي أخذ يتسع في بطء. اتساعاً [illegible] [illegible] التي كان مناورة يقوم بها الجيش. ومد بصره إلى أقصى مداه، فلم يلمح حانوتاً [illegible] [illegible] أن يرحل بأسرع ما يمكنه، فنزل من السيارة، ونادى على مركبة، فلم يبرد [illegible] [illegible] الصبي، الذي يجري بأقصى سرعته ليحتمي داخل مخزن المركبات، وألفى [illegible] في الشارع مع سيارته المهجورة، وكانت الحشود قد انحسر مدها، وتدافعت [illegible] أصوات الأرصفة. وحدث فيرال نفسه قائلاً: «إنهم يحشون المدافع الرشاشة، [illegible] [illegible] عن اللعب، وأخذوا يتسللون بين سيقان الناس التي تعج بها الأرصفة. وكان [illegible] [illegible] حياة بعيدة، وقريبة جداً في الوقت نفسه. كسكون الغابة الزاخرة [illegible] ودوت صفارة إحدى السفن الحربية، وسرعان ما ابتلعها الصمت. وسار فيرال [illegible] إلى [illegible] بكل ما يستطيع من سرعة، وقد وضع يديه في جيبيه، ودفع منكبيه وذقنه إلى الأمام. استأنفت صفارتان معاً، من مقام أعلى، ذلك الصفير الذي تبدد منذ لحظة، [illegible] قائلاً يلفه هذا الصمت قد أعلن مقدمه على هذا النحو. لقد كانت المدينة [illegible] تترقب.

* * *

الساعة الواحدة بعد الظهر

قال [illegible] إلا خمس دقائق.

وكان أفراد جماعته ينتظرون. إنهم جميعاً من عمال النسيج، وقد ارتدوا ثياباً مصنوعة من [illegible] زرق [illegible]. وكان هو يرتدي زيهم.. كانوا جميعاً حليقي الوجوه، نحاف الأجسام، [illegible]. وكان الموت قد اصطفاهم، قبل أن يختارهم تشن. وأمسك اثنان منهم بالبنادق تحت أذرعهم، وقد نكست فوهاتها نحو الأرض. وحمل سبعة منهم مسدسات من [illegible] «شانغ - سويج»، وحمل آخر قنبلة يدوية، بينما أخفى آخرون قنابل يدوية أخرى في [illegible]. وكان ثلاثون آخرون يقبضون على سكاكين، وعلى هراوات، وحراب، وثمانية عشرة بلا أي سلاح، جلسوا القرفصاء بالقرب من حزمة من الخرق المهلهلة، وصفائح [illegible] [illegible] من الأسلاك. وفحص شاب منهم مسامير ذات رؤوس كبيرة أخرجها من [illegible] الأكياس [illegible] لا بد أنها أعلى من ارتفاع حدوة الحصان»... «بلاط المعجزات»[1]، [illegible] من الحقد والتصميم.

(1) «بلاط المعجزات» La cour des Miracles مكان في باريس كان يعيش فيه الشحاذون [illegible] في العاصمة في القرون الوسطى [illegible].

لم يكن هو واحداً منهم، على الرغم من جريمة القتل، وعلى الرغم من وجوده بينهم. ولو مات اليوم، لمات وحيداً. ذلك أن الأمر بالنسبة إليهم بسيط غاية في البساطة، فهم يحاربون من أجل لقمة العيش، وفي سبيل كرامتهم.. أما هو.. فما كان يعرف أن يتحدث إليهم، اللهم إلا عن آلامهم وكفاحهم المشترك. ولكنه يعلم على الأقل أن الكفاح هو أقوى الروابط.. وها هو الكفاح قد بدأ.

وانتصبوا واقفين، وقد وضعوا الأكياس على ظهورهم، وأمسكوا بالصفائح في أيديهم، وتأملوا الأسلاك الحديدية. وكان المطر لم يأخذ بعد في الانهيار، والحزن المخيم على هذا الشارع الخالي الذي عبره كلب في قفزتين، وكأنه نبأ بعزيزته عما يدور في الخفاء ـ حزناً عميقاً كالصمت. ودوت طلقات خمس من البنادق في شارع مجاور: ثلاث طلقات معاً، ثم طلقة تتلوها أخرى. قال تشن: «هي ذي البداية». وساد الصمت ثانية ولكنه بدا مختلفاً عما كان عليه. ملأه وقع سنابك خيل، مضت تقترب شيئاً فشيئاً كما يمزق السماء، وميض من البرق عقب انطلاق الرعد (ودون أن يشاهدوا شيئاً حتى الآن)، عج الشارع فجأة بضجة امتزجت فيها الصيحات المتشابكة، وطلقات البنادق، وصهيل الجياد الثائرة، وسقوط الأجسام على الأرض. وبينما اختنقت تلك الصيحات اختناقاً مكتوماً تحت وطأة الصمت الذي لا سبيل إلى فنائه، ارتفعت صرخة أشبه بنباح كلب يحتضر، ولكنها انقطعت بغتة، وجل نحر رقبته.

ومضوا جرياً بعد بضعة دقائق شارعاً أكثر أهمية. كانت الحوانيت جميعاً مغلقة، وعلى الأرض رقدت ثلاث جثث، وفوق أسلاك البرق لاحت سماء قلقة تعبرها سحب سوداء، وفي أقصى الشارع، أقبل ما يقرب من عشرين فارساً (والفرسان نادرون في شنغهاي)، واستداروا في تردد دون أن يشاهدوا الثوار الملتصقين بالجدران، ومعهم أدواتهم، وهم يراقبون حركات الجياد المترددة. ولم يفكر «تشن» في الهجوم عليهم، إذ كان رجاله يفتقرون إلى الأسلحة، وانعطف الفرسان إلى اليمين، وأخيراً وصلوا إلى مركز البوليس. ودخل الحراس في هدوء وراء تشن. كان رجال البوليس يلعبون الورق، وقد وضعت بنادقهم ومسدساتهم على منصة السلاح. وفتح الصول المشرف عليهم نافذة، وصاح في فناء شديد الظلمة:

ـ «أنتم يا من تسمعونني جميعاً، أنتم شهود على العنف الذي يرتكب ضدنا. وها أنتم ترون أننا مرغمون ظلماً وعدواناً على الخضوع للقوة!».

وهم بأن يغلق النافذة مرة أخرى، غير أن «تشن» أبقى عليها مفتوحة، وأطل منها فلم يجد أحداً في الفناء. بهذه الصورة أنقذ رجال البوليس ماء وجههم، وجاءت هذه الحركة

المسرحية في الوقت المناسب. وكان «تشن» يفهم مواطنيه. فما دام هذا الرجل قد «قام بالدور» فلن يفعل شيئاً بعد ذلك. ووزع تشن الأسلحة وانصرف الثوار، وقد تسلحوا جميعاً هذه المرة، ولم تعد ثمة جدوى من احتلال مراكز صغيرة هذه المرة، ولم تعد ثمة جدوى من احتلال مراكز صغيرة للبوليس مجردة من السلاح. وتردد رجال البوليس، بعض ثلاثة منهم وهموا بالانضمام إلى الثوار (فلعلهم سيخرجون إلى النهب..)، ووجد مشقة في التخلص منهم، أما الآخرون فقد جمعوا أوراق اللعب، واستأنفوا اللعب.

قال أحدهم: لو أنهم انتصروا، فربما تقاضينا مرتباتنا هذا الشهر؟».

فأجاب الصول وهو يوزع أوراق اللعب: «ربما...».

«ولكن إذا هزموا، ربما قيل عنا إننا خائنون؟».

«وماذا كنا نستطيع أن نفعل؟ لقد خضعنا للقوة. ونحن نشهد جميعاً بأننا لم نكن أحراراً».

وأخذوا يتأملون موقفهم، وقد غاصت رؤوسهم بين أكتافهم، كطيور الغاق[1] إذا استغرقها الفكر.

قال أحدهم: «لسنا مسؤولين».

وصدقوا جميعاً قوله ذاك، ليواصلوا لعبهم في حانوت مجاور، ولم يستطع صاحبه أن يطاردهم، ولم يبق وسط مركز البوليس غير كومة وحيدة من ملابس الشرطة.

* * *

اتجه «تشن» يجاوره السرور والحذر ـ صوب أحد المراكز الرئيسية، وحدث نفسه قائلاً: «كل شيء على ما يرام، غير أن هؤلاء بؤساء مثلنا تقريباً... أما الروس البيض وجنود القطار المسلح فسيقاتلون. وكذلك الضباط. وكانت طلقات بعيدة، مكتومة كأن السماء الواطئة قد أضعفت من قوتها، تلطم الهواء متجهة صوب مركز المدينة.

وعند مفرق الطرق، تردد الرجال لحظة ـ وكانوا جميعاً مسلحين الآن حتى حملة الصفائح ـ وأخذوا يديرون بأعينهم باحثين. وكانت الطرادات والبواخر التي لا تستطيع تفريغ بضائعها ترسل سحباً كثيفة من الدخان، لا تلبث الريح الثقيلة أن تبددها في اتجاه الثوار، وكأن السماء تشارك في الثورة. وكان المركز الجديد فندقاً قديماً مشيداً من الطوب الأحمر ومؤلفاً من طابقين، وعلى كل جانب من جانبي الباب وقف حارس يمسك

(1) طائر مائي.

بندقية مشرعة الحربة. وكان تشن يعلم أن البوليس الخاص قد أخذ أهبته منذ ثلاثة أيام، وأن رجاله قد حطمتهم حالة التربص المستمرة. وكان في هذا المركز عدد من الضباط، وما يقرب من خمسين جندياً يحملون مسدسات الموزر، ويتقاضون مرتبات حسنة، وعشرة من الشرطة. يجب أن أعيش، أن أعيش ولو الأيام الثمانية القادمة على الأقل! وتوقف «تشن» عند منعطف الشارع. إن الأسلحة موجودة بلا شك على مشاجبها في الدور الأرضي، في الحجرة القائمة على اليمين، حجرة الحراسة التي تسبق مكتب الضابط، وإلى هذه الحجرة دخل تشن واثنان من رجاله عدة مرات خلال هذا الأسبوع. واختار تشن عشرة من رجاله بلا بنادق، وجعلهم يخفون مسدساتهم بين قمصانهم، وتقدم معهم. وما أن اجتازوا ناصية الشارع، حتى لمحهم الحارسان وهم يقتربون، بيد أنهما لارتيابهما في كل شيء، لم يعودا يرتابان في شيء، ذلك أن مندوبي العمال كانوا يأتون كثيراً ليتفاوضوا مع الضابط الوسيحي، يحملون إليه الرشاوى، وهي عملية كانت تستدعي وجود كثير من الضمانات والأشخاص.

قال تشن: «جئنا من أجل الملازم شواي - تون».

وبينما كان ثمانية من الرجال يمرون، تسلل الاثنان الاخيران منهم كأنما قد دفعهما الزحام بين الحارسين والجدار. وما أن وصل الأوائل إلى الدهليز حتى أحس الحارسان بفوهات المسدسات في جنوبهم. وتركا الرجال يجردونهما من أسلحتهما، فعلى الرغم من أنهما كانا يتقاضيان مرتبات أكبر من مرتبات زملائهما، إلا أنه لم تكن كافية للمجازفة بروحيهما. وأقبل أربعة من رجال تشن لم ينضموا إلى الجماعة الأولى، وإنما كانوا يتظاهرون بالسير في الشارع، فقادوهما بحذاء الحائط. ولم يكن ثمة شيء يبين من النوافذ.

ومن الدهليز أبصر «تشن» القوائم الخشبية عامرة بالبنادق. ولم يكن في حجرة الحراسة غير ستة من رجال الشرطة المسلحين بالغدارات الآلية، وكانوا يضعون هذه الأسلحة حول خصورهم في قراب مغلقة.

ووثب «تشن» أمام القوائم الخشبية وقد سدد مسدسه إلى الأمام.

ولو أوتي رجال البوليس شيئاً من العزم، إذن لباء الهجوم بالفشل. وعلى الرغم من معرفة «تشن» بهذه الأماكن إلا أن الوقت لم يتسع له لكي يشير على كل رجل من رجاله بالشخص الذي يجب أن يقوم بتهديده. وكان من الممكن أن يطلق النار واحد أو اثنان من رجال الشرطة. غير أن الجميع رفعوا أيديهم. وسرعان ما انتزعت منهم أسلحتهم. ودخل فريق آخر من رجال تشن، فبدأ توزيع جديد للأسلحة.

[illegible] قال تشن لنفسه: «يوجد في هذه اللحظة مائتا فريق يتصرفون مثلنا في المدينة. فإذا [illegible] مثل هذا الحظ...» وما كاد يأخذ البندقية الثالثة حتى تناهت إلى سمعه من السلم جلبة [illegible] مستعجل يصعد السلم ركضاً. وخرج. وفي هذه اللحظة التي اجتاز فيها الباب، [illegible] رصاصة من الطابق الأول. ولم يحدث شيء بعدها. كان أحد الضباط قد شاهد [illegible] من الدوار وهو يهبط فأطلق النار من السلم، ثم انسحب على التوالي إلى «السطح».

[illegible] القتال أن يبدأ.

[illegible] هناك باب وسط ردهة الطابق الأول يشرف على درجات السلم. فهل يبعث [illegible] من رجاله ليتفاوض على الطريقة الأسيوية؟ وكان «تشن» يمقت كل ما يرسب في [illegible] الحس الصيني السليم. غير أن محاولة الاستيلاء على السلم بطريق الهجوم كان معناها [illegible]. فليس من شك أن رجال البوليس يملكون قنابل يدوية. وكانت تعليمات اللجنة [illegible] التي نقلها «كيو» إلى جميع الفرق تقضي في حالة الفشل الجزئي بإشعال النار [illegible] المنازل المجاورة، وطلب المعونة من الفرق الخاصة. ولم يكن ثمة مفر من تنفيذ هذه التعليمات الآن.

- «أشعلوا النار!»

[illegible] الرجال الذين يحملون الصفائح أن يسكبوا البترين على الأرض وكأنهم يسكبون [illegible]. غير أن الفتحات الضيقة لم تكن تسمح إلا بانسكاب دفعات صغيرة هينة [illegible] من سكبه متمهلين على الأثاث، وعلى طول الجدران. وتطلع «تشن» من [illegible] فشاهد في مواجهته حوانيت مغلقة، ونوافذ ضيقة تشرف على مدخل المركز، [illegible] المنازل الخشبية البالية المحدودبة والسكون اللانهائي الذي تنشره سماء رمادية [illegible] دخان. سماء أليفة واطئة تجثو على الشارع المقفر. إن كل صراع عبث لا طائل [illegible] أن تصمد شيء في وجه الحياة، وثاب إلى نفسه في اللحظة المناسبة ليرى [illegible] وصراخها لتلاحقها محدثاً دوياً بلورياً ممتزجاً بصخب طلقة مدفع. لقد [illegible] عليهم من الخارج.

[illegible] الآن محصورين في تلك الحجرة التي انسكب فيها البترين بين [illegible] على الطابق الأرضي، والهاجمين الجدد الذين لا يرونهم [illegible] على [illegible] بينما فقد الأسرى من رجال البوليس في أخذ [illegible] واحترقوا جميعاً. وهجم أحد الرجال الراقدين، وهو [illegible] على أحد السقوف [illegible] وفي الشمال الأقصى من النافذة [illegible]

تحتف في المؤخرة في مجال النظر، وظهرت أكتاف أخرى في حذر.. كانوا ثواراً من رجالهم.

حدّث تشي نفسه قائلاً: «هؤلاء الحمقى يطلقون النار قبل أن يرسلوا طليعة من طلائعهم» وكانت في جيبه راية الكومسالح الزرقاء فأخرجها، وهرول إلى الدهليز. وفي اللحظة التي خرج فيها تلقى على حقويه ضربة عاصفة مكتومة في آن واحد، وفي الوقت نفسه تعددت فرقعة هائلة من سمعه حتى بطنه. وقذف بذراعيه إلى الوراء، بكل قوته كي يحتفظ بتوازنه، ولكنه وجد نفسه مطروحاً على الأرض، وقد أوشك أن يفقد وعيه.. لا حس ولا حركة، ثم سقط جسم معدني، واقتحمت الدهليز تأوهات يصحبها دخان وبيض. لم يكن قد جرح، ووارب - وهو يعرج - الباب الذي فتحه الانفجار الغامض، ومد الراية في الخارج، بذراعه اليسرى في المكان الخالي، وهو يتوقع أن تخترق راحته رصاصة بين لحظة وأخرى. ولكن، كلا، ها هم يصيحون صيحات الفرح. ومنعه الدخان الذي يخرج بطيئاً من النافذة من أن يرى الثوار الواقفين على اليسار، غير أن الثوار الذين يقفون على اليمين كانوا ينادونه.

وكاد الانفجار الثاني أن يطرحه على الأرض مرة أخرى. وكان رجال الشرطة المحاصرون يقذفون من نوافذ الطابق الأول بالقنابل اليدوية (كيف استطاعوا أن يفتحوا نوافذهم دون أن يصابوا من الشارع؟) وكان الانفجار الأول الذي ألقاه على الأرض، قد حدث أمام الدار، ودخلت الشظايا عن طريق الباب المفتوح والنافذة وكأنها انفجرت داخل حجرة الحراسة نفسها. وأما رجاله الذين لم يلقوا مصرعهم، فقد أفزعهم الانفجار إلى درجة أنهم قفزوا إلى الخارج، لا يكاد الدخان يحميهم. وأصابت النيران التي يطلقها رجال البوليس من النوافذ، اثنين منهم، فسقطا وسط الشارع، وقد انثنت ركبتاهما على صدريهما كأنهما أرنبان مذعوران، وسقط ثالث بوجهه في بقعة حمراء، فبدا وكأنه ينزف من أنفه. وتعرف المتطوعون على زملائهم، غير أن الحركة التي صدرت عن بعضهم حين نادوا على «تشي» قد أفهمت الضباط أن شخصاً سيخرج فألقوا بقنبلتهم اليدوية الثالثة، فانفجرت في الشارع، على يسار تشي: وهكذا حماه الجدار.

ومن الفناء، أخذ يتفحص حجرة الحرس، وعاد الدخان إلى الهبوط من السقف، في حركة منحنية بطيئة. وكانت هناك أجسام ملقاة على الأرض، والتأوهات تنبعث من الأرض فتملأ جو الحجرة، كالنشيج. وفي ركن الحجرة، كان أسير طارت ساقه يصرخ في زملائه طالباً منهم أن يكفوا عن إطلاق النار.. وكان يبدو أن صرخاته اللاهثة [illegible] الدخان الذي استمر على الرغم من العذاب السائد في استثارة المنحنى لا يبالي [illegible]

[illegible] مرتي. لم يكن هذا الرجل الذي يعوي بعد أن فقد ساقه.. لم يكن يستطيع أن يظل [illegible] غطاء، فهذا محال. ومع ذلك، ألن تنفجر بين لحظة وأخرى قنبلة يدوية جديدة؟ وقال تشي لنفسه: «هذا شيء لا يخصني.. فهو عدوي» ولكن.. هذا الثقب في الجسم بدلاً من الساق.. وصاحبه مربوط!! إن العاطفة التي يعانيها «تشي» كانت أقوى كثيراً من الشفقة: لقد كان هو نفسه هذا الشخص المربوط. «لو انفجرت القنبلة اليدوية في الخارج، فسوف أنطرح على بطني، وإذا تدحرجت إلى هنا، فيجب أن أقذفها فوراً. وحينئذ تكون فرصة نجاتي واحداً على عشرين. ماذا يخصني من هذا كله؟ ماذا يخصني من هذا كله؟» أن أقتل. هذا شيء قليل الأهمية وإنما كان مصدر قلقه أن يصاب في بطنه، وإن هذا أخف وطأة من منظر هذا الرجل المعذب المربوط، هذا العجز الانساني في أثناء الألم. ودون أن يملك من أمره شيئاً، اندفع صوب الرجل، وقد شهر سكينه ليقطع الحبال، وظن الأسير أنه يهم بقتله، فأراد أن يصرخ، غير أن صوته أصيب بضعف مفاجئ، فخرج من فمه فحيحاً. تحسسه تشي - وقد استبد به الذعر - بيده اليسرى فالتصقت بها ثيابه الملطخة بالدماء اللزجة، دون أن يستطيع في الوقت نفسه أن يحول عينيه عن النافذة المكسورة التي يمكن أن تسقط منها القنبلة اليدوية. وأحس «تشي» أخيراً بملمس الحبال، فأدخل السكين تحتها، وقطع.. وكف الرجل عن الصراخ: لعله مات، أو لعله فقد وعيه. وعاد «تشي» إلى الدهليز، مسدداً بصره على النافذة المحطمة، وأدهشه التغير الذي طرأ على رائحة المكان، وأدرك كذلك أن أنات الجرحى قد تغيرت هي أيضاً فتحولت إلى عواء. وفي الحجرة بدأت بقايا الأثاث المشربة بالبنزين - وقد أشعلتها القنابل اليدوية - في الاحتراق.

لم يكن هناك ماء. وعلى هذا سيتحول الجرحى (لم يعد يحسب الآن حساباً للأسرى، إلا أن همه متجهاً إلى رجاله) إلى عظام محترقة قبل أن يستولي الثوار على المركز. الخروج، الخروج! ولكن لابد من التفكير أولاً حتى يقوم بأقل ما يمكن من الحركات. وعلى الرغم من [illegible] يتحتم، إلا أن نفسه التي سيطرت عليها فكرة الفرار لم تكن مفتقرة تماماً إلى [illegible]. [illegible] أن يتجه إلى اليسار ليحتمي بالرواق. وفتح الباب بيده اليمنى، وهو يشير [illegible]. ولم يكن أعداؤه الموجودون في الطابق العلوي يستطيعون رؤيته، وإنما يستطيعون أن يستدلوا على حركاته من تصرفات الثوار وحدها. وشعر أن نظرات [illegible] مسددة على هذا الباب المفتوح، وعلى شبحه المكور، الذي يبدو أزرق اللون في حافة الدهليز الداكنة. وشرع ينسل إلى [illegible]، ملتصقاً بالجدار، وقد شبك ذراعيه على صدره كالصليب، وأمسك بيده اليمنى، وطفق يتقدم خطوة خطوة، ناظراً إلى النوافذ

القائمة فوق رأسه ؛ وكانت إحداها محصنة ضد الرصاص بلوح من الصلب أشبه بالمظلة. ولهذا كان الثوار يطلقون الرصاص على النوافذ دون جدوى ؛ أما القنابل اليدوية فكانت تلقى من تحت تلك المظلة. وقال تشن لنفسه إذا حاولوا أن يقذفوا بقنبلة يدوية فسوف أراها ، كما سألمح الذراع التي لا بد أن تمتد تحت المظلة لتلقي بالقنبلة. فإذا لمحتها ، فلا بد أن أسددها كاللفافة ، وأن ألقي بها إلى أبعد مكان ممكن... ، ولم يتوقف عن تسلله المنحرف. «لن أستطيع أن أقذف بها بعيداً بما فيه الكفاية ، فأتلقى حفنة من الشظايا في أحشائي... » واستمر في تقدمه. وأدرك من رائحة الاحتراق الشديد ، ومن انتهاء الحائط الذي يستند إليه انتهاء مفاجئاً خلفه (ما كان يلتفت وراءه) ، أدرك أنه يمر أمام نافذة الطابق الأرضي. «إذا أمسكت بالقنبلة اليدوية ، فسألقيها على حجرة الحرس قبل أن تنفجر. وبوجود الحائط السميك خلفي بعد أن أجتاز النافذة.. سوف أنجو. وما أهمية ألا تكون غرفة الحرس خالية ، أو أن يكون بها ذلك الرجل الذي قطع حباله ـ أو الجرحى من رجاله أنفسهم! ولم يتبين الثوار ، ولو من الفجوات الموجودة في الدخان ، إذ لم يكن يستطيع أن يحول عينه عن المظلة ؛ ولكنه كان يشعر دائماً بالنظرات التي تتعقبه ؛ وعلى الرغم من الرصاص المنهمر على النوافذ والذي كان يضايق رجال الشرطة ، فقد أدهشه أنهم لا يدركون أن شيئاً ما يحدث. وخطر له فجأة أنهم لا يملكون غير قليل من القنابل اليدوية ، ولهذا فإنهم يترقبون اللحظة المناسبة قبل أن يقذفوا بها. وعلى الفور ، كأن هذه الفكرة قد طرأت على عقولهم في هذه اللحظة نفسها ، ظهر رأس تحت المظلة ، لا يراه الثوار ، ولكنه يراه هو. وفي حركة خاطفة ، تخلى عن وضع الراقص على الحبل ، وأطلق النار ، ثم وثب إلى الأمام فاحتمى بالباب وانثال الرصاص من النوافذ وانفجرت قنبلة يدوية في الموضع الذي تركه منذ لحظة. وكان رجل البوليس الذي أخطأه حين أطلق النار قد تردد قبل أن يمد يده التي تمسك بالقنبلة تحت المظلة خوفاً من رصاصة ثانية. وتلقى «تشن» ضربة في ذراعه اليسرى. كان مجرد اندفاع للهواء أثر على الجرح الذي أحدثه بالخنجر قبل أن يغتال «تان ـ ين ـ تا» وتوقف هذا الجرح من جديد ، ولكنه لم يعد يؤلمه. وضغط على الضمادة بمنديل ، ثم لحق بالثوار عن طريق الأفنية.

وكان المقرئون الهجوم يجتمعون في ممر حالك الظلمة.

ـ «أما كنتم تستطيعون أن ترسلوا رجال استطلاع؟...»

ونظر رئيس الجماعة «تشون» ، وهو صيني ضخم حليق ، يرتدي ثوباً قصير الأكمام جداً ، نظر إلى هذا النطف المضرب ، وهو حاجبه ببطء متسائلاً ثم أجاب في بساطة :

ـ «لقد اتصلت تلفونياً ، ونحن ننتظر الآن سيارة مصفحة.»

ـ «لقد استولينا على نصف مراكز الشرطة.»

ـ «ولا شيء أكثر من ذلك؟»

ـ «هذه بداية طيبة جداً.»

كانت الانفجارات البعيدة التي تصل إلى أسماعهم ، هي الانفجارات التي يحدثها رجالهم الذين يتقاطرون صوب محطة الشمال.

كان «تشن» يلهث ، وكأنه أخرج من الماء وسط يوم عاصف. واستند على الجدار الذي يحميهم جميعاً ، وأخذ يسترد أنفاسه شيئاً فشيئاً ، وهو يفكر في الأسير الذي قطع حباله. «كان ينبغي أن أترك هذا الرجل وشأنه ، فلماذا أقطع حباله ، ما دامت هذه الفعلة لن تغير من أمره شيئاً؟» وهل يستطيع الآن بعد هذا كله أن يرى هذا الرجل الذي كان حبيساً في قيوده ، وقد بترت ساقه؟ وتذكر «تان ـ ين ـ تا» حين أحس بجرحه. كم كان طويلاً طيلة تلك الليلة ، وطيلة ذلك الصباح! لا شيء أبسط من القتل!

وفي مركز الشرطة ، كان الحطام يحترق تماماً ، والجرحى يتأوهون دائماً عند اقتراب ألسنة اللهب. وكانت صرخاتهم المتكررة المستمرة ترن في ذلك الممر المنخفض. وقد زادها قوة تشكل غريب ابتعاد الانفجارات ، وصفارات السفن ، وكل ما تشيعه الحرب من ضجيج لا يلبث أن يبدده الهواء الكثيف. واقترب صوت صليل معدني بعيد ، حتى طغى على كل شيء... لقد وصلت سيارة النقل... وكان قد تم تصفيحها أثناء الليل بصورة بدائية. إذ كانت جميع الصفائح غير مستقرة تماماً في أماكنها. وانقطع هذا الصرير بعد انعدام «الفرامل» فتناهت الصرخات إلى الأسماع مرة أخرى.

وعرض «تشن» وهو الوحيد الذي كان قد اقتحم المركز الموقف على رئيس فريق الهجوم ، وكان طالباً سابقاً بالكلية الحربية بـ «وامبوا». وكان «تشن» يفضل على هذا الصيني الكئيب الشبان البورجوازي ، إحدى جماعات كانتون. وإذا كان لم يستطع أمام هؤلاء الرفاق الذين لقوا مصرعهم وسط الشارع ، وقد انكمشوا على أنفسهم ، أن يعبر المودة التي يحملها لهم ، فقد كان يعرف أنه يمقت البورجوازية الصينية دائماً وأبداً ، وكانت البروليتاريا من محبة ذاته.

وكان الضابط لا يعرف مهمته. فقال : «لا جدوى من السيارة ، فليس لها ولو مجرد سقف يحمي من يقذفها بقنابل يدوية داخلها لكي يحطم كل شيء. غير أنني أتيت بقنابل يدوية أيضاً. وأين رجال الذين يحملون قنابل يدوية فانتهين في غرفة الحرس ، فهل قتلوا؟ أما رجال الفريق الثاني فلم يستطيعوا أن يقضوا على قنابل

ـ « فلنحاول السيطرة عليهم من فوق » .

فقال تشن : « اتفقنا » .

ونظر إليه الضابط في حنق ، إنه لم يسأله رأيه ، ولكنه لم يقل شيئاً . وأخذ الاثنان يفحصان المركز : الضابط الذي تدل عليه سحنته العسكرية رغم زيه المدني ، بشعره القصير وشاربه القصير ، وسترته التي يضبطها بحزام يتدلى منه مسدس ، وتشن بجسمه المكتنز الربعة وقميصه الأزرق . ومن يمين الباب ، كان دخان النيران التي تقترب من أجسام زملائهم الجرحى ، يخرج في انتظام آلي ، وفي إيقاع أشبه بإيقاع الصرخات التي جعلها انتظامها طفولية ، بعد أن انتزع منها طابعها الوحشي . وعلى اليسار ، لم يكن شيء . وكانت نوافذ الطابق الثاني قد أسدلت عليها مصاريعها . . . ومن حين إلى آخر كان أحد المهاجمين يطلق النار على إحدى النوافذ ، فتتكدس على الرصيف كمية أخرى من الحطام فوق بقايا الجبس والطوب والأخشاب حيث تلمع قطع من الزجاج على الرغم من ذلك اليوم الأغبر . ولم يعد المركز يطلق النار إلا حين يغادر أحد الثوار مخبأه .

وسأل تشن من جديد : « ما حال الأقسام الأخرى ؟ »

ـ « لقد تم الاستيلاء على جميع المراكز تقريباً . وسقط المركز الرئيسي بطريق الهجوم المفاجيء في الساعة الواحدة والنصف ، وهناك وضعنا أيدينا على كمالة بندقية ونستطيع الآن أن نرسل إمدادات ضد المراكز التي ما زالت تبدي شيئاً من المقاومة . . إنكم ثالث فريق نهرع لنجدته . أما أعداؤنا ، فقد انقطعت عنهم المعونة ، إذ حاصرنا الثكنات ، ومحطة الجنوب ، والترسانة . ولكن يجب أن نحسم الأمر هنا . لأننا نحتاج إلى أكبر عدد ممكن من الرجال للهجوم ويبقى بعد ذلك القطار المسلح » .

وكانت فكرة قيام مائتي جماعة بعمل شبيه بما تقوم به جماعته تبعث الحماس في نفس « تشن » ، وتزعجه في آن واحد . فعلى الرغم من طلقات الرصاص التي كان النسيم الواهن يحملها من كافة أرجاء المدينة ، كان العنف يوحي إليه بإحساس العمل المنعزل .

أحد رجل دراجة من السيارة ، وركبها ، ومضى . وتعرف عليه تشن في اللحظة التي امتطى فيها الدراجة . إنه « ما » أحد محركي الثورة الرئيسيين ، وقد رحل ليطلع اللجنة العسكرية على الموقف . وكان « ما » عاملاً من عمال الطباعة قد نذر حياته كلها ـ منذ أن كان في الثانية عشرة من عمره ـ لانشاء اتحادات لعمال الطباعة في كل مكان ، على أمل تجميع عمال الطباعة الصينيين قاطبة ، وتعقبته الحكومة ، وحكم عليه بالإعدام ، وتمكن من الفرار ، دون أن يكف قط عن تنظيم حركته . وانطلقت صيحات الفرح ، ففي الوقت الذي تعرف عليه تشن ، تعرف عليه بقية الثوار ، فأخذوا يهللون له . وتطلع إليهم . إن العالم الذي يعده هؤلاء الرجال معاً ، إنما يقضي عليه كما يقضي على عالم أعدائه . . فماذا عسى « تشن » أن يفعل في مصنع المستقبل المحتجب وراء ثيابهم الزرقاء ؟

ووزع الضابط القنابل اليدوية ، ودلف عشرة من الرجال عن طريق أسطح المنازل ليحتلوا مكاناً يطل على سطح المركز . وكان لا بد لهزيمة رجال البوليس من استخدام أساليبهم نفسها ، وإدخال المتفجرات عن طريق النوافذ . وهذه النوافذ تسيطر على الشارع لا على سقف المركز . ولم تكن هناك سوى نافذة واحدة تحميها ظلة . وتقدم الثوار قفزاً من سطح إلى سطح . ولم يدخل المركز أي تعديل على اتجاه تصويب النيران . ولعل المحتضرين وحدهم هم الذين كانوا يستطيعون التنبؤ بهذا الاقتراب ، إذ تحولت الصرخات فجأة فصارت تأوهات خافتة لا تكاد تسمعها الأذن . لقد أصبحت الآن صرخات مكتومة لرجال أقرب إلى البكم . وبلغت أطياف الثوار ذروة سقف المركز المنحدر ، ثم هبطت رويداً رويداً ، ولم يعد « تشن » يتبينها بوضوح بعد أن لم تعد صفحة السماء وراءها . وترددت آهة صادرة من حلق امرأة تلد . فقطعت على الأنات التي لم تلبث أن اتصلت كأنها الصدى ، ثم انقطعت .

وعلى الرغم من الضجة ، فإن انقطاع الصرخات المفاجئ كان له وقع الصمت المخيف : هل بلغت النيران الجرحى ؟ وتبادل « تشن » والضابط النظرات ، ثم أغمضا أعينهما حتى يتمكنا من الانصات . لا شيء . وفتح كل منهما عينيه ، فالتقى بنظرة الآخر الصامتة .

ومد أحد الرجال ـ وكان يستند على ديكور بارز في السقف ـ مد ذراعه الخالية فوق الشارع ، وقذف بقنبلته اليدوية صوب نافذة الطابق الثاني التي يعلوها ، ولكن القنبلة وصلت إلى مكان منخفض جداً ، فانفجرت على الرصيف . فقذف بقنبلة أخرى ، فدخلت إلى الحجرة التي يوجد بها الجرحى . وانطلقت الصرخات من النافذة المصابة . . . ولم تكن شبيهة بالصرخات التي انطلقت منذ لحظة ، وإنما عواء متهدج يسبق الموت ، أو هي طفرة من الألم لم يستعد بعد . وألقى الرجل بقنبلته اليدوية الثالثة ، فأخطأ النافذة مرة أخرى .

كان هذا الرجل واحداً من الرجال الذين أتت بهم سيارة النقل . . . وكان قد تراجع في ذراعه إلى الخلف ، خوفاً من أن تصيبه الشظايا ، وانحنى من جديد ، وقد رفع ذراعه المنتهية بقنبلة ، وهبط خلفه أحد . وقال تشن : ولم ينخفض ذراعه وإنما انحرف جسمه كله كأنه ... وترتب انفجار شديد على الرصيف . وعلى الرغم من الدخان ظهرت على الجدار بقعة من الدماء طولها حوالي متر . وانجلى الدخان ، فبدا الجدار ملطخاً بالدم واللحم . كان

الثائر الثاني قد فقد توازنه، فانزلق كله على طول السقف، واكتسح حينئذ الثائر الأول، وسقط الاثنان على قنبلتيهما المنزوعتي السدادتين.

وعلى الجانب الأيسر من السطح، وصل في حذر رجال من الفريقين، فريق الكومنتانج البورجوازي، وفريق العمال الشيوعيين. وكانوا قد توقفوا حين حدث ذلك السقوط، ولكنهما استأنفا النزول من جديد، ذلك أن إخماد حركة فبراير كلفهم ثمناً باهظاً من التعذيب، وبذلك لم تكن الثورة تفتقر إلى رجال حزموا أمرهم على الكفاح. وتقدم من اليمين رجال آخرون، وهنا صاح تشن من أسفل قائلاً: «تماسكوا كالسلسلة!» وأخذ الثوار القريبون من المركز يرددون صيحته. وأمسك الرجال أيدي بعضهم البعض، وأحاط أعلاهم بقوة حلية راسخة زين بها السطح - بذراعه اليسرى. واستأنفوا إلقاء القنابل اليدوية، ولم يعد المحاصرون من رجال البوليس يستطيعون الرد عليهم.

وفي خمس دقائق، نفذت ثلاث قنابل يدوية إلى داخل المركز عن طريق نافذتين مقصودتين، ودمرت قنبلة أخرى الظلة التي كانت تحمي إحدى النوافذ، وكانت النافذة الوسطى وحدها هي التي أفلتت من القنابل. صاح طالب الحربية السابق: «النوافذ الوسطى!» ونظر إليه تشن، إن هذا الرجل يشعر بمتعة في إصدار الأوامر وكأنه يمارس رياضة مثالية. ولم يكن يهتم بحماية نفسه، إنه شجاع بلا شك، ولكنه لم يكن مرتبطاً برجاله. أما «تشن» فقد كان مرتبطاً برجاله، وإن يكن ارتباطاً غير كاف.

وترك طالب الحربية السابق، واجتاز الشارع خارج المنطقة التي يطلق عليها المحاصرون النيران. وبلغ سطح المركز. وبدأ الرجل المستند إلى دعامة يتخاذل: فحل «تشن» مكانه. وعلى الرغم من ذراعه الجريحة التي أحاط بها تلك الدعامة المشيدة من الأسمنت والحصى، ويده اليمنى التي يمسك بها أول رجل في السلسلة، على الرغم من ذلك، فإنه لم يستطع أن يفلت من إحساسه بالعزلة وكان ثقل الرجال الثلاثة الذين ينزلقون معلقاً بذراعه، ونافذاً إلى صدره كأنه قضيب حاجز وكانت انفجارات القنابل اليدوية تتوالى داخل المركز الذي انقطع عن إطلاق النار. وقال تشن لنفسه: «إن المخزن من تحت السقف يحمينا، غير أن هذه الحماية لن تستمر طويلاً، فسوف يتدمر السطح». وعلى الرغم من اقتراب الموت منه ذلك الاقتراب الحميم، وعلى الرغم من ذلك الثقل الأخوي الذي يكاد يشطره شطرين، فإنه لم يكن منهم. «هل معنى ذلك أن الدم نفسه عبث في عبث؟».

وكان طالب الحربية السابق ينظر إليه من أسفل دون أن يفهم شيئاً، وعرض أحد الرجال الذين صعدوا خلف «تشن»، أن يحل محله

- فليكن.. وسأقذف بنفسي».

[illegible] هذه السلسلة من الأجسام. وفي عضلاته المكدودة تمشي يأس لا حدود له. كان [illegible] الذي يشبه وجه البوم بعينيه الضيقتين، متوتراً ساكناً تمام السكون، وأحس بدمعة [illegible] على حافة أنفه، فانتابه الذهول، وناجى نفسه قائلاً: «هذا من تأثير النوبة العصبية». [illegible] قنبلة يدوية من جيبه، وشرع في النزول مستنداً إلى أذرع الرجال المتشابكة في [illegible]. ولكنه بعد عنف المجهود الذي لا بد قد بذله لتدعيم الصف، بدا له أن ذراعيه قد [illegible] أنهما لا تطيعانه، وكانت السلسلة ترتكز على (الديكور) الذي ينتهي به السطح على [illegible]. وحين وصل «تشن» إلى قاع السطح، ترك ذراع الشخص الذي كان يقذف [illegible]، وتعلق بساقه، ثم بالمزراب، وهبط عن طريق الأنبوبة العمودية: لقد كان بعيداً [illegible] النافذة بحيث لا يستطيع لمسها، ولكنه كان قريباً بحيث يستطيع أن يرمي بقنبلته. ولم [illegible] يزالوا يتحركون. وفوق الطابق الأرضي أتاح له نتوء في الجدار أن يقف لحظة، وأدهشه [illegible] جرحه لا يؤلمه إلا ذلك الألم الهين. وأخذ يزن في يده قنبلته الأولى وقد فتحها، وهو [illegible] بيده اليسرى أحد الخطافات التي تثبت المزراب في الجدار وقال لنفسه: «إذا سقطت [illegible] القنبلة في الشارع تحتي فسأكون من الهالكين». وقذف بها بأقصى قوة يسمح بها وضعه: [illegible] وانفجرت في الداخل.

وهناك في أسفل المركز، استؤنف إطلاق النار.

ومن باب المركز الذي بقي مفتوحاً، ألقى رجال البوليس - الذين طردوا من الحجرة [illegible] المحترقة - بأنفسهم وهم يطلقون النار جزافاً كالعميان المذعورين. ومن الأسطح، والأروقة، والنوافذ، كان الثوار يطلقون بنادقهم. وأخذت الأجسام تتساقط الواحد إثر الآخر، عديدة عند الباب، متناثرة في الأماكن الأخرى.

وتوقف إطلاق النار، وهبط «تشن» وهو معلق بالمزراب، دون أن يرى قدميه، وقفز [illegible] فوق إحدى الجثث.

ودخل طالب الحربية السابق إلى المركز وتبعه «تشن» وهو يسحب من جيبه القنبلة التي لم [illegible] بها بعد. وفي كل خطوة، كان وعيه يزداد حدة بانقطاع أنين الجرحى. لم تعد [illegible] تضم غير أموات. أما الجرحى فقد احترقت أجسادهم. وفي الطابق الأول، [illegible] من القتلى، وبعض الجرحى.

قال [illegible]: «والآن، هيا بنا إلى محطة الجنوب، ولنأخذ البنادق كلها فربما احتجنا [illegible] إليها في الحرب».

ونقلت الأسلحة إلى سيارة النقل. وحين تم جمعها كلها، قفز الرجال إلى السيارة، وظلوا واقفين، متكتلين، أو جالسين على غطاء السيارة، أو ملتصقين بالسلم، أو متعلقين بالمؤخرة. أما الباقون، فقد شرعوا في السير بخطوة رياضية عن طريق الأزقة. وبدت بقعة الدم الكبيرة التي خلفوها وراءهم، بلا تفسير وسط الشارع المهجور، واختفت السيارة في منعطف الشارع، وقد تكدس فيها الرجال وأخذت تقعقع قعقعة الصفيح، متجهة صوب الثكنات ومحطة الجنوب.

وكان لا بد أن تتوقف: ذلك أن الشارع كان مسدوداً بأربعة جياد مقتولة، وثلاث جثث مزروعة السلاح، وكانت هذه الجثث هي جثث الفرسان الذين شاهدهم «تشن» في مطلع النهار. فقد وصلت السيارة المصفحة الأولى في الوقت المناسب. وعلى الأرض تناثر زجاج النوافذ، ولكن لم يكن ثمة إنسان، اللهم إلا شيخ صيني ذو لحية مدببة يئن ويتوجع. وما أن اقترب منه تشن، حتى قال بلهجة واضحة:

ـ « هذا أمر جائر، ومحزن جداً. أربعة! أربعة! أربعة! وا أسفاه! ».

فقال تشن: « ثلاثة فحسب ».

ـ « أربعة، وا أسفاه! »

ونظر تشن من جديد: لم يكن هناك غير ثلاث جثث، واحدة ترقد على جنبها كأنما ألقيت في مهب الريح، واثنتان منكفئتان على بطنهما، بين المنازل الميتة كذلك، تحت سماء ثقيلة الوطأة.

قال الشيخ في لهجة يمتزج فيها الاحتقار بالخوف: « إنما أتحدث عن الجياد ». وقبض «تشن» على مسدسه.

ـ « أما أنا، فأتحدث عن الرجال. هل تملك أحد هذه الجياد؟ »

لم يكن من شك أنها أخذت من أصحابها هذا الصباح.

ـ « كلا... ولكني كنت حوذياً... الحيوانات، التي أعرفها جيداً... أربعة قتلت! دونما سبب على الإطلاق! »

وتدخل السائق في الحديث:

ـ « دونما سبب؟ »

فقال تشن: « لا داعي لإضاعة الوقت ».

وساعده اثنان من الرجال على إزاحة الخيول. ومرت السيارة وفي أقصى الشارع، أرسل تشن ـ الذي كان يجلس على أحد سلالم العربة ـ بصره إلى الوراء، كان الجواد [illegible] ما

زال قابعاً بين الجثث، يتأوه بلا شك، وقد بدا كالشبح الأسود في الشارع الرمادي.

* * *

الساعة الخامسة

« لقد سقطت محطة الجنوب. »

ووضع « فيرال » سماعة التليفون مكانها، وبينما كان يعطي مواعيد (كان شطر من الغرفة التجارية الدولية معارضاً لكل تدخل، ولكنه كان يسيطر في الوقت نفسه على أكبر صحيفة في شنغهاي)، كانت أنباء تقدم الثورة تبلغه نبأ وراء الآخر. وكان يريد أن يتصل تليفونياً بأل الفراد، فعاد إلى حجرة مكتبه حيث كان مارسيال الذي وصل لتوه يناقش مبعوث شانج ـ كاي ـ شيك: وكان هذا المبعوث قد رفض مقابلة رئيس البوليس سواء في إدارة الأمن أو في منزله. وقبل أن يفتح الباب سمع فيرال هذا القول على الرغم من الضجة التي يحدثها إطلاق النيران:

ـ « أنا، كما تفهم، ماذا أمثل هنا؟ المصالح الفرنسية... »

فأجابه الرجل الصيني في لهجة من الالحاح المتراخي: « ولكن أية معونة أستطيع أن أعد بها؟ إن القنصل العام نفسه أخبرني بأن انتظر منكم تعليمات محددة. لأنكم تعرفون بلادنا وشعبها... معرفة جيدة جداً. »

ورن جرس التليفون في الاستديو.

وقال مارسيال: « لقد سقط المجلس البلدي. » ثم غير لهجته وقال:

ـ « لا أقول إنه ليست لدي خبرة نفسية معينة بهذه البلاد، وبالناس بوجه عام. علم النفس والفعل، هذان هما مهنتي، وعليهما... »

ـ « غير أن أولئك الأفراد خطرون بالنسبة لبلادكم، كما هم خطرون بالنسبة لبلادنا. بل إنهم خطرون على سلام المدينة... ماذا لو أنهم التجأوا ـ كما يفعلون دائماً ـ إلى منطقة الامتيازات؟ إن البوليس الدولي... »

وحدث فيرال نفسه قائلاً وهو يدخل: « ها نحن أولاء... إنه يريد أن يعرف ما إذا كان مارسيال في حالة قطع العلاقات، سيسمح لزعماء الشيوعيين بالالتجاء إلينا. »

ـ « [illegible] قد وعدنا بكل رعايته... فماذا سيفعل البوليس الفرنسي؟ »

ـ « سندبر الأمر... ولكن، انتبه فقط إلى أننا لا نريد فضائح مع السلطات [illegible] [illegible] فلدي فيما يتعلق بهذا الأمر تعليمات مشددة. ولكني أصرح لك بأنها ليست رسمية... ليست رسمية »

وفي الأستديو العصري الذي علقت على جدرانه لوحات من رسم بيكاسو في مرحلته الوردية، وتخطيط لمنظر غرامي بريشة فراجونار. كان المتحدثان يقفان كل على جانب من جانبي تمثال ضخم من الحجر الأسود للإله «كوانين» يرجع تاريخه إلى أسرة تانغ. أشار بشرائه كلاييك. بينما كان «جيسور» يعتقد أنه زائف. وكان الرجل الصيني، وهو كولونيل شاب، مقوس الأنف، يرتدي الملابس المدنية. وقد زر سترته من أعلاها إلى أسفلها - كان ينظر إلى مارسيال مبتسماً ورأسه مائل إلى الوراء.

- «أشكرك باسم حزبي. إن الشيوعيين خونة أوغاد: فهم يخدعوننا نحن حلفاءهم الأوفياء. وقد تم الاتفاق على أن نتعاون معاً، على أن نطرح المسألة الاجتماعية حين يتم توحيد الصين ومع ذلك فإنهم يثيرون هذه المسألة الآن. إنهم لا يحترمون ما بيننا من اتفاق، وهم لا يعملون من أجل الصين، وإنما من أجل السوفييت. وأولئك القتلى الذين فقدهم الجيش، لم يقتلوا من أجل السوفييت، بل في سبيل الصين. إن الشيوعيين قادرون على اقتراف كل شيء، ولهذا ينبغي أن أسألك، يا سيدي المدير، هل يعارض البوليس الفرنسي في اتخاذ الاحتياطات اللازمة لسلامة الجنرال الشخصية؟»

وكان من الواضح أنه طلب نفس الخدمة من البوليس الدولي.

وأجاب مارسيال: «كلا... على الإطلاق.. ارسل لي رئيس شرطتكم، أما زال هو كونيج»؟»

- «أجل، إنه هو دائماً. أخبرني يا سيدي المدير: هل درست التاريخ الروماني؟»

- «بالطبع.»

وقال فيرال لنفسه: «في مدرسة مسائية.»

ورن جرس التليفون من جديد، فتناول مارسيال السماعة.

وقال وهو يعيدها إلى مكانها: «استولوا على الكباري. في خلال ربع ساعة، ستكون الثورة قد احتلت المدينة.»

واستطرد الرجل الصيني وكأنه لم يسمع شيئاً: «من رأيي أن فساد الأخلاق هو سبب انهيار الإمبراطورية الرومانية. ألا تعتقد أن تنظيماً فنياً للدعارة، تنظيماً على الطراز الغربي لتنظيم البوليس مثلاً - يكفي للقضاء على حكام هانكاو، الذين لا يتساوون بالطبع مع حكام الإمبراطورية الرومانية؟»

- «إنها فكرة. ولكني لا أظن أنه من الممكن تطبيقها. ولا بد من إمعان الفكر.»

- «لن يفهم الأوروبيون من الصين إلا ما يشابههم.»

[illegible] ساد الصمت. وكان فيرال يستمتع بهذه اللحظة. إن هذا الصيني يثير فضوله: هذا [illegible] المائل إلى الوراء، بما يكاد يرتسم عليه من ازدراء، وهذا التحرج في الوقت نفسه.. [illegible] في ذهنه «هانكيو تغرقها القطارات المحملة بالعاطلات».. وإنه ليعرف الشيوعيين! [illegible] يكون ملماً بالاقتصاد السياسي، مدهش!...» وربما كان بعض السوفييت يتأهبون في [illegible] بينما يحلم هذا الرجل بالعظات والعبر التي يمكن أن يستخلصها من الإمبراطورية [illegible] «إن جيسور على حق، فهم يبحثون دائماً عن الألاعيب.»

[illegible] دق التليفون مرة أخرى.

[illegible] قال مارسيال: «الثكنات محاصرة. وامدادات الحكومة لا تصل إليها.»

[illegible] قال فيرال: «ومحطة الشمال؟»

- «لم يستول عليها الثوار بعد.»

- «إذن تستطيع الحكومة أن تعيد بعض قواتها من الجبهة؟»

فقال الصيني: «ربما، يا سيدي، إنها تسحب جنودها ودباباتها وتوجهها إلى نانكين، وتستطيع أن تبعث بها إلى هنا، كما يستطيع القطار المصفح أن يقاتل قتالاً جدياً.»

واستطرد مارسيال قائلاً:

[illegible] حول القطار والمحطة، يستطيعون الصمود. إن كل ما يستولون عليه ينظمونه [illegible] ربما تخطفهم، وليس من شك أن وراء الثورة روساً أو أوربيين. والموظفون الثوار [illegible] الإدارة هم الذين يرشدون الثوار. وهناك خطة عسكرية تشرف على كل شيء. [illegible] كله قد جرد الآن من سلاحه. وللحمر مراكز للتجمع يوجه منها الجنود ضد [illegible]

[illegible] «الصينيون ملكة تنظيم عظيمة.»

[illegible] تشانج - كاي - شيك؟»

[illegible] دائماً سيارة حرسه الخاص، كما إن لنا جواسيسنا.»

[illegible] أسيراً [illegible] هذا الوضع المتعالي الذي يتخذه رأس هذا الصيني، والذي [illegible] في البداية دائماً أن الضابط ينظر من فوق كتفي مارسيال إلى [illegible] لقد كانت متساوية على عين الضابط السنى ترغمه على أن ينظر [illegible]

[illegible] لا يكفي. ولا بد من ترتيب الأمور. وكلما أسرعنا كان [illegible]

أفضل. والآن، يجب أن أنصرف. فنحن بصدد انتخاب اللجنة التنفيذية التي ستتولى سلطة الحكومة. وهناك، ربما أستطيع أن أصنع شيئاً. كما أن أمامنا أيضاً مسألة انتخاب المحافظ، وهو منصب لا يستهان به...»

وبقي فيرال والضابط وحدهما...

قال الصيني ورأسه مطروح إلى الوراء: «إذن نستطيع يا سيدي أن نعتمد عليك من الآن؟»

فأجاب فيرال: «إن ليو – بي – يو ينتظر.»

وكان ليو – بي – يو هو رئيس رابطة رجال البنوك في شنغهاي، ورئيس شرف الغرفة التجارية الصينية. كما كان على اتصال برؤساء المدمجات جميعاً، ولهذا فإنه يستطيع أن يتصرف في هذه المدينة الصينية التي بدأت تقع بلا شك في أيدي الثوار – خيراً مما يستطيع فيرال أن يتصرف في مناطق الامتيازات. وانحنى الضابط مستأذناً في الانصراف. وصعد فيرال إلى الطابق الأول. وهناك، في ركن من حجرة مكتب حديثة الطراز، مزينة في أرجائها جميعاً بتماثيل من العصور الصينية القديمة، كان ليو – بي – يو ينتظر حقاً في رداء من قماش أبيض سميك فوق صديري بلا ياقة، أبيض كشعره القصير ويداه ممسكتان بذراعي مقعده – المصنوعتين من أنابيب طليت بالنيكل. وكان وجهه كله مركزاً في فمه وفكيه، وكأنه ضفدعة عجوز تتوثب نشاطاً.

وظل فيرال واقفاً:

– «أنت مصر على الخلاص من الشيوعيين.» ولم يكن يسأل، وإنما كان يؤكد. «ونحن أيضاً. كما يبدو ذلك بكل جلاء.» وبدأ يذرع الغرفة، وقد ألقى بكتفيه إلى الأمام. «إن تشانج – كاي – شيك متأهب للقطيعة.»

ولم يكن فيرال قد أبصر بالشك ماثلاً على وجه رجل صيني. فهل يصدقه هذا الرجل؟ قدم إليه صندوقاً للسجائر. وكان هذا الصندوق منذ أن قرر الإقلاع عن التدخين، مفتوحاً دائماً على مكتبه، وكأن رؤيته باستمرار تقوي من عزيمته، وتؤكد تصميمه.

– «يبغي تقديم المساعدة لتشانج – كاي – شيك. وهذه بالنسبة لكم مسألة حياة أو موت. وليس من الممكن أن يستمر الموقف الحالي على ما هو عليه. ولقد بدأ الشيوعيون في جزيرة الجيش تنظيم نقابات الفلاحين في الأرياف، وسيكون أول قرار تتخذه هذه النقابات هو إعفاء [illegible] أصحاب القروض في تحصيل قروضهم (لم يقل فيرال المرابين) والشطر الأكبر من رؤوس أموالكم موجود في الأرياف، وأفضل ودائع مصارفكم إنما تضمنها العقارات ومجالس السوفييت المؤلفة من الفلاحين...»

«لن يجرؤ الشيوعيون على إنشاء مجالس (سوفييت) في الصين.»

– «لا داعي للتلاعب بالألفاظ يا سيد ليو. فسواء أكانت نقابات أم مجالس فسوف [illegible] المطالبات الشيوعية بتأميم الأرض، ونزع صفة الشرعية عن القروض. وهذان الإجراءان [illegible] على جوهر الضمانات التي بمقتضاها أمكنكم الحصول على قروض أجنبية، وهي تزيد على [illegible] من الفرنكات، إذا أدخلنا في الاعتبار أصدقائي اليابانيين والأمريكيين. ولا [illegible] مثل هذا المبلغ على أساس تجارة راكدة. وحتى دون أن نتحدث عن قروضنا، فإن هذين القرارين كافيان لنسف البنوك الصينية جميعاً. هذا شيء واضح كل الوضوح.»

– «لن يسمح الكومنتانج بحدوث شيء من ذلك.»

– «لا وجود لشيء اسمه الكومنتانج، لا يوجد غير زرق وحمر. وقد تفاهموا حتى هذه اللحظة تفاهماً سيئاً – لأن تشانج – كاي – شيك، لم يملك شيئاً من المال. فإذا سقطت شنغهاي – غداً – فإن تشانج – كاي – شيك يستطيع تقريباً أن يدفع مرتبات جنوده من الرسوم الجمركية، ومع ذلك لن يكون ذلك كافياً... إنه يعتمد علينا. ولقد نادى الشيوعيون في كل مكان بالاستيلاء على الأراضي، ويقال إنهم يحاولون إرجاء ذلك، ولكن [illegible] فقد أنصت الفلاحون إلى خطبهم، وهم ليسوا أعضاء في حزبهم ولهذا فسوف يفعلون ما يريدون.»

– «لا شيء يمكن أن يوقف الفلاحين سوى القوة، وهذا ما أخبرت به القنصل العام [illegible] العظمى.»

وحين خيل إلى فيرال أن لهجة صوته قد انتقلت إلى لهجة محدثه أحس بأنه قد كسبه إلى [illegible].

– «لقد حاولوا فعلاً الاستيلاء على الأراضي، غير أن تشانج – كاي – شيك مصر على ألا يسمح لهم بذلك. فأصدر أوامره بألا تمس أية أراضٍ يملكها ضباط أو أقارب ضباط [illegible].»

– «إننا جميعاً أقارب لضباط.» وابتسم ليو ثم استطرد قائلاً: «وهل توجد في الصين أرض ليس مالكها قريباً لأحد الضباط؟...»

[illegible] فيرال [illegible] القرابة في الأسرة الصينية

[illegible] الصمت مرة أخرى، وقال فيرال:

– «لقد [illegible] الاستيلاء على [illegible] الحكومية جميعاً [illegible] إلى شنغهاي غداً، فلا بد من حل المشكلة الآن... [illegible] فهمني بوضوح؟ فعل أثر الدعا[illegible]

الشيوعية ، انتزعت أراض عديدة من أصحابها ، وعلى تشانغ ـ كاي ـ شيك أن يقبل ذلك ، أو أن يصدر أوامره بإعدام من استولوا عليها رمياً بالرصاص . ولا يمكن أن تقبل حكومة هانكاو الحمراء مثل هذا الأمر . »

ـ « سيحاول كسب الوقت . »

ـ « أنت تعلم ما حل بأسهم الشركات الانجليزية عقب الاستيلاء على منطقة الامتيازات الانجليزية في هانكاو . كما تعلم ما سيؤول إليه موقفكم حين تنتزع الأراضي أياً كانت ـ انتزاعاً قانونياً ـ من أصحابها . وتشانغ ـ كاي ـ شيك يدرك ذلك ، ويقول : إنه مرغم على أن يقصم علاقته بالشيوعيين « الآن » ، فهل تريدون مساعدته في ذلك . نعم أم لا ؟ »

وبصق « ليو » وقد غاص رأسه بين كتفيه . وأغمض عينيه ، ثم فتحهما ، ونظر إلى فيرال تلك النظرة الماكرة التي تلتقي بها في عين المرابي العجوز أياً كانت جنسيته :

ـ « كم ؟ »

ـ « خمسون مليوناً من الدولارات . »

وبصق من جديد :

ـ « لنا وحدنا ؟ »

ـ « أجل . »

وأغمض عينيه ثانية . وكان القطار المصفح يطلق مدافعه بين حين وآخر فيطغى صوته على ضجة إطلاق البنادق المتقطعة .

وحتى لو استقر عزم أصدقاء « ليو » على العمل ، فلا مندوحة أيضاً عن النضال ، وإذا لم يستقر عزمهم ، فإن الشيوعية ستنتصر ـ بلا شك ـ في الصين . وحدث فيرال نفسه قائلاً في ... عدالته شيء من الحماس واللامبالاة : « ها هي ذي لحظة من اللحظات التي يتغير فيها مصير العالم . » ولم يحول نظره عن محدثه ، وكان يبدو أن الشيخ بعينيه المغمضتين قد استسلم للنوم ، غير أن عروقه الزرق المجدولة المنتشرة في ظهر يديه كانت تختلج كالأعصاب . وقال فيرال لنفسه : « ولا بد من حجة فردية أيضاً » ، ثم قال مخاطباً الشيخ الصيني :

ـ « إن تشانغ ـ كاي ـ شيك لن يسمح بتجريد ضباطه من أملاكهم ، كما أن الشيوعيين ... وإنه ليعرف ذلك . »

وكانت هذه النتائجة منتشرة منذ أيام ، غير أن فيرال لم يصدقها

سأل ليو : « كم من الزمن قد تبقى لنا ؟ » ، ثم أردف على الفور ، وقد أغمض إحدى عينيه ، وفتح الأخرى ، وكأن شطر وجهه الأيمن يعبر عن المكر ، وشطر وجهه الايسر يعبر عن الخجل :

ـ « وهل أنت واثق من أنه لن يأخذ الأموال دون أن يقوم بتنفيذ وعوده ؟ »

ـ « هناك أموالنا أيضاً ، والأمر ليس مجرد وعود . ذلك أنه لا يستطيع أن يتصرف خلاف ذلك . وافهمني جيداً : ليس لأنك تدفع له ، ينبغي أن يحطم الشيوعيين ، فأنت تدفع له . »

ـ « سأذهب للاجتماع بأصدقائي . »

وكان « فيرال » يعرف كيف يتم تدبير الأمور في الصين ، ويعرف نفوذ الرجل الذي يتكلم .

ـ « وما هي النصيحة التي ستشير بها عليهم ؟ »

ـ « إن من الممكن أن يهزم تشانغ ـ كاي ـ شيك على أيدي أهالي هانكيو . فهناك مئتا ألف عامل بلا عمل . »

ـ « إن هزيمته محققة إذا لم تمد له يد المعونة ... »

ـ « خمسون مليون ... هذا ... كثير ... »

وسدد أخيراً عينيه إلى وجه فيرال .

ـ « أقل مما تجدون أنفسكم مرغمين على اعطائه لحكومة شيوعية . »

ودق التليفون .

واستطرد فيرال : « لقد عزل القطار المصفح . وحتى إذا ارادت الحكومة أن ترسل قوات من الجبهة ، فإنها لم تعد تستطيع ذلك . »

ومد يده .

وصافحه ليو ، ثم غادر الحجرة . ومن النافذة العريضة التي تلوح منها أسمال السحاب ، شاهد « فيرال » السيارة وهي تبتعد ، وقد طغى صوت المحرك لحظة على ضجة الرصاص حتى في حالة انتصاره . قد ترغمه ظروف مشروعاته على طلب المساعدة من الحكومة الفرنسية ، وهو طلب طالما رفضه ، بل رفضته لتوها بالنسبة لبنك الصين الصناعي . ولكن أصبح اليوم من الأشخاص الذين يملكون مصير شنغهاي في أيديهم . وإن القوى الاقتصادية كلها ، والفصيلات كلها تقريباً تلعب مثله نفس اللعبة . وسيدفع ليو الثمن . وكان القطار المصفح يطلق نيرانه بلا انقطاع . أجل ، لأول مرة أصبح للجانب الآخر تنظيم يخضع له . وكم

كان يود أن يعرف شخصيات أولئك الذين يوجهون هذا التنظيم! وأن يتمكن من إعدامهم كذلك!

وتلاشى مساء الحزب في ظلمة الليل. وبدأت الأضواء تنبعث من طوابق المنازل الأرضية، وأهاب النهر الخفي - كما يفعل دائماً - ببقايا الحياة التي ما زالت أنفاسها تتردد في المدينة... كان هذا النهر قادماً من هانكيو. إن «ليو» على حق، وفيرال يعلم ذلك: هناك مكمن الخطر، وهناك يتكون الجيش الأحمر، وهناك يسيطر الشيوعيون. ومنذ أن أخذت القوات الثورية تكتسح الشماليين أمامها ككاسحة الثلوج، بدأت العناصر اليسارية جميعاً تحلم بأرض الميعاد هذه؛ ذلك أن وطن الثورة كان يلوح في الظلال الخضراء لتلك المسابك والترسانات، حتى قبل أن يستولوا عليها. والآن، وقد أصبحت الثورة تملك هذه المسابك والترسانات، أخذ هؤلاء الشاة التعساء الذين يبتلعهم الضباب اللزج حيث يزداد عدد المصابيح شيئاً فشيئاً.. أخذوا يتقدمون في اتجاه النهر، وكأنهم قد أتوا جميعاً من هانكيو أيضاً بأقوالهم التي ارتسمت عليها الهزائم أشبه بنبوءات يدفعها صوبه الليل المتجهم!

* * *

الساعة الحادية عشرة. ومنذ انصراف ليو، قبل العشاء وبعده، توافد عليه رؤساء المدعمات، ورجال البنوك، ومديرو شركات التأمين والنقل النهري، وبعض المستوردين، ورؤساء صناعة النسيج. وكانوا جميعاً يعتمدون بصورة أو بأخرى على جماعة فيرال أو على جماعة من الجماعات الأجنبية التي ربطت سياستها بسياسة الاتحاد الفرنسي الآسيوي: أما فيرال نفسه فلم يكن يعتمد إلا على «ليو». وقد كانت شنغهاي هي قلب الصين الحي الذي ينبض بكل ما يجعلها تحيا. حتى من أعماق الريف - ومعظم أصحاب الأراضي يعتمدون على البنوك - كانت شرايين الدماء تصب كالقنوات في العاصمة حيث يتقرر مصير الصين. واستمر إطلاق النيران.. والآن، لا بد من الانتظار.

وفي الحجرة المجاورة، كانت «فاليري» نائمة. ومع أنها قد أصبحت عشيقته منذ أسبوع، إلا أنه لم يتظاهر بحبها قط، ولو أنه فعل، لابتسمت ابتسامتها الماكرة الوقحة. ولم تبح له هي أيضاً بشيء، ربما لنفس السبب. وكانت العقبات التي نسجت منها حياته الحاضرة تدفعها إلى الجنون، لا إلى الحب. وكان يعلم أنه تخطى الشباب، وأخذ يحاول إقناع نفسه بأن سمعته الأسطورية يمكن أن تسد في مجال العشق مكان الشباب. كان «فيرال» خبيراً بالنساء، إلى درجة أنه لم يكن يؤمن بكلمة واحدة مما يقال عنهن. وتذكر فيرال صديقاً من أصدقائه، كان ذكياً معتل الصحة، ومع ذلك فقد كان يحسده على كثرة

عشيقاته. وذات يوم سأل فاليري عن تفسير لهذا التناقض، فأجابته قائلة: «لا يوجد في الرجل ما هو أشد جاذبية من الجمع بين القوة والضعف». ولما كان مقتنعاً بأن أحداً من الناس لا تفسره حياته، فقد احتفظ بهذه الجملة في ذاكرته من كل ما أفضت به إليه عن حياتها.

ولم تكن هذه الحالكة الثرية تنظر إلى الأمور من وجهة النظر المالية فحسب (أو أنها لم تصل بعد إلى هذه النظرة على الأقل). وكانت تؤكد أن العشق يتألف عند الكثيرات من التجرد من تيابهن أمام رجل مختار، وأنهن لا يستمتعن استمتاعاً كاملاً سوى مرة واحدة. فهل كانت تفكر في نفسها؟ لقد كانت هذه هي المرة الثالثة التي ضاجعته فيها. وقد فطن فيها إلى ضرب من الكبرياء شبيه بكبريائه. «للرجال أسفارهم، وللنساء عشاقهن». هذا ما قالته البارحة. أكان يعجبها، كما يعجب غيرها من النساء - بالتقابل القائم بين شدته وألوان المجاملة التي يظهرها لها؟ ولم يكن يجهل أنه سيقامر بكبريائه في هذه اللعبة.. كبريائه التي هي جوهر حياته. ولم يكن هذا الموقف خالياً من الخطر في حالة عشيقة تردد دائماً: «ما من رجل يستطيع أن يتكلم عن المرأة يا عزيزي، لأنه ما من رجل يدرك أن كل زينة جديدة، وكل ثوب جديد، وكل عشيق جديد، يوحي بروح جديدة...» وكان قولها ذاك تصاحبه الابتسامة المناسبة.

ودخل الحجرة.. كانت راقدة، وقد انسدل شعرها في تجويف ذراع غاية في الاستدارة، ونظرت إليه باسمة.

ومنحته هذه الابتسامة الحياة العاتية والمستسلمة في الوقت نفسه، الحياة التي تهبها اللذة. وكان التعبير الذي يرتسم على محياها، أثناء استرخائها، تعبيراً عن الحزن الرقيق، وتذكر فيرال أنه قال لها في أول مرة رآها أن لها وجهاً حائراً.. وجهاً يناسب ما في عينيها الرماديتين من عذوبة. ولكن، ما أن تظهر خلاعتها في الميدان، حتى تبدو ابتسامتها التي تنفرج عنها شفتاها نصف المفراجة على هيئة قوس في الطرفين أكثر منها في الوسط - تبدو موافقة بصورة غير متوقعة مع شعرها القصير الممشوط الكثيف، ومع عينيها اللتين تظهران حينئذ أقل حناناً، بحيث تضفي عليها رغم انتظام قسماتها انتظاماً دقيقاً ذلك التعبير المعقد الذي يحدده قطة في وضع الاسترخاء. وكان فيرال يحب الحيوانات - شأنه في ذلك شأن جميع الرجال الذين يأنفون من التكيف مع غيرهم من الناس - ويحب القطط بوجه خاص.

وخلع ملابسه في الحمام. وكان المصباح الكهربائي معطلاً، فبدت أدوات الزينة مائلة إلى الاحمرار، بعضها ومع المرايا المشتعلة، وأطل من النافذة. كان في الطريق جمهور

يتحرك، ملايين من الأسماك تضطرب تحت موجة من الماء الأسود، وخيل إليه فجأة أن روح هذا الحشد قد غادرته كما يغادر الفكر النائمين الذين يحلمون، وأنها أخذت تضطرم بنشاط مرح في ألسنة اللهب العارمة التي تضيء أطراف الأبنية.

وحين عاد، كانت فاليري تحلم، وقد غاصت الابتسامة من شفتيها. ألم يكن يريد إلا أن يعقل بحب تلك المرأة ذات الابتسامة التي تفصلها عنه هذه المرأة غير ذات الابتسامة وكأنها امرأة غريبة؟ وكان القطار المصفح يطلق نيرانه بين دقيقة وأخرى وكأنه يحتفل بانتصاره: إنه ما برح في أيدي رجال الحكومة، وكذلك الثكنات والترسانة والكنيسة الروسية.

وسألته: «هل رأيت مسيو دي كلاپيك يا عزيزي مرة أخرى؟»

وكانت المستعمرة الفرنسية في شنغهاي بأسرها تعرف كلاپيك، وقد التقت به فاليري في حفلة للعشاء منذ يومين، فسحرتها تهويماته.

ـ «أجل. وقد كلفته بأن يشتري لي بعض لوحات (كاما) الملونة.»

ـ «وهل يوجد منها في حوانيت العاديات؟»

ـ «طبعاً لا. ولكن «كاما» سيعود من أوربا، وسيمر من هنا في ظرف أسبوعين. وقد كان كلاپيك مرهقاً، فلم يقص غير حكايتين جميلتين: حكاية عن لص صيني، أطلق سراحه لما أظهره من براعة في الدخول من ثقب على هيئة القيثارة في محل الرهونات الذي حاول سرقته، وهذه القصة: كان السيد العظيم «فضيلة» يربي الأرانب منذ عشرين عاماً، وعلى أحد جانبي الجمرك الداخلي يقوم منزله، وعلى الجانب الآخر عشش الأرانب. واستبدل رجال الجمارك بمجموعة أخرى، فنسوا أن يخطروا الموظفين الجدد باجتيازه اليومي للجمرك. وحين وصل، حاملاً سلته المليئة بالبرسيم استوقفه رجال الجمرك قائلين: «دعنا نلق نظرة على ما في سلتك.» وتحت البرسيم، كانت توجد ساعات وسلاسل ذهبية، ومصابيح كهربائية، وآلات تصوير. «أهذا ما تقدمه لأرانبك من طعام؟»

ـ «أجل ياسيدي مدير الجمارك». ثم (بلهجة من يهدد الأرانب المذكورة) «وإن لم يعجبهم هذا الطعام فلن يحصلوا على شيء سواه.»

قالت: «هذه قصة علمية.. ولقد فهمت الآن كل شيء. من هناك إذن تأتي تلك الأجراس والطبول الصغيرة المصنوعة على هيئة الأرانب. وكل تلك الحيوانات الصغيرة البديعة التي تحيا حياة سعيدة في القصر، وفي الأماكن الشبيهة بذلك، ولكنها تحيا حياة تعسة في حجرات الأطفال...

وإنه لظلم صارخ هذا الذي يروى في تلك القصة الحزينة عن «الفضيلة المقهورة» وسوف تجتاح الصحف الثورية كثيراً على ما أعتقد: إنك تستطيع أن تكون على يقين من أن هذه الأرانب تأكل هذه الأشياء حقاً.»

ـ «هل قرأت يا عزيزتي (أليس في بلاد العجائب)؟»

كان يحتقر النساء اللواتي لا يستطيع الاستغناء عنهن، بما يكفي لتدليلهن بقوله: «يا عزيزتي.»

ـ «وهل تشك في ذلك؟ إنني أحفظها عن ظهر قلب...»

ـ «إن ابتسامتك تجعلني أفكر في طيف القطة الذي لا يتجسد مطلقاً، والذي لا نرى منه غير ابتسامة القطة الساحرة تلك، طافية في الهواء. آه! لماذا يريد ذكاء المرأة أن يختار دائماً مجالاً غير المجال الذي خلق له؟»

ـ «وما هو هذا المجال يا عزيزتي؟»

ـ «قمة الفهم.. بكل تأكيد.»

واستغرقت في التفكير.

ـ «إن ما يسميه الرجال بهذا الاسم، هو خضوع الروح، فأنتم لا تعترفون لدى المرأة إلا بالذكاء الذي يؤيدكم.. وهذا شيء مريح إلى أبعد حد...»

ـ «الاستسلام من جانب المرأة، والامتلاك من جانب الرجل، هما الوسيلتان الوحيدتان اللتان يملكهما البشر لفهم أي شيء...»

ـ «ألا تعتقد يا عزيزي أن النساء لا يستسلمن أبداً (أو تقريباً)، وأن الرجال لا يملكون شيئاً؟ إنها لعبة: «أنا أعتقد أنني أملكها، ومن ثم فهي تعتقد أنها مملوكة..» ولكن هل هذا صحيح؟ إن ما أريد أن أقوله سخيٌّ للغاية. ولكن ألا تعتقد أن هذه هي حكاية السعادة التي يخيل إليها أنها أهم من الزجاجة؟»

وكان التحرر من التقاليد عند امرأة ـ يجذب فيرال إليها، أما حرية العقل فكانت تغضبه. وأحس أنه متلهف على بعث العاطفة الوحيدة التي تمنحه السيطرة على المرأة: الخجل الجنسي، والسكران على الخجل الذي تعانيه. ولم تتكهن بما يدور في نفسه، ولكنها تكهنت أنه ينفصل عنها. ولما كانت تتأثر من ناحية أخرى برغبته، ويروق لها إثبات أنها تستطيع أن تستولي عليه وفق إرادتها، فقد نظرت إليه، منفرجة الثغر (ما دام يحب ابتسامتها) ... وهي على ثقة أنه ككل الرجال سيفسر هذه الرغبة في إغرائه على أنها استسلام.

وسعى إليها في السرير ـ وأضفت مداعباته على فاليري تعبيراً مستغلقاً ود لو رآه

يتبدل. واستحضر التعبير الآخر في عاطفة قوية بحيث لم يكن بد من الأمل في أن تشبه اللذة على وجه فالبري، معتقداً أنه يحطم بذلك قناعاً اتخذه هذا الوجه، وإن أعمق ما فيها، وأشد ما فيها استسراراً هو بالضرورة ما يفضله فيها؛ ولم يكن قد صاجعها إلا في الظلام، ولكنه ما كاد يباعد بيده ما بين وجهها في لطف حتى أطفأت النور... فأضاءه من جديد.

وكان يتحسس زر الكهرباء في صمت. فخيل إليها أنه لمسه مصادفة، فأطفأته ثانية، ولكنه أضاءه على الفور مرة أخرى. ولما كانت أعصابها مرهفة جداً، فقد أحست بأنها توشك على الضحك والغضب في آن واحد. ولكنها التقت بنظرته. وكان قد أزاح زر الكهرباء بعيداً، فتأكدت أنه يريد أن يستمد أصفى متعته من التحول الحسي الذي يطرأ على ملامحها. وكانت تعرف أن الشهوة الجنسية لم تكن مسيطرة عليها حقاً إلا في بداية علاقتها، وفيما كان ينتظرها من مفاجأة. وحين شعرت بأنها لن تجد الزر الكهربائي، استولى عليها الدفء الذي تعهده، وتمشّى في جذعها حتى ثدييها. ثم إلى شفتيها اللتين خشيت من نظرة فيرال إليهما، أنهما قد انتفختا انتفاخاً غير محسوس. وآثرت هذا الدفء، وقد ضمته إليها، وطافت على متن نبضات طويلة بعيداً عن شاطئ. كانت تعلم أنها ستقذف عليه بعد لحظات، يصحبها ذلك التصميم بأنها لن تغفر له تصرفه.

ونامت فالبري. وكان التنفس المنتظم وارتخاء النوم قد جعلا شفتيها تنتفخان انتفاخاً لطيفاً، وأضفيا عليها ذلك التعبير الضائع الذي تمنحه المتعة. وناجى فيرال نفسه قائلاً: «كائن إنساني... حياة فردية منعزلة مثل حياتي...» وتخيل أنه هي، وأنه قد سكن جسدها، ليشعر مكانها بهذه المتعة التي لا يستطيع أن يعانيها إلا بوصفها إذلالاً، وتخيل نفسه وقد أذلته هذه اللذة السلبية، هذا الجنس الأنثوي. «هذا حق، فإنها تمارس وظيفتها الجنسية، كما أمارسها أنا تماماً. لا أكثر ولا أقل... إنها تشعر وكأنها ملتقى للشهوات والحزن والكبرياء... وكأنها مصير... هذا أمر واضح.» ولكنها لم تكن تشعر بذلك في هذه اللحظة. ذلك أن النوم وشفتيها قد أسلماها إلى حسية كاملة، وكأنها قد قبلت التنازل عن كيانها الحي الحر، لكي تضع هذا التعبير عن العرفان بالجميل لما حققته من انتصار جسدي. واستولى عليها ذلك الصمت العظيم الذي يجثم على الليل الصيني، بما ينبعث منه من رائحة الكافور وأوراق الشجر، والذي يرقد هو أيضاً حتى المحيط الهادئ... استولى عليها، خارج الزمان. ما من سفينة تطلق صفارتها، وما من طلقة بندقية. إنها لا تحمل معها في نومها ذكريات أو آمالاً تند عن سطوته؛ إنها ليست شيئاً سوى القطب الآخر من متعته. إنها لم تعرف الحياة أبداً، لم تكن صبية صغيرة أبداً.

وانطلق المدفع من جديد، وعاود القطار المصفح إطلاق نيرانه.

الساعة الرابعة مساء من اليوم التالي

أخذ كيو يراقب القطار المصفّح من حانوت للساعات، تحول إلى مركز للإسعاف. وعلى بعد مائتي متر إلى الأمام وإلى الخلف، كان الثوار قد نسفوا القضبان الحديدية، كما حطموا الرافعات. ومن القطار الذي يسد الشارع - كأنه جثة لا حراك بها - لم يكن كيو يلمح سوى عربات: عربة مغلقة كأنها عربة الحيوانات، وأخرى محطمة كأنما سحقها خزّان بنزين، وقد برز من برج صغير فيها مدفع صغير. ولم يكن يظهر أي رجال، سواء أكانوا من المحصورين المحتمين خلف نوافذهم المحكمة الاغلاق، أو من المهاجمين الذين تسللوا إلى المنازل المشرفة على الخط الحديدي. ووراء كيو، استمر إطلاق النار دون انقطاع، ناحية الكنيسة الروسية، وناحية «المطبعة التجارية». وكان الجنود الذين لا يعارضون في تسليم سلاحهم آمنين، أما الآخرون فكانوا على وشك أن يلقوا حتفهم. لقد تسلحت الآن جميع وحدات الثوار، بينما لاذت القوات الحكومية التي تحطمت جبهتها بالفرار نحو نانكين بواسطة القطارات المحربة، ومن خلال طرقات مليئة بالبرك الموحلة، وفي جو عاصف ممطر. وكان مقدراً أن يصل جيش الكومنتانج إلى شنغهاي بعد بضع ساعات: وكان الرسل الذين يحملون البرقيات يتعاقبون من لحظة إلى أخرى.

ودخل «تشن» وهو ما يبرح مرتدياً زي العمال، وجلس إلى جانب كيو، ثم نظر إلى القطار. وكان رجاله يتولون الحراسة بدورهم خلف أحد المتاريس - على بعد مائة متر من هذا المكان دون أن تكون لديهم أوامر بالهجوم.

وتحرك مدفع القطار الذي كانوا يرونه من جانبه، وانزلقت أمامه أذيال من الدخان هي الرمق الأخير من الحريق الذي خمد، وكأنها سحب شديدة الانخفاض.

قال تشن: «لا أظن أنه ما زال لديهم الكثير من الذخيرة.»

وبرز المدفع من البرج كأنه منظار المرصد، وتحرك حركة حاذرة، وعلى الرغم من الدروع التي تحميه، فإن التردد الذي شاب حركته جعله يبدو هشاً.

وقال كيو: «ما أن تصل مدافعنا حتى...»

وتوقف ذلك الذي ينظران إليه عن الحركة، وأطلق النار. وانهمر سيل من الرصاص على المتراس، رداً على هذه القذيفة. ولاحت في السماء الرمادية البيضاء ومضة من الشمس فوق القطار مباشرة. وحمل رسول بعض الوثائق إلى كيو.

وقال هذا الأخير: «لم نحصل على أسلحة في اللحظة.»

وكان مجلس المندوبين الذي انعقد سراً بدعوة من حزب الكومنتانج - قبل نشوب

الثورة، قد انتخب لجنة مركزية مؤلفة من ستة وعشرين عضواً، بينهم خمسة عشر عضواً من الشيوعيين، غير أن هذه اللجنة بدورها قد انتخبت الآن لجنة تنفيذية ستقوم بتشكيل الحكومة البلدية. وفي هذه اللجنة كانت تتركز السلطة الفعالة. ولكن الشيوعيين لم يعودوا أغلبية فيها.

ودخل رسول ثان ـ بالزي العسكري، وتوقف عند عتبة الباب.

ـ « تم الاستيلاء على الترسانة. »

وسأله كيو: « والدبابات؟ »

ـ « مضت إلى نانكين. »

ـ « وهل أنت من الجيش؟ »

وكان هذا الرسول جندياً من الفرقة الأولى التي تضم أكبر عدد من الشيوعيين. ووجه إليه كيو عدداً من الأسئلة. وكانت تشوب اجابات الجندي لهجة مريرة: فالقوم يتساءلون ما فائدة الدولية الشيوعية؟ لقد أعطى كل شيء لبورجوازية الكومنتانج، وكان أقارب الجنود، وكلهم من الفلاحين ـ مرغمين على المساهمة في نفقات الحرب الباهظة، في الوقت الذي لم تكن الأعباء المفروضة على البورجوازية تجاوز حد الاعتدال. وإذا أراد هؤلاء الفلاحون أن يستولوا على الأراضي، منعتهم عن ذلك الأوامر العليا. وقد طاف بخواطر الجنود الشيوعيين أن الاستيلاء على شنغهاي خليق بأن يغير هذا كله. أما هذا الجندي، فلم يكن واثقاً من ذلك كل الثقة. ولما كان على إحاطة بجانب واحد من الموضوع، فإنه كان يسوق حججاً واهية، وإن كان من اليسير استخلاص حجج أقوى منها. وأجابه كيو: بأنه سيتم إنشاء الحرس الأحمر، وميليشيا العمال في شنغهاي، فهناك أكثر من مائتي ألف عاطل في هانكيو. وكان الاثنان يكفان بين حين وآخر عن الحديث ليرهفا السمع.

قال الجندي: « هانكيو... إني أعلم أن هناك هانكيو... »

وكان يبدو أن صوتيهما المكتومين باقيان حولهما، وقد احتفظ بهما الجو المرتعش وكأنه يترقب هو أيضاً صوت المدفع. وكان كل منهما يفكر في « هانكيو » ـ أكثر المدن تصنيعاً في الصين بأسرها ـ هناك كانوا يقومون بتنظيم جيش أحمر جديد، وفي هذه اللحظة بالذات كانت فرق العمال هناك تتدرب على استخدام البنادق...

وكان تشن ينظر إلى حاملي البرقيات دون أن يتفوه بشيء، وقد باعد مابين ساقيه، ووضع قبضته فوق ركبته، وفغر فاه.

واستطرد كيو قائلاً: « كل شيء يتوقف على من سيكون محافظ شنغهاي. فإذا كان من رجالنا، لم تعد ثمة أهمية للأغلبية. وإذا كان من اليمين... »

وألقى « تشن » نظرة على الساعة. وكانت ساعات الحائط، وعددها ثلاثون على الأقل في هذا الحانوت ـ منها الدائر، ومنها المتوقف ـ تشير إلى أوقات مختلفة. وتلاحقت طلقات من الرصاص سريعة كالسيل المنهمر. وتردد « تشن » في النظر إلى الخارج، إذ لم يكن يستطيع أن يحول عينيه عن هذا الكون الذي ينبض بحركة الساعات دون اكتراث بالثورة المندلعة في الخارج. وانتزعته من هذا السحر حركة الرسل الذين رحلوا.. وحزم أمره أخيراً على أن ينظر في ساعة يده.

ـ « الساعة الرابعة.. من الممكن أن نعرف... »

وقام بتشغيل تليفون الميدان، ثم أعاد السماعة في غضب.. والتفت ناحية « كيو » قائلاً:

ـ « المحافظ من اليمينيين. »

فأجاب كيو في لهجة أشبه بالسؤال منها بالجواب: « توسيع الثورة في البداية، ثم العمل على تعميقها. ويبدو أن خطة الدولية هي التخلي عن السلطة هنا للبرجوازية. مؤقتاً. سيسرقوننا. ولقد تحدثت إلى رسل من الجبهة، فعلمت أن كل حركة عمالية ممنوعة في المؤخرة. وقد أطلق تشانج ـ كاي ـ شيك النار على المضربين بعد أن اتخذ بعض الاحتياطات. »

وتسلل شعاع من الشمس. وفي السماء أخذت البقعة الزرقاء الضيقة في الاتساع. وامتلأ الشارع بضوء الشمس. وعلى الرغم من طلقات الرصاص المتوالية، فقد بدا القطار المصفح في هذا النور ـ مهجوراً. وأطلق النار من جديد. وكان « كيو » و « تشن » يراقبانه هذه المرة في انتباه أقل: فلربما كان العدو أقرب إليهم من ذلك بين صفوفهم، وألقى كيو نظرة مضطربة على الرصيف الذي أخذ يلمع تحت أشعة الشمس العابرة، وقد استبد به قلق شديد. وامتد أمامه ظل عظيم، ورفع رأسه فإذا أمامه: كاتوف. واستطرد كيو قائلاً: « وفي ظل الشيوعيين، ستمنع حكومة الكومنتانج تشكيل فرق الهجوم. لقد قابلت لتوي ضباطاً ... أرسلوا من الجبهة للتعرف على نوايانا، والتلميح لنا في خبث بأنه من الأفضل أن نسلمهم الأسلحة، لا أن نحتفظ بها نحن. فإذا جردوا الحرس العمالي من سلاحه، فإنهم سوف يسيطرون في هذه الحالة على البوليس وعلى اللجنة وعلى المحافظ، وعلى الجيش، وعلى الأسلحة. وكلنا قمنا بالثورة من أجل هذا. يجب أن نخرج من الكومنتانج، وأن نعزل الحزب الشيوعي، على أن نمنحه السلطة إذا كان ذلك ممكناً. وليست المسألة مسألة تدبير المؤامرات، وإنما التفكير جدياً في البروليتاريا، في كل ما نعمل. فماذا يجب أن نشير عليهم؟ »

وتأمل تشن قدميه الدقيقتين القذرتين العاريتين في نعله.

ـ « العمال على حق في القيام بالاضراب. ونحن نأمرهم بالعودة إلى العمل. والفلاحون يريدون الاستيلاء على الأراضي، وهم على حق في ذلك أيضاً، ونحن نمنعهم من ذلك. »

ولم تكن لهجته تبرز الألفاظ الطويلة.

واستطرد كيو قائلاً: « إن أوامرنا هي نفس أوامر الزرق، مع مزيد من الوعود. غير أن الزرق يمنحون البورجوازيين ما يعدونهم به، على حين لا نمنح نحن العمال ما نعدهم به. »

قال تشن دون أن يرفع رأسه: « كفى. لا بدّ أولاً من اغتيال تشانج ـ كاي ـ شيك. »

واستمع إليه كاتوف صامتاً، ثم قال أخيراً:

ـ « هذا عمل من أعمال المستقبل، أما في الوقت الحاضر، فنحن نقتل رجالنا. أجل. ومع ذلك، فلست واثقاً في اقتناعي برأيك يا كيو. ففي بداية الثورة، عندما كنت ثورياً اشتراكياً، كنا جميعاً ضد خطة لينين في أوكرانيا. فقد ألقى انطونوف قوميسار تلك المنطقة ـ القبض على أصحاب المناجم، وحكم عليهم بعشرة أعوام من الأشغال الشاقة بتهمة التخريب.. دون محاكمة. وهنأه لينين، على مسئوليته الخاصة بوصفه قوميسار التشيكا tcheka واعترضنا جميعاً على ذلك. فأنت تعلم أن أصحاب المناجم مستغلون حقيقيون، وكثير منا كانوا قد دخلوا هذه المناجم دخول المذنبين، ولهذا كنا نعتقد أن من الواجب أن نتوخى العدل معهم على وجه أخص ـ لنكون أسوة. ومع ذلك، فلو قد أطلقنا سراحهم، لما فهمت البروليتاريا شيئاً. كان لينين على حق. كانت العدالة إلى جانبنا، ومع ذلك كان لينين على حق. وقد كنا أيضاً ضد السلطات الاستثنائية الممنوحة للـ « تشيكا ». ولا بدّ من الانتباه. والشعار الحالي شعار جيد: « توسيع الثورة، ثم تعميقها. ولم يقل لينين على الفور: « السلطة كلها للسوفييت. »

ـ « ولكنه لم يقل قط: السلطة كلها للمنشفيك (الأقلية). وما من موقف يمكن أن يرغمنا على إعطاء الأسلحة للزرق.. ما من موقف يستطيع أن يرغمنا على تسليم أسلحتنا للزرق.. ما من موقف على الإطلاق، لأن هذا معناه حينئذ أن الثورة قد ضاعت، ولا مجال أمامنا إلا... »

ودخل في هذه اللحظة ضابط من ضباط الكومنتانج، وكان قصير القامة، متصلب الحركات كأنه ياباني، وتبادلوا التحية، ثم قال:

ـ « سيصل الجيش إلى هنا بعد نصف ساعة.. إننا نفتقر إلى الاسلحة. فكم منها يمكن أن تزودونا ؟ »

وأخذ « تشن » يذرع الغرفة جيئة وذهاباً.. بينما انتظر « كاتوف ».

قال كيو: « يجب أن تظل ميليشيا العمال مسلحة. »

فأجاب الضابط: « إن طلبي هذا قد وافقت عليه حكومة هانكيو. »

وابتسم كيو، وتشن.

فاستأنف الضابط كلامه قائلاً: « أرجو أن تتأكدوا من ذلك بأنفسكم. »

وهنا كيو إلى التليفون.

واندفع « تشن » قائلاً في غضب بارد: « وحتى لو كان الأمر... »

وصاح كيو: « مفهوم! »

وأخذ ينصت، بينما أمسك كاتوف بالسماعة الثانية. ثم وضع كل منهما سماعته.

قال كيو: « حسن. غير أن الرجال ما زالوا في مراكزهم. »

فقال الضابط: « ستصل المدفعية إلى هناك تواً. وسننتهي من هذه الأشياء... »

وأشار إلى القطار المصفح، القابع بلا حراك تحت أشعة الشمس.

ـ « ... بأنفسنا. هل تستطيعون تزويد الجنود بالأسلحة مساء غد ؟ إننا في حاجة ماسة إليها. وسنواصل الزحف على نانكين. »

ـ « أشك في أنه من الممكن الحصول على أكثر من نصف الأسلحة. »

ـ « لماذا ؟ »

ـ « لأن الشيوعيين لن يوافقوا على تسليم أسلحتهم. »

ـ « حتى بعد صدور الأوامر من هانكيو ؟ »

ـ « حتى بعد صدور الأوامر من موسكو. أو على الأقل، لن يكون ذلك فوراً. »

وأحسوا بما يعتمل في نفس الضابط من حنق، وإن لم يظهر على وجهه شيء منه.

قال: « فكروا فيما يمكن أن تفعلوا. وسأبعث بواحد من رجالي حوالي الساعة السابعة. »

وانصرف.

وسأل كيو كاتوف: « هل من رأيك أن نقوم بتسليم الأسلحة ؟ »

ـ « إني أحاول أن أفهم. ويجب قبل كل شيء الذهاب إلى هانكيو. ماذا تريد الدولية ؟ أولاً استخدام جيش الكومنتانج لتوحيد الصين، ثم تطوير الثورة بالدعاية وما شاكل ذلك، بحيث تتحول من تلقاء نفسها من ثورة ديموقراطية إلى ثورة اشتراكية. »

قال تشن: « يجب اغتيال تشانج ـ كاي ـ شيك. »

فأجاب كيو: « إن تشانج ـ كاي ـ شيك لن يسمح لنا بالذهاب إلى هذا الحد. إنه لا

يستطيع. وهو لا يستطيع أن يحافظ على قوته هنا بالاستناد على الجمارك وعلى الاسهامات البورجوازية، والبرجوازية لا تدفع بلا مقابل: فلا بد أن يرد إليها تظلم أموالها ببعض الشيوعيين قتلى.»

قال تشن: «هذا كله مجرد هراء.»

فقال كاتوف: «دعنا في سلام. هل تعتقد أنك ستحاول اغتيال تشانج - كاي - شيك دون موافقة اللجنة المركزية، أو على الاقل دون موافقة مندوب الدولية؟»

وملأت السكون شيئاً فشيئاً - جلبة بعيدة.

وسأل تشن كيو: «هل أنت ذاهب إلى هانكيو؟»

- «بكل تأكيد.»

وطفق «تشن» يذرع الحجرة جيئة وذهاباً، بينما استمرت البندولات والوقاويق في عملها المنتظم.

وأخيراً استطرد قائلاً: «إن ما قلته غاية في البساطة.. إنه الشيء الجوهري.. الشيء الوحيد الذي يجب عمله. أنبئهم بقدومي.»

- «ألا تنتظر؟»

وكان كيو يعرف أن تشن إذا تردد بدلاً من أن يجيب، فليس ذلك معناه أن كاتوف قد أقنعه، بل معناه أن الأوامر الحالية التي أصدرتها الدولية لا ترضي عاطفته العميقة التي جعلت منه ثورياً، وإذا وافق عليها بحكم الخضوع للنظام فإنه لن يستطيع التصرف. وتأمل كيو - وهو واقف تحت ساعات الحائط تلك - هذا الجسم المعادي الذي ضحى بنفسه وبالآخرين من أجل الثورة، والذي قد تعيده الثورة إلى وحدته، مع ذكريات اغتيالاته. لقد كان معه وضده في الوقت نفسه. ولهذا لم يكن يستطيع أن ينضم إليه، أو ينفصل عنه. لقد جمعت بينهما أخوة السلاح، وفي اللحظة التي كان ينظر فيها إلى هذا القطار المسلح الذي قد يهاجمانه معاً، شعر بما يمكن أن يحدث بينهما من قطيعة، كما يحس بتهديد نوبة وشيكة الوقوع لصديق مصاب بالصرع أو مجنون في اللحظة التي يكون فيها عقله أصفى ما يكون.

وواصل «تشن» سيره، وهز رأسه كأنه يحتج، ثم قال أخيراً: «لا بأس» وهو يهز كتفيه، وكأنما أجاب على هذا النحو لكي يرضي في كيو رغبة صبيانية ما.

وعادت الضجة، أقوى مما كانت، ولكنها كانت مختلطة إلى حد أنهم أرهفوا آذانهم كل الارهاف ليتبينوا ما تنطوي عليه. كان يبدو أنها تصعد من باطن الأرض. قال كيو: «كلا... إنها صيحات.»

واقتربت هذه الصيحات، وأصبحت أكثر تحديداً.

وتساءل كاتوف: «أتراهم يستولون على الكتيبة الروسية؟» وكان عدد كبير من جنود الدورية معتصماً بها. غير أن الصيحات اقتربت كأنها متجهة من الضواحي صوب مركز المدينة. وأخذت تشتد، ومع ذلك كان من المحال تمييز الهتافات. وألقى «كاتوف» نظرة صوب القطار المصفح.

«هل وصلت إليهم الامدادات؟»

واقتربت الصيحات أكثر فأكثر، ولكنها ما برحت غير واضحة الكلمات، وكأنما ثمة نبأ عظيم ينتقل من جمهور إلى آخر. ونازعت هذه الضجة ضجة أخرى، حتى حلت محلها، وأصبح من الممكن تمييزها أخيراً: إنها الأرض تهتز اهتزازاً منتظماً تحت وقع خطوات الجنود.

قال كاتوف: «الجيش.. إنهم جنودنا.»

وكان على صواب بلا ريب. وكانت هذه الصيحات هي صيحات التهليل، ولم يكن من المستحيل تمييزها عن صيحات الفزع، وكان ما سمعه كيو يقترب على هذا النحو هو أصوات الجماهير التي جرفها الطوفان أمامه. وتحولت دقات الأقدام إلى هدير، ثم عادت من جديد. كان الجنود قد توقفوا عن المسير، ثم استأنفوا سيرهم في اتجاه آخر.

قال كيو: «لقد أخطرونا بأن القطار المصفح موجود هنا.»

لم يكن من شك أن الجنود القابعين في القطار كانوا أقل تمييزاً للصيحات منهم، ولكنهم كانوا أكثر تمييزاً لوقع الأقدام نتيجة لتأثير الألواح المعدنية بها، وجودة توصيلها لها.

وانتاب الرجال الثلاثة ضجة هائلة: إذ انطلقت النيران من كل مدفع رشاش، ومن كل مدفع، بالقطار. وكان «كاتوف» قد خدم في أحد القطارات المصفحة بسيبريا، فدفعه خياله دفعاً إلى أن يتابع عذاب الاحتضار الذي يعانيه هذا القطار. لقد أصدر ضباطه أوامرهم بإطلاق النار بلا انقطاع. وماذا كانوا يستطيعون أن يفعلوا وهم محاصرون في أبراجهم الصغيرة وقد أمسكوا الملعون بيد، والمسدس باليد الأخرى؟ ولا ريب أن كل جندي قد تكهن بما تعنيه هذه الدقات. أتراهم يستعدون للموت معاً، أم تراهم ينقضون بجسومهم على البعض الآخر في تلك المواصلة الهائلة التي لن يصعد إلى السطح أبداً؟

وأصيب القطار بنوبة هائلة من القلق الغاضب، فكان يدوي عالياً وهو يطلق نيرانه.

مكان، ويهتز بما انتابه من هياج، كأنه يريد أن يخرج عن قضبانه، وكان الهياج اليائس الذي استبد بالرجال الذين يحميهم قد انتقل إلى هذه الدرع الأسيرة التي راحت تتخبط هي أيضاً في سبيل التحرر. ولم يكن ما يسحر «كاتوف» في هذا التحرر هو تلك النشوة القاتلة التي استولت على جنود القطار، وإنما كانت رعشة القضبان التي تمسك بمحاولات هؤلاء الرجال اليائسة كأنها قميص المجانين: وحرك ذراعه إلى الأمام لكي يثبت لنفسه أنه لم يصب بالشلل. وانقطعت الضجة بعد ثلاثين ثانية. وطغى على الهزة المكتومة التي أحدثتها خطوات الجنود، وعلى دقات الساعات التي تملأ الحانوت. طغى على هذا كله هزيم الأسلحة الثقيلة: إنها مدفعية جيش الثورة.

ووراء كل لوح معدني، كان كل جندي في القطار يصغي إلى هذه الضجة كأنها صوت الموت نفسه.

الجزء الثالث

٢٩ مارس

[illegible] «هانكيو» جد قريبة: وكانت حركة السنان (★) تغطي صفحة النهر أو تكاد، وبدأت [illegible] الترسانة البحرية تنفصل شيئاً فشيئاً عن رابية قائمة في ذلك المكان. بعد أن [illegible] عن الأنظار الدخان الحائل المنبعث منها، وظهرت المدينة أخيراً من خلال النور [illegible] بالزرقة في إحدى أمسيات الربيع، ظهرت بضفافها ذات الأعمدة من خلال [illegible] المتناثرة في المستويات الأمامية الأولى الواضحة السوداء المؤلفة من سفن الحرب التي [illegible] العرب. وقد ظل كيو يذرع النهر ستة أيام دون أن يظفر بأية أنباء من شنغهاي.

وعند قدم السفينة، أطلق زورق بحاري صفارته. وكانت أوراق كيو جاهزة، إذ كان قد [illegible] على الأعمال السرية، ولم ينتقل إلى مقدمة السفينة إلا على سبيل الحيطة.

[illegible] أحد العمال الميكانيكيين: «ماذا يريدون؟».

- «إنهم يريدون أن يعرفوا ما إذا كنا نحمل أرزاً أو فحماً.. فكلاهما ممنوع.»

- «[illegible] سلطة؟».

- «إنها مجرد تعلة. فلو أننا كنا نحمل فحماً، لما قالوا شيئاً. كل ما في الأمر أنهم [illegible] الزورق من ملاحة عند الميناء. وقد أصبح من المحال تموين المدينة.»

[illegible] كانت المداخن، والروافع، والأحواض: حلفاء الثورة. غير أن شنغهاي قد [illegible] ما بعثه الميناء الزاخرة بالنشاط، أما هذه الميناء التي يراها الآن، فلم تكن مليئة إلا [illegible] وزوارق الطوربيد. وتناول نظارته المعظمة: فلمح سفينة تجارية.. ثم سفينة ثانية [illegible] منها.. وكان زورقه يقترب من الشاطئ محاذياً أوشانج، وكان عليه [illegible] (المعدية) للذهاب إلى هانكيو.

[illegible] الزورق البحاري.. وعلى الرصيف كان أحد الضباط يراقب عملية الإرساء.

[illegible] «لماذا يوجد هذا العدد الضئيل من السفن؟».

- «[illegible] الملاحة جميعاً بالرحيل، خوفاً من استيلاء الحكومة عليها؟».

(★) [illegible] الصغيرة المنتشرة في الصين [illegible]

وكان كل من في شنغهاي، يعتقد أن أوامر الاستيلاء قد صدرت منذ زمن طويل.

- « متى تتحرك المعدية؟ »

- « كل نصف ساعة »

كان عليه أن ينتظر عشرين دقيقة فأخذ يتجول دونما هدف. وكانت مصابيح الغاز مضاءة في أعماق الحوانيت. وهنا وهناك ارتفعت ظلال الأشجار وقرون المنازل إلى الجهة الغربية من صفحة السماء حيث انبعث ضوء مجهول المصدر، وكأنه ينبع من رقة الهواء نفسها، ولا يتبدد في طمأنينة الليل إلا على علو شاهق. وعلى الرغم من انتشار الجنود وعمال النقابات كان الأطباء - وعلى لافتاتهم صور الضفادع - وتجار الأعشاب (العطارون) والأمساخ، والكتبة العموميون، والسحرة، والمنجمون، وقارئو الغيب... كان هؤلاء جميعاً يمارسون أسرار مهنهم في ذلك الضوء العكر الذي لا تبين فيه بقع الدماء. والظلال تتلاشى على الأرض، بدلاً من أن تمتد سابحة في إشعاع ضارب إلى الزرقة. وأخذ الوهج الأخير لهذا المساء الفريد الذي تجري أحداثه بعيداً جداً، في مكان ما من العالمين، والذي انعكس ضوؤه على الأرض ليغمرها... أخذ هذا الوهج الأخير يلمع لمعاناً خافتاً في مؤخرة قوس قنطرة هائل يعلوه معبد صيني قرضته أشجار اللبلاب التي اسود لونها. وفيما وراء ذلك، كانت فصيلة من الجنود قد غاصت في الليل الذي تراكم ضباباً على سطح النهر، وراء جلبة الأجراس الصغيرة، والفونوغرافات. وهبط «كيو» هو أيضاً حتى وصل إلى قناة مليء بالأحجار الضخمة، هي أحجار الأسوار التي أزيلت علامة على تحرير الصين. وكانت «المعدية» قريبة جداً.

وانقضت ربع ساعة فوق النهر، في النظر إلى المدينة وهي تتوغل في غبش المساء. وأخيراً، ها هي ذي هانكيو.

وكان عربات «الريكشو» تنتظر على الرصيف. غير أن القلق الذي استبد بكيو كان من العنف بحيث لم يكن يطيق البقاء بلا حركة، فآثر المشي: هذه هي منطقة الامتيازات البريطانية التي جلت عنها انجلترا في يناير الماضي، وهذه هي البنوك الدولية الكبيرة قد أوصدت أبوابها، وإن كانت مهجورة... يا له من شعور غريب هذا القلق! يشعر المرء من نبضات قلبه، بأنه يتنفس تنفساً عسيراً، وكأنه يتنفس بقلبه... وأصبح القلق أقوى من صفاء ذهنه. وعند منعطف أحد الشوارع، وفي فجوة رسمتها حديقة مليئة بالأشجار المزدهرة الرمادية في عتمة المساء، ظهرت مداخن المصانع الغربية. ولكن لم يكن ينبعث منها دخان. وكانت مداخن الترسانة البحرية هي وحدها التي تعمل بين المداخن التي رآها جميعاً. أمن الممكن أن تكون «هانكيو»، تلك المدينة التي ينتظر منها الشيوعيون في العالم

كله خلاص الصين - قد أعلنت الاضراب العام؟ إن الترسانة تعمل فهل يمكن على الأقل الاعتماد على الجيش الأحمر؟ ولم يعد يجرؤ على الجري. وإذا لم تكن هانكيو على الحالة التي يعتقدها كل منهم، لكان معنى ذلك الموت لرفقائه جميعاً في شنغهاي... ولماي... وله هو نفسه.

وأخيراً، هنا وفد منظمة الشيوعية الدولية.

كانت «الفيلا» مضاءة كلها وكان «كيو» يعلم أن «بورودين» يعمل في الطابق الأعلى. أما في الطابق الأرضي فكانت آلات الطبعة تعمل بملء قوتها في ضجيج أشبه بضجيج مروحة هائلة قد أصيبت بخلل.

وتفحص أحد الحراس كيو الذي كان يرتدي صداراً رمادياً ذا رقبة سميكة. واعتقد الحارس أنه ياباني فأشار إليه بأصبعه أن يتجه إلى الساعي المكلف بمرافقة الأجانب، وحينئذ التقت عيناه بالأوراق التي مدها كيو إليه، فقاده عبر المدخل المزدحم إلى قسم الشيوعية الدولية الموكله بأمر شنغهاي. وكان كيو لا يعلم عن السكرتير الذي استقبله إلا أنه الشخص الذي نظم الثورات الأولى في فنلندا، إنه رفيق، يبسط يمناه من فوق مكتبه ليصافحه مقدماً نفسه باسم: فولوجين. وكان يبدو بديناً، أشبه بالمرأة الناضجة منه بالرجل، أكان ذلك راجعاً إلى دقة قسماته المرهفة النضرة في آن واحد، والشرقية إلى حد ما رغم بياض بشرته؟ أم إلى خصلات شعره الطويلة التي تكاد تكون رمادية، والمقصوصة لكي تلقى إلى الوراء، ولكنها تنهدل على وجنتيه كأنها عصابات مشدودة؟

قال كيو: «إن زمام الأمور يفلت منا في شنغهاي».

وأدهشته هذه الجملة التي نطق بها: ذلك أن تفكيره يسبقه، ومع ذلك فإن جملته تعبر عما كان سيقوله فيما بعد: فإذا لم تستطع هانكيو أن تزود الفرق بالمعونة التي تنتظرها، يصبح إلقاء السلاح انتحاراً.

ودس «فولوجين» يديه في كمي سترته الكاكي، وحنى رأسه إلى الأمام، وهو متكتل على مقعده ذي المسندين.

« همهم قائلاً: «مرة أخرى... »

- « أولاً، ماذا يجري هنا؟ »

- « انتبه: كيف يفلت منا زمام الأمور في شنغهاي؟ »

- « ولكن إذاً، لماذا لا تعمل المصانع هنا؟ »

- « مهلاً، من يحتج من الرفاق؟ »

ـ «أعضاء فرق القتال. والإرهابيون أيضاً.»

ـ «لا أهمية للإرهابيين.. أما الآخرون...»

ونظر إلى كيو ثم قال:

ـ «ماذا يريدون؟»

ـ «الخروج من الكومنتانج، وإنشاء حزب شيوعي مستقل، ومنح السلطة للنقابات، وعدم إلقاء السلاح على وجه الخصوص، فوق كل شيء.»

ـ «دائماً، نفس الشيء.»

ونهض فولوجين، وصوب بصره عبر النافذة إلى النهر والتلال دون أن يظهر على وجهه أدنى تعبير: ولم يكن يضفي الحياة على هذا الوجه المتحجر سوى توتر ثابت شبيه بالتوتر الذي نلمحه على وجوه المتجولين أثناء النوم. وكان قصير القامة، غير أن ظهوره البدين بدانة ...يلة، جعله يبدو كالأحدب تقريباً.

ـ «استمع إلي. فلنفرض أننا خرجنا من الكومنتانج، فماذا سنفعل؟»

ـ «أولاً، سنبدأ بتكوين ميليشيا لكل نقابة، ولكل اتحاد للعمال.»

ـ «ومن أين لنا بالأسلحة؟ الترسانة هنا بين أيدي الجنرالات. وتشانج ـ كاي ـ شيك يسيطر الآن على ترسانة شنغهاي. وقد انقطعت المواصلات بيننا وبين منغوليا، ومن ثم، لا نستطيع الحصول على أسلحة روسية.»

ـ «لقد استولينا على ترسانة شنغهاي.»

ـ «وجيش الثورة وراءكم.. لا أمامكم. ومن هؤلاء الذين سوف نقوم بتسليحهم هنا؟ حوالي عشرة آلاف عامل. بالإضافة إلى النواة الشيوعية (للجيش الحديدي): أي عشرة الآف أخرى. ولكل جندي عشر رصاصات! وضدهم أكثر من ٧٥,٠٠٠ جندي، في هذه المدينة وحدها.. دون أن نذكر أخيراً.. جنود تشانج ـ كاي ـ شيك أو غيرهم. وإنهم ...شعرون بالسعادة كل السعادة في التحالف ضدنا عند أول إجراء شيوعي حقيقي. وبماذا ...مون جنودنا؟»

ـ «ألا توجد مسابك ومصانع؟»

ـ «لم تعد المواد الخام تصل إلى هنا.»

واستطرد فولوجين، واقفاً بلا حراك أمام النافذة، وقد اختفت صفحة وجهه الخالية ...ف خصلات شعره، ومن ورائه عمق الليل

ـ «ليست هانكيو عاصمة العمال، ولكنها عاصمة العاطلين. ولا وجود للأسلحة، ور...

...ذلك أفضل. ثمة لحظات أفكر فيها قائلاً لنفسي: لو أننا سلحناهم، لأطلقوا علينا ...نهم. ومع ذلك هناك كل أولئك الذين يعملون خمس عشرة ساعة يومياً دون أن يلحوا ...ى المطالبة بحقوقهم، لأن (ثورتنا في خطر...).»

واستغرق كيو في التفكير، كما نغوص في الحلم، إلى أعماق أبعد غوراً.

وواصل فولوجين حديثه قائلاً: «القوة ليست في أيدينا، وإنما في أيدي قواد الكومنتانج اليساري) كما يقولون. وهم لن يقبلوا السوفييت بأكثر مما يقبلهم تشانج ـ كاي ـ شيك. هذا شيء مؤكد. إننا نستطيع أن ننتفع بهم، هذا كل ما في الأمر. على أن ...ون منهم في غاية الحذر.»

لو أن «هانكيو» مجرد ديكور ملطخ بالدماء!... ولم يجرؤ كيو على التفكير أبعد من ...لك. وقال لنفسه: «يجب أن أرى بوسوز. وأنا خارج من هنا» وكان بوسوز هو صديقه ...يد الذي يستطيع أن يثق به في هانكيو ـ «يجب أن أرى بوسوز...»

قال فولوجين: «لا تفغر فاك على هذا النحو.. كالمخبول.. فالعالم يعتقد أن هانكيو ...يوعية، وهذا أفضل، لأنه يشرف دعايتنا، ولكنه ليس سبباً في أن يكون ذلك حقيقياً.»

ـ «ما هي التعليمات الحالية؟»

ـ «تدعيم النواة الشيوعية في الجيش الحديدي. فنحن نستطيع أن نرجح كفة من الميزان على الأخرى، ولكننا لسنا قوة بأنفسنا. والقواد الذين يحاربون معنا هنا، يبغضون ال...فييت والشيوعيين كما يبغضهم تشانج ـ كاي ـ شيك. هذا ما أعلمه، وأراه، بالإيجاز ...يوم. وأول محاولة لتطبيق الشيوعية ستجعلهم ينقلبون علينا. كما أنهم تسوقهم بالطبع إلى التحالف مع تشانج. والشيء الوحيد الذي نستطيع أن نفعله هو أن نحطم تشانج باستخدامنا ...م أن نحطم فنج ـ يو ـ شيانج بنفس الطريقة إذا لزم الأمر، كما حطمنا من قبل القواد الذين حاربناهم حتى الآن باستخدام تشانج، وذلك لأن الدعاية تجلب إلينا من الأعوان ...ا تجلبه النصر لهم. وهكذا فنحن نصعد معهم، ولهذا السبب كان كسب الوقت هو الأمر الجوهري. ولا تستطيع الثورة أن تحافظ في نهاية الأمر ـ على شكلها الديموقراطي، إذ ...ب أن تتحول ـ بطبيعتها نفسها ـ إلى الصورة الاشتراكية، وينبغي أن نتركها لتصنع هذا ...حول، وأن نولدها ولادة طبيعية، لا أن ندفعها إلى الإجهاض.»

...أمل ...مر أن الماركسية تنطوي على معنى الجبرية، وعلى إثارة الإرادة في وقت ...ا ...وفي كل مرة تتقدم الجبرية على الإرادة، أرتاب في الأمر.»

ـ «إن برنامجاً شيوعياً خالصاً يطبق اليوم، سيؤدي مباشرة إلى اتحاد جميع القواد ضدنا.

مائتا ألف من الرجال ضد عشرين ألفاً. ولهذا يجب أن تتفقوا في شنغهاي مع تشانج ـ كاي ـ شيك. فإن لم تكن ثمة وسيلة لمثل هذا الاتفاق.. فمن الخير إلقاء السلاح.»

ـ «وعلى هذا الأساس، كان من الخطأ قيام ثورة أكتوبر: كم كان عدد البلاشفة حينذاك؟»

ـ «إن اتخاذ كلمة «السلام» شعاراً لنا، جعلنا نظفر بتأييد الجماهير.»

ـ «ثمت شعارات أخرى.»

ـ «لم يحن أوانها. وما هي تلك الشعارات؟»

ـ «القضاء التام المباشر على الايجارات الزراعية وعلى القروض. وإعلان الثورة الزراعية بلا حيل أو تحفظات.»

وكانت الأيام الستة التي قضاها «كيو» في الملاحة على صفحة النهر قد أكدت له ما ذهب إليه تفكيره: ففي تلك المدن الموحلة القائمة عند ملتقى الأنهار منذ آلاف السنين، كان الفقراء على استعداد لاتباع الفلاح، أو العامل على السواء.

قال فولوجين: «إن الفلاح يتبع غيره دائماً.. سواء أكان هذا الغير عاملاً أم برجوازياً.. فإنه يتبع الآخرين على كل حال.»

ـ «عفواً.. إن حركة الفلاحين لا يمكن أن «تدوم» إلا باستنادها على المدن، ولا يمكن أن تكون إذا قامت وحدها ـ سوى مجرد عبث.. هذا أمر مفروغ منه. ولكن ينبغي ألا نعزلها عن البروليتاريا: وإلغاء القروض ما هو إلا شعار للكفاح، الشعار الوحيد الذي يمكن أن يعبىء الفلاحين.»

قال فولوجين: «وأخيراً توزيع الأراضي عليهم.»

ـ «وإن شئت مزيداً من الواقعية: فإن كثيراً من الفلاحين الفقراء جداً هم في الواقع من الملاك، ولكنهم يكدحون من أجل المرابي. هذا شيء يعلمه الجميع. وينبغي من ناحية أخرى ـ أن نقوم في شنغهاي بتدريب حراس النقابات العمالية بأسرع ما يمكن وألا نسمح بتجريدهم من السلاح بأية ذريعة كانت، وأن نجعل منهم «قوتنا» في مواجهة تشانج ـ كاي ـ شيك.»

ـ «ما أن يعرف هذا الشعار، حتى نكون من الهالكين.»

ـ «وسنكون من الهالكين على أية حال. فالشعارات الشيوعية تشق طريقها، حتى لو تخلينا عنها. إذ تكفي بضعة خطب لكي يطمع الفلاحون في امتلاك الأراضي ـ ولكن الخطب لن تكفي لكي يتنازلوا عن هذا الطمع، وإلا كان علينا أن نقبل الاشتراك في عملية

القمع التي تقوم بها قوات تشانج ـ كاي ـ شيك، أهذا يرضيك؟ أي أن نتورط «نهائياً»، وإلا فلا بد من أن يسحقونا، أرادوا ذلك أم لم يريدوه.»

ـ «إنهم متفقون جميعاً في موسكو على أنه لا بد من الانفصال عنهم في النهاية.. ولكن على ألا يكون ذلك مبكراً على هذا النحو.»

ـ «فإذا كان المراد خداعهم قبل كل شيء، فلا تلقوا السلاح.. لأن إلقاء السلاح معناه تسليم الرفاق.»

ـ «لو أنهم اتبعوا التعليمات، لما استطاع تشانج أن يحرك ساكناً.»

ـ «سواء اتبعوها أم لم يتبعوها، فهذا لا يغير من الأمر شيئاً. فاللجنة وكاتوف وأنا، قمنا بتنظيم الحرس العمالي، فإذا أردتم أن تحلوه، فسوف تعتقد البروليتاريا كلها في شنغهاي أن هذا عمل من أعمال الخيانة.»

ـ «إذن، دعوا هذه الحركة تخمد.»

ـ «إن نقابات العمال تنظم في كل مكان من تلقاء نفسها في الأحياء الفقيرة. فهل ستعوقون إنشاء النقابات باسم «الدولية»؟»

وعاد فولوجين إلى النافذة، وخفض رأسه على صدره، فبرزت له ذقن ثانية.. وكان الليل قد هبط مليئاً بالنجوم، التي ما برحت شاحبة.

ـ «القطيعة معناها هزيمة مؤكدة، ذلك أن موسكو لن تقبل الآن انشقاقنا على الكومنتانج. والحزب الشيوعي الصيني أميل إلى الاتفاق من موسكو.»

«في الجهات العليا فحسب: أما بين صفوف الشعب، فالرفاق لن يلقوا الأسلحة أبداً، حتى لو أمرتهم بذلك. وفي هذه الحالة تضحون بنا، دون أن تبعثوا الاطمئنان في نفس تشانج ـ كاي ـ شيك. ويستطيع بورودين أن ينبئ موسكو بذلك.»

«موسكو تعرف هذا، وقد صدر الأمر بتسليم الأسلحة أول أمس.»

[illegible] الذهول على «كيو»، فلم يستطع أن يرد من توه.

«وهل سلمت الأقسام الأسلحة؟»

«بعضها على أكثر تقدير.»

«أول أمس»... [illegible] يفكر أو ينام على ظهر المركب.. لقد كان يعلم أيضاً أن [illegible] وفجأة، أضفى الوقت... قائمة على مشروع [illegible]

ـ « ثمة شيء آخر ـ وربما لم يكن شيئاً جديداً ـ إن تشن ـ تا ـ ابن أحد رفاقنا ، يريد اغتيال تشانج . »

ـ « آه .. هذا إذن هو السبب ! »

ـ « ماذا ؟ »

ـ « لقد بعث إلي برسالة ، يطلب فيها أن يراني أثناء وجودك » .

وتناول رسالة موضوعة على المنضدة . ولم يكن « كيو » قد لحظ يديه الشبيهتين بأيدي الكهنة ، وسأل كيو نفسه : « لماذا لم يظهر هذه الرسالة على التو ؟ »

ـ « .. مسألة خطيرة (وكان فيرلوجين يقرأ الرسالة) . إنهم يقولون جميعاً : إنها مسألة خطيرة .. »

ـ « أهو موجود هنا ؟ »

ـ « أما كان مقدوراً أن يأتي ؟ إنهم جميعاً سواء . فهم يغيرون رأيهم دائماً تقريباً . إنه هنا منذ حوالي ساعتين أو ثلاث : لا بد أن زورقك قد أوقف كثيراً . »

واتصل بالتليفون لكي يأتي تشن . ولم يكن يحب الحديث مع الإرهابيين الذين يعتقد أنهم ضيقو الأفق ، مغرورون ، محرومون من الحس السياسي .

قال : « كانت الأمور أسوأ من ذلك في لنينجراد ، حين كان يوديننتش على أبواب المدينة ، ومع ذلك فقد اجتزنا المأزق في نهاية الأمر .. »

ودخل تشن ، وكان يرتدي صداراً صوفياً هو أيضاً ، ومر أمام كيو ، ثم جلس قبالة فيرلوجين . وكانت جلبة المطبعة هي وحدها التي تملأ السكون . وفي النافذة الكبيرة المتعامدة على المكتب ، كان الليل الذي اكتمل الآن يفصل بين وجهي الرجلين . أما « تشن » الذي أسند مرفقيه على المكتب ووضع ذقنه بين كفيه ، فقد جلس ثابتاً ، متوتراً ـ بلا حراك . وقال كيو لنفسه وهو يتأمله : « في أقصى التوتر الذي يرتسم على وجه إنسان ما يجعله يبدو لا إنسانياً .. أهذا لأننا نشعر في يسر باتصالنا عن طريق مواطن ضعفنا ؟ .. » وما أن انقضت دهشته ، حتى رأى أنه من المحتم أن يكون تشن ها هنا ، وأن يأتي ليؤكد بنفسه (إذ لم يكن يظن أنه جاء للمناقشة) القرار الذي اتخذه . وفي الجانب الآخر من الليل المزدحم بالنجوم ، كان فيرلوجين منتصباً ، وقد تهدلت خصلات شعره على وجهه ، وشبك يديه على صدره ، منتظراً هو الآخر .

وسأله تشن وهو يشير برأسه إلى كيو : « هل أنبأك ؟ »

فأجاب فيرلوجين : « أنت تعرف رأي « الدولية » في الأعمال الإرهابية ولا أريد أن ألقي عليك خطبة في هذه المسألة ؟ »

ـ « الحالة التي نحن بصددها حالة خاصة .. ذلك أن تشانج ـ كاي ـ شيك هو « وحده » [illegible] القادر على توحيد البورجوازية ضدنا . فهل تعارض في هذا الاغتيال .. أجب بنعم أم لا ؟ »

وكان طيلة حديثه ساكناً لا يتحرك ، مسنداً مرفقيه إلى المكتب ، وذقنه بين راحتيه [illegible] كيو يعلم أن المناقشة غير ذات جدوى بالنسبة لتشن ، على الرغم من مجيئه .. فالتصميم [illegible] وحده الذي يجعله على وفاق مع نفسه .

ـ « ليس « للدولية » أن تقر هذا المشروع » . وكان فيرلوجين يتحدث بلهجة من يلقي [illegible] « ومع ذلك ، إذا أخذنا بوجهة نظرك نفسها (ولم يتحرك تشن قط) فهل [illegible] إختيار اللحظة التي تقوم فيها بهذا العمل ؟ »

ـ « وهل تفضل الانتظار حتى يغتال تشانج رجالنا ؟ »

ـ « إنه لا يصدر إلا قرارات ولا شيء أكثر من ذلك . ولا تنس أن ابنه في موسكو [illegible] فإن بعض ضباط « جالن » الروس لم يستطيعوا مغادرة أركان حربه ، وسيعرضون للتعذيب إذا قتل . ولن يوافق « جالن » أو هيئة أركان الحرب الحمراء على ... »

وقال كيو لنفسه : « إذن فقد توقفت المسألة حتى هنا » وكان ثمة شيء قليل الاقناع [illegible] في هذه المناقشة ؛ فقد وجد فيرلوجين أشد إصراراً ـ بشكل غريب ـ حين يأمر [illegible] الأسلحة منه حين يتحدث عن اغتيال تشانج ـ كاي ـ شيك .

قال تشن : « إذا قاموا بتعذيب الضباط الروس ، فهذا ما لا بد أن يحدث . وأنا أيضاً [illegible] للتعذيب .. وهذا شيء لا أهمية له . لأن ملايين الصينيين يساوون خمسة عشر [illegible] روسياً .. فليكن . وسيتخلى تشانج عن ابنه .

ـ « وماذا تعرف عن هذا الأمر ؟ »

ـ « ولست ؟ وأنت لن تعترض بلا شك على اغتياله . »

فقال كيو : « ليس من شك أنه يحب ابنه أقل من حبه لنفسه . وإذا لم يحاول أن يستخدم [illegible] من المالكين ، وإذا لم يكبح جماح الفلاحين ، فسوف يتخلى عنه ضباطه أنفسهم [illegible] إذن أن يتخلى عن [illegible] أن يحصل على عمدة وعمود من القناصل [illegible] أو على بعض [illegible] والبورجوازية الصغيرة كلها التي [illegible] في اليوم التالي [illegible] [illegible] إنها ستكون في جانب القوة [illegible]

ـ « ليس حتماً .. ثم إن هناك مدناً أخرى غير شنغهاي » .

ـ « أنت تقول إنكم تموتون من الجوع هنا . فإذا سقطت شنغهاي ، فمن الذي سيتول تموينكم ؟ » فن ـ يو ـ شيانج ، يعزلكم عن منغوليا ، كما أنه سيحوّلكم إذا سحقنا . ومن ثم لن يصلكم شيء عن طريق نهر يانجتسي ، أو من الروسيا . أتظن أن الفلاحين الذين تعدهم بتنفيذ برنامج الكومنتانج (تخفيض ٢٥٪ من إيجارات الأطيان .. دون التواء .. أجل دون التواء !) على استعداد للموت جوعاً في سبيل إطعام الجيش الأحمر ؟ إنكم لتضعون أنفسكم بين أيدي الكومنتانج أكثر مما أنتم فعلاً . إن محاولة الدخول الآن في صراع ضد تشانج ، بشعارات ثورية حقيقية ، وبالاعتماد على الفلاحين وعلى البروليتاريا في شنغهاي .. مخاطرة ، ولكنها ليست شيئاً محالاً . إن الفرقة الأولى تكاد أن تكون شيوعية كلها ابتداء من قائدها حتى آخر رجل فيها ، وستحارب إلى جانبنا . وأنت تقول إننا قد احتفظنا بنصف الأسلحة .. وإذا لم نحاول هذه المحاولة ، فهذا معناه أن ننتظر ذبحنا بكل هدوء » .

ـ « الكومنتانج موجود .. ولسنا نحن الذين صنعناه . إنه قائم ، بل أقوى منا ، مؤقتاً . ونستطيع أن نغزوه من القاعدة إذا أدخلنا فيه جميع العناصر الشيوعية التي نملكها . فالغالبية العظمى من أعضائه متطرفون » .

ـ « وأنت تعرف أيضاً كما أعرف أن العدد في ديمقراطية ما لا يساوي شيئاً ضد الجهاز القيادي . سنثبت أنه من الممكن استخدام الكومنتانج ، باستخدامه فعلاً . لا بمجرد المناقشة . ونحن لم نكف عن استخدامه منذ عامين .. كل شهر ، وكل يوم » .

ـ « كلما قبلتم أهدافه ، ولكنكم لم تستخدموه ولو مرة واحدة حين كانت المسألة تتعلق بقبوله لأهدافكم . لقد سقتموه إلى قبول الهدايا التي كان يتحرق شوقاً إليها : الضباط ، والمتطوعين ، والمال ، والدعاية . أما وجود السوفييت في الجيش ، والنقابات الزراعية ، فهذه مسألة أخرى » .

ـ « وماذا عن استبعاد العناصر المعادية للشيوعية ؟ » .

ـ « لم يكن لشانج ـ كاي ـ شيك يملك شنغهاي حينذاك » .

ـ « كنا نستطيع ـ قبل شهر مضى ـ أن نحصل من اللجنة المركزية للكومنتانج على قرار بجعله خارجاً على القانون » .

ـ « وبعد أن يكون قد سحقنا . وهل يحسب هؤلاء القادة في اللجنة المركزية أقل

المناضلين الشيوعيين ؟ هذا مزيد من الكسب لهم ! ألا تعتقد حقاً أن سيطرة فكرة الحتميات الاقتصادية تمنع الحزب الشيوعي الصيني ـ وربما موسكو أيضاً ـ من رؤية الضرورة الأولية الدامية تحت أنوفنا ؟ »

« هذه انتهازية . »

« ربما كانت كذلك . وإذا تمشينا مع منطلق تفكيرك ، لكان من الواجب على لينين ألا يجعل من تقسيم الأراضي شعاراً له (فقد كان هذا الشعار يمثل حينذاك البرنامج الاشتراكي الثوري أكثر من تمثيله لبرنامج البلاشفة ، وكان تقسيم الأراضي يعني تكوين الملكيات الصغيرة . وعلى ذلك ، كان ينبغي عليه ، ألا يأمر بالتقسيم ، بل بإنشاء النظام الجماعي الدائم ، أي تكوين المزارع الجماعية sovkhozes وحين نجح ، استطعتم أن تدركوا أنها كانت مسألة تكتيك . وكذلك ، ما نحتاج إليه هو التكتيك ! وإنكم لسبيل فقدان السيطرة على الجماهير ... »

ـ « وهل تتخيل أن لينين قد حافظ عليها من فبراير إلى أكتوبر ؟ »

ـ « كان يفقدها في لحظات معينة ... ولكنه كان دائماً يسير في اتجاهها . أما أنتم ، وشعاراتكم ، فإنها ضد التيار . إن خيوط سياستكم لا تتلاحم ، وإنما يسير كل منها دائماً في اتجاه مباعد عن الخيوط الأخرى .. ولكي تؤثروا على الجماهير ـ كما تزعمون ـ لا بد أولاً من الحصول على السلطة . وهذه ليست حالتكم » .

قال تشن : « المسألة لا تحتاج إلى هذا كله . » ونهض .

واستطرد كيو قائلاً : « لن تستطيعوا كبح جماح حركة الفلاحين ، ونحن الشيوعيين ، نعطي الجماهير ـ حالياً ـ تعليمات لا يمكن أن ينظروا إليها إلا باعتبارها خيانات . وهل تعتقد أن الجماهير ستفهم شعاراتكم الداعية إلى الانتظار ؟ »

ـ « وحتى لو كنت حمالاً في ميناء شنغهاي ، فإني أعتقد أن طاعة الحزب هي الموقف المنطقي الوحيد الذي يمكن أن يتخذه ـ في نهاية الأمر ـ المكافح الشيوعي ، وأنه لا بد من تسليم الأسلحة جميعاً » .

ونهض تشن قائلاً : « إن المرء لا يقتل إطاعة للأوامر ، كما أنه لا يقتل مصدوعاً الأمر ... اللهم سوى الجبناء » .

وهز فولوجين كتفيه .

« ومع ذلك ينبغي ألا ننظر إلى الاقتتال على أنه الطريق الرئيسي المؤدي إلى الحقيقة السياسية » .

وانصرف تشن.

قال كيو وهو يبسط يده لفولوجين: «سنقترح في أول اجتماع للجنة المركزية تقسيم الأراضي فوراً، وإلغاء القروض».

فأجاب فولوجين وهو يبتسم لأول مرة: «ولن توافق اللجنة على هذين الاقتراحين».

وكان تشن ينتظر في الخارج، وهو كتلة من الظل على الرصيف، ولحق به كيو بعد أن حصل على عنوان صديقه بوسوز الذي كان مكلفاً بادارة الميناء.

وقال تشن: «انصت...»

كانت رجفات آلة المطبعة المنتظمة المضبوطة كأنها محرك الباخرة تنفذ فيهما من أخمص أقدامهما إلى قمة رأسيهما، منتقلة إليهما من خلال الأرض. وفي المدينة النائمة، سهرت الشوصية بنوافذها المضاءة جميعاً، تجتازها من حين إلى آخر جذوع سود لبعض الأشخاص وسار الأثنان، وأمامهما ظلاهما المتشابهان: نفس القامة، ونفس صورة ياقة الصدار التي تحيط بالرقبة. وكانت الأكواخ المبنية من القش التي يلمحها المرء في أفق الشوارع، بأطيافها التي توحي بالفقر، تتبدد في أعماق الليل الهادئ الذي يكاد أن يكون مهيباً، وفي رائحة السمك والدهون المحترقة. ولن يستطيع كيو أن يتخلص من اهتزاز هذه الآلات الذي ينتقل إلى عضلاته خلال الأرض وكأن هذه الآلات التي تصنع الحقيقة قد انضمت في نفسه إلى ترددات فولوجين وتأكيداته. ولم يكن «كيو» قد انقطع - أثناء تجواله في النهر - عن الشعور بتهافت معلوماته، وبصعوبة تأسيس فعله. إذا لم يستمر في إطاعة تعليمات «الدولية» طاعة بسيطة عمياء. غير أن «الدولية» كانت مخطئة، إذ لم يعد كسب الوقت ممكناً. وقد بلغت الدعاية الشيوعية الجماهير كالطوفان، لأنها كانت دعايتهم. وأياً كان الحذر الذي تصطنعه موسكو فإن هذا الطوفان لن يتوقف، وتشانج يعلم ذلك ولا بد أن يسحق الشيوعيين من الآن. هنا كان اليقين الوحيد. وربما كان من الممكن أن تسلك الثورة مسلكاً آخر، غير أن الأوان قد فات. وسيتولى الفلاحون الشيوعيون على الأراضي، وسيطالب العمال الشيوعيون بنظام آخر للعمل. ولن يقاتل الجنود الشيوعيون إلا إذا أدركوا لماذا يقاتلون سواء أرضيت موسكو أم لم ترض. وتستطيع موسكو وعواصم الغرب المعادية أن تنظم هناك في الظلام مناوراتها المتعارضة في محاولة لأن تجعل منها عالماً. أما الثورة فهي حبلى في شهرها الأخير، ولا بد من أن تضع أو تموت. وأحس كيو في وقت واحد، بقربه من تشن منه، فهو رفيق الليل، وشعور قلق من النشوة يتفاعل في نفسه، وقلق من أنه ليس سوى إنسان، ليس سوى واحد من أولئك المناضلين الصم، الذين شاهدهم في ليال شبيهة بهذه الليلة،

يتمددون في سهوب الأستبس التي تفوح منها رائحة الخزامى المحترقة وهم يرددون تلك الأناشيد التي تمزق منذ آلاف السنين، الإنسان المعذب الذي يعلم أنه سيموت. ماذا أتى به إلى ما هو فيه؟ لكي يطلع «الدولية» على الموقف في شنغهاي. والدولية قد عقدت عزمها كما عقد هو عزمه. وكان ما استمع إليه - فضلاً عن مناقشات فولوجين - هو صمت المصانع، وهذه المدينة التي تموت في زينة من المجد الثوري، ولكنها تموت رغم ذلك. وكان من الممكن أن يوحي بهذه الجثة للموجة الثورية القادمة، بدلاً من تركها تتحلل في ألوان من الخداع. ولم يكن من شك في أنهم هالكون جميعاً، غير أن الشيء الجوهري هو ألا يكون هلاكهم عبثاً. وقد كان على يقين من أن «تشن» يرتبط به هو أيضاً في هذه اللحظة برابطة الصداقة التي تربط بين سجينين.

قال تشن: «عجباً للمرء لا يعرف! إذا كان الأمر يتعلق باغتيال تشانج - كاي - شيك... فإني أعرف. وأعتقد، أن الأمر على هذا النحو وبالنسبة لهذا الفولجين، وبدلاً من أن تعالج المسألة بالاغتيال، فإنها في حالته تتعلق بالطاعة. وحين يحيا الناس كما نحيا نحن، فلا بد لهم من اليقين. إنما تنفيذ الأوامر بالنسبة إليه، هو على ما اعتقد بكل يقين - كالاغتيال بالنسبة لي. يجب أن يكون ثمة شيء يقيني.. يجب».

والتزم الصمت، ولكنه لم يلبث أن استطرد قائلاً:

- «أتحلم كثيراً؟»

- «كلا... أو على الأقل لا أتذكر أحلامي كثيراً».

- «إني أحلم كل ليلة تقريباً... وهناك أيضاً أحلام اليقظة. وحين أترك لنفسي العنان، أنبع في بعض الأحيان ظل قط على الارض؛ وإنه لأفظع من أي شيء حقيقي... ولكن، لا يوجد شيء أسوأ من الاحلام».

- «أسوأ من أي شيء حقيقي؟...»

- «لست من أولئك الأشخاص الذين يمزقهم تأنيب الضمير. وليس الشيء العسير في جريمة القتل، هو عملية القتل نفسها، وإنما هو عدم السقوط، وأن يكون المرء أقوى... مما يدور في نفسه في تلك اللحظة».

هل تعني كلماته شيئاً من المرارة؟ ما كانت تنم عن ذلك نبرة صوته، كما أن كيو لم يكن يرى ملامحه. وهناك في وحشة الطريق، بدوت صيحة مكتومة منبعثة من سيارة بعيدة، مع الريح التي تركت وراءها أريج الكروم المختلط بروائح النيل المشبعة بالكافور.

- «وليت الأمر مقصور على ذلك... كلا، فهناك ما هو أسوأ... الحيوانات».

وطفق تشن يكرر هذه العبارة: حيوانات.. من جنس الأخطبوط بوجه خاص. وإني لأتذكرها دائماً.

وأحس كيو ـ على الرغم من رحابة الليل ـ أنه قريب منه وكأنه معه في حجرة مغلقة.

ـ « وهل بدأ ذلك منذ زمن بعيد ؟ »

ـ « بعيد جداً.. أبعد مما أتذكر.. ولكنه أصبح أقل إلماماً بي في الفترة الأخيرة. ولم أعد أتذكر إلا.. هذه الأشياء.. اني أمقت التذكر بوجه عام. وهذا ما لا يحدث لي، فإن حياتي ليست في الماضي، إنها تمتد أمامي. »

وساد الصمت بينهما.

ـ « ... والشيء الوحيد الذي أخاف منه... أخاف منه، هو أن أنام.. وهأنذا أنام كل يوم. »

ودقت الساعة العاشرة. وهناك في أعماق الليل، كان ثمة أناس يتناقشون، نقاشاً صينياً في عبارات قصيرة أشبه بنباح الكلاب.

ـ « ... لو أن أصبح مجنوناً. تلك الحيوانات الأخطبوطية، بالليل والنهار.. حياة بأكملها. والمجانين لا ينتحرون قط، على ما يظهر.. مطلقاً... »

ـ « وهل بغير القتل من أحلامك ؟ »

ـ « لم أعد أعرف... سأخبرك فيما بعد، يا تشانغ. »

وكان « كيو » قد وطن نفسه على أن يحيا حياته الخاصة، وأن يعيش بين أناس يعلمون أن حياتهم مهددة في كل يوم: ولهذا لم تكن الشجاعة تدهشه. غير أن هذه كانت المرة الأولى التي يلتقي فيها بإغراء الموت، مجسماً في هذا الصديق الذي لا يكاد يراه، والذي يتحدث بصوت شارد. وكأن عباراته مستوحاة من قوة الليل نفسها التي أوحت إليه بالقلق، ومن ذلك الطابع الحميم الطاغي الذي يتسم به القلق، والصمت، والتعب.. بيد أن شيئاً من التغير قد طرأ الآن على صوته.

ـ « هل تفكر في هذا الأمر.. بقلق ؟ »

ـ « كلا. ولكن بـ... »

وتردد، ثم قال:

ـ « أنني أبحث عن كلمة أقوى من الفرح، فلا أجد، حتى في اللغة الصينية. إنه شيء أشبه بالتهدئة التامة.. نوع من.. كيف أعبر لك عن ذلك ؟ من.. شيء لا أعرفه. لا يوجد سوى شيء واحد أعمق من ذلك. إنه يأخذ المرء بعيداً عن نفسه. ليحمله قريباً من... هل تعرف الأفيون ؟ »

ـ « لا أكاد أعرفه. »

ـ « من الصعب إذن أن أشرح لك ما يدور في نفسي.. إنه أقرب إلى ما تسمونه... النشوة. أجل... ولكنها نشوة كثيفة.. عميقة.. تخلو من الخفة.. نشوة تتجه إلى.. إلى أسفل. »

ـ « وهل هناك فكرة تعطيك هذا الشعور ؟ »

ـ « أجل.. فكرة موتي الخاص. »

إنه ما برح يتحدث بهذا الصوت الشارد. وقال كيو لنفسه: « سينتهي به الأمر إلى الانتحار. » وكان قد استمع إلى والده بما فيه الكفاية ليعلم أن من يبحث عن المطلق بهذا الحماس، لن يجده إلا في الاحساس. تعطشني إلى المطلق، وتعطشني إلى الخلود، وبالتالي رهبتي من الموت: وقد كان ينبغي أن يكون تشن جباناً، ولكنه يشعر ـ ككل متصوف ـ أن مطلقه لا يمكن بلوغه إلا في « اللحظة ». ومن هنا كان احتقاره ـ بلا شك ـ لكل ما لا يؤدي به إلى اللحظة التي تربطه بنفسه في حالة من الامتلاك الذي يبعث الدوار. ومن هذه الصورة الانسانية التي لا يكاد يتبينها كيو، تنبع قوة عمياء تسيطر عليها، إنها المادة ـ غير واضحة الشكل ـ التي تصنع منها الحتمية. وقد كان في هذا الرفيق الصامت الذي يجتر رؤاه المألوفة المفزعة شيء من الجنون، ولكن كان فيه أيضاً شيء مقدس ـ ذلك الشيء المقدس الذي يوجد دائماً في حضرة اللاإنساني. لعله لا يريد اغتيال تشانغ إلا ليقتل نفسه. وأحس كيو، وهو يسعى في الظلام إلى رؤية هذا الوجه الحاد ذي الشفتين الطيبتين ـ أحس في هذه الاختلاجة ذلك القلق البدائي الذي يلقي بـ « تشن » إلى حيوانات النوم الأخطبوطية وإلى الموت في آن واحد.

وقال كيو متمهلاً: « يعتقد أبي أن الانسان في قرارة نفسه عبارة عن قلق، وعن وعي بمصيره الحتمي الخاص، ومن هذا تتولد المخاوف جميعاً، حتى الخوف من الموت.. غير أن الأفيون يخلص الإنسان من هذه المخاوف، وهذا هو معناه. »

ـ « الرعب كان دائماً في الذات. ولا يحتاج الأمر إلى أكثر من التفتيش بعمق كاف. و[illegible] لحسن الحظ، يستطيع الانسان أن يعمل. وإذا كانت موسكو تؤيدني، فالأمر يستوي [illegible]. وإذا كانت لا تؤيدني، فإن أبسط شيء، هو أن أتجاهل عدم التأييد هذا. سأرحل [illegible]. هل تريد البقاء ؟ »

ـ « أريد أن أرى بوسوز، قبل كل شيء. وأما أنت فلن تستطيع الرحيل [illegible] تعمل على [illegible] الفروع. »

ـ « إني راحل، بكل تأكيد. »

ـ « كيف؟ »

ـ « لا أعرف.. ولكنني سأرحل.. إني على يقين من ذلك. كان « ينبغي » علي أن أقتل « تنج ـ ين ـ تا »، والآن ينبغي أن أرحل.. وسأرحل بكل تأكيد. »

والواقع أن كيو كان يشعر بأن إرادة « تشن » تلعب دوراً ضئيلاً جداً في مجرى الحوادث. ولو أن القدر كان مخبأ في مكان ما، لكان هناك إلى جواره في تلك الليلة.

ـ « هل تعتقد أنه من المهم أن تكون « أنت » الذي يدبر اغتيال تشانج؟ »

ـ « كلا.. ومع ذلك. فأنا لا أريد أن يرتكب غيري هذا العمل ».

ـ « ألأنك لا تثق بأحد؟ ».

ـ « لأنني لا أحب أن يقتل الآخرون النساء اللواتي أحبهن. »

وبعثت هذه العبارة في نفس « كيو » كل العذاب الذي تسببه: وأحس فجأة أنه منفصل عن تشن. وكانا قد بلغا النهر. وقطع تشن حبل أحد القوارب الراسية وابتعد عن الشاطئ، وسرعان ما غاب عن بصر « كيو » الذي لم يعد يسمع سوى صوت ارتطام المجاذيف المنتظم يدفع بالماء دفعاً خفيفاً إلى ضفة النهر. لقد عرف كثيراً من الإرهابيين، وكانوا لا يطرحون أية أسئلة، وإنما كانوا يؤلفون جزءاً من جماعة: حشرات قاتلة، تستمد العيش من ارتباطها الوثيق بعش زنابير ضيق. أما تشن.. واتجه كيو صوب إدارة الميناء، مواصلاً التفكير دون أن يغير من سرعة خطاه. « سيوقف قاربه منذ البداية... »

ووصل إلى أبنية ضخمة يحرسها الجيش، وتكاد تكون خالية إذا قيست بمباني « الدولية ». وفي الممرات، كان الجنود نائمين أو يلعبون الورق. ووجد صديقه دون عناء. وكان له رأس مستدير كالتفاحة، ووجه تملؤه بثور حمر، وشارب رمادي شبيه بشوارب الغاليين. ويرتدي حلة كاكية اللون ـ وكان « بوسوز » عاملاً قديماً ونقابياً فوضوياً في مدينة « لاشوديفون » ثم رحل إلى روسيا عقب الحرب، وأصبح من البلاشفة. وكان كيو قد تعرف عليه في بكين. وأولاه ثقته. وتصافحا في هدوء: فتى هانكيو. كان أي شبح من الأموات بعد زائراً طبيعياً.

قال أحد الجنود: « لقد وصل عمال التفريغ هناك. »

ـ « أرسلهم. »

وخرج الجندي، والتفت « بوسوز » إلى كيو:

ـ « أتلاحظ يا عزيزي انني لا أفعل شيئاً؟ كنا نتوقع أن تعبر السفن [illegible] ساعة. وهنا أقل من عشر [illegible] »

كانت الميناء هامدة تحت النوافذ المفتوحة: لا صفارات، ولا شيء سوى ارتطام الماء [illegible] بالضفاف والركائز. وعبر وهج عظيم شاحب اللون جدران الحجرة: إنها كشافات الزوارق المدفعية البعيدة تمسح هذا الشطر من النهر. وأعقب ذلك جلبة أحدثها وقع خطوات.

وسحب بوسوز مسدسه من جرابه، ووضعه فوق مكتبه، وقال موجهاً حديثه إلى كيو: « لقد هاجموا الحرس الأحمر بقضبان من الحديد. »

ـ « الحرس الأحمر مسلح. »

ـ « لم يكن الخطر يا عزيزي في التغلب على الحراس، وإنما كان الخطر في أن ينضم الحراس إليهم. »

وعاد ضوء المنارة ملقياً بظلالها الضخمة على الحائط الخلفي الأبيض، ثم غاب في حنايا الليل في اللحظة التي دخل فيها عمال التفريغ: أربعة، خمسة، ستة، سبعة. وكانوا يرتدون حلل العمل الزرقاء، بينما تعرى أحدهم حتى خصره. وفي أيديهم قيود حديدية. وجوه مختلفة، تكاد لا تظهر في الظلام، وإن ارتسم عليها جميعاً حقد عنيف، يحرسهم اثنان من الصينيين، في جنب كل منهما غدارة من طراز ناجان. ووقف عمال التفريغ ملتصقين كأنهم كتلة واحدة. أجل، كان الحقد ماثلاً في عيونهم، والخوف أيضاً.

قال « بوسوز » باللغة الصينية: « إنما الحراس الحمر من فئة العمال. »

صمت.

ـ « وإذا كانوا قد تحولوا إلى حراس، فذلك من أجل الثورة، لا من أجلهم هم. »

وقال أحد العمال: « ولكي يأكلوا أيضاً. »

ـ « من العدل أن تذهب الأطعمة إلى أولئك الذين يحاربون. ماذا تريدنا أن نفعل بها؟ أن نراهن بها في لعب الورق؟ »

ـ « إعطاؤها للجميع ».

ـ « لا يوجد منها إلا ما يكفي البعض فحسب ـ ولقد عزمت الحكومة على أن تولي البروليتاريا أعظم رعاية ممكنة، حتى ولو أخطأوا. ولئن قتل الحرس الأحمر في كل مكان، فسوف يستولي قواد الجيش والأحباب على السلطة كسابق عهدهم، وهذا ما تعلمونه جيداً. فماذا بكم إذن؟ هل هذا هو ما تريدونه؟ »

ـ « كنا نأكل... في ذلك العهد. »

قال كيو ضاغطاً العمال: « كلا. لم نكن نأكل في ذلك العهد، وأنا أعرف ذلك، لأنني

كنت من عمال الشحن. وإذا كان لا بد من الموت جوعاً، فليكن ذلك في سبيل أن نصبح آدميين.»

واتسع بياض تلك العيون التي انعكس فيها الضوء الخافت ـ اتساعاً غير ملحوظ، وكانوا يودون أن يحتلوا ذلك الشخص الذي يشبه اليابانيين في مظهره بصداره الصوفي، والذي يتحدث بلهجة أهل الشمال، ومع ذلك يدعي أنه من العمال الكادحين.

أجاب أحدهم بصوت واهن: «مجرد وعود.»

وقال آخر: «أجل... ولنا الحق على الأخص في أن نضرب عن العمل، وأن نموت جوعاً. إن أخي جندي في الجيش فلماذا طردوا من فرقته أولئك الذين طلبوا تشكيل نقابات للجنود؟»

وارتفعت لهجة الصوت.

هنا تساءل بوسوز: «وهل تعتقدون أن الثورة الروسية تمت في يوم واحد؟»

ـ «لقد انجز الروس ما أرادوه.»

لم تكن ثمة جدوى من المناقشة؛ وأصبح الأمر الواجب هو تعرّف مدى خطورة هذا التمرد.

ـ «إن مهاجمة الحرس الأحمر تعد عملاً معادياً للثورة، جزاؤه الموت. وأنتم تعلمون ذلك.»

وانقضت برهة.

ـ «وإذا أطلقنا سراحكم، فماذا أنتم صانعون؟»

وتبادلوا النظرات. لم يكن الظلام يسمح برؤية التعبير المرتسم على وجوههم. وعلى الرغم من القذارات، والقيود الحديدية. فقد أحس «كيو» بأن جو المساومة الصيني الذي التقى به كثيراً أثناء الثورة ـ أحس بأن هذا الجو آخذ في التهيؤ.

فسأل أحد الأسرى: «هل تمنحوننا عملاً.»

ـ «إذا وجد.»

ـ «إذن، في فترة الانتظار، إن حال الحرس بيننا وبين الطعام، فسنهاجم الحرس الأحمر. إنني لم أكن قد أكلت منذ ثلاثة أيام.. شيئاً على الاطلاق.»

وتساءل أحد أولئك الذين لم يتكلموا حتى الآن: «أمن الحق أن المساجين يأكلون في السجن؟»

ـ «سترى ذلك بنفسك.»

وضغط «بوسوز» على الجرس دون أن يضيف شيئاً، واصطحب الخفر السجناء.

واستأنف بوسوز حديثه قائلاً باللغة الفرنسية هذه المرة: «هذا هو مصدر المتاعب. لقد بدأوا يعتقدون أننا نطعمهم في السجن كما نطعم الديكة.»

ـ «لماذا لم تحاول بذل المزيد من الجد في إقناعهم، ما دمت قد طلبت إحضارهم؟»

فهز «بوسوز» كتفيه هزة شخص مرهف وقال:

ـ «لقد طلبت إحضارهم لأنني آمل دائماً ـ يا عزيزي ـ في أن يقولوا لي شيئاً آخر. ومع ذلك، فهناك الآخرون، أولئك الذين يعملون خمس عشرة ساعة وست عشرة ساعة يومياً دون أن يقدموا مطلباً واحداً.. وسيواصلون هذا العمل حتى نصبح مطمئنين.. وليحدث بعد ذلك ما يحدث.»

وأدهش كيو التعبير السويسري، وابتسم كيو، فلمعت أسنانه في الضوء الشاحب تحت حاجز شاربه المشعث، كما لمعت منذ لحظة عيون عمال التفريغ.

ـ «إنك محظوظ في احتفاظك بمثل هذه الأسنان رغم الحياة التي يحياها الناس في المعركة.»

ـ «كلا.. يا عزيزي.. مطلقاً، فهذا «طقم» وضعته في تشانغ ـ تشا. ويبدو أن أطباء الأسنان لم يتأثروا أقل تأثر بالثورة. وأنت؟ هل أنت مندوب؟ وماذا تصنع هنا بحق الجحيم؟»

وشرح له الأمر، دون أن يشير إلى تشن. وأصغى إليه «بوسوز»، وقلقه يشتد شيئاً فشيئاً.

ـ «كل هذا ممكن يا عزيزي، كما أنه بالاضافة إلى ذلك خسارة كبيرة، لقد اشتغلت في صناعة الساعات خمسة عشر عاماً؛ وأعرف معنى اعتماد بعض التروس على بعضها الآخر. فإذا لم يؤمن المرء «بالدولية»، فأولى به ألا يكون عضواً في الحزب.»

ـ «إن نصف أعضاء الدولية يحبذون تكوين مجالس السوفييت هنا.»

ـ «هناك سياسة عامة توجهنا، ولا بد من اتباعها.»

ـ «وتسليم الأسلحة. إن سياسة تؤدي بنا إلى إطلاق النار على البوروليتاريا هي قطعاً سياسة فاسدة. وحين يستولي الفلاحون على الأراضي، فسوف يدبر القواد الأمر بحيث يشتركون عدداً من القوات الشيوعية في إخماد حركتهم، أجب بكلا أو نعم: هل نقبل إطلاق النار على الفلاحين؟»

- « يا عزيزي .. نحن لسنا كاملين : سأطلق النار في الهواء ، وهذا ما لا بد سيفعله بقية الرفاق . وإني لأوثر ألا يحدث ذلك ، غير أنه ليس الشيء الرئيسي . »

- « أفهم ، أيها العجوز . ذلك أشبه برؤيتي لشخص يصوب إليك مسدسه في الوقت الذي تتجادل فيه عن خطورة رصاص المسدس .. إن تشانج - كاي - شيك لا يستطيع سوى إبادتنا . وسيكون الأمر على هذا النحو فيما بعد بالنسبة للقواد الموجودين هنا . أعني « حلفاءنا » وسيكونون منطقيين . إننا سنقدم أنفسنا للمجزرة ، دون أن نحافظ حتى على كرامة الحزب التي تصحبها كل يوم إلى ماخور ، مع حزمة من القواد ، وكأن هذا هو مكانها .. »

- « لئن تصرف كل حسب هواه .. لانهار كل شيء . ولو نجحت « الدولية » فستهتف قائلين مرحى ! ولن نكون حينذاك مخطئين . ولكن إذا وضعنا العراقيل في طريقها ، فسوف تفشل بكل تأكيد ، والمهم هو أن تنجح .. أما فيما يتعلق بإصدار الأوامر إلى الشيوعيين ليطلقوا النار على الفلاحين ، فإني أعرف أن هذا ما يقال ، ولكن هل أنت على يقين من أنه قد حدث ؟ إنك لم تشاهد ذلك بنفسك ، وعلى الرغم من كل شيء - وأنا أعلم أنك لا تفعل ذلك متعمداً .. ومع ذلك .. فإن هذا لا يتلاءم مع نظريتك ، أن تعتقد أن هذا قد حدث .. »

- « يكفي أن يقال فيما بيننا . فليس هذا وقت القيام بتحقيقات تستغرق ستة أشهر . »

وفيم الجدل ؟ إن كيو لا يريد إقناع بوسوز ، ولكنه يريد إقناع الرفاق في شنغهاي ، وليس من أنهم مقتنعون الآن ، كما تأكد عزمه هو بزيارة « هانكيو » نفسها ، وبالمشهد الذي رآه منذ وهلة . ولم تكن به غير رغبة واحدة : هي أن يرحل .

ودخل صف ضابط صيني ، وكانت ملامح وجهه كلها مطوطة ، وجسده منحنياً انحناءة خفيفة إلى الأمام ، وكأنه تمثال من العاج من تلك التماثيل التي تتخذ انحناءها ، المادة المنحوتة منها .

- « لقد ألقوا القبض على رجل كان يبحر خلسة . »

وكف كيو عن التنفس .

- « وهو يدعي أنه تلقى منك تصريحاً بمغادرة هانكيو .. إنه تاجر اسمه « وتج شول » . »

والتقط كيو أنفاسه مرة أخرى .

قال بوسوز : « لم أعط أي تصريح .. فهذا ليس من شأني . أرسله إلى البوليس . »

وكان الأثرياء الذين يلقى القبض عليهم يدعون أنهم أقارب بعض الموظفين ، ويسعون أحياناً إلى مقابلة الموظف المذكور على انفراد ، ليعرضوا عليه مبلغاً من المال . وهذا التصرف أحكم من أن يعدموا دون أن يحاولوا شيئاً .

- « انتظر ! »

وسحب بوسوز قائمة من مذكرته ، وتمتم ببعض الأسماء .

- « حسن .. اسمه هناك .. في القائمة .. فليتصرف البوليس معه ! »

وخرج صف الضابط ، وبقيت القائمة - وهي ورقة مقطوعة من كراسة - على « النشافة » وكان كيو يفكر دائماً في « تشن » .

قال بوسوز : « إنها قائمة الأشخاص المطلوبين . » وكان بوسوز قد لمح نظرة كيو المثبتة على الورقة . والأسماء الأخيرة قد أضيفت بالتليفون قبل رحيل السفن - وحين ترحل البواخر ... »

- « هل استطيع أن ألقي عليها نظرة ؟ »

وناوله بوسوز القائمة : كانت تضم أربعة عشر اسماً . ولم يكن تشن من بينها . وكان من المستحيل ألا يفهم فولوجين أن « تشن » سيحاول مغادرة هانكيو بأسرع ما يمكن . ومع ذلك ، فإن تسجيل رحيله باعتباره شيئاً ممكنا لا يزيد عن كونه مجرد احتياط بسيط . وقال كيو لنفسه : « إن الدولية لا تريد أن تأخذ على عاتقها مسئولية اغتيال تشانج - كاي - شيك ، ولكنها ربما قبلت دون يأس وقوع هذا الشر .. ألهذا السبب كانت اجابات فولوجين تبدو غير قاطعة ؟ .. »

وأعاد القائمة إلى بوسوز .

لقد قال تشن « سأرحل » . وقد كان من اليسير تفسير هذا الرحيل ، غير أن التفسير لم يكن كافياً . إن وصول تشن غير المتوقع ، وتحفظات فولوجين ، والقائمة .. كل هذا يستطيع أن يفهمه كيو ، بيد أن كل حركة من حركات تشن كانت تقربه من جديد إلى جريمة القتل ، وكان يبدو أن الأشياء نفسها إنما يسوقها قدره . ثمة فراشات تحوم حول المصباح الصغير . ولعل تشن هو الآخر فراشة تفرز ضوءها الخاص بها ، والذي في شعاعه سوف تحترق . وربما كان الإنسان نفسه .. « ألا نستطيع أن نرى أبداً سوى قدر الآخرين ؟ ألم يكن هو أيضاً كالفراشة يتعجل الآن الرحيل إلى شنغهاي ، ولمساعدة الأقسام بأي ثمن ؟ » وعاد الضابط ، فأتاح له ذلك أن يفارق بوسوز .

ووجد طمأنينة الليل مرة أخرى ، لا يقطعها صفير باخرة ، لا شيء سوى خرير الماء .

وعلى طول الشاطئ، وعلى مقربة من مصابيح الشارع التي تطن حولها الحشرات، رقد العمال كمن أصابهم الطاعون.. وهنا وهناك على الأرصفة تناثرت إعلانات صغيرة حمراء مستديرة كأغطية المجاري، وقد كتبت عليها جميعاً هذه الكلمة: «المجاعة». وأحس بنفس الإحساس الذي ساوره مع تشن منذ لحظة، بأنه في هذه الليلة ذاتها، وفي الصين بأسرها، وعبر الغرب حتى منتصف أوروبا، قد بات رجال يترددون مثل تردده، يمزقهم نفس العذاب بين الخضوع للنظام، أو تذبيح أهليهم. لقد كان أولئك العمال الذين احتجوا لا يفهمون. وحتى لو أنهم فهموا، كيف يمكن لهم أن يختاروا التضحية. هنا في المدينة التي ينتظر الغرب منها مصير أربعمائة مليون من الناس - وربما مصيره هو أيضاً - هذه المدينة النائمة على ضفاف النهر نوماً قلقاً كنوم رجل جائع - المدينة الغارقة في العجز والبؤس والحقد؟

الجزء الرابع

١١ ابريل

منتصف الساعة الواحدة بعد الظهر.

كان كلابيك بمفرده تقريباً في مشرب فندق « جروسفنور » Grrosvenor الضخم ـ بهذه الموزي اللامع ، وزجاجاته ، وتيكله ، وراياته ـ وقد جعل يدير منفضة للسجاير على مائدته المدودة. ودخل الكونت « شبيلفسكي » الذي كان كلابيك ينتظره ، وطوى هذا الأخير ورقة كان يقدم عليها لكل صديق من أصدقائه هدية وهمية:

ـ « كيف تجري أمورك في هذه القرية المشمسة الصغيرة يا صديقي العزيز ؟ »

ـ « ليست على ما يرام ، ولكنها ربما سارت سيراً حسناً في نهاية الشهر. إني أوزع مواد غذائية وأودعها لدى الأوربيين وحدهم ، بالطبع. »

وعلى الرغم من ثيابه البيض البسيطة جداً ، فإن أنف شبيلفسكي المعقوف النحيف ووجهه الصلعاء ، وشعره الرمادي المشط إلى الوراء ، ووجنتيه البارزتين.. كانت تضفي عليه دائماً مظهر المتنكر في صورة نسر. وكان « المونوكل » يبرز هذه الصورة الكاريكاتورية.

ـ « المسألة كما ترى يا عزيزي ـ هي أن يجد المرء بالطبع حوالي عشرين ألفاً من الفرنكات. وبهذا المبلغ ، يستطيع أن يجعل لنفسه مكاناً محترماً جداً في تجارة المواد الغذائية. »

ـ « هذا هو الكلام الذي أحب أن أسمعه يا عزيزي. أنت لا تريد مكاناً صغيراً ، بل تريد مكاناً « محترماً » في تجارة الأغذية ؟ مرحى... »

ـ « لم أكن أعرف أنك.. ضيق الأفق إلى هذا الحد.. »

ونظر « كلابيك » إلى النسر بطرف عينه ، دون أن ينسى أنه بطل قديم في لعبة الشيش بكرا الأول بقسم صغار الضباط.

ـ « أنا ضيق الأفق ، تصور ، لو أنني كنت أملك هذا المبلغ من المال ، إذن لاستخدمته في تقليد موظف هولندي كبير من سومطرة كان يمر كل عام في عودته إلى زهور السوس

التي يزرعها في بلاده ـ كان يمر على شاطئ بلاد العرب، وقد خطر له حينذاك خاطر (حدث هذا حوالي سنة ١٨٦٠) وهو أن ينهب كنوز مكة. وكان يبدو له أن هذه الكنوز نفيسة، وأنها مطعمة كلها بالذهب، ومخبأة في كهوف سوداء واسعة، هناك حيث يلقي بها الحجاج دائماً وأبداً. إنما في مثل هذه الكهوف، أود أن أعيش... أنا. وأخيراً، ورث عاشق السوس ميراثاً ورحل إلى جزر الهند الغربية ليجمع عصابة من القراصنة يغزو بها مكة على حين غرة. بعد أن سلحهم بأسلحة حديثة، وبنادق تطلق رصاصتين في المرة الواحدة، وحراب يمكن تركيبها وتفكيكها... الخ... وأخذهم إلى ظهر السفينة ـ لا تنبس بكلمة! ـ وصحبهم إلى تلك الجهة...»

ووضع سبابته على شفتيه، مستمتعاً بالفضول الذي استولى على الرجل البولندي وقد بدا أشبه بالتواطؤ.

ـ «حسن. لقد تمردوا عليه، وذبحوه بكل دقة، واستخدموا السفينة في قرصنة خلت من أية دعابة، في بحر ما. هذه قصة حقيقية، وفضلاً عن ذلك، فإنها قصة أخلاقية. ولكني أقول لك.. إذا كنت تعتمد علي في الحصول على العشرين ألفاً من الفرنكات.. فأنت مجنون.. مجنون. أما إذا كنت تريد أن أتوسط بينك وبين كبار الشخصيات أو تريد شيئاً من هذا القبيل، فلا مانع لدي. ومن ناحية أخرى، ما دام لا بد أن أدفع لأي شخص آخر. ولكن في الوقت الذي تحترق فيه البيوت، لا يهم الناس أدنى اهتمام بالأفيون والكوكايين.»

وعاد من جديد إلى إدارة منفضة السجاير فوق سبابته.

وقال شيلفسكي: «لقد تحدثت إليك عن ذلك، لأنني إذا كنت أريد أن أنجح، فمن الواجب علي بالطبع أن أتحدث إلى كل من أعرفه. وكان من الأفضل على الأقل أن أنتظر. ولكني أردت أن أسدي إليك خدمة، عندما رجوتك أن تقدم لي هذه الخمرة (وهي خمرة مقلدة). وإليك هذه الخدمة: غادر شنغهاي غداً».

قال كلابيك بصوت آخذ في الارتفاع: «آه. آه. آه» وتردد في الخارج كالصدى نفير سيارة يرجع جملة من الأنغام «لأن؟»

ـ «السبب وجيه جداً... لأن بوليسي ـ كما تقول ـ يؤدي واجبه في كفاءة.. ارحل عن هذا المكان.»

وكان كلابيك يعرف أنه لن يستطيع الاصرار. وتساءل لحظة فيما بينه وبين نفسه. ألا يمكن أن تكون هذه مناورة.. للحصول على العشرين ألفاً من الفرنكات؟ ولكن.. يا له من جنون!

ـ «ولا بد من أن أرحل غداً؟»

وتأمل المشرب، وأجهزة خلط الكوكتيل، والقضيب النيكلي، وكأنه يتأمل أشياء قديمة عزيزة على النفس.

ـ «على أكثر تقدير... ولكنك لن ترحل.. هذا ما أراه.. وعلى أية حال، فقد كان من واجبي أن أحذرك.»

وأحس كلابيك بعرفان متردد للجميل (وهذا التردد لا يرجع إلى ارتيابه بقدر ما يرجع إلى طبيعة النصيحة التي أسديت إليه، وإلى جهله بما يتهدده.)

واستطرد الرجل البولندي قائلاً: «ألدي من الحظ أكثر مما كنت أعتقد؟» وأمسك بذراعه: «ارحل... ثمة حادث وقع لسفينة...»

ـ «ولكن، ليس لي دخل في هذا الموضوع.»

ـ «ارحل.»

ـ «هل تستطيع أن تقول لي إن الأب جيسور مشبوه؟»

ـ «لا أظن.. الأولى أن يكون جيسور الابن. ارحل.

كان من الجلي أن البولندي قد استقى معلوماته من مصدر وثيق. ووضع كلابيك راحته على يد البولندي.

ـ «يؤسفني أشد الأسف أنني لا أملك من المال ما تحتاج إليه في بقالتك، يا عزيزي. وربما كنت تحاول إنقاذ حياتي... ولكنني مازلت أملك بضعة ألقاص، تماثيل أو ثلاثة.. خذها.»

ـ «كلا...»

ـ «لماذا؟»

ـ «كلا...»

ـ «آه... لا كلمة؟ فليكن. ومع ذلك أحب أن أعلم لماذا لا تريد أن تأخذ تماثيل؟»

وحلق فيه شيلفسكي.

ـ «وبالنسبة لمن يعيش مثلي، كيف يمكن الاقدام على هذا الشيء.. على هذه المهنة، إذا لم يعوض نفسه أحياناً؟»

ـ «إنني أشك في وجود كثير من المهن التي لا ترغم أصحابها على طلب شيء من التعويض...»

ـ «أجل... فأنت لا تستطيع أن تتصور ـ مثلاً ـ إلى أي حد قد ساءت حرامة المحلات التجارية.»

وما العلاقة بين هذا وذاك؟ أوشك كلابيك أن يوجه هذا السؤال. ولكنه كان يعرف بخبرته أن الجمل المرسلة على هذا النحو طريقة دائماً، كما كان يريد فضلاً عن ذلك أن يؤدي أية خدمة لمحدثه حتى ولو كان ذلك بأن يدعه يتكلم. ومع كل هذا كان يشعر بالحرج إلى حد الارتباك.

- « وهل أنت تراقب المحلات؟ »

وكان « كلابيك » ينظر إلى البوليس بوصفه خليطاً من عصابات التلاعب وابتزاز أموال الناس، وهيئة مكلفة بفرض الأتاوات الخفية على الأفيون ودور الميسر. وقد كان رجال البوليس الذي تعامل معهم (وعلى الأخص شيلفسكي) أعداء وشركاء في الوقت نفسه. ولكنه كان يشمئز ويخشى من إفشاء المعلومات إلى البوليس. غير أن شيلفسكي أجاب:

- « أراقبها؟ كلا.. ليس تماماً.. وإنما العكس هو الذي يحدث ».
- « وكيف. غنائم فردية؟ »
- « الأمر لا يحدث إلا بالنسبة للعب الأطفال.. أفاهم أنت؟ فلست أملك الآن ما يكفي من المال لشراء لعب لطفلي الصغير.. وهذا أمر شاق على النفس.. والحقيقة أني لا أحب هذا الطفل إلا حين أقدم له شيئاً يبعث السرور في نفسه.. ولا أستطيع أن أفعل ذلك إلا بهذه الطريقة.. وهذا شيء صعب للغاية. »

- « ولهذا، أرجو أن تأخذ تماثيلي.. لا تأخذها كلها، إن شئت. »

- « أرجوك.. أرجوك.. إنني أذهب إذن إلى الحوانيت وأقول.. (وألقى برأسه إلى الخلف، وشدّ عضلات جبهته ووجنته اليسرى حول مونوكله دون أن تبدو عليه السخرية) إني مخترع ومنشئ بالطبع.. وأريد أن أشاهد نماذجكم. ويتركونني أتفرج. فآخذ نموذجاً.. لا أكثر.. وأحياناً يراقبونني، ولكن هذا شيء نادر. »

- « ولكن ماذا تفعل لو أنهم اكتشفوا أمرك؟ »

وأخرج محفظته من جيبه، وفتحها نصف فتحة أمام كلابيك لتبدو بطاقته البوليسية، ثم أغلقها، وأشار بيده إشارة مغرقة في الغموض:

- « إنني أملك المال أحياناً.. فمن الممكن أن أطارد أنا أيضاً.. ولكن.. كل شيء يحدث.. »

وكانت دهشة « كلابيك » بالغة، حين اكتشف في نفسه على حين غرة رجلاً جاداً، له وزنه، وعلى الأخص لأنه لم يكن يحكم على نفسه مطلقاً بأنه مسؤول عن تصرفاته

وحدث نفسه قائلاً: « ينبغي أن أحذر جيسور الابن. »

الساعة الواحدة

كان تشن يسير قدماً، على طول الرصيف، وقد تأبط حقيبة جلدية ملتقياً في طريقه بعض الأوروبيين الذين يعرف وجوههم، واحداً إثر واحد: ففي مثل هذه الساعة كان الجميع تقريباً يذهبون لاحتساء الخمر، والتلاقي بمشرب نادي شنغهاي، أو بالفنادق العالية. وأحس بيد توضع على كتفه - من الخلف - برفق. فأوشك أن يقفز من مكانه، ولمس جيبه الداخلي الذي كان يخفي فيه مسدسه.

- « لقد انقضى زمن طويل منذ أن التقينا يا تشن.. هل تريد.. »

واستدار، فرأى الراعي سميثسون، أستاذه الأول. وتعرف في الحال على وجهه الأمريكي الوسيم الذي تشوبه الملامح الهندية إلى حدّ ما، وقد خط عليه الزمن أسطره.

- « أن نسير معاً؟ »

- « نعم. »

وكان « تشن » يؤثر أن يسير في صحبة رجل أبيض، لكي يكون أشد اطمئناناً، ولكي يرضي نزعة التهكم في نفسه؛ إذ كان يحمل قنبلة في حافظته الجلدية. وكانت سترته المتأنقة التي يرتديها هذا الصباح تضفي عليه هيئة رجل مقيد الفكر. وأكمل حضور هذا الرفيق المفكر الذي يرمي إليه - وفضلاً عن ذلك، وبسبب نوع من التطير الغامض، لم يكن يريد أن يجرح شعور الراعي. فقد أخذ يحسب عدد العربات برهة من الزمن هذا الصباح لكي يستطلع (حسبما كان العدد زوجياً أو فردياً) هل تراه سيصيب التوفيق؛ وكانت الإجابة مشجعة. ولكنه كان ساخطاً على نفسه، فلماذا لا يتحدث إلى « سميثسون »، ليتخلص من هذا السخط؟

ولم يفت الراعي أن يلمح هذه الحالة، ولكنه لم يدرك أسبابها فقال:

- « أنت سالم، يا تشن؟ »

- « كلا. »

إنه ما برح يحتفظ لأستاذه القديم بشيء من الحب، ولكنه كان حباً لا يخلو من حقد.

ووضع الشيخ ذراعه تحت ذراع تشن.

- « إني أصلي كل يوم من أجلك يا بني. ماذا وجدت عوضاً عن الإيمان الذي ضيعته؟ »

وكان ينظر إليه في حب عميق، لا ينطوي مع ذلك على شيء من حدب الأبوة، وكأنه يريد أن يكون معه على قدم المساواة. وتردد تشن:

- « ... لست من أولئك الناس الذين تهم بأمرهم السعادة.»

- « ثمة أشياء أخرى غير السعادة.. ياتشن، هناك السلام، وأحياناً الحب..»

- « كلا.. لا وجود لها بالنسبة لي.»

- « إنها للجميع..»

وأغمض الراعي عينيه، وأحس تشن وكأنه يمسك تحت أبطه بذراع رجل أعمى.

- « إنني لا أبحث عن السلام.. وإنما أبحث عن.. العكس.» فنظر إليه « سميثسون » دون أن يكف عن المسير:

- « حاذر من الغرور.»

- « من قال لك إنني لم أجد إيماني؟»

- « وأي إيمان سياسي عساه أن يتحمل مسئولية ما يعانيه العالم من عذاب؟»

- « إنني أفضل أن أقلل من هذا العذاب على أن أؤدي عنه حساباً. إن نبرة صوتك مفعمة بـ.. بالإنسانية، وأنا لا أحب الإنسانية التي قوامها تأمل العذاب.»

- « وهل أنت على ثقة من أن هناك إنسانية أخرى.. يا تشن؟»

- « انتظر.. هذا شيء من العسير شرحه.. هناك على الأقل إنسانية لا تتألف من هذا فحسب..»

- « أي إيمان سياسي يستطيع أن يبيد الموت؟..»

ولم تكن لهجة الراعي لهجة استفهام، بل كانت لهجة حزن. وتذكر تشن حديثه مع جسور، الذي لم يره منذ ذلك الحين. لقد وضع جيسور ذكاءه في خدمته، لا في خدمة الله.

- « قلت لك إنني لا أبحث عن السلام.»

- « السلام..»

وأخلد الراعي إلى الصمت.. وظلا سائرين.

واستطرد الراعي أخيراً: « يا صغيري.. كل منا لا يعرف سوى ألمه الخاص.»

وكانت ذراعه تضغط على ذراع تشن. « ألا تعتقد أن الحياة الدينية الحقة ليست إلا إيماناً جديداً تعتنقه كل يوم؟»

وكان الاثنان ينظران إلى الرصيف، ولا يبدو أنهما على أي اتصال إلا عن طريق ذراعيهما.

- « ... كل يوم».. أعاد الراعي هذه العبارة في قوة مكدودة، وكأن أقواله ليست إلا صدى فكرة مسيطرة. ولم يجب تشن. هذا الرجل يتحدث عن نفسه ويقول الحقيقة.. إنه مثله أيضاً، يحيا فكرته، ولم يكن مجرد قربة منفوخة. تحت ذراعه اليسرى الخافقة والقنبلة تحت ذراعه اليمنى، هذه الذراع المضمومة: « إيمان جديد تعتنقه كل يوم..». هذه الثقة التي بلغت حد التناجي بالأسرار قد أضفت على الراعي عمقاً مباغتاً مؤثراً. وكان تشن سريع الاستجابة لكل قلق، لأنه كان قريباً كل القرب من جريمة القتل التي أزمع ارتكابها.

- « سأصلي كل ليلة - يا تشن - لكي ينزع الله الغرور من نفسك (إنني أصلي بالليل على الأخص، لأنه انسب للصلاة). فإذا منحك التواضع، كنت من الناجين. وهأنذا الآن أجد نظرتك وأتابعها.. تلك النظرة التي كانت تند عني منذ برهة..»

ولم يتواصل « تشن » مع هذا الراعي بتأثير أقواله، بل بتأثير ما يعانيه من عذاب: وهذه الجملة الأخيرة - التي تشبه جلة الصياد الذي يحس بما اقتنصه شباكه من أسماك أثارت في نفسه غضباً أخذ يشتد في عناد دون أن يطرد من نفسه تماماً ما ألم به من شفقة عابرة. ولم يعد يتفهم مشاعره. قال: « أصغ إلي جيداً.. بعد ساعتين، سأقتل.»

وسدد نظرته - هذه المرة - في عيني رفيقه. ورفع إلى وجهه - دونما سبب - يده اليمنى التي كانت ترتجف، وتشبث بقلابة سترته الأنيقة:

- « أتفهم دائماً ما تعنيه نظرتي؟»

كلا.. لقد كان وحيداً.. وحيداً مرة أخرى. وتخلت يده عن سترته، وتعلق بقلابة سترة الراعي، وكأنه يريد أن يهزه. فوضع هذا الأخير راحته على راحة تشن. وبقيا على هذه الحال، بلا حراك، وكأنهما يتأهبان للنزال، وتوقف أحد المارة. كان رجلاً من السمن، ظن أن هناك مشاجرة.

قال الراعي بصوت خافت: « هذه أكذوبة شنيعة!»

وسقطت ذراع تشن إلى جانبه، ولم يكن يستطيع حتى أن يضحك، فصرخ في وجه الشخص المار: « أكذوبة.» فهز عابر السبيل كتفيه، ومضى في طريقه. ودار تشن برمته على عقبه، وانصرف مسرعاً كأنه يجري.

ووجد رفيقه أخيراً على بعد ميل أو يزيد. وكانت هيئتها تحث على الاقتناع بـ[illegible] الشفوفتين، وثيابها التي تشبه ثياب الموظفين، والتي اختارتها ليبرزا الخاطفتين اللتين [illegible]

وتحتوي إحداهما على قنبلة، والثانية على قنابل يدوية صغيرة. أما «سوين» ذو الأنف المعقوف، الصيني الذي يشبه الهنود الحمر، فكان مستغرقاً في التفكير، بحيث لم يكن ينظر إلى أي شيء، وأما «بي»، فلم يلحظ تشن من قبل أن له وجهاً يشبه وجه الفتى المراهق إلى هذا الحد. وربما ساعدت نظارته المستديرة المصنوعة من البلاستيك على تصغير سنه. وشرعوا في المسير حتى بلغوا شارع الجمهوريتين، وكانت الحوانيت جميعاً مفتوحة، فعادت الحياة إلى هذا الشارع تحت سماء ملبدة بالغيوم.

وكان من المتوقع أن تصل سيارة «تشانج - كاي - شيك» إلى الشارع عن طريق درب ضيق متعامد عليه، وأن تخفف من سرعتها لكي تنعطف. وكان عليهم أن يروها آتية، وأن يقذفوا بالقنبلة حين تبطئ. وكانت السيارة تمر كل يوم بين الساعة الواحدة والواحدة والربع، فقد كان الجنرال يتناول غداءه في الموعد الذي يتناول فيه الأوروبيون غداءهم. وهكذا كان ينبغي على من سيراقب الشارع الصغير أن يشير إلى الاثنين الآخرين في اللحظة التي يلمح فيها السيارة، وسيعينه في هذه المهمة وجود تاجر من تجار العاديات، يقوم حانوته في مواجهة الشارع تماماً، هذا إن لم يكن الرجل من العاملين لحساب الشرطة. وأراد «تشن» أن يقوم شخصياً بمهمة المراقبة. فوضع «بي» في الشارع، على مقربة من المكان الذي تنتهي فيه السيارة من منحناها قبل أن تستأنف سرعتها، أما «سوين» فوضعه في مكان أبعد قليلاً. وأما هو، فكان عليه أن يشير إليهما، وأن يلقي القنبلة الأولى. فإذا لم تقف السيارة، سواء أصيبت أم لم تصب، فعلى الآخرين أن يقذفا قنابلهما بدورهما. فإذا توقفت، كان عليهما أن يتجها نحوها، ذلك أن الشارع أضيق من أن يتيح لها الدوران. وهنا كان الفشل ممكناً: لأنهما لو أخطأا الهدف، فسيطلق الحراس الذين يحفون بالسيارة نيرانهم لكي يذودوا عنها كل من يحاول الاقتراب.

وكان على «تشن» أن يفترق الآن عن رفاقه. فمن المؤكد أن المخبرين منبثون بين الجمهور على طول الطريق الذي تسلكه السيارة. ودلف «بي» إلى مشرب صيني صغير يستطيع أن يلتقط منه إشارة تشن، وعلى مسافة أبعد، كان «سوين» ينتظر خروج «بي». ومن المحتمل أن يقتل واحد من الثلاثة على الأقل، وإنه «تشن» بلا شك. ولم يجرؤ أحدهم على أن يقول شيئاً لصاحبه، وإنما افترقوا دون أن يتصافحوا.

ودخل «تشن» حانوت تاجر العاديات، وطلب منه أن يريه بعض التحف البرونزية الصغيرة، التي تم العثور عليها في الحفائر. فأخرج التاجر من أحد الأدراج جمعة كبيرة من الصناديق الصغيرة المكسوة بالساتان البنفسجي، وأفرغ محتوياتها من المكعبات على المنضدة لم شرع في ترتيبها. ولم يكن التاجر من أهالي شنغهاي، وإنما كان صينياً من الشمال، أو من التركستان: إذ كان شاربه ولحيته الخفيفان - المنتشران على الرغم من ذلك - وعيناه المشقوقتان، تنم عن أنه مسلم من الطبقة الفقيرة، وكذلك فمه المتزلف، وليس كذلك بقية ملامح وجهه الخالية من العظام التي تشبه وجه كبش مفرطح الأنف. إن من يشي برجل يعرض الجنرال حاملاً قنبلة، يتلقى مبلغاً كبيراً من المال، ويحظى بمكانة عظيمة بين قومه. وربما كان هذا البورجوازي الثري واحداً من أنصار تشانج - كاي - شيك الأوفياء.

وسأل تشن قائلاً: «هل قضيت وقتاً طويلاً في شنغهاي؟»

من يكون هذا العميل الغريب؟ إن ارتباكه، وتوتره، وعدم تطلعه إلى التحف التي عرضها عليه، إمارات تبعث على القلق. وربما لم يكن هذا الشاب معتاداً على ارتداء الثياب الأوروبية. غير أن شفتي تشن الغليظتين، على الرغم من منظر وجهه الجانبي الحاد، تبعثان على التعاطف. لعله ابن فلاح غني من المناطق الداخلية، إن الفلاحين الأغنياء لا يجمعون التحف البرونزية القديمة. فهل جاء يشتريها لشخص أوروبي، ولكنه ليس خادماً، كما أنه ليس تاجراً - وإذا كان هاوياً، فلماذا ينظر إلى الأشياء التي أعرضها عليه نظرة خالية من الحب؟ إنما يبدو عليه أنه يفكر في شيء آخر.

ذلك أن «تشن» كان يراقب الطريق فعلاً. ومن هذا الحانوت، كان يستطيع أن يرى على بعد مائتين من الأمتار. كم من الوقت يستطيع أن يتتبع فيه السيارة بعينيه؟ ولكن، كيف يحسب وهذا الرجل الأبله يراقبه في فضول؟ ينبغي عليه أن يجيب، قبل أي شيء آخر، فإن بقاءه صامتاً على هذا النحو أمر يتسم بالغباء، قال:

- «كنت أعيش في المناطق الداخلية، وطردت منها بسبب الحرب.»

وهمّ الآخر بتوجيه سؤال جديد.. وأحس تشن أنه يستريب فيه. وكان التاجر يسائل نفسه الآن: لعله لص جاء يفحص متجره الآن لكي ينهبه عند أول انتشار للفوضى، ومع ذلك، فإن هذا الشاب لا يود رؤية أجمل التحف، وإنما يكتفي بالتحف البرونزية، أو تماثيل الثعالب ذات الأثمان المعتدلة. إن اليابانيين يحبون الثعالب غير أن الطارق ليس يابانياً. لا بد من مواصلة استجوابه بمهارة.

- «لا شك أنك تعيش في «هونان»؟ والحياة - على ما يقال - قد أصبحت شاقة في الأقاليم الوسطى.»

وسأل تشن نفسه: ألا يحسن به أن يتظاهر بالصمم؟ ولكنه لم يجرؤ على ذلك، خوفاً من أن يبدو أغرب مما كان.

فأجاب قائلاً: «لم أعد أقطن هناك.» وكانت لهجته، وتركيب جمله حتى باللغة الصينية

ـ تتسم بشيء من الإيجاز : فقد كان يعبر مباشرة عن فكره ، دون استعمال الأساليب التقليدية . وخطر له أن يلجأ إلى المساومة . فسأل التاجر وهو يشير بأصبعه إلى رأس ثعلب يوجد بكثرة في المقابر :

ـ « كم ثمنه ؟ »

ـ « خمسة عشر دولاراً . »

ـ « ثمانية دولارات تبدو لي ثمناً معقولاً ... . »

ـ « لمثل هذه التحفة ؟ كيف يمكن أن يخطر لك ذلك ؟ لقد دفعت فيها عشرة ... وحدد مكسبي فيها بنفسك . »

وبدلاً من أن يجيب ، أرسل « تشن » بصره إلى « لي » الجالس إلى منضدة صغيرة في ذلك المشرب المفتوح ، وقد أخذت الأضواء تتراقص على زجاج نظارته . ولم يكن « لي » يراه بلا شك ، بسبب الواجهة الزجاجية لحانوت العاديات ، ولكنه يستطيع أن يراه حين يخرج من هذا الحانوت .

قال أخيراً وكأنه يعبر عن قرار اتخذه بعد تأمل طويل : « لا أستطيع أن أدفع أكثر من تسعة دولارات ... وأكون بذلك خاسراً . »

كانت الصيغ المحفوظة في هذا المجال أشبه بالطقوس ، ولهذا فقد كانت تجري على لسانه دون عناء .

أجاب تاجر العاديات : « إنها أول صفقة لي اليوم . وربما كان ينبغي علي أن أقبل خسارة دولار ، لأن إتمام أول صفقة فأل حسن يجلب الرزق ... . »

الشارع مقفر .. وثمة عربة من عربات « الريكشو » تجتازه على بعد ، تتلوها عربة أخرى .. ويخرج رجلان ، وكلب ، ودراجة .. انعطف الرجلان يميناً ، واجتازت العربة الشارع .. الطريق مقفر مرة أخرى ، بقي الكلب وحده ..

ـ « ألا تستطيع أن تدفع ـ مع ذلك ـ تسعة دولارات ونصفاً ؟ »

ـ « للاعراب عن استلطافي إياك . »

ثعلب آخر من الخزف . ومساومة جديدة . وكان « تشن » يوحي بمزيد من الثقة بعد أن اشترى القطعة الأولى ، واكتسب بذلك حق التروي : إنه يقدر الآن الثمن الذي سيعرضه ، والذي يعادل بالتدقيق قيمة السلعة ، وأصبح من الواجب ألا يزعج تأمله الحلل شيء ، « السيارة تتقدم في هذا الشارع بسرعة أربعين كيلومتراً في الساعة ، أي أكثر من كيلومتر كل دقيقتين . سأراها بسرعة تقل عن دقيقة . هذا قليل ، وينبغي على « لي » ألا تتحول عيناه

عن هذا الباب ... » ولم تمر أية عربة في هذا الشارع ، اللهم إلا بضع دراجات .. وأخذ يساوم على مشبك حزام (توكة) من حجر اليشب فرفض الثمن الذي عرضه التاجر ، وقال إنه سيعود إلى هذه المناقشة فيما بعد . وحمل أحد المساعدين الشاي ، وابتاع « تشن » رأس ثعلب صغير من البللور لم يطلب التاجر عليه سوى ثلاثة دولارات . ومع ذلك لم تختف ريبة صاحب الحانوت تمام الاختفاء .

ـ « إن لدي قطعاً أخرى غاية في الجمال والأصالة ، وثعالب جميلة جداً ... ولكنها تحف عظيمة القيمة ، ولهذا لا أحتفظ بها في متجري .. ويمكن أن نتفق على موعد ... »

ولم يقل تشن شيئاً .

ـ « ... وإذا اقتضى الأمر ، أستطيع أن أرسل أحد مساعدي للاتيان بها ... »

ـ « أنا لا أهتم بالقطع الثمينة .. فلست للأسف ، من الأثرياء . »

إنه ليس لصاً إذن ، فهو لا يطلب حتى أن يراها . وعرض عليه التاجر مرة أخرى مشبك الحزام المصنوع من حجر اليشب ، في ترفق من يعرض مومياء هشة ـ ولكن على الرغم من الأقوال التي راحت تمر لفظاً لفظاً بين شفتيه المخمليتين الملاميتين ، وعلى الرغم من عينيه الشهوانيتين ، فقد ظل « زبونه » غير مبال ، متباعداً .. ومع ذلك ، فقد كان هو الذي اختار هذا المشبك . إنما المساومة تعاون .. كالحب ، ولكن التاجر كان يمارس الحب مع لوح من الخشب . لماذا يشتري هذا الرجل ما يشتريه ؟ وفجأة ، خمن السبب ، إنه واحد من أولئك الشبان المساكين الذين استسلموا استسلاماً صبيانياً لغواية الموسات اليابانيات في « تشاباي » فهن يعبدن الثعالب . وهذا « الزبون » يبتاعها من أجل خادمة أو فتاة من فتيات الجيشا الرائعات . وإذا كان لا يبالي بما يشتريه ، فذلك لأنه لا يشتريه لنفسه (لم يكف تشن عن تصور وصول السيارة ، والسرعة التي يجب أن يفتح بها حافظته ، لينتزع القنبلة ، ويقذف بها) . بيد أن فتيات الجيشا لا يحببن الأشياء التي توجد في الحفريات ... ربما خرجن على هذه القاعدة إذا تعلق الأمر بالثعالب الصغيرة ؟ ولقد اشترى الشاب أيضاً تحفة من البللور ، وأخرى من الخزف ...

وبقيت العلب الصغيرة الأحجام ـ مفتوحة ومغلقة ـ مرصوصة على المنضدة . وكان المساعدان ينظران ، وقد استندا على مرفقيهما . أما أحدهما ـ وكان حدثاً ـ فقد اتكأ على حافظة تشن ، وإذ راح يبدل في وقفته ساقا بالأخرى ، فقد سحب الحافظة خارج المنضدة ، وكانت القنبلة في الجزء الأيمن ، على بعد ثلاثة سنتيمترات من الحافة .

ولم يستطع تشن أن يبدي حراكاً .. وأخيراً مد ذراعه ، وأعاد الحافظة إليه ، دون أدنى

هناك. إن أحداً من هؤلاء الناس لم يراوده الشعور بالموت، أو بفشل مؤامرة الاغتيال.. لا شيء، مجرد حافظة يؤرجحها موظف في متجر، ثم يجذبها صاحبها إليه. وفجأة، بدا كل شيء يسيراً يسراً غير مألوف في نظر تشن.. ولم يعد للأشياء.. بل للأفعال نفسها أي وجود. وأصبحت جميعاً مجرد أحلام تضغط علينا لأننا نحن الذين نمنحها هذه القوة، ولكننا نستطيع أيضاً إنكارها.. وفي هذه اللحظة، سمع صوت نفير سيارة «تشانج ـ كاي ـ شيك».

وحمل حافظته، كما يحمل سلاحاً، ودفع ثمن ما اشتراه، وألقى بالربطتين الصغيرتين في جيبه، وخرج.

وتبعه التاجر، وقد أمسك بيده محبك الحزام الذي رفض تشن شراءه:

ـ «إنها تحف من حجر اليشب تحبها السيدات اليابانيات بوجه خاص».

ألا يريد هذا الأحمق أن يتركه وشأنه؟

ـ «سأعود».

وأي تاجر لا يعرف معنى هذه العبارة؟ وبدا لتشن أن السيارة تقترب أسرع من المعتاد، وتتقدمها سيارة فورد تحمل الحرس.

ـ «اذهب!».

وأقبلت السيارة كأنها تنقض عليهم، وهي تهز المخبرين المتعلقين بجنبيها. ومرت السيارة الفورد. وتوقف تشن، ثم فتح حافظته، ووضع يده على القنبلة الملفوفة في جريدة. ودس التاجر ـ وهو يبتسم ـ محبك الحزام داخل الجيب الخالي من الحافظة المفتوحة ـ وكان أبعد الجيوب إليه. وبهذه الحركة عاق ذراعي تشن عن الحركة:

ـ «ادفع ما تريد».

ـ «اغرب عني».

وأذهلته هذه الصرخة، فنظر إلى «تشن» فاغر الفم هو أيضاً.

ـ «ألست مريضاً؟» ولم يعد تشن يرى شيئاً، وأحس بأنه على وشك الإغماء. ومرت السيارة.

ولم يستطع أن يتخلص من حركة التاجر في الوقت المناسب. وقال هذا لنفسه: «هذا الزبون سيصاب بالإغماء». وهو يسنده وبحركة واحدة، ضرب تشن الذراعين الممدودتين أمامه، وانطلق إلى الأمام. وأوقف الألم التاجر، وكان «تشن» يعدو تقريباً

وصاح التاجر: «محبكي! محبكي!».

ذلك أن محبك الحزام كان لا يزال في الحافظة، ولم يفهم ذلك تشن، إذ كانت كل عضلة فيه، وكل عصب مرهف من أعصابه، ينتظر انفجاراً يملأ الشارع ليتبدد متثاقلاً تحت السماء الواطئة.. ولكن لا شيء. انعطفت السيارة، بل لقد اجتازت «سوين» الآن بلا أدنى شك. وملاس ذلك التاجر الغبي في مكانه. لم يعد ثمة خطر، ما دام لم يتم أي شيء. ماذا فعل الآخران؟ وشرع «تشن» يعدو وصرخ التاجر: «اللص!» وظهر تجار آخرون. وفهم تشن وود من غضبه أن يهرب بهذا المحبك، وأن يرمي به في أي مكان. غير أن حلقي الحرس اقتربوا منه، فألقى به في وجه التاجر، ولكنه لاحظ أنه لم يغلق الحافظة، وكانت مفتوحة، منذ أن مرت السيارة، تهيأ لعيني ذلك المأفون، ولعيون المارة، والقنبلة ظاهرة بعد أن انزلق من عليها الورق الذي كان يغطيها. وأخيراً، أغلق الحافظة في حذر (وكان هذا هو كل ما يستطيع أن يفعله ليمنع نفسه من خنقها)، وكان يناضل للسيطرة على أعصابه وعاد التاجر بأسرع ما يستطيع إلى حانوته. واستأنف «تشن» سيره.

قال مخاطباً «لي» عندما لحق به: «ماذا فعلت؟».

ـ «وأنت؟».

وتبادلا النظر لاهثين، وكلاهما يريد أن يستمع ـ أولاً ـ إلى الآخر. ورآهما «سوين» ـ الذي اقترب منهما ـ على هذه الحال من الجمود الملىء بالتردد وعدم الاستقرار. وقد سقطت ظلالهما على المنازل القائمة. وكان النور القوي على الرغم من وجود السحب ـ يظهر في وضوح الخطر الجانبي لوجه تشن الشبيه بالصقر، ورأس «في» المستدير، ويعزل هذين الشخصين اللذين ترتجف أيديهما، المنصوبين على ظليهما القصيرين في ذلك الوقت من بعد الظهيرة بين سابلة مهمومة قلقة. وكان ثلاثتهم يحملون حوافظهم دائماً. ولهذا لم يكن من الحكمة أن يبقوا في مكانهم طويلاً. أما المطاعم فلم تكن مأمونة.. لقد اجتمعوا وافترقوا في هذا الشارع فعلاً أكثر من اللازم. لماذا؟ لم يحدث شيء..

قال تشن: «فلنذهب لدى هملريش!».

وساروا في الأزقة.

وسأل سوين: «ماذا حدث؟».

فشرح له «تشن» الأمر. أما «في» فقد ارتبك حين رأى أن تشن لم يغادر بمفرده حانوت العاديات، وكان قد توجه إلى الموضع المتفق عليه لإلقاء القنبلة، على بعد بضعة أمتار من الناصية. والقاعدة المتبعة في شنغهاي هي قيادة السيارة على اليسار، وكانت السيارة ستعطف في

العادة انعطافاً حاداً ، وكان « بي » واقفاً على الرصيف الأيسر لإلقاء القنبلة عن كثب . غير ان السيارة كانت منطلقة بسرعة ، إذ لم يكن ثمة عربات في شارع الجمهوريتين في هذه اللحظة ، ودارت في المنعطف دورة واسعة وصلت فيها إلى الرصيف الآخر ، ووجد « بي » نفسه بعيداً عنها ، تحول بينه وبينها عربة من عربات « الريكشو » .

قال تشن : « فلتذهب عربة الريكشو إلى الجحيم ، فهناك آلاف من الكادحين الآخرين الذين لا يستطيعون أن يعيشوا إلا من موت تشانج ـ كاي ـ شيك . »

ـ « كنت سأخطئ الهدف . »

أما « سوين » فلم يلق قنابله ، لأن إحجام رفيقيه جعله يظن أن الجنرال لم يكن موجوداً في السيارة .

وتقدموا في سيرهم صامتين بين جدران جعلتها السماء المصفرة المثقلة بالضباب حائلة اللون ، غارقين في عزلة بائسة تحوطها النفايات تحت أقدامهم ، والأسلاك التلغرافية فوق رؤوسهم .

قال تشن بصوت خفيض : « ما زالت القنابل سليمة .. فلنحاول مرة أخرى . »

غير أن رفيقيه كانا محطمين ، ذلك أن من يفشل مرة في الانتحار لا يعاود الكرة إلا نادراً . وتوتر أعصابهما ـ الذي بلغ أقصاه ـ قد هبط الآن . وكلما تقدما في طريقهما حل اليأس مكان الذهول .

قال سوين : « إنها غلطتي . »

وردد بي : « إنها غلطتي . »

قال تشن نافد الصبر : « كفى . » واستغرق في التفكير ، مواصلاً هذا السير الكئيب . ينبغي ألا تكون المحاولة الثانية بنفس الطريقة . لقد كانت هذه الخطة رديئة ، غير أنه قد كان من العسير تخيل خطة أخرى .. فقد ظن أن .. ووصلوا إلى هملريش .

* * *

وترامى إلى هملريش ـ في مؤخرة حانوته ـ صوت يتحدث باللغة الصينية ، وصوتان آخران يردان عليه . واسترعت انتباهه نبرة الأصوات ، وإيقاعها الذي يشوبه القلق . فقال لنفسه : « بالأمس فقط لمحت شخصين يتسكعان هنا وكأنهما يعانيان من نوايا شديدة ، ولم يكونا بكل تأكيد يتسكعان لمجرد الاستمتاع . » وكان من العسير عليه أن يتحدث في وضوح . ففي الطابق العلوي كان الطفل يبكي بلا انقطاع . غير أن الأصوات سكتت ، ودلت الظلال القصيرة السارية على الرصيف على أن هناك ثلاثة أجسام . البوليس ؟ ونهض هملريش ، وهو يفكر في الخوف الذي يستثيره في النفوس أنفه الأفطس وكتفاه البارزان إلى الأمام وكأنه ملاكم مضروب ، ومشى نحو الباب . وقبل أن تصل يده إلى جيبه ، تعرف تشن ، فمد إليه يده ، بدلاً من أن يسحب مسدسه .

قال تشن : « فلنذهب إلى مؤخرة الحانوت . »

وسار الثلاثة أمام هملريش الذي أخذ يتفحصهم . إن كلاً منهم يمسك حافظة ، وكلاً منهم لا يمسكها في إهمال ، بل يضغط عليها بعضلات ذراعه المتوترة .

قال تشن حالما أغلق الباب : « أصغ .. هل تستطيع أن تستضيفنا بضع ساعات ؟ نحن وما تضمه حوافظنا ؟ »

ـ « قنابل ؟ »

ـ « أجل . »

ـ « كلا . »

وفي الطابق العلوي ، واصل الطفل صياحه ، واستحالت صرخاته المؤلمة إلى شهقات ، وأحياناً كانت تتحول إلى نقيق ، وكأنه يبكي ليسري عن نفسه ، وهو أمر أشد إيلاماً ، وكانت الاسطوانات ، والمقاعد ، والجدجد ، على حالها لم تتغير عن الليلة التي أتى فيها تشن عقب اغتياله « تانج ـ ين ـ تا » إلى درجة أنه وهملريش قد تذكرا هذه الليلة في لحظة معاً . ولم يقل « تشن » شيئاً . غير أن هملريش تكهن بما يدور في خلده ، فاستأنف كلامه قائلاً :

ـ « لا استطيع أن أتحمل وجود قنابل هنا في هذه اللحظة . فلو أنهم عثروا عليها هنا ، لقتلوا المرأة والطفل . »

ـ « فليكن .. هيا بنا لدى شيا . »

و « شيا » هو تاجر المصابيح الذي زاره كيو في الليلة السابقة على الثورة . « لن تجد في هذا الوقت من النهار ، غير الصبي . »

ـ « افهمني يا تشن : الطفل مريض جداً ، والأم ليست بخير . »

وتطلع إلى تشن ، مرتجف اليدين :

ـ « إنك لا تستطيع أن تدرك يا تشن .. إنك لا تستطيع أن تدرك السعادة التي أنت فيها وأنت تنعم بعزلتك ! .. »

ـ « بل ، إنني أدركها . »

وخرج الصينيون الثلاثة

وناجى همطريش نفسه ساخطاً: «لعنة الله! لعنة الله! لعنةالله! ألا يمكن أن أوضع أبداً في مكانه؟» وكان يلقي اللعنات في نفسه بهدوء، كأنه في حالة استرخاء. وصعد السلم متمهلاً صوب الغرفة. كانت امرأته الصينية جالسة، وقد سددت بصرها على السرير، ولم تلتفت إليه.

قال الصبي: «لقد كانت السيدة لطيفة اليوم.. فلم توجعني تقريباً..»

وكانت السيدة التي يتحدث عنها هي «ماي». وتذكر همطريش ما قالته: «ماستوايديت... يا صديقي المسكين، ينبغي كسر العظام..» إن هذا الصبي الذي لم يزل طفلاً لم يكن يملك بعد من الحياة في جسده إلا ما يكفي لكي يجعله يتألم. وكان لا بد من أن «تشرح له المسألة..» أية مسألة؟ إنه من المفيد كسر عظام وجهه حتى لا يموت، وحتى يكافأ بحياة مجبنة مرعفة كحياة أبيه؟ وقد ظل يقول لنفسه طيلة عشرين عاماً: «يا لعهر الشباب!» ترى كم سيقضي من الزمن قبل أن يقول: «يا لعهر الشيخوخة؟» وقبل أن ينقل إلى هذا الصبي البائس هذين التعبيرين الكاملين عن الحياة!؟ في الشهر السابق كانت القطة قد انزلق مخلب لها عن مكانه وكان لا بد من الامساك بها إلى أن يتم الطبيب البيطري الصيني تثبيت المخلب في مكانه. فكانت القطة تئن وتقاوم، إذ لم تكن تدرك شيئاً، ولكنه أحس بأنها تعتقد أنها تعذب. ولم تكن القطة طفلاً، فلم تكن تقول: «إنها لم توجعني تقريباً..» ونزل. واقتحمت رائحة الجثث التي تناهبتها الكلاب بلا شك، الحانوت من الأزقة القريبة، يصحبها شعاع حائر من أشعة الشمس. فقال لنفسه: «ليس الألم هو ما ينقص هذا العالم.»

ولم يغتفر لنفسه الرفض الذي قابل به طلب تشن. وكان يعلم شأنه في ذلك شأن رجل اعترف بأسراره تحت ضغط التعذيب ـ أنه سيتصرف في المستقبل على النحو الذي تصرف به، ومع ذلك فإنه لا يغتفر لنفسه هذا التصرف. لقد خان شبابه، وخان مطامحه وأحلامه. فكيف لا يخونهم؟ «المهم هو أن يريد المرء ما يقدر عليه...» ولم يكن يريد ما لا يستطيعه، وهو أن يقدم لتشن المأوى، وأن يخرج معه. أجل... الخروج. التعويض بأي عنف كان، بواسطة القنابل، تلك الحياة القاسية التي تسممه منذ أن ولد، بل التي تسمم أطفاله، وأطفاله على الأخص. أما عذابه، فكان من الممكن أن يتقبله: فقد اعتاد عليه.. وأما عذاب أطفاله فهذا ما لا يستطيع أن يتحمله. «لقد أصبح ذكياً جداً منذ أن أصيب بالمرض.» هذا ما قالته ماي، وكأنما كان ذلك من طريق المصادفة.

ليته يخرج مع تشن، ويتناول قنبلة من القنابل المخبأة في الحوائط، ويلقيها. هذا هو المعقول، بل الشيء الوحيد الذي له معنى في حياته الحاضرة. سبعة وثلاثون عاماً. وربما بقيت أمامه في الحياة ثلاثون سنة أخرى. ولكن كيف يحياها؟ أيعيش على هذه الاسطوانات الراقدة في المخزن والتي يتقاسم بؤسها مع لو ـ يو ـ شوين، والتي لا تمكن الواحد أو الآخر من أن يعيش، ثم، حين ينحدر إلى الشيخوخة.. سبعة وثلاثون عاماً. إلى بعد ما تستطيع أن تعود به الذاكرة، كما يقولون، غير أن ذاكرته لا تستطيع أن تعود به إلى شيء: فهي من أولها إلى آخرها بؤس في بؤس.

كان تلميذاً فاشلاً في المدرسة، يتغيب يوماً كل يومين ـ وكانت أمه تدفعه إلى أن يقوم بعملها لكي تستطيع أن تتعاطى الخمر في هدوء. في مصنع: فاعل ومشاغب. فقد كان في الجيش، محبوساً دائماً. وفي الحرب، استنشق الغازات السامة.. لحساب من؟ ولماذا؟ أفي سبيل وطنه؟ إنه لم يكن بلجيكياً، بل كان بائساً. ولكن الجنود يأكلون في الحرب، دون القيام بعمل كثير. ثم سرح من الجيش، وأخيراً، ذهب إلى الهند الصينية على سطح سفينة. «الجو لا يسمح لنا هنا بممارسة الحرف اليدوية..» ولكنه يسمح للمرء بأن يموت بالدوسنطاريا، وعلى الأخص للأشخاص المعروفين بالشغب. ولقد أحقق في شنغهاي. القنابل. يا رحمة الله.. القنابل!

وكانت لديه زوجة، وهي الشيء الوحيد الذي منحته الحياة أياه.. لقد بيعت بأثني عشر دولاراً. ولما هجرها الشاري لأنها لم تعد تعجبه. لجأت إليه مذعورة لكي تأكل وتنام، ولكنها لم تكن تنام في بداية الأمر، متوقعة منه أن يعاملها معاملة الأوروبيين الشريرة التي سمعت عنها دائماً. ولكنه كان طيباً معها، فتخلصت شيئاً فشيئاً من ذعرها، وأخذت تعتني به أثناء مرضه، وتعمل من أجله، وتحتمل أزمات الحقد العاجز التي كانت تنتابه. كانت بعاطفته به تعلق الكلب الأعمى المضطهد، وهي تظن في أعماق نفسها أنه كلب أعمى مضطهد آخر. والآن، قد أنجب طفلاً. ماذا يستطيع أن يصنع من أجله؟ بالكاد أن يقوته. لم يبق له من القوة إلا ما يمكنه من تعذيب الآخرين. وفي العالم من الآلام ما يزيد على عدد نجوم السماء، بيد أن أشد هذه الآلام نكراً هو ذلك الألم الذي يستطيع أن يفرضه على زوجته، إذا مات وتركها وحدها. إنه لأشبه بجاره ذلك الروسي الجائع الذي كان يعمل [illegible] في مصنع، فانتحر ذات يوم لاشتداد بؤسه عليه، ولم يكن من زوجته التي حنت من الغضب إلا أن صفعت جثة الرجل الذي تركها مع أربعة من الأطفال كانوا يتقون في [illegible] الغرفة. وقد سألها أحدهم: «لماذا تضاربان؟». أما زوجته وولده، فإنه يحميها من [illegible]. وليس هذا بالشيء القليل. إنه على أي حال أقل من لا شيء. ولو كان يملك [illegible] من المال يستطيع أن يتركه لهما، إذن لمات حراً في قرارة نفسه. وكأن العالم لم يكتف بأن [illegible] طيلة حياته تلك العاطفة القاسية التي تشبه الزلزال في العطن، فهو يضن عليه بالكرامة

الوحيدة التي يستطيع أن يملكها... ألا وهي موته. وراح يتنفس - مع ثورة كل شيء حي - فيستنشق بعمق، رغم تعوده، رائحة الجثث المنتنة التي تسوقها كل هبة ريح على أشعة الشمس الساكنة، فتنفذ إلى صدره في رعب يشوبه الرضا. وقد استولت عليه ذكرى «تشن» وكأنه صديق يحتضر، وهو يبحث - كما لو كانت لذلك أهمية - عما يسيطر على نفسه، أهو الخجل أم هي الأخوة أم هو الحسد الضاري؟

وغادر «تشن» ورفاقه الشارع الكبير مرة أخرى. ولم تكن الأزقة والحارات خاضعة لرقابة كافية، لأن سيارة الجنرال لا تمر فيها. وحدث «تشن» نفسه قائلاً وهو خافض الرأس، ناظراً إلى حذاءيه الوثيدين اللذين يتقدمان أمام ناظريه الواحد إثر الآخر: «يجب تغيير الخطة.» أمن الممكن صدم سيارة تشانج - كاي - شيك بسيارة أخرى قادمة من الاتجاه المضاد؟ غير أن الجيش كان خليقاً بالاستيلاء على كل سيارة. أما محاولة استخدام راية إحدى المفوضيات لحماية السيارة التي سوف يستخدمونها فأمر مشكوك فيه، لأن البوليس يعرف سائقي الوزراء الأجانب. وإذا سددنا الطريق بعربة من عربات الجر؟ إن تشانج - كاي - شيك تسبقه دائماً السيارة الفورد التي تقل حرسه الشخصي. وإزاء هذا الاعتراض المريب، سيطلق الحراس والبوليس المعلق على جانبي السيارة - الرصاص على كل من يحاول الاقتراب. وأصغى تشن، فقد كان رفاقه يتحدثون منذ لحظات.

قال لي: «سوف يتخلى كثير من القواد عن تشانج - كاي - شيك إذا علموا أنهم معرضون حقاً للاغتيال.. فنحن وحدنا الذين نؤمن بما نفعل.»

وقال سوين: «أجل... إن أبناء الذين أعدموا يصبحون إرهابيين ممتازين.» وكان الاثنان كذلك.

وأضاف لي: «أما بالنسبة للقواد الذين يبقون، فحتى لو أنهم أقاموا الصين ضد مبادئنا، فقد جعلوها دولة عظيمة، لأنهم سيقيمونها على دمائهم.» وهنا قال تشن وسوين في صوت واحد: «كلا.» فكل منهما كان يعلم كيف ارتفع عدد الوطنيين في صفوف الشيوعيين، وبين المثقفين بوجه أخص. كان «لي» يكتب في مجلات - سرعان ما تصادر - قصصاً تشيع فيها مرارة راضية بأمرها في أسى، ومقالات استهل أحدثها بهذه العبارة: «وما دامت الامبريالية تعالي ضائقة، فإن الصين تفكر في أن تهيب بأريحتها مرة أخيرة، وأن تطلب منها أن تضع في أنفها مكان الحلقة الذهبية حلقة من النيكل..» وكان يعد من جهة أخرى ايديولوجية للإرهاب. وقد كانت الشيوعية في نظره - هي الوسيلة الحقيقية الوحيدة لإحياء الصين.

قال سوين: «إنني لا أريد أن أصنع الصين. وإنما أريد أن أنقذ أهلي. أهلي.. من أجلهم فحسب.»

فأجابه تشن: «ما دمنا نحاول إلقاء القنبلة، لن تستقيم لنا الأمور. فما أكثر فرص الإخفاق.. لا بد إذن من الانتهاء من هذه العملية اليوم.»

قال لي: «إن تصرفنا على نحو آخر لن يكون أشد يسراً.»

- «ثمة وسيلة.»

وكانت السحب الواطئة الثقيلة تتقدم في اتجاه سيرهم، من تحت الضوء المصفر وفي حركة المصائر المترددة، المستبدة معاً. وأغمض «تشن» عينيه لكي يستغرق في التفكير، دون أن يتوقف عن السير قط. وكان رفاقه ينتظرون، وهم ينظرون إلى صورة وجهه العاتية المقوسة التي تتقدم كالعادة على طول الجدران.

- «ثمة وسيلة، وأعتقد أنه لا يوجد سواها: ينبغي ألا تلقى القنبلة، بل أن يرمي حاملها نفسه معها تحت السيارة.»

واتصل السير عبر أفنية خربة لم يعد يلعب فيها الأطفال.. وكان الثلاثة غارقين في التفكير.

وأخيراً وصلوا.. فقادهم مساعد «شيا» إلى مؤخرة الحانوت، وظلوا واقفين وسط المصابيح، وقد تأبطوا حوافظهم، وانتهى بهم الأمر إلى وضعها في حذر. وجلس «سوين» و«لي» القرفصاء على الطريقة الصينية.

- «لماذا تضحك يا تشن؟»

لم يكن «تشن» يضحك، بل يبتسم، ابتسامة بعيدة عن السخرية التي أضفاها عليها قلق «لي». والدهشة البالغة استولى عليه ضرب من البشر، وأصبح كل شيء بسيطاً. وتبدد قلقه. وكان يعرف أي جزع يقلق رفاقه، على الرغم من شجاعتهم، حتى ولو كان بأخطر طريقة، معناها المغامرة. أما التصميم على الموت فكان شيئاً آخر، وربما كان العكس تماماً. وشرع يذرع المكان جيئة وذهاباً. ولم تكن مؤخرة الحانوت مضاءة إلا بنور النهار الذي ينفذ عبر الممر. ولما كانت السماء رمادية، فقد ساد هناك ضوء ثقيل كالرصاص أشبه بالضوء الذي يسبق العواصف. وفي تلك العتمة القذرة أخذت تلمع على بطون (الفوانيس) أشكال من الضوء، أشبه بعلامات استفهام مقلوبة ومتوازية. وكان ظل تشن المختلط مختلطاً لا يسمح له بأن يكون ظلاً.. كان يتقدم فوق عيون الآخرين القلقة.

- «كنتم على حق. فإن أشد ما نفتقر إليه هو إحساس «الهاراكيري». غير أن الياباني الذي يقتل نفسه، قد يصبح إلهاً، وهذه هي بداية الشعوذة. كلا. ينبغي أن يسقط الدم على الناس - وأن يظل هنالك.»

قال سوين: «إني أوثر أن أحاول النجاح ـ النجاح في عدة محاولات بدلاً من أن أقرر القيام بمحاولة واحدة، لأنني سأموت بعدها».

ومع ذلك سرى تحت كلمات «تشن» تيار صادر من نبرتها أكثر من أن يكون صادراً من معناها ـ وذلك حين عبر عن عاطفته باللغة الصينية، فاتخذ صوته قوة هائلة ـ تيار اجتذب سوين دون أن يعرف مصدر هذا الانجذاب.

وأجاب تشن: «يجب أن ألقي بنفسي تحت السيارة».

وتابعوه بنظراتهم، دون أن يحركوا رقابهم، بينما أخذ يبتعد ثم يقترب. أما هو، فلم يعد ينظر إليهم. واصطدام بمصباح من المصابيح الموضوعة على الأرض، فاسترد توازنه عند الجدار. وسقط المصباح، وتحطم وهو يرن. بيد أنه لم يكن ثمة مجال للضحك. وبرز ظله الذي استعاد توازنه بروزاً مختلطاً فوق رؤوسهم، على الصفوف الأخيرة من المصابيح. وبدا «سوين» يفهم ما ينتظره منه تشن، ومع ذلك قال بدافع من عدم الثقة بنفسه، أو دفاعاً ضد ما يتوقعه:

ـ «ماذا تريد؟».

ولاحظ تشن أنه لا يعرف ما[illegible] يريد. وبدا له أنه يناضل ـ لا ضد سوين ـ ولكن ضد فكره الذي يفر منه، وأخيراً قال:

ـ «ألا يقنع ذلك؟».

ـ «أتريد أن يتعهد «بي» وأن أتعهد أنا بتقليدك؟ أهذا ما تريد؟».

ـ «ليس وعداً ما أنتظر.. إنه حاجة».

وكانت الانعكاسات تتلاشى على المصابيح، وأخذ نور النهار يضمحل في هذه الحجرة الخالية من النوافذ، ولم يكن من شك أن السحب تتراكم في الخارج. وتذكر تشن جيسورز «حين يقترب المرء من الموت، فإن مثل هذه العاطفة تتطلع إلى أن تنتقل إلى الغير..» وفجأة، فهم ما تعنيه هذه الكلمات، كما فهم سوين أيضاً:

ـ «أنت تريد أن تجعل من الإرهاب نوعاً من الدين؟».

وأخذ حماس «تشن» يتضخم، وأصبحت الكلمات جميعاً جوفاء لا معنى لها، وأضعف من أن تستطيع التعبير عما يريده.

ـ «لا أعني أن يكون ديناً.. بل معنى الحياة. والـ..»

وأشار بيده إشارة تشنجية وكأنه يحس، وبدا فكره لاهثاً كالنفس.

ـ «امتلاك الذات امتلاكاً كاملاً.. تاماً.. مطلقاً.. الشيء الوحيد.. المعرفة.. الوقف

عن البحث.. البحث كل الوقت عن أفكار وواجبات.. منذ ساعة لم أعد أشعر بما يثقل على نفسي.. أتسمعون؟ لا شيء».

وكانت نشوته قد بلغت حداً لم يعد يحاول معه أن يقنعهم إلا بأن يتحدث عن نفسه:

ـ «إنني أملك نفسي، ولكن دون أي تهديد أو قلق كما كان الحال دائماً، وأضغط عليها، كما تضغط هذه اليد على اليد الأخرى ـ (وضغط على يده بكل قوته) ولكن هذا لا يكفي.. كما..»

وتناول شظية من زجاج المصباح المحطم، شظية كبيرة مثلثة الشكل، مليئة بالانعكاسات.. وبضربة واحدة، غرسها في فخذه. وكان صوته المتهدج ممتلئاً بثقة وحشية، غير أنه كان يبدو مسيطراً على نشوته، أكثر مما تسيطر نشوته عليه.. ولم يكن مجنوناً بحال من الأحوال. وكان الاثنان الآخران يريانه في مشقة، ومع ذلك فقد كان ملء الحجرة. وبدا «سوين» يشعر بالخوف:

ـ «إنني أقل منك ذكاء يا تشن، ولكن.. بالنسبة لي أنا.. هذا شيء لا يناسبني. لقد شاهدت أبي معلقاً من يديه، وهو يضرب على بطنه بعصا من خيزران، لكي يعترف بالمكان الذي خبأ فيه سيده الأموال التي لا يملكها.. إنني أناضل من أجل قومي.. لا من أجل نفسي».

ـ «من أجل أهلنا، لا يمكنك أن تفعل أفضل من أن تقرر الموت.. ولا يمكن لتأثير أي إنسان أن يقارن بتأثير الرجل الذي اختار هذا السبيل. ولو كنا قد قررنا ذلك.. لما أخفقنا في القتال بشانغ ـ كاي ـ شيك منذ لحظة.. وأنت تعرف ذلك».

ـ «ربما كنت أنت في حاجة إلى ذلك.. لست أدري.. وكان يتخبط لتوضيح ما يريد أن يقول.. ولو كنت متفقاً مع هذا الرأي ـ أتفهمني؟ ـ لا بد لي أنني لا أقتل من أجل الجميع وإنما..»

ـ «وإنما؟».

وانبثق صوت ذلك الأصيل الكدر، مع أنه كاد يعتم تماماً ـ هناك لا يزم، وكأنه باق إلى الأبد.

ـ «من أجلك».

وأعادت النبرة الطويلة القوية إلى ذاكرة تشن صفائح السرير التي أشعلوا بها حريق مركز البوليس في اليوم الأول من الثورة. غير أن كل شيء كان يغوص في الماضي، حتى سوين، ما دام لا يريد أن يتبعه. ومع ذلك فإن الإرادة الوحيدة التي كان فكره يستلها في

الحاضر دون أن تتحول إلى عدم، هي أن يخلق هؤلاء، «القضاة» المقضي عليهم، هذا الجنس من الآخذين بالثأر. وكان مولد هذا الجنس يتم داخل نفسه كما تتم كل ولادة ـ في حالة من التمزق والنشوة لا يستطيع أن يسيطر عليها. ولم يعد يحتمل أي محضر، فنهض.

قال موجهاً كلامه إلى لي: «أنت يا من تكتب، عليك بالشرح».

وتناولوا حوافظهم، ومسح لي نظارته، ورفع تشن سرواله، وربط فخذه بمنديل دون أن يغسل الجرح.. ولماذا يغسله؟ إن الوقت لن يتاح له لكي يتلوث ـ قبل الخروج. وقال لنفسه في شيء من القلق: «إننا نصنع دائماً نفس الشيء»، وكان يفكر في السكين التي أغمدها في ذراعه.

قال: «سأرحل وحدي.. وسأكون وحدي كافياً هذا المساء».

فأجابه سوين: «سأحاول أن أضع خطة ما على الرغم من ذلك».

ـ «سيكون قد فات الأوان».

وأمام الحانوت، تقدم «تشن» خطوة متجهاً صوب اليسار، وتبعه «لي» بينما ظل «سوين» بلا حراك.. ثم تقدم خطوة أخرى، وتبعه «لي» أيضاً. ولاحظ تشن أن هذا المراهق الذي يمسك نظاراته بيده، والذي يبدو وجهه الشبيه بوجه الأطفال دون نظارات أشد إنسانية ـ لاحظ أنه يبكي في صمت.

ـ «إلى أين تذهب؟».

ـ «أنا آتٍ معك».

وتوقف تشن ـ لقد كان يعتقد دائماً أنه يتبع رأي سوين، فنبهه بإشارة من أصبعه إلى هذا الأخير قد بقي أمام الباب.

فردد لي: «سآتي معك».

كان يجاهد نفسه لكيلا ينفوه إلا بأقل كلام ممكن، وكان صوته غير صوته، وتفاحة آدم تهتز بسبب زفراته الصامتة.

«لا. اليوم. أشهد..»

وغرز أصابعه في ذراع «لي».

وردد قائلاً: «شهادة».

وابتعد.. بينما بقي «لي» على الرصيف، فاغر الفم، وهو يمسح نظارته دائماً فبدت هيئته مضحكة. إنه لم يظن أبداً أن الانسان يمكن أن يكون وحيداً إلى هذا الحد.

الساعة الثالثة

كان «كلاببك» يتوقع أن يجد كيو في منزله. ولكنه كان مخطئاً، ففي الحجرة الكبيرة كانت على السجادة رسوم أخذ يجمعها تلميذ من تلاميذ جيسور يرتدي الكيمونو، وكان جيسور يتحدث إلى صهره: المصور «كاما».

ـ «صباح الخير يا عزيزي. تعال بين أحضاني».

وجلس في هدوء.

ـ «من المؤسف ألا يكون ابنك موجوداً».

ـ «أتريد أن تنتظره؟»

ـ «فلنحاول.. انني في حاجة شيطانية إلى رؤيته. ما هذه الصبارة الصغيرة الجديدة الموضوعة تحت منضدة الأفيون؟ لقد أصبحت المجموعة جديرة بالاحترام، بديعة.. يا صديقي العزيز.. بد.. ديعة.. يجب أن أشتري واحدة منها.. أين عثرت عليها؟».

ـ «إنها هدية.. وقد أرسلت إلي منذ أقل من ساعة».

وطالع كلاببك الحروف الصينية المنقوشة على الحامل المسطح للنباتات: كلمة «الوفاء» بحروف ضخمة، وثلاث كلمات صغيرة، وتوقيع: «تشن ـ تا ـ أيل».

ـ «تشن ـ تا ـ ايل.. تشن».. ـ لا أعرفه.. يا للخسارة.. إنه فتى خبير في أنواع الصبار».

وتذكر أنه يجب أن يرحل غداً.. ولا بد أن يحصل على نفقات الرحيل، لا أن يشتري صباراً.. ومن المحال أن يبيع التحف الفنية على عجل في مدينة محتلة عسكرية.. وقد كان أصدقاؤه فقراء، ولن يسمح فيرال بإقراضه لو تقدم إليه بأية ذريعة.. وكان قد كلفه بأن يشتري له بعض لوحات «كاما» الملونة، حين يصل المصور الياباني. وهذا لا يعني أكثر من بضع عشرات من الدولارات هي قيمة هذا التكليف.

قال جيسور: «كان ينبغي أن يكون كيو هنا.. لقد أعطى مواعيد كثيرة اليوم.. أليس كذلك؟».

ثم غمز كلاببك قائلاً: «ربما كان من الأفضل أن يخلفها جميعاً».

ولم يجرؤ على أن يضيف شيئاً. فقد كان يجهل ما يعرفه جيسور عن نشاط كيو. غير أن امتناع جيسور عن إلقاء أي سؤال كان بمثابة إجابة له.

ـ «انك تعلم أن الأمر جد خطير».

ـ « إن كل ما يمس كيو خطير بالنسبة إلي ».

ـ « أليست لديك أية فكرة عن الوسائل التي يستطيع بها المرء أن يكسب أو أن يجد فوراً أربعمائة أو خمسمائة من الدولارات؟ ».

وابتسم جيسور في حزن. وكان كلايبك يعرف أنه فقير، وحتى لو قبل أن يبيع تحفه الفنية، فإنها...

وقال البارون لنفسه: « فلنكسب إذن دراهمنا القليلة ». واقترب، ونظر إلى اللوحات المتناثرة على المتكأ. وعلى الرغم من أنه كان من رهافة الحس بحيث لا يحكم على الفن الياباني التقليدي بمقارنته بسيزان أو بيكاسو، فإنه كان اليوم بغيضاً إلى نفسه، ذلك أن السكينة في الفن لا يكاد يتذوقها الأشخاص المطاردون. هذه مناظر النيران الضائعة في الجبل، وطرقات القرية التي تذيبها الأمطار، وتحليق طائر الشروش على الجليد، وكل هذا العالم الذي فيه تمهد الكآبة للسعادة.. وتخيل كلايبك.. وأسفاه! تخيل دون عناء، الفراديس التي كان عليه أن يقف عند أبوابها، ولكنه كان ساخطاً على وجودها.

قال: « إن أجمل إمرأة في العالم عارية، منفعلة، ولكن مع حزام العفة.. إنها لغيرالي، وليست لي أنا.. فلنعد إلى ما تحت الأرض ».

وانتقى أربع لوحات. وأملى عنوانه على تلميذ الرسام. قال جيسور: « ما دمت تفكر في فننا، إنما هذا الفن لا يؤدي نفس الغرض ».

ـ « لماذا ترسم يا كاما ـ سان؟ ».

ونظر الأستاذ العجوز إلى كلايبك في فضول، وقد سطع النور على رأسه الأصلع، وهو في رداء الكيمونو كتلميذه، إذ يؤثر دائماً أن يكون بالروب دي شامبر، وبهذا كان كلايبك هو وحده الذي يرتدي سروالاً.

وترك التلميذ الرسم التخطيطي، وترجم ثم أجاب:

ـ « يقول الأستاذ: إنني أرسم أولاً من أجل زوجتي... لأنني أحبها... ».

ـ « لم أسألك لمن ترسم، وإنما لماذا ترسم؟ ».

ـ « يقول الأستاذ: إن هذا أمر يصعب شرحه لك. ويقول: عندما ذهبت إلى أوروبا، شاهدت المتاحف. وكلما رسم مصوروكم تفاحاً، بل خطوطاً لا تمثل أشياء، فإنهم يتحدثون عن أنفسهم أما بالنسبة لي، فالعالم هو المهم ».

وأضاف « كاما » جملة أخرى، وكان التعبير الذي ارتسم على وجهه يوشك أن يكون تعبيراً عذباً أشبه بتعبير المرأة العجوز المتسامحة

ـ « والأستاذ يقول: إن التصوير عندنا هو ما يمكن أن يسمى عندكم بالإحسان ».

ودخل تلميذ آخر ـ يعمل طباخاً ـ حاملاً سلطانيات مليئة « بالساكي » ثم انسحب.

ـ « ويقول الأستاذ إنه إذا توقف عن الرسم بدا له أنه قد أصبح أعمى.. بل أكثر من أعمى.. أصبح وحيداً ».

فقال البارون وقد فتح إحدى عينيه وأغمض الأخرى ورفع سبابته: « دقيقة واحدة. إذا قال لك طبيب: « أنت مصاب بمرض لا علاج له، وستموت في ظرف ثلاثة شهور » فهل تواصل الرسم؟ ».

ـ « يقول الأستاذ إنه لو علم أنه يوشك أن يموت، فإنه يعتقد أنه سيرسم أفضل ولكن على النحو نفسه ».

وسأل جيسور: « ولماذا أفضل؟ ».

إنه لا يكف عن التفكير في كيو. وإن ما قاله كلايبك حتى دخوله يكفي لإقلاقه. إن السكينة اليوم تكاد أن تكون إهانة.

وأجابه كاما، بينما أخذ جيسور يترجم بنفسه:

ـ « إنه يقول: هناك ابتسامتان، ابتسامة زوجتي، وابتسامة ابنتي، فيهما أفكر حينما أعتقد أنني لن أراهما بعد أبداً، وإذ ذاك سيزداد حبي للحزن. إن العالم أشبه بحروفنا الأبجدية. إن ما تمثله الكلمة المرسومة بالنسبة للزهرة، تمثله الزهرة نفسها (وأشار إلى إحدى اللوحات) بالنسبة لشيء ما.. كل شيء علامة.. والاتجاه من العلامة إلى الشيء المدلول، معناه تعمق العالم، والاتجاه صوب الله. إنه يعتقد أن اقتراب الموت.. ولكن انتظر... ».

وسأل كاما من جديد، ثم استأنف الترجمة:

ـ « أجل.. هذا صحيح.. أنه يعتقد أن اقتراب الموت ربما سمح له بأن يضع في الأشياء عمقاً أبداً من التعاطف والحزن، لكي تصبح جميع الأشكال التي يرسمها علامات مفهومة، حتى يكتشف ما تعنيه، وما تحجبه أيضاً ».

وكان يسري في كلايبك إحساس بالعذاب إزاء كائن ينكر الألم، فأنعمت في انتباه، دون أن يحول نظره عن وجه كاما الزاهد المتسامح، بينما جيسور يترجم. لقد ضم مرفقيه إلى جسمه وضم راحتيه، وما أن يعبر وجه كلايبك عن الفهم حتى يتخذ هيئة قرد جريئ يقلد من المرة.

قال جيسور: « لعلك لم تصغ السؤال صياغة ملائمة جداً ».

وقال باللغة اليابانية جملة قصيرة جداً.. وكان «كاما» يرد حتى الآن على الفور، ولكنه أطال التفكير قبل أن يرد هذه المرة.

فسأله كلايك بصوت هامس: «ما السؤال الذي وجهته إليه الآن؟».

- «ماذا يفعل لو أنبأه الطبيب بأن زوجته ستموت بعد قليل...».

- «يقول الأستاذ: إنه في هذه الحالة لن يصدق الطبيب».

وعاد التلميذ الطباخ وحمل السلطانية على صينية.. وكانت حلته الأوروبية، وابتسامته، وحركاته التي جعلها السرور أقرب إلى المبالغة، بل حفاوته أيضاً.. كان كل ما فيه يبدو غريباً حتى في نظر جيسور نفسه. وقال كاما بصوت هامس جملة لم يترجمها التلميذ الآخر.

قال جيسور: «هؤلاء الشبان لا يشربون الخمر مطلقاً في اليابان، وقد استاء الأستاذ لأن تلميذه مخمور».

وشردت نظرته، فقد فتح الباب الخارجي، وتلا ذلك وقع أقدام.. ولكنه لم يكن كيو.. وصارت نظرته محدودة مرة أخرى، واستقرت في حزم على عيني كاما.

- «وإذا ماتت؟».

أكان من الممكن أن يتابع هذا الحوار مع شخص أروبي؟ إنما ينتمي هذا المصور العجوز إلى عالم آخر. وقبل أن يجيب ارتسمت على جفنيه - لا على شفتيه - ابتسامة طويلة حزينة.

- «يستطيع المرء أن يتواصل حتى مع الموت.. وهذا أصعب الأشياء، ولكن، قد يكون هذا هو معنى الحياة...».

واستأذن في الانصراف، وعاد إلى حجرته يتبعه تلميذه، وجلس كلايك.

- «لا كلمة.. عظيم.. يا عزيزي.. ع.. عظيم.. لقد انصرف كشبح مهذب جداً. هل تعلم أن الأشباح الشابة تفتقر إلى التهذيب، وأن الأشباح الشيوخ يجدون أشد العناء في تعليمها طريقة تخويف الناس، ذلك أن الأشباح الشابة تجهل كل لغة.. ولا تستطيع أن تقول إلا ترب - ترب.. وهذا...».

وتوقف عن الكلام.. مطرقة الباب مرة ثانية.. وبدأت ترن في هذا السكون نغمات قيثارة لم تلبث أن انقطعت، وأخذت تتساقط في بطء، وهي تتفتح في هذا السقوط حتى ملأت النغمات الغليظة فاستقرت هناك طويلاً، ثم تبددت أخيراً في سكينة بهية.

- «ما هذا.. معنى هذا؟».

- «إنه يعزف على الشاميزان، وهو يعزفه دائماً حين يكدره شيء.. وهذا دفاعه عن نفسه حين يكون خارج اليابان. وقد قال لي بعد عودته من أوروبا: أعرف الآن أنني أستطيع أن أجد في أي مكان سكوني الباطني...».

- «ادعاء؟».

كان كلايك قد ألقى سؤاله وهو شارد الذهن، إذ كان يصغي. ففي هذه الساعة التي كانت حياته فيها مهددة بالخطر (وإن يكن من النادر أن يهتم بنفسه اهتماماً يكفي لكي يشعر بأنه مهدد حقاً) أقلقته هو أيضاً هذه النغمات الخالصة التي ردته إلى نفسه، وإلى حبه الموسيقى الذي عاش معه في شبابه، ذلك الشباب وكل ما تحطم معه من سعادة.

وقع أقدام مرة أخرى، لقد دخل كيو فعلاً.

وصحب كيو كلايك إلى حجرته.. ولم يكن بها سوى متكأ، ومقعد، ومكتب وجدران بيض.. فكل ما فيها يتم عن تقشف مقصود. وكان الجو حاراً.. فألقى كيو بسترته على المتكأ وظل بصداره الصوفي.

قال كلايك: «إليك هذا.. لقد أبلغوني بمعلومات سرية، تخطئ لو أنك لم تحسب لها أعظم الحساب، إذا لم نرحل عن هذا المكان قبل مساء غد، فنحن من الهالكين».

- «من أي مصدر استقيت هذه المعلومات؟ من البوليس؟».

- «مرحى، من العبث أن أقول لك. إنني لا أستطيع أن أخبرك بأكثر من ذلك. غير أن هذا أمر جدي: إن قصة الزورق قد عرفت. التزم الهدوء، واهرب قبل ثمان وأربعين ساعة».

وكان كيو يوشك أن يقول: «لم يعد في الأمر جريمة ما دمنا قد انتصرنا»، ولكنه ظل صامتاً. ولشدة توقعه قمع حركة العمال، لم يندهش. وأصبح الأمر أمر الانشقاق، وهذا ما لم يكن كلايك يستطيع أن يتكهن به، وإذا كانوا يطاردون كلايك، فذلك لأن الشيوعيين قد استولوا على «شاي - تونج»، ولأنهم يعتقدون أنه مرتبط بهم.

واستطرد كلايك: «ماذا أنت صانع؟».

- «التفكير أولاً».

- «يا لها من فكرة ثاقبة! وهل لديك شيء من المال للهرب؟».

وهز كيو كتفيه وهو يبتسم.

- «لا أنوي الهرب». ثم استأنف كلامه بعد برهة:

- «وليس معنى ذلك أن معلوماتك ليست على أكبر جانب من الأهمية بالنسبة لي».

- «أليست لديك نية الهرب؟ أتت تفضل أن يقطعوا رقبتك؟».

ـ « ربما. ولكنك تريد الرحيل.. أنت؟ »

ـ « ولماذا أبقى؟ »

ـ « كم يلزمك؟ »

ـ « ثلاثمائة. أربعمائة... »

ـ « ربما استطعت أن أعطي لك جزءاً منها. إنني أود أن أساعدك. ولا تعتقد أنني أقبل بذلك رد الخدمة التي تسديها لي... »

وابتسم كلابيك في حزن. إنه لم يخطئ فهم رقة كيو، ولكنه تأثر بها. وواصل كيو كلامه قائلاً: « أين ستكون هذا المساء؟ »

ـ « حيثما تشاء ».

ـ « كلا ».

ـ « فلنقل إذن في « القط الأسود ».. إذ يجب أن أبحث عن أموالي القليلة بطرق شتى ».

ـ « فليكن.. فهذا المنتدى الليلي يقع في منطقة الامتيازات، ومن ثم لا وجود فيه للبوليس الصيني. وخطر الخطف هناك أقل منه هنا: إذ يوجد عدد كبير من الناس. وسأمر هناك بين الساعة الحادية عشرة، والحادية عشرة والنصف، ولكني لن أتأخر عن ذلك، لأن لدي موعداً بعد ذلك... »

وحول كلابيك نظرته بعيداً.

ـ « مصمم على ألا أخلفه.. هل أنت واثق من أن « القط الأسود » لن يكون مغلقاً؟ »

ـ « جنون. إنه سيكون مليئاً بضباط تشانج ـ كاي ـ شيك... وستكون حللهم الرسمية المطرزة معقودة أثناء الرقص بأجساد الغواني كأجمل ما تكون العقود. سأنتظر إذن وأنا أتأمل في انتباه هذا المشهد المحتوم إلى حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف ».

ـ « هل تعتقد أنك تستطيع الحصول على مزيد من المعلومات هذا المساء؟ »

ـ « سأحاول ».

ـ « ولعلك تسدي لي بذلك خدمة عظيمة.. خدمة أعظم مما تستطيع أن تتصور. وهل ذكروني بالاسم؟ »

ـ « أجل ».

ـ « ووالدي؟ »

ـ « كلا.. وإلا كنت قد ابلغته.. فلم يكن له شأن إطلاقاً بمسألة شان ـ تونج... »

ـ « وكان كيو يعلم أنه لا داعي للتفكير في شان ـ تونج، وإنما ينبغي التفكير فيما يخص قمع الثورة.. وماي؟ لقد كان دورها من قلة الأهمية بحيث لم يجد له داعياً لأن يسأل

عنها كلابيك. أما بالنسبة لرفاقه، فإنه إذا كان مهدداً، فإنهم بالتالي مهددون جميعاً ».

ـ « شكراً ».

وعادا معاً. وفي غرفة العنقاء، كانت « ماي » تقول لجيسور:

ـ « هذا أمر صعب للغاية: فلو منح الاتحاد النسائي حق الطلاق للنسوة اللواتي تساء معاملتهن، لترك أزواجهن الاتحاد الثوري، وإذا لم نمنحهن هذا الحق، فإنهن يفقدن كل ثقة بنا.. ولن يكنّ حينذاك على خطأ... »

قال كيو: « فيما يتعلق بالتنظيم أخشى ألا يكون الوقت مبكراً جداً أو قد فات أوانه ».

وانصرف كلابيك، دون أن يسمع شيئاً.

وقال لجيسور: « كن كريماً كعادتك، واعطني صبارتك ».

ـ « إنني أحب الفتى الذي بعث بها إلي.. ولك أن تأخذ أية واحدة سواها، بكل سرور ».

وكانت صبارة صغيرة غزيرة الشعر.

ـ « لا فائدة إذن ».

ـ « إلى لقاء قريب ».

ـ « إلى لقاء.. كلا.. ربما.. إلى اللقاء يا عزيزي.. الرجل الوحيد الذي لا وجود له في شتعهاي.. لا كلمة ـ الذي لا وجود له على الأطلاق! ـ يحييك ».

وخرج.

وكانت ماي وجيسور ينظران إلى كيو في قلق، فشرح لهما الأمر على الفور:

ـ « لقد علم من البوليس أني موجود في القائمة، فأشار علي بألا أتحرك من هذا المكان، إلا للهروب قبل مضي يومين. ومن جهة أخرى، أصبح قمع الثورة وشيكاً.. وقد غادرت المدينة آخر كتائب الفيلق الأول ».

وكان هذا هو الفيلق الوحيد الذي يستطيع الشيوعيون الاعتماد عليه. وكان « تشانج ـ كاي ـ شيك » يعرف ذلك، فقد أمر قائده أن ينضم إلى الجبهة بجنوده.. فاقترح هذا الأخير على اللجنة المركزية الشيوعية أن تلقي القبض على تشانج ـ كاي ـ شيك وأشاروا عليه بأن يكسب الوقت، وأن يتظاهر بالمرض ـ ولكنه سرعان ما وجد نفسه أمام إنذار نهائي. ولما كان لا يجرؤ على القتال دون موافقة الحزب، فقد غادر المدينة محاولاً أن يترك بعض الجنود فقط، والآن قد غادر هؤلاء المدينة بدورهم.

واستطرد كيو قائلاً : « ولكنهم لم يبتعدوا كثيراً عن المدينة ، بل إن الفيلق نفسه يستطيع أن يعود ، لو احتفظنا بالمدينة في أيدينا وقتاً كافياً » .

وفتح الباب مرة أخرى ، وأطل أنف ، وقال صوت ـ كأنه صادر عن كهف : « البارون كلابيك لا وجود له » .

وأغلق الباب من جديد . وتساءل كيو :

ـ « ألم تصل أنباء عن هنكيو ؟ »

ـ « لا شيء » .

وكان كيو قد قام سراً منذ عودته بتنظيم فرق القتال ضد تشانج ـ كاي ـ شيك ، كما سبق أن نظمها ضد الشماليين . وكانت « الدولية » قد رفضت كل شعارات المعارضة ، ولكنها قبلت الاحتفاظ بفرق الهجوم الشيوعية . ومن فرق المجاهدين الجديدة كان كيو ورفاقه يريدون أن يصنعوا منظمي الجماهير التي أخذت تتجه كل يوم الآن نحو النقابات ، غير أن الخطب الرسمية التي كانت تصدر عن الحزب الشيوعي الصيني ، وكل ما تروجه الدعاية عن الاتحاد مع الكومنتانج ، كان يشل حركتهم ، ولم تؤيدها سوى اللجنة العسكرية وحدها . ولم يتم تسليم الأسلحة كلها ، غير أن تشانج ـ كاي ـ شيك قد اشترط في هذا اليوم بالذات تسليم الأسلحة التي ما يزال الشيوعيون محتفظين بها . وأبرق كيو واللجنة العسكرية بنداء أخير إلى هانكيو .

كان جيسور الشيخ قلقاً ، لأنه كان متتبعاً للأحداث هذه المرة . كان على يقين ـ شأنه في ذلك شأن « كيو » ـ من أن تشانج ـ كاي ـ شيك سيحاول تحطيم الشيوعيين ، وكذلك كان يعتقد مثله أن اغتيال الجنرال سيصيب من الرجعية مقتلاً . ولكنه كان يمقت طابع التآمر الذي تتسم به حركتهم الحالية . ذلك أن موت تشانج ـ كاي ـ شيك ، بل الاستيلاء على حكومة شنغهاي ، لن يؤدي إلا إلى المغامرة . وكان يحبذ ، مع بعض أعضاء « الدولية » الآخرين ، عودة الجيش الحديدي والجناح الشيوعي من الكومنتانج إلى كانتون : فهناك يستطيع الشيوعيون بالاعتماد على مدينة ثورية وعلى ترسانة نشطة مجهزة ـ يستطيعون الاستقرار وانتظار اللحظة المناسبة للقيام بحملة جديدة على الشمال ، وهي اللحظة التي بعدها في عمق رد الفعل الوشيك . وقد كان قواد هنكيو متعطشين إلى غزو الأراضي ، ولكنهم لم يكونوا كذلك بالنسبة لجنوب الصين ، حيث النقابات المخلصة لهؤلاء الذين يمثلون ذكرى « صن ـ يات ـ سن » خليقة بأن ترغمهم على حرب عصابات دائمة وقليلة الجدوى . وبدلاً من أن يقع على الجيش الأحمر واجب محاربة الشماليين ، ثم تشانج ـ كاي ـ شيك ، فإن تشانج ـ كاي ـ شيك هو الذي سيتولى على هذا النحو مهمة محاربة الشماليين . وأياً كان العدو

الذي سوف يلتقي به الجيش الأحمر بعد ذلك في كانتون ، فإنه لن يلقى إلا عدواً قد ضعف . وكان جيسور يقول عن قواد الجيش : « إن الجبير مفتونة بجزرها بحيث أنها لن تقدم على عضنا إذا لم نضع أنفسنا بينها وبين الجزر . . » ومع ذلك ، فقد كانت الغالبة العظمى من الحزب الشيوعي الصيني ، وربما موسكو أيضاً ـ تصف هذا الرأي بأنه نزعة إلى « التصفية » .

وكان كيو يعتقد ـ كما يعتقد والده ـ أن أفضل سياسة هي العودة إلى كانتون . بل كان يود فضلاً عن ذلك لو مهد بدعاية واسعة النطاق لهجرة العمال بأجمعهم (وهم لا يملكون شيئاً يأسفون على فراقه) من شنغهاي إلى كانتون . . كانت خطة ضخمة جداً ، ولكنها ليست مستحيلة ، فإذا كان من الممكن ضمان أسواق المقاطعات الجنوبية ، فإن جماهير العمال تستطيع أن تقوم بتصنيع كانتون تصنيعاً سريعاً . بيد أنها سياسة خطرة بالنسبة لشنغهاي : ذلك أن عمال النسيج على حظ من الدربة ، أما تدريب عمال جدد فمعناه تكوين ثوريين جدد ، اللهم إلا إذا رفعت الأجور ، ولا بد أن يقول فيرال : « إن هذا الافتراض مستبعد نظراً للحالة الحاضرة التي تعانيها الصناعات الصينية » . وهذا معناه تخريب شنغهاي لتعمير كانتون ، كما حدث في هونج كونج عام ١٩٢٥ . وهونج كونج على بعد خمس ساعات من كانتون ، أما شنغهاي فعلى بعد خمسة أيام . . إنه مشروع صعب ولعله أصعب من أن يجابهوا الموت ، ولكنه أقل غباء .

وكان مقتنعاً ـ منذ عودته من هانكيو ـ أن الرجعية تستعد . ولو لم يخطره كلابيك ، فقد كان ينظر إلى الموقف في حالة هجوم جيش تشانج ـ كاي ـ شيك على الشيوعيين بأنه باعث على اليأس إلى درجة أن كل حدث حتى ولو كان اغتيال الجنرال (أياً كانت العواقب) قد أصبح مفيداً . وإن تم تسليح النقابات ، استطاعت أن تحاول في جهد محاربة جيش غير منظم .

ودق جرس الباب مرة أخرى ، فجرى كيو إلى الباب : إنه ساعي البريد يحمل أخيراً رد هانكيو . ونظر إليه أبوه « وماي » وهو عائد ، دون أن يقولا شيئاً .

قال : « أمر بدفن الأسلحة » .

وتحولت الرسالة الممزقة إلى كرة موضوعة في تجويف يده ، وتناول قطع الورق ، ونشرها على منضدة الأفيون ، وأخذ بقرب بينها ، ثم هز كتفيه ساخراً من صبيانيته . لقد كان الأمر واضحاً باخفاء الأسلحة أو دفنها .

ـ « يجب أن أذهب على الفور إلى هناك » .

وكانت «هناك» تعني «اللجنة المركزية». كان لا بد إذن من مغادرة مناطق الامتيازات. وكان جيسور يعلم أنه لا يستطيع أن يقول شيئاً. ربما كان ابنه ذاهباً لملاقاة الموت. غير أنها لم تكن المرة الأولى. فقد كانت هذه الطريقة هي التي تضفي على حياته معناها. وعلى هذا لم يكن أمام جيسور الشيخ إلا أن يتألم ويصمت. وكان قد أخذ معلومات كلابيك مأخذ الجد. ففي بكين أنقذ كلابيك ذات مرة ذلك الألماني الذي يشرف الآن على بوليس تشانج - كاي - شيك واسمه «كونيج» بأن حذره من المذبحة التي سوف يذهب ضحيتها أصحاب القيادة. وكان كونيج أحدهم. ولم يكن جيسور يعرف «تشيلفسكي». وإذ التقت نظرة كيو بنظرته، حاول أن يبتسم، فحاول كيو أيضاً أن يبتسم، ولم تفترق نظراتهما. فقد كان الاثنان يعلمان أنهما يكذبان، وأن هذا الكذب ربما كان أرق اتصال روحي بينهما.

وعاد كيو إلى حجرته، حيث كان قد ترك سترته.. وكانت «ماي» ترتدي معطفها:

- «إلى أين تذهبين؟».

- «معك، يا كيو».

- «ولماذا؟».

قال: «أسهل عليهم أن يتعرفونا معاً من أن يتعرفونا منفصلين».

- «كلا، لماذا؟ إذا استدلوا عليك، فهذا نفس الشيء...».

- «لن يكون لمخاطرتك أي نفع».

- «وما نفعي هنا خلال هذا الوقت؟ إن الرجال لا يعرفون ما يعنيه الانتظار...».

فتقدم بضع خطوات، ثم توقف، واستدار إليها:

- «اصغي إلي يا ماي: عندما كان الأمر يتعلق بحريتك اعترفت بها».

وفهمت إلام يقصد بهذا التلميح، وشعرت بالخوف: وكانت قد نسيت هذا الموضوع. والواقع، أنه أضاف بلهجة أشد اختناقاً:

- «... وقد عرفت كيف تأخذينها.. والأمر يتعلق الآن بحريتي أنا».

- «ولكن.. أي علاقة بين هذا وذاك يا كيو؟».

- «الاعتراف بحرية شخص آخر، معناه تأييده ضد ألمه الخاص. وإنني أعرف ذلك بالتجربة».

- «وهل أنا شخص آخر يا كيو؟».

والتزم الصمت من جديد، أجل، لقد كانت في هذه اللحظة شخصاً آخر. شيء ما قد نجم بينهما

واستطردت قائلة: «إذن، فلأنني قد.. أخيراً، وبسبب ذلك لا نستطيع الآن أن نواجه الخطر معاً؟.. أمعن الفكر يا كيو.. يكاد المرء يعتقد أن تصرفك هذا نوع من الانتقام..».

- «ألا نستطيع ذلك الآن، وأن نلتمس الخطر حين لا يحدق الناس الخطر، هذان أمران مختلفان».

- «ولكن، إذا كنت تحقد علي إلى هذا الحد، فما كان عليك إلا أن تتخذ لك عشيقة.. ولكن كلا؟ لماذا أقول ذلك، إنه ليس حقاً.. فأنا لم أتخذ حبيباً وإنما ضاجعت شخصاً، وهذا شيء مختلف، وأنت تعلم جيداً أنك تستطيع أن تضاجع من تشاء..».

فأجاب في مرارة: «أنت تكفينني».

وأدهشت ماي نظرته، التي امتزجت فيها العواطف جميعاً، ولعل أشدها اثارة على وجهه كان ذلك التعبير القلق الذي ينم عن لذة يجهلها هو نفسه.

واستأنف حديثه قائلاً: «إن مشاعري في هذه اللحظة هي نفسها منذ اسبوعين.. إن ما أريده ليس أن أضاجع. ولم أقل إنك مخطئة. وإنما قلت إنني أريد أن أرحل وحدي. والحرية التي تعرفينها هي حريتك.. حرية أن تفعلي ما يعجبك أنت. الحرية ليست تبادلاً. ولكنها الحرية».

- «هذا هجران..».

صمت.

- «لماذا يقف شخصان متحابان أمام الموت - أي كيو - إن لم يكن ذلك لكي يواجهاه معاً؟».

وخمنت أنه سيرحل دون مناقشة فحالت بينه وبين الباب.

قالت: «ما كان ينبغي أن تمنحني هذه الحرية، إذا كانت ستفرق بيننا الآن».

- «إنك لم تطلبيها».

- «لقد اعترفت بها إليّ أولاً».

وقال لنفسه: «كان ينبغي ألا تصدقيني..» وكان هذا حقاً، فلقد اعترفت بحريتها دائماً، غير أن مناقشتها في هذه اللحظة عن حقوقها أبعدها عنه أكثر فأكثر.

قالت في مرارة: «ثمة حقوق لا تمنح إلا لكي لا تستخدم».

- «لو أن هذه الحقوق لم تمنح إلا لكي تتعلقي بها في هذه اللحظة، فليس ذلك بالأمر السيئ..».

وفرقت بينهما هذه اللحظة أكثر مما يفعل الموت. هذه الجفون، وهذا الفم، وهذان

الخدان.. وموضع الملاطفات جميعاً ظاهر على وجه ميتة، وهاتان الوجنتان العاليتان، وهذان الجفنان المسحوبان، أصبحت جميعاً تنتمي إلى عالم غريب. وجراح الحب العميق تكفي لخلق حقد عنيف. فهل تتراجع-وهي القريبة هذا القرب من الموت - هل تتراجع إلى عتبة عالم العداوة هذا الذي اكتشفته؟ قالت:

- «أنا لا أتعلق بشيء - أي كيو، فلتقل إني مخطئة، أو كنت مخطئة، إذا كان هذا هو ما تريده، ولكن، الآن وفي هذه اللحظة أريد أن أرحل معك فوراً.. أرجوك..»

وظل صامتاً..

فواصلت كلامها قائلة: «إذا كنت لا تحبني، فلن يهمك أن تتركني أرحل معك.. فماذا إذن؟ لماذا تعذب أنفسنا؟».

وأضافت وهي منهكة القوى: «وكأن هذه هي اللحظة المناسبة للاختيار».

وأحس كيو أن شياطين مألوفة له تتحرك داخل نفسه، وتبعث فيها التقزز. وود لو يضربها، وأن يضربها في حبها له بالذات. إنها على حق: فلو أنه يحبها، ماذا يهمه لو أنها ماتت؟ ولعل ارغامها له على أن يفهم هذا المعنى في هذه اللحظة، هو أشد ما كان يثير عداءه لها.

أكانت تريد أن تبكي؟ لقد أغمضت عينيها، وبدا ارتعاد كتفيها المستمر الصامت، في تناقضه مع قناع وجهها الجامد، بدا أبلغ تعبير عن الكرب الانساني. ولم تعد إرادته وحدها هي التي تفرق بينهما، بل كان يفرق بينهما الألم. ولكن، إذا كان الألم يفرق فإن مشهد الألم يقرب. ولهذا فقد وجد نفسه منجذباً نحوها من جديد مدفوعاً برؤية هذا الوجه الذي أخذت أهدابه ترتفع شيئاً فشيئاً، وكأنها مأخوذة بالاعجاب.. وفوق عينيها المغمضتين، توقفت حركة الجبين، وعلى حين بغتة استحال هذا الوجه المتوتر الذي ظل جفناه مسبلين.. إلى وجه امرأة فارقتها الحياة.

وكان كثير من التعبيرات التي تعتري وجه «ماي» لا تأثير له عليه. فقد كان يألفها، وكان يبدو له أنها تحاكي نفسها دائماً، ولكنه لم يشاهد قط قناع الموت هذا - الألم لا النوم - مرتسماً على عينين مغمضتين، وكان الموت من القرب بحيث بث في هذا الوهم قوة تدعو التشاؤم. وفتحت عينيها من جديد دون أن تنظر إليه، وظلت نظرتها صائمة على حائط الحجرة الأبيض، ودون أن تتحرك عضلة واحدة من عضلاتها، انسابت دمعة على طول أنفها وبقيت معلقة عند ركن فمها، واشية بحياتها الخرساء، الناقمة كألم الحيوان - في ذلك القناع اللا إنساني، الميت كما كان منذ لحظة.

- «افتحي عينيك».

وتطلعت إليه.

- «إنهما مفتوحتان».

- «لقد خيل إلي أنك ميتة».

- «ثم ماذا؟».

وهزت كتفيها، واستطردت قائلة بصوت مليء بالتعب والأسى:

- «إذا كنت سأموت، أنا، فإنني أرى أنك تستطيع أن تموت..»

وأدرك الآن ما العاطفة الحقيقية التي كانت تدفعه. لقد كان يريد أن يعزيها. ولكنه لم يكن يستطيع أن يعزيها إلا بقبول رحيلها معه.

وكانت قد أغمضت عينيها ثانية، فاحتضنها بين ذراعيه، ولثم جفنيها.. وحين افترق عندما سألته:

- «هل نحن راحلان؟».

- «كلا».

ولما كانت شديدة الاخلاص إلى درجة لا تستطيع معها إخفاء غريزتها فقد رجعت إلى مثاليتها في عناد القطة، وهو عناد كثيراً ما أثار ثائرة كيو. وكانت قد تنحت عن الباب، ولكنه لاحظ أنه لم يرد أن يجتاز الباب إلا طوال ما كان واثقاً من أنه لن يجتازه!

- «ماي.. هل سنفترق هكذا على حين بغتة؟».

- «وهل عشت كامرأة في حاجة إلى حماية الغير؟..».

ووقف أحدهما في مواجهة الآخر، دون أن يجدا ما يقولانه، ودون أن يقبلا في الوقت نفسه هذا الصمت، إذ كان كل منهما يعرف أن هذه اللحظة التي تعد من أخطر لحظات حياتهما، يفسدها الزمن الذي يمضي: إن مكان كيو لم يعد هنا، بل في اللجنة، وكان نفاد الصبر كامناً تحت أفكاره جميعاً.

وأومأت له إلى الباب بوجهها.

ونظر إليها، ثم تناول رأسها بين يديه، وضغط عليها برفق، دون أن يقبلها، وكأنه يستطيع أن يضع في هذه الضغطة على الوجه كل ما تنطوي عليه حركات الحب الرجولية من رقة وعنف ممتزجين.. وأخيراً تباعدت يداه.

وأغلق البابان وراءه، واستمرت «ماي» في الانصات، وكأنما تنتظر أن يغلق باب آخر لا وجود له. وكان فمها فاغراً متهدلاً، وهي سكرى من الأسى، يكشف أنها حين أشارت

إليه أن يرحل بمفرده، فذلك لأنها كانت تعتقد أنها قد أتت على هذا النحو بالحركة الأخيرة الوحيدة التي يمكن أن تقنعه باصطحابها.

وما كاد كيو يخطو مائة خطوة حتى التقى بـ «كاتوف».

ـ «أليس تشن هناك؟».

وأشار بأصبعه إلى منزل كيو.

ـ «كلا».

ـ «ألا تعرف مطلقاً أين يوجد؟».

ـ «كلا.. لماذا؟».

وكان كاتوف هادئاً، غير أن وجهه كان يدل على أنه يعاني من صداع..

ـ «هناك عدد كبير من السيارات التي يستقلها تشانج ـ كاي ـ شيك، وتشن لا يعرف ذلك، فإما أن يكون البوليس قد أخطر بالمحاولة، أو أنه يرتاب في الأمر. فإذا لم يحط تشن بهذه المسألة، فسوف يخطئ السيارة المنشودة، ويلقي قنابله عبثاً.. وهاأنذا أجري وراءه منذ مدة طويلة، كما ترى.. كان الموعد المقرر لإلقاء القنابل هو الساعة الواحدة.. ولم يحدث شيء، وإلا كان الخبر قد بلغنا».

ـ «كان مقدراً أن يقوم بهذه المحاولة في شارع الجمهوريتين.. ولعل أحكم ما نستطيع أن نفعله الآن، هو أن نمر على هملريش».

وشرع كاتوف في المسير على الفور.

وسأله كيو في اللحظة التي استدار فيها: «أما زلت تحتفظ بالسيانور؟».

ـ «أجل».

وكان كل منهما، وكذلك كثير من الزعماء الثوريين الآخرين ـ يحملون السيانور في محك (توكة) الحزام المسطح الذي يفتح كما يفتح الصندوق.

لم يخلص الفراق «كيو» من شعوره بالحزن.. بل على العكس، كانت ماي أقوى في هذا الشارع المهجور، بعد أن رضخت له.. منها حين كانت تعارضه وجهاً لوجه. ودخل المدينة الصينية ـ ولم يفته أن يلحظ ذلك ـ ولكن في شيء من عدم الاكتراث. «هل كانت امرأة في حاجة إلى حماية الغير؟.. بأي حق فرض حمايته السخيفة على امرأة وافقت حتى على رحيله؟ وفي سبيل أي مبدأ يهجرها؟ أواثق هو من أن فعله هذه لا تشوبها الرغبة في الانتقام؟ لا شك أن «ماي» ما زالت جالسة على السرير، وقد حطمها الألم الذي يتجاوز كل تحليل نفسي

وعاد على أعقابه ركضاً.

كانت حجرة الحنقاوات خالية، وقد خرج والده.. أما ماي فلم تغادر الحجرة. وقبل أن يفتح الباب، توقف، وقد طغى عليه شعور بما ينطوي عليه الموت من إخاء، مكتشفاً إلى أي مدى يظل الجسد شيئاً تافهاً ـ مع ما فيه من إغراء ـ إزاء هذا التواصل. وأدرك الآن أن جعلنا سياق الشخص الذي نحبه إلى الموت، ربما كان هو الصورة الكاملة للحب، الصورة التي لا يمكن تجاوزها.

وفتح الباب.

فألقت معطفها في عجلة على كتفيها، وتبعته دون أن تقول شيئاً.

الساعة الثالثة والنصف.

ظل هملريش وقتاً طويلاً ينظر إلى اسطواناته التي لا يجد لها شارياً.. وطرق الباب وفقاً للإشارة المتفق عليها، ففتح الباب، ووجد أمامه كاتوف.

ـ «هل رأيت تشن؟».

فزمجر هملريش قائلاً: أيها الندم المتجول!».

ـ «ماذا تقول؟».

ـ «لا شيء. أجل، رأيته حوالي الساعة الواحدة أو الثانية.. هل يعنيك هذا؟».

ـ «إنني في حاجة ماسة إلى رؤيته. ماذا قال؟».

ومن حجرة أخرى، تناهت إلى أسماعهما صرخة الطفل، وأعقبها أقوال مختلطة من الأم التي تجتهد في تهدئته.

ـ «لقد جاء مع زميلين آخرين، أحدهما سوين، أما الآخر فلا أعرفه. إنه يضع على عينيه نظارات، ككل الناس. وتبدو عليه مسحة من النبل وكانوا يتأبطون حوافظ جلدية. هل فهمت؟».

ـ «ولهذا السبب ينبغي أن أعثر عليه.. أفاهم أنت؟».

ـ «لقد طلب مني أن يمكث هنا ثلاث ساعات».

ـ «حسن. أين هو الآن؟».

ـ «أغلق فمك، واستمع إلى ما يقال لك.. لقد طلب مني أن يمكث هنا.. ولكني لم أوافق. أتسامع أنت؟».

صمت.

ـ «قلت لك إني لم أوافق».

ـ «أين يمكن أن يذهب؟».

ـ «لم يقل شيئاً.. إنه مثلك.. الصمت ينتشر، اليوم..».

وكان هملريش يقف منتصباً وسط الحجرة، وقد تجمع جسده وكادت نظرته تعبر عن الحقد.. فقال كاتوف في هدوء، دون أن ينظر إليه:

ـ «إنما أنت تسرف في شتمي.. وكأنك تريد أن تنال نصيباً من الشتائم، لكي تستطيع الدفاع عن نفسك».

ـ «وماذا تستطيع أن تفهم من أمري؟ وماذا يعنيك من هذا كله؟. لا تنظر إلي هكذا بخصلة شعرك المنتصبة كعرف الديك الصغير، ويديك المفتوحتين، كأنك يسوع المسيح ينتظر الصلب..».

ودون أن يضم كاتوف قبضته، وضعها على كتف هملريش.

ـ «لا تزال الحال سيئة هناك في الطابق العلوي».

ـ «إنها أقل سوءاً الآن.. ولكن، هذا يكفي على النحو الذي هو عليه. يا للصبي المسكين! إنه بجسده الهزيل، ورأسه الضخم، يشبه أرنباً مسلوخاً.. دعنا من ذلك...».

وتخلص البلجيكي من قبضة كاتوف في عنف، وتوقف ثم اتجه إلى أقصى أطراف الحجرة في حركة صبيانية غريبة، وكأنه يظهر الجفاء.

قال: «إن شر ما في الأمر لم يحدث بعد. كلا.. لا تفعل كمن يعاني من السعال، ويتلوى في تحرج.. أنا لم أشِ بتشن إلى البوليس.. اطمئن.. لم أفعل بعد، على الأقل..».

وهز كاتوف كتفيه في أسى.

ـ «من الأفضل أن توضح ما تعنيه».

ـ «كنت أريد أن أرحل معه».

ـ «مع تشن؟».

وتأكد كاتوف من أنه الآن لن يعثر عليه. وكان يتكلم بصوت هادئ كليل أشبه بصوت من حلت بهم الهزيمة. إن تشانغ ـ كاي ـ شيك لن يعود إلا في الليل، ولن يتمكن تشن من الإقدام على أية محاولة قبل ذلك.

وأشار هملريش بإبهامه، من فوق كتفه، إلى الاتجاه الذي صدرت منه صرخة الطفل.

ـ «هذا ما في الأمر.. هو ذاك. ماذا تريدني أن أفعل؟».

ـ «الانتظار [illegible]».

ـ «لأن الولد سيموت. أليس كذلك؟ انصت إلي جيداً.. إن هذا ما أشاء بصف[illegible]

[illegible] ولكن إذا حدث ذلك، فإنني أتمنى أن يبقى، وألا يموت، ولو ظل مريضاً..

[illegible]».

ـ «إني أعرف...».

[illegible] هملريش وقد أحس أن التأثير الذي يريده قد فسد: «ماذا؟ ماذا تعرف؟ وأنت [illegible]!».

ـ «كنت متزوجاً».

ـ «ليتني رأيتك حينذاك.. بهذه الهيئة التي تبدى عليها.. كلا.. ليس هذا من أجلنا.. [illegible] الشطائر الصغيرة التي تتجول في الشارع.. وأحس أن «كاتوف» يفكر في المرأة [illegible] على الطفل في الطابق العلوي.

ـ «إنه تفان. أجل.. وهي تفعل كل ما تستطيعه. والباقي، أي ما لا تملكه، فهو ما [illegible] للأغنياء.. وحين أشاهد أناساً يبدو عليهم أنهم متحابون، أود لو هشمت وجوههم».

ـ «التفاني.. هذا كثير.. الشيء الضروري الوحيد هو ألا يكون المرء وحيداً».

ـ «ولأجل هذا تبقى هنا، أليس كذلك؟ لتساعدني؟».

ـ «أجل».

ـ «بدافع الشفقة؟».

ـ «ليس بدافع الشفقة، وإنما بدافع...».

[illegible] كاتوف لم يجد الكلمة التي تعبر عما يريد.. وربما لم يكن لمثل هذه الكلمة وجود، [illegible] أن يشرح ما يقصد بطريق غير مباشرة:

ـ «لقد عرفت ذلك، أو ما يقاربه.. وكذلك هذا النوع الذي تبديه من السخط.. [illegible] يريد أن يفهم الناس الأشياء إلا عن طريق الذكريات.. ولهذا السبب لم تغضبني».

[illegible] قد اقترب منه، وهو يتحدث ـ وقد غاص رأسه بين كتفيه، بصوته الذي يأكل [illegible] ناظراً إليه من طرف عينيه، وكان كل منهما وهو يقف على هذا النحو خافضاً [illegible] كمن يتأهب لدخول معركة بين الاسطوانات.. غير أن كاتوف، كان يعرف أنه [illegible] وإن لم يكن يدري على أي نحو كان هو الأقوى. ربما كان صوته، أو هدوؤه، بل [illegible] هي التي تمنحه هذا التفوق.

[illegible] يلتقي رجل لا يهمه أي شيء، بهذا التفاني الحقيقي، أو بهذه التضحية [illegible] [illegible] من هذا القبيل.. فإنه يكون في حكم المنتهي».

ـ «لا تبالغ. وماذا يصنع حينئذ؟».

فأجابه كاتوف وهو ينظر إليه في هدوء: « يمارسون السادية ».

وأطلق الجدجد صفيره .. وفي الشارع ، تبددت خطوات رويداً رويداً ..

وأردف كاتوف قائلاً: « السادية بالدبابيس ، أمر نادر .. أما السادية بالأقوال فأبعد من أن تكون شيئاً نادراً . ولكن إذا استسلمت المرأة استسلاماً مطلقاً ، وإذا كانت قادرة على أن تتجاوز ذلك .. لقد عرفت شخصاً أخذ النقود التي ادخرتها امرأته سنوات طوالاً للذهاب إلى المصحة وقامر بها .. مسألة حياة أو موت .. ولكنه خسرها (في مثل هذه الأحوال تخسر دائماً) وقد عاد ممزقاً محطماً تماماً ، مثلك في هذه اللحظة ، ونظرت إليه وهو يقترب من فراشها ، ففهمت كل شيء على الفور ، أترى؟ ثم ماذا؟ لقد حاولت أن تعزيه .. »

قال همبريش متمهلاً: « أسهل على المرء أن يعزي سواه من أن يعزي نفسه .. »

ورفع عينيه بغتة ثم قال: « هل كنت أنت ، ذلك الشخص؟ »

ـ « كفى » ، وضرب كاتوف بقبضته منضدة الحساب ، واستطرد قائلاً:

ـ « لو كنت أنا ، لقلت إنه أنا ، لا سواي » . غير أن غضبه انطفأ فجأة : « أنا لم أفعل كل هذا .. وليس من الضروري أن يفعل الإنسان مثل هذا .. وإذا كان المرء لا يؤمن بشيء ، وخاصة إذا كان لا يؤمن بشيء ، فإنه مرغم على احترام العواطف القلبية الصادقة حين يلتقي بها .. هذا أمر مفروغ منه .. وهذا ما تفعله أنت .. ولو كنت بمفردك دون المرأة والطفل لرحلت ، أنا واثق من ذلك .. أجل » .

ـ « ولما كنت لا تعيش إلا من أجل هذه العواطف القلبية ، فإنها تلتهمك .. وإذا لم يكن بد من أن تؤكل دائماً ، فلماذا لا تأكلك هذه العواطف؟ .. ولكن هذا كله سفاهات .. وليست المسألة أن تكون على صواب . إنني لا أستطيع أن أحتمل أنني طردت تشن من الباب ، وما كنت أستطيع أن أطيق إبقاءه » .

ـ « ينبغي ألا يطلب المرء من رفاقه إلا ما يستطيعون القيام به .. إنني أريد رفاقاً لا قديسين . فأنا لا أثق في القديسين .. »

ـ « أحقاً أنك رافقت رجال منجم الرصاص طواعية واختياراً؟ »

قال كاتوف محرجاً: « كنت في معسكر الاعتقال .. والمناجم والمعسكرات .. »

ـ « سيان . هذا غير صحيح »

ـ « وماذا تعرف عن ذلك؟ »

ـ « هذا غير صحيح . ولو كنت في مكاني لا صفعت بيلي »

ـ « أنا ليس لدي أطفال .. »

ـ « يبدو لي أن هذا كان خليقاً بأن يهون الأمر علي ، وحتى فكرة أن يقتلوه لي ، لو لم يكن مريضاً .. إني غبي .. صحيح أنني غبي .. بل ربما لم أكن عاملاً . ثم ماذا؟ إنني أبدو نفسي كعامود النور ، الذي يتبول عنده كل من هب ودب من الناس » .

وأومأ بوجهه المقرطح من جديد إلى الطابق العلوي ، إذ طفق الطفل يصرخ مرة أخرى . لم يجسر كاتوف على أن يقول: « سيحمل الموت إليك الخلاص » ، فقد كان الموت هو الذي حمل إليه هو الخلاص . ومنذ أن شرع همبريش في الكلام ، حضرت بينهما ذكرى زوجته .. كان عائداً من سيبريا دون أمل ، منهزماً ، وقد تحطمت دراساته للطب ، وأصبح عاملاً في مصنع ، موقناً أنه سيموت قبل أن يشهد الثورة ، ولكنه اكتشف في أسى أنه ما زال مرتبطاً بالحياة لأنه كان يعذب عاملة صغيرة تحبه . ولكنها ما كادت تتقبل الآلام التي حملها لها ، حتى سيطرت عليه تلك الرقة المحيرة التي يبديها الشخص المعذب لمن يسومه العذاب ، ومنذ ذلك الحين لم يعد يحيا إلا من أجلها ، مواصلاً بحكم العادة عمله الثوري ، وقد استبدت به تلك الرقة التي لا حدود لها ، الكامنة في قلب تلك الفتاة الساذجة .. فكان يمضي الساعات الطوال يداعب شعرها ، وكانا يمضيان اليوم كله في الفراش .. ولكنها ماتت .. ومنذ ذلك الحين .. غير أن هذا كان بينه وبين همبريش ، ولم يكن ذلك يكفي .

ولم يكن يستطيع بالأقوال ، أن يفعل شيئاً . ولكن فيما وراء الأقوال .. كان يملك ما يستطيع الإشارات والنظرات ، ومجرد الحضور ، التعبير عنه . وكان يعرف بالتجربة أن أسوأ ما في الألم هو الوحدة التي تصاحبه . والتعبير عن الألم نوع من الخلاص أيضاً .. غير أن الإنسان يجهل الكلمات التي تعبر عن آلامه العميقة .. فإذا أساء التعبير ، أو التجأ إلى الكذب ، فإن همبريش سيجد مبرراً آخر لاحتقار نفسه .. ذلك أنه يتألم على الأخص من نفسه . ونظر إليه كاتوف في أسى دون أن يحدد نظرته ، وقد أدهشه مرة أخرى أن يلاحظ مرة أخرى تلك الحركات التي يستطيع بها الرجل أن يعبر عن محنته .

قال: « يجب أن تفهم دون أن أقول شيئاً .. فليس ثمة ما يقال » .

ورفع همبريش يده ، وتركها تسقط في تثاقل وكأنه لا يستطيع أن يختار إلا بين التعاسة وفقد الحياة .. ولكنه ظل في مواجهة كاتوف ، غارقاً في شجونه .

وكان يجول في خاطر كاتوف: « سوف أستطيع أن أنصرف حالاً بحثاً عن تشن » .

* * *

قال فيرال للكولونيل الذي كان يرتدي حلته الرسمية هذه المرة: «لقد دفعت النقود أمس. فما موقفنا الآن؟».

ـ «لقد بعث الحاكم العسكري إلى الجنرال تشانغ ـ كاي ـ شيك بمذكرة طويلة جداً يطلب منه فيها ما ينبغي أن يفعله في حالة قيام الشغب».

ـ «يريد أن يغطي مسئوليته؟».

ونظر الكولونيل إلى فيرال من فوق الغشاوة التي ترين على عينيه، وأجاب فحسب: «هذه هي الترجمة».

وقرأ فيرال المذكرة.

قال الكولونيل: «ولدي الرد أيضاً».

وناوله صورة: وكان فيها نقشان فوق توقيع تشانغ ـ كاي ـ شيك.

ـ «وهذا معناه؟».

ـ «أطلقوا الرصاص».

وتطلع فيرال إلى خريطة شنغهاي المعلقة على الحائط، بما فيها من بقع حمراء كبيرة تشير إلى تجامع العمال والبؤساء.. وهم شيء واحد ـ وهمس في نفسه: «ثلاثة آلاف رجل من الحرس النقابي، وربما كان وراءهم ثلاثمائة ألف رجل.. ولكن هل يجرؤون على التحرك؟ وفي الجهة الأخرى، تشانغ ـ كاي ـ شيك والجيش..».

وسأل: «هل سيبدأ بإعدام الزعماء الشيوعيين رمياً بالرصاص قبل قيام أي شغب؟».

ـ «بكل تأكيد.. وحينئذ لن يكون ثمة شغب، فالشيوعيون مجردون من السلاح تقريباً، ووراء تشانغ ـ كاي ـ شيك تقف قواته.. والفرقة الأولى في الجبهة، وقد كانت هي الفيلق الوحيد».

ـ «شكراً، وإلى اللقاء».

كان فيرال ذاهباً لزيارة فاليري. وكان خادم ينتظره إلى جوار السائق، وقد وضع على ركبتيه قنديلاً في قفص كبير مذهب. وكانت «فاليري» قد رجت فيرال أن يقدم لها هذه الهدية. وما كادت سيارته تشرع في المسير حتى أخرج من جيبه رسالة، وأخذ يعيد قراءتها. إن ما كان معناه منذ شهر قد وقع: سوف تقطع القروض الأمريكية عنه.

لم يعد طلاب حكومة الهند الصينية يكفي لكي يواصل المصانع نشاطها، تلك المصانع التي أنشئت من أجل سوق كان ينبغي أن يتسع شهراً إثر شهر، ولكنها الآن تنكمش يوماً بعد يوم: ولحقت الخسائر بمشروعات اتحاد الشركات الصناعية. وكانت أسعار الأسهم التي تحافظ عليها في باريس بنوك فيرال والجماعات المالية الفرنسية المرتبطة بها، يحافظ عليها التضخم بوجه خاص، قد راحت تهبط دون توقف منذ تثبيت الفرنك. غير أن بنوك الاتحاد لم تكن تستمد قوتها إلا من أرباح مزارعها ـ ولا سيما من شركات المطاط. وقد رفع مشروع ستيفنسون[1] سعر المطاط من ١٦ سنتاً إلى ١١٢. وانتفع فيرال الذي يشرف على مزارع المطاط في الهند الصينية من هذا الرفع دون أن يجد ما يجبره على تحديد انتاجه، إذ لم تكن مزارعه واقعة داخل الأراضي البريطانية. وكذلك كانت البنوك الأمريكية تعرف بالتجربة كم يكلف أمريكا هذا المشروع ـ وهي المستهلك الرئيسي ـ فقبلت من تلقاء نفسها إعطاء القروض بضمان المزارع. غير أن زيادة الانتاج الوطني في جزر الهند الشرقية الهولندية والتهديد بإنشاء مزارع أمريكية منافسة في الفلبين والبرازيل وليبريا، قد أفضى الآن إلى تدهور في الأسعار، فقطعت البنوك الأمريكية قروضها لنفس الأسباب التي دفعتها إلى منح هذه القروض، وهكذا أصيب فيرال بثلاث نكبات في وقت واحد: تدهور قيمة المادة الأولية الوحيدة التي تستند إليها أعماله ـ وكان قد تمكن من الحصول على قروض بنوع من المضاربة، لا على قيمة إنتاجه، بل على قيمة مزارعه نفسها ـ وتثبيت قيمة الفرنك الذي أدى إلى تخفيض سنداته كلها (وكان كثير منها تملكه بنوكه التي كانت مصرة على السيطرة على السوق)، وأخيراً سحب القروض الأمريكية.. ولم يكن يجهل أن انتشار خبر هذا السحب سيدفع الانتهازيين في أسواق باريس ونيويورك إلى اتخاذ موقف من تخفيض سنداته.. وهو موقف مضمون تماماً. وهكذا لم يكن من الممكن إنقاذه إلا على أساس دوافع أخلاقية، أي بوساطة الحكومة الفرنسية.

إن اقتراب الافلاس يحمل إلى الجماعات المالية في طياته وعياً شديداً بالأمة التي تنتمي إليها. ولما كانت الحكومات قد ألفت أن ترى «سرقة الادخار»، فإنها لا تحب أن ترى أصحاب الادخار مجردين من كل أمل في استرداد أموالهم والمستثمر الذي يمكن أن يفكر ـ بأمل المقامر العنيد ـ في استرجاع أمواله المفقودة في يوم من الأيام ـ هذا المستثمر يكون في حالة لا تخلو من عزاء. وهكذا كان من العسير على حكومة فرنسا أن تتخلى عن الاتحاد، بعد أن تخلت عن بنك الصين الصناعي.. ولكن كان لا بدّ لفيرال، لكي يطلب منها المعونة الا يكون بلا أمل. فلا بدّ قبل كل شيء أن يتم تحطيم الشيوعية في الصين. فمن الممكن عندئذ تخطيط السكك الحديدية الصينية، إذا كان تشانغ ـ كاي ـ شيك مسيطراً على

(1) مشروع يهدف إلى الحد من إنتاج المطاط داخل الامبراطورية البريطانية كلها (وهي المنتج العالمي الرئيسي) وذلك حتى يمكن رفع سعر هذه السلعة التي انخفضت إلى أقل من تكاليف الانتاج

الإعلام [illegible] . وكان القرض المطلوب لذلك هو ثلاثة آلاف مليون من الفرنكات [illegible] ، وهذا معناه ملايين كثيرة من الفرنكات الورقية . وبالطبع لم يكن هو الذي سيسلم [illegible] المواد المستخدمة في المشروع ، كما أنه ليس وحده الذي يدافع اليوم عن [illegible] بيد أنه مشترك في المغامرة . وفضلاً عن ذلك فإن البنوك [illegible] تخشى انتصار الشيوعية الصينية ، وسقوطها يؤدي إلى إجراء تعديل في سياسة تلك [illegible] . وكان فيرال - بوصفه فرنسياً - يتمتع ببعض الامتيازات في الصين ، ولم يكن ثمة [illegible] الاتحاد في إنشاء السكك الحديدية . وكان يستطيع - وله في ذلك مبرراته - أن يطلب من الحكومة معونة لتوطيد مركزه ، وسوف تفضل الحكومة تقديم هذه المعونة على وقوع كارثة جديدة : فإذا كانت قروضه أمريكية ، فإن ودائعه وأسهمه فرنسية . لقد كانت أوراقه لا تستطيع أن تربح جميعاً إبان أزمة صينية حادة ، ولكن ، كما أن مشروع [illegible] قد تضمن في حينه حياة الاتحاد فكذلك سيضمن حياته اليوم انتصار الكومنتانج . وإذا كان تثبيت الفرنك قد لعب ضده ، فإن سقوط الشيوعية الصينية سيلعب في مصلحته .

[illegible] لم يفعل شيئاً طوال حياته سوى أن يتربص لهذه الدفعات في الاقتصاد العالمي ، لكي [illegible] . وهي الدفعات التي تبدأ كأنها عطايا ثم تنتهي كأنها ضربات بالرأس في بطنه ؟ وفي هذه الليلة سواء أدت المقاومة إلى الانتصار أم إلى الهزيمة ، كان يشعر بنفسه معتمداً على قوى العالم جميعاً . إن هناك تلك المرأة التي لا يعتمد عليها ، والتي ستعتمد عليه بعد لحظة . والاعتراف بالاستسلام المرتسم فوق هذا الوجه المغلوك سوف يحجب عنه ضروب القسر [illegible] التي تخضع لها حياته . وكأن هذا الاستسلام يد موضوعة فوق عينيه . وكان قد [illegible] من جديد في عدة صالونات (لم تكن قد عادت من كيوتو إلا منذ ثلاثة أيام) ، [illegible] منها معضباً في كل مرة بسبب تدللها الذي تسري الوقاحة في رقته ، مما كان يثير [illegible] . ثم قبلت أن تلقاه تلك الليلة . وكان في حاجته غير المحدودة إلى أن يكون موضع التفضيل - والإعجاب أيسر وأشمل إذا صدر لجنس من جنس آخر - يهيب بالإثارة لإذكاء الإعجاب ، حين يصبح الإعجاب غير مؤكد . وكأن ما تبديه من مقاومة له هو أشد ما يثير شهوته . غير أنه لم يكن يرى كل هذا في وضوح ، ذلك أن حاجته إلى أن يتخيل نفسه مكانها منذ أن يبدأ في لمس جسدها ، هي التي كان يستمد منها إحساسه الحاد بالامتلاك . وكان يستشعر مقدماً ما في الجسد الذي يأخذه غلاباً طعماً ألذ من الجسد المستسلم له . طعماً ألذ من أي جسد آخر

وغادر سيارته ، ودخل محل « أستور » يتبعه خادمه الذي كان يحمل قفصه على طرف

ذراعه في وقار . كانت الدنيا تعج بملايين من الأشباح : النسوة اللواتي لا يقلل عجبهن - وهو حي هو المرأة التي يريدها أن تحبه . واستولت عليه فكرة الامتلاك التام ، وأصبحت ثابتة في نفسه ، واستحضر غروره غروراً معادياً كالمقامر المتحمس الذي يستدعي مقامراً آخر ليباريه ، بدلاً من أن ينشد السلام . وقد كان استهلال اللعبة على الأقل طيباً هذا المساء ، إذ كانا سيبدآن بالاضطجاع معاً .

وما كاد يدخل القاعة حتى اقترب منه خادم أوروبي .

- « مدام سرجي تبلغ مسيو فيرال أنها لن تعود هذه الليلة وأن هذا السيد سيشرح له الأمر » .

ونظر فيرال - مذهلاً - إلى « هذا السيد » الجالس إلى جانب الستار الحاجز (البارافان) مولياً ظهره واستدار الرجل . إنه مدير أحد البنوك الانجليزية الذي دأب على مغازلة فاليري منذ شهر ، وإلى جواره ، وراء البارافان ، كان ثمة خادم يمسك في وقار لا يقل عن وقار خادم فيرال - عندليباً في قفص . ونهض الانجليزي مرتبكاً ، وصافح فيرال قائلاً :

- « عليك أن تفسر لي .. يا سيدي ... »

وفهما معاً أنها ضحية « مقلب » ، فتبادلا النظر وسط ابتسامات الخادمين الصينيين الماكرة ، ووقار الخدم البيض الذي تم شدته عن التكلف . وكانت هذه الساعة هي ساعة الكوكتيل وشتهاي كلها مجتمعة في هذا المكان . وأحس فيرال أن موقفه أدعى إلى السخرية ، لأن الانجليزي كان شاباً تقريباً .

وفي الحال ساوره احتقار لا يقل عنفاً عن الغضب الذي استبد به . وكان في هذا الاحتقار تعويض فوري عن المهانة التي فرضت عليه . وشعر بالحماقة الانسانية الحقيقية تكتنفه ، تلك الحماقة التي تلتصق بالانسان وتثقل على كاهله : وهؤلاء الخلق الذين ينظرون إليه إنما هم أبغض أغبياء على الأرض . ومع ذلك فقد افترض ، لأنه كان يجهل ما يعرفونه ، أنهم على علم بكل شيء ، وأحس إزاء تهكمهم ، أنه تحت وطأة شلل ساحق ربضت فيه الكراهية .

وسأل خادمه الخادم الآخر : « أهذا من أجل مسابقة ؟ » .

- « لا أدري » .

- « إن عصفوري ... ذكر » .

- « أجل .. وعصفوري أنثى » .

- « لا بد أن هذا ما يقصدونه » .

وانحنى الانجليزي أمام فيرال، واتجه صوب البواب، فناوله هذا رسالة، وقرأها، ثم نادى خادمه، وأخرج بطاقة زيارة من محفظته، وثبتها على القفص، وقال للبواب: «لمدام ...يرجي» وخرج.

وأمعن فيرال الفكر، دفاعاً عن نفسه. لقد أصابت في أشد مواطن نفسه حساسية، ...كأنها فقأت عينيه أثناء نومه: لقد أنكرت وجوده. والذي يستطيع أن يفكر فيه، أن ...يعمله، أن يريده، لم يعد له وجود. لقد وقع هذا المشهد المضحك، وليس في الامكان ألا يكون قد وقع. إنه وحده الذي يوجد في عالم من الأشباح، ولقد كان هو، هو بالذات، ...موضع الاستهزاء. وفضلاً عن ذلك ـ إذ إنه لم يكن يفكر في عاقبة ما، ولكن في سلسلة ...متلاحقة من الهزائم، وكأن الغضب قد جعل منه مازوخياً (محباً للعذاب) ـ فضلاً عن ...ذلك لن يضطجع معها. وأخذ تعطشه للانتقام من هذا الجسد الساخر يزداد شيئاً فشيئاً، ...فظل هناك وحده في مواجهة هؤلاء البلهاء، وخادمه غير المكترث، بقفصه الموضوع فوق ...طرف ذراعه. وكان هذا العصفور إهانة مستمرة له.. ولكن، عليه قبل كل شيء أن يبقى. ...فطلب كأساً من الكوكتيل، وأشعل لفافة تبغ، ثم ظل بلا حراك، منشغلاً بتكسير عود الثقاب بين أصابعه داخل جيب سترته. والتقت نظرته بزوجين. كان بالرجل شيء من الخلابة أضفاه عليه ائتلاف شعره الأشيب بوجه غض الشباب، أما المرأة، وهي لطيفة، ولكنها سوقية قليلاً، فكانت تتطلع إليه في شعور من شكران العاشقة هو مزيج من الحنان والشهوانية. وناجى فيرال نفسه قائلاً في حسد: «إنها تحبه.. وليس من شك أنه صعلوك ...أفاق، وربما كان من أولئك الذين يعتمدون في معاشهم على عمل من أعمالي..» وأرسل في استدعاء البواب.

ـ «لديك رسالة من أجلي.. أعطنيها».

وظهرت الدهشة على البواب، ولكنه لم يتخل عن جديته، وناوله الرسالة

ـ «هل تعلم ـ يا عزيزي ـ أن النساء الفارسيات، حين يستولي عليهن الغضب ـ يضربن أزواجهن بنعالهن ذات المسامير؟.. إنهن لا يشعرن بالمسئولية.. ولكنهن سرعان ما يعدن بعد ذلك إلى الحياة العادية ـ تلك الحياة التي لا تلتزم فيها المرأة بشيء حين تسكب الدمع بين ...يدي رجل ما، وإنما حين تضاجعه ـ هل تصدق ذلك؟ ـ الحياة التي يتملك فيها الرجال النساء. ولست امرأة من أولئك اللواتي يمكن امتلاكهن. لست جسداً أحمق تقضي منه ...وطرك وأنت تلقي بأكاذيب كتلك التي تلقيها للأطفال والمرضى. أنت تعرف كثيراً من الأمور يا عزيزي، وأكثر ... ربما وافاك الأجل دون أن تلحظ أن المرأة كائن إنساني هي ...أيضاً. ولقد التقيت دائماً (وربما لن ألتقي أبداً إلا بهذا الصنف، ولكن هذا ما يؤسفني له،

ولن تستطيع أن تعرف كم من المرات ـ سأقول وا أسفاه! ـ برجال وجدوا في شيئاً من السحر، وكلفوا أنفسهم مشقة مؤثرة لابراز حماقتي، ولكنهم كانوا يعرفون كيف يلحقون بأصدقائهم في اللحظة التي يتعلق فيها الأمر بالأشياء الإنسانية الحقيقية (اللهم إلا إذا كانوا يبحثون ـ بالطبع ـ عن العزاء). ونزواتي شيء لازم لي، لا لكي أورقك فحسب، بل لكي تنصت إلي حين أتكلم، وحماقتي الفاتنة ألا فاعرف قيمتها! إنها تشبه رقتك. وإذا كان من الممكن للألم أن يتولد عن السيطرة التي تريدها أن تكون لك علي، فما أنت بفاطن إليه...

ولقد التقيت بما يكفي من الرجال لكي أعرف كيف ينبغي أن يكون رأيي في العلاقات العابرة: وما من شيء يمكن أن يخلو من الأهمية بالنسبة للرجل متى يتعلق هذا الشيء بكبريائه، والمتعة كلمة تسمح له بارضاء كبريائه بأسرع ما يمكن، وفي أغلب الأحيان. وإني لأرفض أن أكون مجرد جسد، كما ترفض أنت أن تكون مجرد دفتر شيكات، وإنك لتتصرف معي كما تتصرف العاهرات معك: «تكلم.. ولكن ادفع...» ...إني «أيضاً» ذلك الجسد الذي تريدني أن أكونه (فقط) وأنا أعلم ذلك. وليس من اليسير علي دائماً أن أدافع عن نفسي ضد الفكرة التي تدور في أذهان الآخرين عني. وحضورك يقربني من جسدي، في اغتباط، كما يقربني منه الربيع في ابتهاج. وبمناسبة الربيع، أرجو أن تسري عن نفسك بالعصافير.. كما أرجو أن تترك مفاتيح الكهرباء «في حالها» في المرة القادمة».

وأكد لنفسه أنه شق طرقاً، وحول بلاداً بأكملها، وانتزع آلاف الفلاحين من أكواخهم المصنوعة من القش وأسكنهم حول مصانعه في حجرات صغيرة من الصاج المعرج ـ تماماً كأمراء الإقطاع، وممثلي الامبراطورية. ومع ذلك فقد كان العصفور الأسود في قفصه يهزأ به. وكانت قوة فيرال، وصفاء ذهنه والجرأة التي حولت الهند الصينية من حال إلى حال، والتي جعلته الخطاب الذي تسلمه من أمريكا يشعر بثقلها الساحق.. كل هذا قد انتهى إلى هذا العصفور المضحك، وكأنه الكون كله، هذا العصفور الذي لا يأبه به بلا أدنى جدال: «أتمنح كل هذه الأهمية لامرأة؟»، ولم يكن الأمر يتعلق بالمرأة، فما هي إلا مجرد حجاب مد انتزع: وإنما المسألة أنه قد رمى بنفسه بكل قوته ضد حدود إرادته. وكان انفعاله الحسي الخائب يغذي غضبه، ويلقي به في حال من التخدير يهيب فيه المضحك بالدم، والانتقام لا يكون سريعاً إلا من الجسد. وكان كلابيك قد قص عليه قصة وحشية عن زعيم قبيلة أفغاني، اعتدى زعيم مجاور على امرأته وعادت إليه تحمل خطاباً جاء فيه: «أعيد إليك امرأتك، بعد أن تأكدت أنها ليست ممتعة كما يقال عنها». كما أن هذا الزعيم المعتدي على امرأته أوثقه أمامها وهي عارية وانتزع عينيه وهو يقول له: «لقد رأيتها واستمرأتها، والآن تستطيع أن تقسم إنك لن تراها أبداً». وتخيل نفسه في حجرة فالبري

وهي موثقة إلى السرير، صارخة صرخات أقرب إلى صيحات اللذة، مغلولة، وهي تتلوى تحت سيطرة الألم، ما دامت لا تفعل ذلك تحت سيطرة الجنس... وكان البواب ينتظر. «ينبغي أن أبقى جامداً بلا حراك كهذا الأبله، الذي أتلهف - مع ذلك - إلى صفعه صفعتين». غير أن هذا الأبله لم يبد عليه أي أثر لابتسامة ما. لعله سيضحك فيما بعد. وقال فيرال: «سأعود بعد لحظة»، ولم يدفع ثمن الكوكتيل، وترك قبعته، وخرج.

قال للسائق: «إلى أكبر تاجر للعصافير».

وكان هذا التاجر قريباً جداً. غير أن الحانوت كان مغلقاً.

قال السائق: «هناك في المدينة الصينية شارع لتجار العصافير».

- «هيا إليه».

وبينما كانت السيارة تتقدم في طريقها، استقر فكر فيرال على اعتراف قرأه في أحد كتب الطب - أدلت به امرأة مجنونة بالرغبة في أن تضرب بالسياط، وكانت قد ضربت موعداً لرجل مجهول بخطاب بعثت به إليه، ثم اكتشفت في ذعر أنها تريد الفرار في اللحظة التي كانت فيها راقدة على سرير الفندق وقد تسلح الرجل بالسوط وشل حركة ذراعيها تماماً تحت ملابسها التي رفعها عن ساقيها.. وكان الوجه مختفياً، ولكنه كان وجه فاليري.. هل يقف عند أول ماخور صيني في طريقه؟ كلا.. ما من جسد يستطيع أن يخلصه من كبريائه الجنسية الثائرة التي أمسى نهباً لها.

وتوقفت السيارة أمام الأسوار الشائكة. كانت قبالته المدينة الصينية، سوداء، غير مأمونة. فليكن. وغادر فيرال السيارة، ووضع مسدسه في جيب سترته، آملاً أن يهاجم، فالمرء يقتل حين تعرض له الفرصة.

وكان شارع تجارالحيوانات نائماً، فطرق الخادم في هدوء على أول مصراع، صائحاً «مشتر» ذلك أن التجار يخشون الجنود. وفتح الباب بعد خمس دقائق، وهناك في الظلال الحمراء الداكنة الفحمة التي تخيم على الحوانيت الصينية، وتحيط بمشكاة، أعلنت بعض نعرات القطط أو القرود المكنونة ورفيف الأجنحة استيقاظ الحيوانات. وفي الظلام، كانت بقع مستطيلة ذات لون وردي خافت: إنها ببغاوات مربوطة إلى عصي.

- «كم ثمن هذه العصافير جميعاً؟»

- «العصافير فقط؟ ثمانمائة من الدولارات».

وكان تاجراً صغيراً لا تملك طيوراً نادرة. وأخرج فيرال دفتر شيكاته وتردد قليلاً. إن هذا التاجر يريد نقوداً. وفهم الخادم فقال: «هذا هو مسيو فيرال، والسيارة تنتظر هناك». وخرج التاجر، فشاهد مصابيح السيارة، مشتبكة بالأسوار الشائكة

- «هذا حسن».

وكانت هذه الثقة التي تدل على ما يتمتع به من نفوذ، سبباً في إثارة ثائرة فيرال، ذلك أن دونه الواضحة، بدليل معرفة هذا التاجر الصغير باسمه - كانت خالية من كل معنى، ما دام لا يستطيع أن يستخدمها. ومع ذلك، فقد هرعت لنجدته كبرياؤه، تدعمها العملية التي يقوم بها، وأنعشه هواء الليل البارد فأخذ الغضب وأخذت الأخيلة السادية تتحلل إلى ضرب من التقزز، وإن كان يعلم أنه لم ينته منها تماماً.

قال التاجر: «إن لدي قنفذاً أيضاً».

فهز فيرال كتفيه. غير أن صبياً - قد استيقظ كذلك - كان قد وصل فعلاً حاملاً القنفذ بين ذراعيه. وكان القنفذ حيواناً ضئيل القامة، يكسوه جلد كالفراء، وجعل ينظر إلى فيرال بعينين أشبه بعيني غزال مذعور.

- «جميل».

وكتب شيكاً آخر.

وعاد فيرال متمهلاً صوب السيارة، ينبغي قبل كل شيء - إذا حكت فاليري حكاية القفصين - ولن يفوتها أن تحكيها - فيكفي أن يحكي نهاية القصة لكي يتجنب الاستهزاء. وحمل التاجر والصبي والخادم الأقفاص الصغيرة، ووضعوها في السيارة، وعادوا لحمل أقفاص أخرى، وفي النهاية حملوا القنفذ والببغاوات في أقفاص صغيرة مستديرة. وهناك، فيما وراء المدينة الصينية، دوت بضع طلقات. حسن جداً.. كلما تقاتلوا، كان ذلك أفضل. وواصلت السيارة سيرها تحت أعين الحراس المبهورة.

وفي محل «أستور»، استدعى فيرال المدير.

- «أرجو أن تتكرم بالصعود إلى حجرة مدام سرجي.. إنها غائبة، وأريد أن أعد لها مفاجأة».

وأخفى المدير دهشته، بل استنكاره أيضاً: فقد كان محل «أستور» يعتمد على أموال الاتحاد. وكان مجرد وجود رجل أبيض يتحدث إليه فيرال، قد انتزعه من عالم المهانة التي تغمره، وأعانه على أن يعود وسط «الآخرين». وكان التاجر الصيني والليل قد تركاه بين أفكاره المسيطرة عليه، وهو وإن لم يكن قد تخلص منها تماماً الآن، فإنها على الأقل لم تعد مسيطرة عليه وحدها.

ولم تكد تمضي خمس دقائق، حتى كان قد وضع الأقفاص في الحجرة. وكانت الأشياء التمينة كلها مرتبة في الدواليب، وكان أحدها غير مغلق، والقاول «البيجاما» منشورة على السرير

ليرميها داخل الدولاب، ولكنه ما كاد يلمس الحرير الدافئ حتى بدا له أن هذا الدفء قد سرى عبر ذراعه إلى جسده كله، وأن هذا الحرير الذي يضمه قد غطى نهدها تماماً، وكانت الأثواب والبيجامات المعلقة في الدولاب المتفرج تحتفظ بشيء أكثر حسية من جسد فاليري نفسها. وكاد يمزق هذه الثياب التي ما زالت مشبعة بحضورها. ولو كان يستطيع أن يحمل البيجاما معه، لحملها.. ولكنه ألقى بها في الدولاب، الذي أغلق الخادم بابه. وفي اللحظة التي فارقت فيها البيجاما يده، غزت خياله فجأة أسطورة هرقل وأومفال، وتبدى له هرقل مرتدياً ثوب امرأة، ثوباً ليناً دافئاً كهذه البيجاما، مهيناً راضياً بهوانه. وعبثاً حاول أن يستحضر المشاهد السادية التي سيطرت عليه منذ لحظة: غير أن الرجل الذي صورته أومفال وديجانير ظل جاثماً على تفكيره كله، مغرقاً إياه في تلذذ ذليل. واقترب من سمعه وقع خطوات.. فوضع يده على مسدسه القابع في جيبه، فلو أنها دخلت هذه اللحظة، لقتلها بلا شك. غير أن وقع الخطوات ضعف، متجاوزاً الباب. فأخرج فيرال يده من جيبه، ووضعها في جيب آخر تناول منه منديله في عصبية. كان لا بدّ أن يتصرف ـ على أي نحو كان ـ حتى يتخلص من هذه المشاعر، فأطلق البيغاوات، بيد أن الطيور المذعورة لاذت بالأركان وبالستائر. وقفز اثنان على السرير، ومكث هناك. وأطفأ فيرال المصباح الرئيسي، ولم يترك سوى المصباح "...". فشرعت البيغاوات في الطيران بألوانها الوردية والبيضاء، وهي تحرك أجنحتها المقوسة المرتكشة حركات رائعة فبدت أشبه بحقاوات شركة الهند الشرقية، محدثة ضجة خشنة قلقة.

وكانت هذه الأقفاص المملوءة بالطيور المضطربة، والموضوعة بلا نظام على قطع الأثاث كلها، وعلى الأرض، وعلى المدفأة، تضايقه. وحاول أن يقرر أمراً بشأنها، ولكنه لم يصل إلى شيء فانصرف. ثم عاد، فأدرك في الحال: إن الحجرة تبدو كالمنهوبة.. هل ينجو من ارتكاب الحماقات هذه الليلة؟ لقد ترك، على الرغم منه، صورة ساطعة لغضبه في هذه الحجرة.

قال للخادم: «افتح الأقفاص». فقال المدير:

ـ «سوف تتسخ الحجرة يا مسيو فيرال».

ـ «تستطيع مدام سرجي أن تغيرها. اهدأ.. فلن يحدث ذلك الليلة.. وابعث إليّ عشائيا».

ـ «وهل تريد زهوراً يا مسيو فيرال؟».

ـ «لا شيء سوى الطيور. ولا تدع أي شخص يدخل هنا.. حتى الخدم».

وكان على النافذة، لدرء البعوض، ستار معدني، فلن تستطيع الطيور الفرار. وفتح المدير مصراعي النافذة حتى لا تمتلئ الحجرة برائحة الحيوان.

والآن، أخذت طيور الجزائر تحوم على قطع الأثاث والستائر وفي أركان السقف، [illegible]لة اللون في هذا النور الخافت وكأنها طيور الفريسكات الصينية. وهكذا قدم لفاليري [illegible]دايع من الحقد ـ أجمل هداياه. وأطفأ النور، ثم أضاءه، وأطفأه، ثم أضاءه مرة أخرى، [illegible]ستخدم لذلك مفتاح أباجورة السرير، وتذكر الليلة الأخيرة التي قضاها مع فاليري في [illegible]له. وود لو ينتزع هذا المفتاح حتى لا تستطيع استخدامه بعد ذلك أبداً.. مع أي شخص [illegible]. ولكنه لم يكن يريد أن يترك وراءه أي أثر ينم عن الغضب.

قال للخادم: «احمل الأقفاص الخالية.. واحرقها».

وتساءل المدير وهو ينظر إلى فيرال في إعجاب: «وإذا سألت مدام سرجي عمن بعث ... الطيور، فهل أخبرها؟».

ـ «إنها لن تسأل.. لأنها ستتعرف على التوقيع».

وانصرف.. ينبغي أن يضاجع الليلة أية امرأة.. ومع ذلك، لم يشعر برغبة في أن يذهب [illegible] إلى المطعم الصيني.. وكان يكفيه ـ مؤقتاً ـ أنه على يقين من وجود أجساد تحت [illegible]. وقد كان يحدث في كثير من الأحيان أن يوقظه كابوس من نومه قفزاً من السرير، ولكن كانت تستولي عليه رغبة في أن يعود إلى النوم على الرغم من الكابوس الذي يجده [illegible]. كما تستولي عليه في الوقت نفسه رغبة في التحرر من هذا الكابوس بأن يصحو تماماً، والنوم معناه الكابوس، ولكن الكابوس يعني أيضاً العودة إلى نفسه، واليقظة معناها [illegible]، ولكنها تعني أيضاً الرجوع إلى العالم. وكان الجنس في هذه الليلة هو الكابوس، [illegible] عزمه أخيراً على الاستيقاظ فطلب من السائق أن يتوجه به إلى المنتدى الفرنسي: [illegible] وإنشاء علاقات مع إنسان، حتى ولو كان ذلك عن طريق الحديث، هو أشد [illegible] اليقظة يقيناً.

وكان المشرب زاخراً بالناس، وهذا ما يحدث دائماً في أوقات الاضطرابات. وعلى [illegible] النافذة الموازية، جلس جسور وحيداً منعزلاً أمام كأس من الكوكتيل الحلو، [illegible] عادة من الصوف البني الفاتح فوق كتفيه، وكان كيو قد اتصل تليفونياً [illegible] شيء يسير على ما يرام، فسعى [illegible] إلى المشرب بحثاً عن الشائعات المنتشرة، والتي [illegible] سخيفة، ولكنها لا تخلو في بعض الأحيان من الدلالة. ولكنها لم تكن اليوم [illegible] إليه فيرال [illegible] ... وكان يعرف طلعة محاضراته، ولكنه لم

يكن يعيرها أية أهمية. كما كان يجهل وجود كثير حالياً في شنغهاي. وكان يعتقد أن من الوضاعة أن يسأل مارسيال عن أشخاص معينين. فضلاً عن ذلك، لم يكن للدور الذي يقوم به كبير أي طابع عام.

إن هؤلاء الحمقى جميعاً، الذين ينظرون إليه في استهجان وجل، يعتقدون أن الأفيون هو معقد الصلة بينه وبين جيسور العجوز، وهم في ذلك مخطئون. وتظاهر فيرال بأنه يدخن غليوناً أو غليونين، أي أقل دائماً من الأنفاس اللازمة لكي يشعر بتأثير الأفيون - وذلك لأنه كان يرى في جو قاعة التدخين، وفي الغليون الذي ينتقل من فم إلى آخر، وسيلة للتأثير على النساء. وكان يجزع من عملية الغزل التي ينبغي أن يقوم بها، ومن المساومة التي تجعل من الاهتمام الذي يبديه بامرأة، ثمناً لما تقدمه له من متعة، ولهذا فقد كان يقبل متلهفاً أية فرصة تغنيه عن هذه الضرورة.

أما المزاج الذي كان يدفعه للذهاب أحياناً إلى بكين لمشاركة جيسور العجوز في التمدد على أريكته، فكان أشد من ذلك تعقيداً. ويأتي حبه للفضيحة في المرتبة الأولى، ثم رغبته في ألا يكون مجرد رئيس للاتحاد فحسب، بل أن يكون متميزاً بأفعاله عن هذا المنصب، وهي وسيلة للاعتقاد بأنه أعلى منه. وقد كان تذوقه الذي يكاد يكون عدوانياً للفن والفكر، والاستهتار الذي يسميه صفاء في الفكر.. كان هذا كله مجرد دفاع! فهو لم يتحدر من «الأسر» المهيمنة على المؤسسات المالية الكبيرة، أو على الحركة العامة للأموال، أو على التفتيش على أموال الدولة. وكانت أسرة «فيرال» مرتبطة أشد الارتباط بتاريخ الجمهورية بحيث لا يمكن أن يدرجه القوم في عداد الانتهازيين، ومع ذلك فإنه ما برح هاوياً، أياً كان نفوذه. ولما كان أبرع من أن يحاول ردم الفجوة التي تحيط به، فإنه يعمل على توسيعها. وكانت ثقافة جيسور الواسعة، وذكاؤه الذي يضعه دائماً في خدمة محدثه، وازدراؤه التقاليد، ووجهات نظره الفريدة دائماً التي لا يتوانى فيرال عن أن ينسبها إلى نفسه حين يغادره.. كانت هذه الأشياء جميعاً تعمل على التقريب بينهما، أكثر مما تعمل بقية العناصر الأخرى على التفرقة بينهما. وكان جيسور لا يتكلم في السياسة مع فيرال إلا على مستوى الفلسفة، وقد اعتاد فيرال أن يقول إنه في حاجة إلى الذكاء، وكان هذا صحيحاً ما لم يصدمه هذا الذكاء.

ونظر حواليه. ففي اللحظة التي جلس فيها، اتجهت إليه الأنظار كلها تقريباً. وقد كان على استعداد لأن يتزوج من طاعته هذا النساء لمجرد أن يفرضها على هذا الجمع. وكان يتمنى أن يحكم هؤلاء الحمقى على ما يفعل، وكلما قلت رؤيته لهم، كان ذلك أفضل!

ولهذا اقترح جيسور أن يشربا في الشرفة، التي تطل على الحديقة.. وكان الخدم قد أخرجوا شمع مناضد على الرغم من برودة الجو.

وسأل جيسور: «هل تعتقد أنه من الممكن أن نعرف.. نعرف كائناً حياً؟»

وكانا قد استقرا بجوار مصباح صغير، تتبدد هالته في ظلمة الليل التي أخذ الضباب يملؤها شيئاً فشيئاً.

ونظر إليه جيسور وقال لنفسه: «إنه ما كان يجد في نفسه هذا الميل إلى علم النفس لو كان يستطيع أن يفرض إرادته».

وسأله: «امرأة؟».

- «وما أهمية ذلك؟»

- «إن الفكر الذي يجتهد لفهم امرأة ينطوي على شيء من العشق.. والرغبة في أن نعرف امرأة ما هي إلا طريقة لامتلاكها أو للانتقام منها..»

وكانت عاهر صغيرة تقول لأخرى، حول المائدة المجاورة: «إنها لا تستطيع أن تفعل ذلك بهذه السهولة.. إني أقول لك، إنها امرأة تغار من فتنتي».

واستأنف جيسور كلامه قائلاً: «إني أعتقد أن اللجوء إلى الذكاء يحاول تعويض هذا (...) في معرفة كائن ما عاطفة سلبية، والعاطفة الإيجابية، الواقع، هي الشعور بأن المرء غريب (...) عمن يحبه».

- «وهل من الممكن أن نحب يوماً؟»

- «الزمن يخفي أحياناً هذا القلق.. الزمن وحده. إننا لا نعرف أبداً كائناً ما، ولكن قد يراودنا أحياناً الشعور بأننا نجهله (إني أفكر في ابني.. أليس كذلك.. وفي صبي آخر أيضاً) المعرفة بواسطة العقل هي المحاولة الباطلة للتغاضي عن الزمان..»

- «ليست وظيفة العقل أن يتغاضى عن الأشياء».

فتطلع إليه جيسور: «ماذا تعني: بالعقل؟»

- «بوجه عام؟»

- «أجل».

وفكر فيرال، ثم قال:

- «امتلاك الوسائل لقهر الأشياء أو الناس».

وابتسم «جيسور» ابتسامة غير ملحوظة، ففي كل مرة يطرح هذا السؤال، يجيب محدثه أياً كان - إجابة هي صورة رغبته الحقيقية، أو صورته في نظر نفسه، غير أن نظرة فيرال أصبحت أشد مرارة.

وسأل: «هل تعرف العقاب الذي كان يوقع على المرأة التي تسوء سيدها، هنا، في عهد الأمبراطوريات الأولى؟».

- «كانت هناك عقوبات كثيرة. أليس كذلك؟ ويبدو ان العقاب الرئيسي كان تقييد المرأة إلى رجل، بعد قطع أيديها، وانتزاع عينيها، على ما أعتقد، ثم...».

وفي أثناء كلامه، كان جيسور يلاحظ الانتباه المتزايد، بل الرضا الذي كان فيرال يحس به.

- «... ثم تركها تطفو فوق تلك الأنهار التي لا تنتهي حتى تموت جوعاً أو تعباً، وقد عشيقها إلى جانبها».

- «عشيقها؟».

كيف يمكن التوفيق بين هذه اللامبالاة التي ألقى بها السؤال، وبين هذا الانتباه، وهذه النظرة؟ ولم يكن جيسور يستطيع أن يخمن خلو ذهن فيرال من العاشق، ولكنه كان قد استدرك نفسه.

واستطرد قائلاً: «وأغرب ما في الأمر هو أن هذه العقوبات الوحشية قد صاغ نصوصها حتى القرن الرابع فيما يبدو - حكماء إنسانيون طيبون، وفقاً لما نعرفه عن حياتهم الخاصة...».

- «أجل. لا شك أنهم كانوا حكماء».

وتطلع جيسور إلى هذا الوجه الحاد ذي العينين المغمضتين، يضيئه من أسفل المصباح الصغير، وقد تعلق شعاع من النور بشاربه. طلقات الرصاص تدوي من بعيد.. كم من حيوات يتقرر مصيرها في هذا الضباب الليلي؟ ونظر إلى هذا الوجه المتوتر في مرارة بسبب مهانة صادرة من أعماق الجسد والروح، وهو يدافع عن نفسه ضد هذه المهانة بكل ما أوتي من قوة زهيدة هي الحقد الانساني. وكان فوق الحقد ذلك البغض الذي يضمره كل من الجنسين للآخر كما لو كان على أقدم أنواع الكراهية أن تتولد من جديد عن هذه الدماء التي ما برحت تسيل فوق هذه الأرض.

طلقات رصاص من جديد، قريبة جداً هذه المرة بحيث جعلت الأكواب تهتز على المائدة.

وكان «جيسور» قد اعتاد سماع طلقات الرصاص هذه التي تأتي كل يوم من المدينة الصينية، وعلى الرغم من بكائه «كيو» المفقودة، فان هذه الطلقات أقلقته فجأة. وكان يجهل مدى الدور السياسي الذي يلعبه فيرال، بيد أن هذا الدور لا يمكن إلا أن يكون في

خدمة تشانج - كاي - شيك. ورأى من الطبيعي أن يكون جالساً إلى جواره فلم يكن يجد نفسه متواطئاً أبداً، حتى مع نفسه - ولكن رغبته في معاونته قد انقطعت. طلقات رصاص من جديد، أبعد هذه المرة.

وسأل: «ماذا يجري؟».

- «لا أدري.. بيد أن الزعماء الزرق والحمر قد أصدروا معاً إعلاناً عظيماً بالاتحاد. ويبدو أنه يسير على ما يرام».

وقال جيسور: «إنه يكذب. فلا بد أن يكون على علم بما أعلمه أنا على الأقل».

وأردف فيرال: «وسواء أكانوا من الحمر أم من البيض، فإن الكاذبين سيظلون كاذبين.. اللهم إلا إذا ماتوا. ألا ترى أن من الغباوة التي يتسم بها الجنس البشري أن يفقد الانسان الذي لا يملك سوى حياة واحدة - هذه الحياة من أجل فكرة؟».

- «من النادر أن يستطيع إنسان.. كيف أعبر؟ احتمال وضعه كانسان...».

وجال بخاطره رأي من آراء كيو: فكل ما يقبل الناس أن يموتوا في سبيله، متجاوزين الانتفاع، يتجه في غموض - قل أو كثر - إلى تبرير ذلك الوضع بتأسيسه على الكرامة، وهكذا كانت المسيحية بالنسبة للعبد، والأمة بالنسبة للمواطن، والشيوعية بالنسبة للعامل.

ولكنه لم يكن يود أن يناقش أفكار كيو مع فيرال. وعاد مرة أخرى إلى جليسه فقال:

- «لا بدّ أن يتعاطى الإنسان مخدراً دائماً: الأفيون في هذه البلاد، والحشيش في بلاد الاسلام، والمرأة في الغرب... وربما كان الحب هو على وجه الخصوص الوسيلة التي يستخدمها الغربي للتحرر من وضعه كإنسان...».

وتحت أقواله، كان يتسرب تيار مضاد، تختلط فيه الوجوه وتحتجب: «تشن» وجريمة القتل، كلابيك وجنونه، كاتوف والثورة. ماي والحب، هو والأفيون.. أما كيو.. فكان وحده الذي يقاوم هذه المجالات.

وأجاب فيرال: «لن ينام سوى عدد أقل كثيراً من النساء، لو أنهن استطعن الحصول وهن واقفات على عبارات الاعجاب التي يجنحن إليها، والتي تقضي عليهن بالذهاب إلى الفراش».

- «وكم من الرجال يصدق عليهم أيضاً هذا القول؟».

- «ولكن الرجل يستطيع - بل يجب عليه - أن يستغني عن المرأة. العمل، والعمل وحده هو الذي يبرر الحياة، ويرضي الرجل الأبيض. ماذا نظن إذا حدثونا عن مصور عظيم لا يصنع لوحات؟ إنما الرجل مجموع أفعاله. مجموع ما أتى من أفعال، وما يستطيع أن يفعل

ولا شيء خلاف ذلك. ولست ما يصوغه من حياتي هذا اللقاء بتلك المرأة أو بذلك لرجل. إنني سبيل...»

ـ «ينبغي أن تكون السبل موجودة من قبل...»

وكان جيسور قد اعتزم ـ منذ أن تناهت إليه طلقات الرصاص الأخيرة ـ أن يكف عن القيام بدور المبرر.

ـ «إن لم يكن بيدك، فسيكون ذلك بيد غيرك... والأمر أشبه بقائد يقول: بجنودي أستطيع أن أضرب المدينة. ولكنه، لو كان قادراً على ضربها، لما كان قائداً.. وفضلاً عن ذلك، فربما كان الرجال لا يكترثون بالسلطان.. وما يفتنهم في هذه الفكرة، ليس هو القدرة الحقيقية، بل ما يتوهمون أنه سيجلب لهم سرور التصرف على هواهم. إن قوة الملك هي أن يحكم. أليس كذلك؟ غير أن الإنسان لا يتوق إلى أن يحكم، وإنما يود أن يقهر كما قلت أنت.. أي أن يكون أكثر من إنسان.. في عالم الناس. إنه الإفلات من الوضع الإنساني كما قلت لك.. أي ألا يكون قوياً فحسب، بل قادراً على كل شيء. والمرض الوهمي الذي ليست إرادة القوة غير تبريره العقلي هو إرادة الألوهية.. فكل إنسان يحلم بأن يكون إلهاً».

وكان ما يقوله «جيسور» يزعج فيرال، غير أن روحه لم تكن مهيأة لاستقباله. وإذا لم يحمل الشيخ على تبريره، فلن يجد خلاصاً من فكرته المسيطرة عليه:

ـ «لماذا إذن لا ينال الآلهة ـ في رأيك ـ النسوة الغانيات إلا إذا اتخذوا صوراً إنسانية أو حيوانية؟».

وأحس جيسور ـ وكأنه رأى رؤية العين ـ بأن غلاً قد استقر إلى جوارهما، وكان فيرال قد نهض.

قال جيسور دون أن ينظر إليه: «أنت في حاجة إلى استخدام ما هو جوهري في نفسك، لكي تشعر شعوراً أعنف بالوجود».

ولم يكن فيرال يصل في تخمينه إلى أن نفاذ رأي جيسور يأتي من أنه يتعرف في تحديثه على أجزاء من شخصيته هو، وأنه من الممكن تكوين أدق صورة عنه بجمع تلك النماذج من فهمه الثاقب.

واستطرد الشيخ قائلاً بابتسامة واهنة: «الإله يستطيع أن يملك. ولكنه لا يستطيع أن يفهم. والمثل الأعلى لإله ما، هو أن يصبح إنساناً مع علمه بأنه يستطيع الرجوع إلى قدرته، وحلم الإنسان هو أن يصبح إلهاً دون أن يفقد شخصيته».

ينبغي ـ بكل تأكيد ـ أن يضاجع امرأة.. وانصرف فيرال.

وقال جيسور لنفسه: «حالة غريبة من خداع الذات المتواصل.. ولعله يتصور نفسه هذا المساء ـ من حيث الجنس ـ كما يتصور أي بورجوازي رومانتيكي صغير». وحين اتصل جيسور ـ بعد الحرب بقليل ـ بالقوى الاقتصادية في شنغهاي، لم يكن اندهاشه قليلاً إذ رأى أن فكرته التي كونها عن الرجل الرأسمالي لا تطابق أي شيء.. ذلك أن جل من التقى بهم حينئذ كانوا قد حددوا حياتهم العاطفية بصورة أو بأخرى، وكانت هذه الصورة دائماً هي صورة الزواج: فالفكرة المسيطرة التي تصنع رجل الأعمال الكبير، حين لا يكون وربما قابلاً للاستبدال، لا تتلاءم مع التشتت الغرامي. وكان يشرح هذه المسألة لطلابه قائلاً: «إن الرأسمالية الحديثة إرادة تنظيم أكثر منها إرادة قدرة...».

وكان فيرال يفكر ـ وهو في سيارته ـ في أن علاقاته بالنساء كانت دائماً واحدة، ولا معنى لها... وربما كان قد أحب، ذات يوم.. في الزمان الغابر. من هو هذا العالم النفساني المخمور الغافل الذي اخترع تسمية العاطفة التي تسمم حياته الآن بالحب؟ الحب، فكرة مستبدة مبالغ فيها. إن نساءه يسيطرن عليه.. أجل ـ سيطرة الرغبة في الانتقام. إنه يلجأ إلى النساء للحكم عليه.. وهو الذي لا يقبل أي حكم. والمرأة التي تعبر عن إعجابها به بأن تمنحه نفسها، ودون أن يناضلها، لا وجود لها بالنسبة له.. ولم يكن أمامه سوى المومسات والعاهرات. وحسن الحظ، كانت ثمة أجساد.. وإلا.. «ستموت يا عزيزي دون أن تفطن إلى أن المرأة كائن إنساني..» ربما كان ذلك بالنسبة لها.. لا بالنسبة له. المرأة كائن إنساني. إنها مجرد راحة، رحلة، عدو..

وأخذ ـ في طريقه ـ غانية من أحد بيوت طريق نانكين: فتاة ذات وجه رشيق عذب.. وجلست إلى جواره في السيارة، وقد أسندت يديها في رزانة على قيثارتها، فبدت كتمثال صغير من تماثيل «تانج». ووصلا أخيراً إلى منزله. وصعد درجات السلم أمامها، وقد تحولت خطوته الطويلة المعتادة إلى خطوة متثاقلة. وحدث نفسه قائلاً: «هيا.. إلى النوم». النوم هو السلام. لقد عاش، وناضل، وخلق.. وتحت هذه المظاهر كلها، في أعمق أعماق نفسه، كان يجد هذه الحقيقة الوحيدة، بهجة الانسلاخ والتخلي على الشاطئ ـ كما يتخلى المرء عن جسد رفيق غريق ـ عن هذا الكائن الذي هو نفسه والذي عليه أن يبعث فيه حياة جديدة كل يوم. «إنما النوم هو الشيء الوحيد الذي تمنيته دائماً، في الواقع، منذ سنين عديدة..»

وماذا ينتظر أفضل من هذا النوم الذي تحمله له تلك المرأة الشابة ذات النعل الرنان من خلفه في كل خطوة تخطوها على درجات السلم؟ ودخلا حجرة التدخين: حجرة صغيرة

ذات متكئات مغطاة بسجاجيد من منغوليا، صنعت للاغراء الحسي أكثر منها للاسترسال في الأحلام. وعلى الجدران، لوحة كبيرة من المرحلة الأولى للمصور «كاما» ورواية من الـ... ووضعت المرأة قيثارتها على أريكة. وكانت هناك على الصينية آلات تدخين الأفيون القديمة، ذات مقابض من اليشب، محلاة ولكنها غير عملية، فإن صاحبها يقتنيها. ومدت يدها نحوها، فأوقفها بحركة منه. وانبعثت من بعيد طلقة رصاص جعلت الابر تهتز فوق الصينية.

- «هل تريد أن أغني؟».
- «ليس الآن».

ونظر إلى جسدها الذي يخفيه ويتم عنه في آن واحد ذلك الثوب الضيق المصنوع من الحرير البنفسجي الذي كانت ترتديه. وكان يعرف أنها مندهشة. فقد جرت العادة ألا يضاجع المرء غانية إلا إذا غنت، وتحدثت، وقدمت الطعام، أو أعدت الغليون. وإلا، فلماذا لم يلجأ إلى المومسات؟
- «ألا تريد أن تدخن أيضاً؟».
- «كلا... اخلعي ملابسك».

وكان يعلم أنه ينكر كرامتها، وكان يود أن تتجرد من ملابسها في الحال، ولكنه كان يعلم أنها سترفض. ولم يترك مضيئاً سوى مصباح ساهر واحد. وتناجى نفسه قائلاً: «العشق، هو مذلة للذات أو للآخر، أو ربما للاثنين معاً... إنه فكرة، بكل وضوح». ومهما يكن من أمر، فهي أشد إثارة على هذا النحو، بهذا القميص الصيني الملتصق بجسدها. ولكنها لم تكن بالبكاء تثيره، أو لعله لا ينفعل إلا بخضوع هذا الجسد الذي ينتظره، على حين لا يحرك هو ساكناً... كانت لذته تنبثق من أنه يضع نفسه مكان «الأخرى»... هذا واضح: مكان الأخرى... المقهورة، المقهورة بواسطته. والخلاصة أنه لا يضاجع أبداً إلا نفسه، ولكنه لا يستطيع أن يصل إلى هذه النتيجة إلا بشرط ألا يكون بمفرده. وفهم الآن ما ذهب إليه ظن جيسور: أجل إن إرادة القدرة عنده لا تبلغ موضعها أبداً ولا تعيش إلا على تجديده ولو أنه لم يمتلك في حياته إمرأة واحدة قط، فقد امتلك، وسيمتلك من خلال هذه المرأة الصينية التي تنتظره، الشيء الوحيد الذي يتحرق شوقاً إليه، وهو نفسه. إنه في حاجة إلى عيون الآخرين لكي ينظر إلى نفسه، وإلى حواس امرأة أخرى لكي يحس بنفسه وتطلع إلى الصور ال... وثبت نظره عندها دون أن يعرف لماذا: على ... لا لون له يضرب فيه جماعة من المسافرين، كان هيكلان من العظام متشابهان ... متعانقان في ... والقرب من المرأة

الساعة العاشرة والنصف

قال تشن لنفسه: «جيدا لو لم تتأخر السيارة أكثر من ذلك... ففي العتمة الكاملة لن يكون واثقاً من تسديد ضربته، وستطفأ مصابيح الشارع الأخيرة بعد لحظات. وكان ليل الصين الموحش - الصين المليئة بحقول الأرز والمستنقعات - قد استولى على الشارع شبه المهجور، وأخذت الأضواء الخافتة المنبعثة من شقوق المصاريع الموارية، عبر الزجاج المغلق، تنطفئ واحداً إثر الآخر. كما تعلقت الأشعة الأخيرة بالقضبان المبللة، وبعوازل التلغراف، وجعلت تضعف دقيقة بعد أخرى، ولم يعد تشن يراها إلا على الاعلانات العمودية المغطاة بحروف مذهبة. وكانت هذه الليلة التي يغشاها الضباب هي ليلته الأخيرة، وكان بها راضياً. لقد اعتزم أن ينفجر مع العربة، في لمحة كالبرق تضيء لحظة هذا الشارع البغيض، وتغطي جداراً برشاش الدماء. وخطرت له أقدم أسطورة صينية ومؤداها أن الناس هم ديدان الأرض... ينبغي أن يصبح الارهاب نزعة صوفية. العزلة أولاً، وليتخذ الارهابي قراره بمفرده، وينفذه بمفرده، فإن قوة البوليس مصدرها الخيانة، والقاتل الذي يتصرف وحده لا يخاطر بإفشاء سره. والعزلة أخيراً، وإن كان من الصعب على من يعيش خارج العالم ألا يبحث عن أقرانه. وكان تشن يعرف الاعتراضات التي تقوم في وجه الإرهاب، وتتلخص في الاضطهاد البوليسي للعمال، واللجوء إلى الفاشية. بيد أن الاضطهاد لا يمكن أن يكون أعنف مما هو الآن، والفاشية لا يمكن أن تكون أوضح. وربما كان هو وكيو يفكران في فئتين مختلفتين من الناس. فما الأمر أمر الابقاء على أفضل الناس المسحوقين في طبقتهم لتخليصها مما هي فيه، وإنما إعطاء معنى لانسحاقهم هذا نفسه: بأن يكون كل منهم مسئولاً وقاضياً على حياة سيد من السادة. إعطاء معنى مباشر للفرد الذي يعيش بلا أمل، ومضاعفة الاغتيالات لا بوساطة تنظيم، ولكن بوساطة فكرة: أي الاستكثار من الشهداء. وسوف يبعث الناس لـ «لي» حين يكتب، لأنه - أي تشن - سوف يموت: إنه يعرف الوزن الذي تكتسبه فكرة ما نتيجة للدماء المبذولة في سبيلها. وكل ما كان هذا فكرته المصممة كان يتحلل في الليل الذي يخفي وراءه تلك السيارة التي لن تلبث أن تصل بعد قليل... وكان الضباب - يغذيه الدخان المنبعث من البواخر - يحطم في أعماق الشارع شيئاً فشيئاً - الأرصفة التي لم تخل تماماً، فقد كان ثمة بعض السابلة المتعجلين يسير الواحد منهم وراء الآخر دون أن يتجاوزه إلا نادراً، وكأن الحرب قد فرضت على المدينة نظاماً صارماً. وكان الصمت العام الذي يخيم على سيرهم يضفي على اضطرابهم طابعاً يكاد يكون حالماً... ما كانوا يحملون متاعاً أو سلالاً، أو يدفعون أمامهم عربات صغيرة، فلعل نشاطهم هذه الليلة كان بلا هدف. ونظر «تشن» إلى جميع هذه الظلال التي تسري دون

جلة صوب النهر ، في حركة دائمة لا تفسير لها ، أليس هذا هو القدر بعينه ، هذه القوة التي تدفعهم إلى الطرف الآخر من الطريق ، هناك حيث يبدو القوس المضيء باللافتات التي توشك ألا تظهر أمام ظلمات النهر ـ كأنه باب الموت نفسه ؟ وكانت تلك الحروف الضخمة الغائصة في أفق مضطرب ، تضيع في ذلك العالم الفاجع الغائم كما تضيع في حقب الزمان ، وكأنما كان النفير العسكري لسيارة تشانج ـ كاي ـ شيك الذي بدأ يتردد في صوت مكتوم في مؤخرة الشارع شبه المهجور ـ آتياً هو أيضاً من الأزمنة البوذية ، لا من هيئة أركان الحرب . وضغط تشن على القنبلة تحت ذراعه في شيء من العرفان بالجميل ، وكانت المنارات وحدها هي التي تخترق الضباب . وفي الحال ، ظهرت السيارة كلها فجأة ، تتقدمها السيارة الفورد المخصصة للحراسة ، وخيل إلى تشن للمرة الثانية أن السيارة تتقدم بسرعة غير عادية . وفجأة سدت الشارع ثلاث من عربات الجر ، فهدأت السيارتان من سرعتهما . وحاول تشن أن يعاود السيطرة على نفسه . وكان ارتباكه قد تشتت فعلاً . ومرت الفورد ، ووصلت السيارة : سيارة أمريكية ضخمة ، تعلق بسلميها رجلان من البوليس . وكانت تبدو من القوة بحيث أحس تشن أنه لو لم يتقدم وانتظر ، فسوف يتنحى عن طريقها على الرغم منه . وتناول قنبلته من مقبضها كأنها زجاجة لبن ، وكانت سيارة الجنرال ضخمة ، على بعد خمسة أمتار .. وجرى نحوها في سرور منتش ، وقذف بنفسه تحتها ، مغمض العينين .

وعاد إلى صوابه بعد عدة لحظات ، لم يحس ولم يسمع قرقعة العظام التي كان ينتظرها ، ولكنه غاص في كرة باهرة الضوء ولم تعد تغطيه سترته . وبيده اليمنى كان يمسك قطعة من غطاء السيارة مليئة بالوحل والدماء .. وعلى بعد بضعة أمتار كومة من الرماد الأحمر ، طبقة من الزجاج المسحوق يتألق فيها شعاع أخير من النور .. ومن .. ولم يعد يميز شيئاً ؛ وأحس بألم ، سرعان ما تجاوز في طرف ثانية منطقة الوعي . ولم تعد رؤيته واضحة ، ومع ذلك ، شعر بأن المكان ما برح مهجوراً ، هل يخشى رجال البوليس قنبلة ثانية ؟ كان يتألم بجسده كله ، ألماً لا سبيل إلى تحديد موضعه ؛ وأصبح كله ألماً . ثمة شخص يقترب . وتذكر أنه ينبغي عليه أن يخرج مسدسه . وحاول أن يبلغ جيب سرواله .. لا جيب ، ولا سروال ، ولا ساق ، وإنما لحم مفري . المسدس الآخر ، في جيب قميصه . لقد طارت فتحته ، فأمسك بالسلاح من فوهته ، وأداره دون أن يعرف كيف اداره ، ورفع بالغريزة ترس الأمان بسبابته . وأخيراً فتح فمه . كان كل شيء يدور بطريقة متمهلة قاهرة وفقاً لدائرة واسعة ، ومع ذلك لم يكن لشيء وجود سوى الألم . وكان رجل من رجال البوليس قريباً منه . وأراد تشن أن يسأل ما إذا كان تشانج ـ كاي ـ شيك قد مات ، ولكنه كان يريد ذلك في عالم آخر ، ففي هذا العالم ، لم يعد ذلك الموت يعنيه في شيء .

وبكل قوته ، ركله رجل البوليس في جنبيه ركلة أدارته . فصرخ تشن ، وأطلق مسدسه إلى الإمام جزافاً ، وضاعفت هذه الهزة من ألمه الذي يعتقد أنه لا قرار له . وكان على وشك أن يفقد صوابه أو أن يموت . وبذل أقصى مجهود في حياته ، بأن توصل إلى إدخال فوهة المسدس في فمه . وتوقع أن تكون الهزة الجديدة أشد ألماً من الأولى ، فلم يبد حراكاً ، وانقبضت عضلاته جميعاً نتيجة لركلة غاضبة من كعب رجل آخر من رجال البوليس ، فأطلق النار دون أن يلحظ شيئاً .

الجزء الخامس

الساعة الحادية عشرة والربع

سارت السيارة ـ عبر الضباب ـ في الممشى الرملي الطويل الذي يؤدي إلى بيت من بيوت الميسر. وقال « كلايك » لنفسه: « لدي وقت للصعود، قبل أن أذهب إلى « القط الأسود ». وكان مصراً على ألا يفوته كيو، بسبب النقود التي كان ينتظرها منه، ولأنه ربما لم يكن مقبلاً هذه المرة على تنبيهه إلى خطر فحسب، بل على إنقاذه. وكان قد حصل دون عناء على المعلومات التي طلبها منه كيو: فقد كان المخبرون يعلمون أن الأوامر قد صدرت إلى قوات تشانج ـ كاي ـ شيك الخاصة بالتحرك في الساعة الحادية عشرة، وأن اللجان الشيوعية ستحاصر جميعاً. ولم يعد الأمر مقصوراً على ترديد: « رد الفعل وشيك الوقوع »، بل كان « لا تذهب هذا المساء إلى أية لجنة ». ولم ينس أن كيو يجب أن يرحل قبل الساعة الحادية عشرة والنصف. فهناك الليلة إذن اجتماع شيوعي ما، ينوي تشانج ـ كاي ـ شيك أن يسحقه. وقد يكون ما يعلمه رجال البوليس كاذباً في بعض الأحيان، غير أن وقوع هذين الأمرين في وقت واحد كان جلياً كل الجلاء، ويستطيع كيو ـ إذا أخطر ـ أن يرجئ الاجتماع، أو ألا يذهب إليه ـ إذا كان قد فات أوان الارجاء. « وإذا أعطاني مئة دولار، فربما أصبح معي ما يكفي من النقود: مائة، ومائة وسبعة عشر حصلت عليها بعد الظهر بطرقي اللطيفة وغير المشروعة على السواء، أي مائتين وسبعة عشر دولاراً.. ولكن، ربما، لم يكن معه شيء: فلا توجد هذه المرة أسلحة تحت تصرفه. فلنحاول إذن أن نتخلص بمفردنا، من هذه الورطة ». ووقفت السيارة.. وأعطى كلايك وكان يرتدي « السموكنج » ـ دولارين للسائق. وشكره السائق ـ العاري الرأس ـ بابتسامة عريضة، إذ كان يستحق على المسافة التي قطعها دولاراً واحداً.

ـ « هذه الزيادة بقصد أن تسمح لك بشراء قبعة صغيرة سوداء ».

ثم أردف قائلاً، وقد رفع سبابته، كمن يعلن الحقيقة:

ـ « قلت: قبعة صغيرة سوداء ».

وانصرف السائق.

واستطرد كلايك قائلاً وهو واقف وسط الحصباء: « لأن هذه الشخصية من وجهة النظر الجمالية ـ التي هي وجهة نظر النفوس العظيمة ـ تتطلب قبعة صغيرة سوداء ».

وكانت السيارة قد رحلت.. وعلى هذا كان يوجه كلامه إلى الليل، وانبعثت من الحديقة رائحة البقس والأقيوم الليلي، وكأن الليل يرد عليه. وكانت هذه الرائحة المريرة تذكره بأوروبا. وتحسس البارون جيبه الأيمن، وبدلاً من أن يشعر بالمحفظة، أحس بالمسدس. فقد كانت المحفظة في الجيب الأيسر. وتطلع إلى النوافذ غير المضاءة التي لا تكاد تبين: «فلنفكر... » وكان يعلم أنه يطيل هذه اللحظة لأن اللعبة لم تكن قد بدأت بعد. ولأن الفرار ما زال ممكناً. «إذا أمطرت السماء - بعد غد - فسوف تنبعث هذه الرائحة: وربما أكون حينذاك ميتاً.. ميتاً؟ ماذا أقول؟ حماقة. لا كلمة: إنني خالد». ودخل. ثم صعد إلى الطابق الأول. وكان يبدو وكأن جلبة أحجار اللعب (الفيش) وصوت المشرف على القمار ترتفع وتنخفض مع حلقات الدخان.. وكان الخدام نائمين. أما المخبرون الروسيون من رجال البوليس الخصوصي، (فقد وضعوا أيديهم داخل جيوب ستراتهم وأمسكوا بهراوات قصيرة في أياديهم اليمنى)، واستندوا على أفاريز النوافذ، أو أخذوا يتجولون في لا مبالاة، دون أن يناموا. وبلغ كلاپيك الصالون الكبير؛ وفي ضباب التبغ حيث كانت حصباء الجدار تلمع لمعاناً مختلطاً، أخذت بقع السموكنج السوداء، والأكتاف البيضاء تميل - بالتبادل - على المائدة الخضراء.

وهتفت أصوات: «مرحى.. يا توتو».

وكثيراً ما كان البارون يسمى «توتو» في شنغهاي. ومع ذلك، لم يسبق له أن أتى إلى هذا المكان إلا مصادفة، في صحبة بعض أصدقائه، إذ أنه لم يكن مقامراً... وفتح ذراعيه، كالأب الطيب الذي يفرح بلقاء أطفاله:

- «مرحى.. إنني شديد التأثر لاستطاعتي الانضمام إلى هذا الحفل العائلي الصغير...»

غير أن المشرف ألقى كرته: فتحول الانتباه عن كلاپيك.. ها هنا يفقد قيمته: لأن هؤلاء ليسوا بحاجة إلى التلهي. كانت وجوههم مركزة بجمعها في النظر إلى هذه الكرة، في انتظام مطلق.

إنه يملك مائة وتسعة عشر دولاراً.. واللعب على الأرقام شديد الخطورة... ولكنه كان قد اختار سلفاً.. زوجي أو فردي.

قال للمشرف: «ناولني عدداً من (الفيش) الصغيرة اللطيفة».

- «من أية فئة؟»

- «عشرين».

وقرر أن يلعب بفيشة واحدة في كل مرة، وأن يلتزم الأرقام الزوجية دائماً. لا بد أن يربح على الأقل ثلاثمائة دولار.

وراهن.. وكان الرقم الرابح خمسة.. خسارة.. لا أهمية ولا اهتمام. وراهن من جديد، على رقم زوجي دائماً.. إثنان.. رابح.. من جديد، الرقم ٧ خسارة.. ثم الرقم ٩: خسارة.. ٤، رابح.. ثلاثة: خسران، ٧ و ١: خسارة.. وفقد ثمانين دولاراً.. ولم تبق فيشة واحدة. رهانه الأخير.

ألقاها بيده اليسرى، ولم يعد يحرك اليد اليسرى، وكان ثبات الكرة قد ثبت هذه اليد المرتبطة بها. ومع ذلك، فقد كانت هذه اليد تجتذبه نحو نفسه. وتذكر فجأة: لم تكن هذه اليد هي التي تضايقه، بل الساعة التي يحملها في معصمه. الحادية عشرة وخمس وعشرون دقيقة.. لم تبق له سوى خمس دقائق لكي يلحق بـ «كبو».

وكان على ثقة من الفوز، في الرهان قبل الأخير: وإذا كان لا بد من أن يخسر، فإنه لا يمكن أن يخسر بهذه السرعة. إنه لمخطئٌ حين لم يعلق أية أهمية على خسارته الأولى، فقد كانت بلا شك نذير شؤم. بيد أننا نكاد نربح دائماً في الرهان الأخير... وقد ربح الفردي ثلاث مرات متعاقبة. ومع ذلك، فقد كان الفردي هو الذي يربح - منذ وصوله - أكثر من الزوجي، بدليل خسارته. هل يغير... ويلعب على الفردي؟ غير أن شيئاً كان يدفعه الآن إلى أن يظل سلبياً، وأن يذعن: وخيل إليه أنه قد أتى لهذا. كل حركة عبارة عن طقس من الطقوس المقدسة يتحرج في أن يخل به. وترك رهانه على الزوجي.

وقذف المشرف بالكرة.. فاندفعت في استرخاء - كالعادة، وبدت كأنها تتردد. ولم يكن كلاپيك قد رأى منذ البداية خروج الأحمر أو الأسود رابحاً. وعلى هذا تكون لها الآن أكبر الفرص للربح. واستمرت الكرة في تجوالها. لماذا لم يلعب على الأحمر؟ وأبطأت الكرة في سيرها ووقفت عند رقم ٢، رابح.

لا بد أن يضع الآن الأربعين دولاراً على رقم ٧، وأن يراهن على هذا الرقم.. هذا واضح، وعليه بعد ذلك أن يغادر هذه العصبة. ووضع فيشته، وربح. وحين دفع المشرف نحوه بأربعة عشرة فيشة - وحين لمسها اكتشف مذهولاً أنه يستطيع أن يكسب: لم يكن ذلك محالاً، «يانصيباً» خيالياً يكسبه رابحون مجهولون. وخيل إليه فجأة أن البنك مدين له بهذا المبلغ لا لأنه راهن على الرقم الرابح، أو لأنه خسر في البداية، وإنما من الأزل بسبب خياله وحرية فكره، وأن هذه الكرة قد وضعت المصادفة في خدمته لكي يدفع كل ديون حظه. ومع ذلك، لو أنه راهن من جديد على رقم آخر، فسوف يخسر. وترك مائتين من الدولارات على رقم فردي - وكانت الخسارة من نصيبه.

وترك المائدة لحظة، وهو ثائر، واقترب من النافذة.

هناك الليل في الخارج. وتحت الأشجار كانت تنبعث الأضواء الحمراء من المصابيح الخلفية للسيارات. وعلى الرغم من زجاج النوافذ، تناهت إلى سمعه جلبة عظيمة من الأصوات، والضحكات. وفجأة، انطلقت جملة قيلت بلهجة غاضبة، دون أن يميز كلامها.. انفعالات.. هؤلاء الناس جميعاً الذين يمرون خلال الضباب.. أي حياة حمقاء خاملة تلك التي يحيونها؟ لم يكن يلمح أشباحاً، بل تلك مجرد أصوات في الليل. أما في هذه القاعة، فكانت الدماء تسري في عروق حية.. وهؤلاء الذين لا يلعبون. ليسوا بشراً. ألم يكن ماضيه سوى حماقة طويلة؟ وعاد إلى المائدة.

ووضع ستين دولاراً على رقم زوجي، من جديد. هذه الكرة التي ستهدأ حركتها كانت مصيراً.. ومصيره هو، قبل كل شيء.. أنه لا يناضل مخلوقاً، وإنما يناضل نوعاً من الإله. وهذا الإله، كان في الوقت نفسه، هو ذاته نفسها.. وانطلقت الكرة.

وأحس على الفور بتلك الحيرة السلبية التي كان يبحث عنها: وخيل إليه من جديد أنه يقبض على حياته، وأنه يعلقها على هذه الكرة العابرة. وبفضلها كان يرضي، لأول مرة معاً، الشخصيتين اللتين يتألف منهما: كلابيك الذي يريد أن يعيش، وكلابيك الذي يريد أن يتحطم. ولماذا ينظر في الساعة؟ لقد ألقى بـ «كيو» في عالم من الأحلام، وخيل إليه أنه يغذي هذه الكرة، لا بما يقدم عليه من رهان، بل بحياته نفسها - فإنه إذ لا يرى «كيو» فقد أضاع كل فرصة للحصول على المال - كما كان يغذيها بحياة شخص آخر، وكان جهل هذا الآخر بذلك يبث في الكرة، التي بدأت التفافاتها ترتخي، حياة ارتباطات النجوم، والأمراض المميتة، وكل ما يعتقد الناس أن مصائرهم معلقة به. وأية علاقة بين النقود وبين هذه الكرة التي تتردد على حافة الثقوب كأنها خطم الحيوان، والتي يعانق بوساطتها مصيره الخاص؟ إنها الوسيلة الوحيدة التي وجدها لامتلاك ذاته. وهو يحرص الآن على الربح، لا لكي يهرب، بل لكي يبقى، ولكي يخاطر من جديد، حتى تجمل المقامرة بهذه الحرية التي ظفر بها - حركته تلك أمعن في العبث! واكتشف وهو مستند على مقدم ساعده، ودون أن يواصل النظر إلى الكرة التي تابعت سيرها المتباطئ شيئاً فشيئاً، وقد انتابت عضلات ساقه وكتفيه قشعريرة - اكتشف معنى اللعب، ونشوة الخسارة. خمسة.

وكانت خسارة للمجموع تقريباً.. وملأ الدخان القاعة، كما ملأها في الوقت نفسه ارتخاء يائس في الأعصاب، وجلبة أحجار اللعب التي يحصدها بدولاراته السبعة عشر؟ وأخرج الورقة المالية ذات الدولارات العشرة ووضعها على رقم زوجي.

وبلغ من شدة إيقانه بالخسارة أنه لم يلعب بالمبلغ كله، وكأنه يريد أن يشعر بأنه يخسر لأطول وقت ممكن. وما أن شرعت الكرة في التردد، حتى تبعتها بيده اليمنى، بينما ظلت يده

اليسرى مثبتة إلى المائدة وأدرك الآن الحياة المليئة التي تحياها أدوات اللعب: فهذه الكرة ليست كغيرها من الكرات، أي تلك التي لا تستخدم في اللعب، بل أن تردد حركتها نفسه تردد حي: فهذه الحركة المحتومة الرخوة في آن واحد ترتجف على هذا النحو لأن حيوات كثيرة مرتبطة بها. وفي أثناء دورانها، لا يجرؤ لاعب على أن يسحب نفساً من سيجارته المشتعلة.. ودخلت الكرة في خلية حمراء، وخرجت منها، ثم تحولت مرة أخرى ودخلت في رقم ٩. وحاول كلابيك أن ينتزعها من مكانها بحركة غير ملحوظة من يده اليسرى الموضوعة على المائدة.. لقد خسر هذه المرة أيضاً.

خمسة دولارات على الزوجي.. آخر فيشة.. من جديد.

وقطعت الكرة المقذوفة دوائر واسعة، غير أن الحياة لم تتردد فيها بعد. واستأثرت الساعة دونها - على الرغم من ذلك - بنظرة كلابيك. ولم يكن كلابيك يشدها إلى ظهر معصمه، وإنما إلى بطن المعصم، عند الموضع الذي يقاس فيه النبض. وبسط يده على المائدة لم يعد يرى سوى الكرة. واكتشف أن اللعب انتحار بلا موت: كان يكفيه أن يضع نقوده هناك، وأن يتطلع إلى هذه الكرة، وينتظر، وكأنه ينتظر بعد أن تجرع سماً.. سماً متجدداً بلا انقطاع، مضافاً إليه الكبرياء التي دفعت إلى تناوله.. ووقعت الكرة على رقم ٤.. رابح.

وجعله المكسب أقرب ما يكون إلى اللامبالاة.. ومع ذلك، فلو أنه خسر!.. وربح مرة أخرى، وخسر مرة أخرى. وتبقى معه من جديد أربعون دولاراً. ولكنه كان يريد أن يستعيد لذة الرهان الأخير.. وكانت «الفيش» قد تكدست على الأحمر الذي لم يكسب منذ مدة طويلة. وجذب بصره هو أيضاً ذلك اللون الذي التقت عنده أنظار اللاعبين جميعاً. ولكن خيل إليه أنه إذا تخلى عن الزوجي، فقد تخلى عن القتال. فاحتفظ بالزوجي، ووضع عليه الدولارات الأربعين. ما من مجازفة يمكن أن تعادل هذا أبداً: ولعل كيو لم يرحل بعد: ومن المؤكد أنه بعد انقضاء عشر دقائق، لن يستطيع اللحاق به، ولكنه، ربما كان يستطيع الآن.. الآن، إنه يلعب بآخر درهم يملكه.. بحياته، وبحياة شخص آخر، بل الأخص بحياة شخص آخر..

وخرج في الساعة الواحدة بعد أن أغلقت «الحلقة»، وقد تبقى له أربعة وعشرون دولاراً. وهدأ هواء الخارج من ثائرته، وكأنه هواء غابة. وكان الضباب أضعف كثيراً منه في الساعة الحادية عشرة. لعل السماء قد أمطرت: فكل شيء مبتل. ومع أنه لم ير في غلالة الليل القصر أو الأقنوم، فإنه خمن موقع أوراقها الخضراء القائمة من رائحتها المريرة، وحدث نفسه قائلاً: ومن الغريب أن يقال إن إحساس المقامر يتولد من الأمل في الربح، وهذا أشبه بأن نقول إن الرجال يتبارزون لكي يصبحوا أبطالاً في لعبة الشيش.. ولا

يبدو أن سكون الليل قد طرد مع الضباب كل ألوان القلق، وكل الآلام التي تنتاب البشر. ومع ذلك، ثمة طلقات نارية، تدوي بعيداً.

وغادر الحديقة، مجتهداً في ألا يفكر في «كيو»، وشرع في السير.. وأصبح وجود الأشجار نادراً. وفجأة من خلال ما تبقى من الضباب، بزغ على سطح الأشياء ضوء القمر الباهت. ورفع كلابيك عينيه. لقد انشق القمر لتوه من ضفة ممزقة شكلتها سحب ميتة، وأخذ يتسلل وئيداً من ثقب واسع، قاتم وشفاف، كأنه بحيرة بأعماقها الزاخرة بالنجوم. وأضفى نوره - الذي يشتد رويداً رويداً - على المنازل المغلقة، والمدينة المهجورة، حياة من عالم آخر لا تنتمي إلى هذه الأرض، وكأن جو القمر قد جاء ليستقر بصفائه فجأة في هذا السكون العظيم. ومع ذلك كان الناس يعيشون خلف هذا «الديكور» الذي ينشره كوكب خلا من الحياة. وجميع الناس تقريباً نيام، وحياة النوم القلقة تتلاءم مع هذا الهواء الذي يجثم على مدينة ابتلعتها الأرض، وكأنها أيضاً حياة كوكب آخر. في «ألف ليلة وليلة» مدن صغيرة مليئة بالنائمين. مدن مهجورة منذ قرون، بمساجدها القابعة تحت القمر.. مدن كأنها الحسان النائمات في الصحراء.. ولكن هذا لا ينفي أنني قد أموت». ولم يكن الموت، وخاصة موته، حقيقياً جداً في هذا الجو اللاإنساني إلى درجة إشعاره بأنه منطفل عليه. وأولئك الذين لم يناموا؟ «هناك الذين يقرءون.. الذين يتآكلون بين الهموم (يا له من تعبير جميل!) والذين يباشرون الحب». إن حياة المستقبل تنبض وراء كل هذا السكون، إنسانية هائجة، لا يستطيع شيء أن يخلصها من نفسها! ومرت رائحة الجثث من المدينة الصينية مع الرياح التي هبت من جديد.. وبذل كلابيك مجهوداً لكي يلتقط أنفاسه: لقد عاوده القلق. إنه يتحمل في يسر فكرة الموت، ولكنه لا يتحمل رائحته. أخذت هذه الرائحة تسيطر شيئاً فشيئاً على المنظر (الديكور) الذي يخفي جنون العالم تحت هدوء الأبدية. وطفقت الريح تهب دون أن ينبعث منها أدنى صفير، حتى بلغ القمر الشاطئ المقابل من السحب. وغرق كل شيء من جديد في غياهب الظلمات. «أهذا حلم؟» غير أن الرائحة المفظعة قذفت به إلى الحياة، إلى الليل القلق، حيث راحت مصابيح الشارع تلقي دوائر واسعة من النور على الرصيف الذي مسح المطر كل ما كان عليه من خطوات.

أين يذهب؟ لقد انتابه التردد. لن يستطيع أن ينسى كيو، لو أنه حاول أن ينام. وكان يسير الآن في شارع مليء بالحانات الصغيرة، والمواخير المتواضعة، التي تحمل لافتات مكتوبة بكل لغات الأمم البحرية. ودخل أول حانة صادفته.

وجلس على مقربة من النافذة. وكانت الخادمات الثلاث، إحداهن مولدة والاثنتان الأخريان من الشعر ... جالسات مع زبائن، وقد هم أحدهم بالرحيل. وانتظر كلابيك، وتطلع إلى الخارج. لا شيء، ولو ملاّح واحد.. ومن بعيد، طلقات بنادق. ووثب منعمداً: إذ جلست إلى جانبه خادمة شقراء ممتلئة، لا عمل لها. وقال لنفسه: كأنها واحدة من نماذج روبنس، ولكنها ليست نموذجاً كاملاً. وكان ينبغي أن تكون نموذجاً لجوردان.. لا كلمة.. وأخذ يدير قبعته على سبابته بسرعة عظيمة.. ثم جعلها تقفز، والتقطها من الحافة في رفق، ووضعها على ركبتي المرأة.

- «احتفي، يا صديقتي العزيزة، بهذه القبعة الصغيرة.. إنها الوحيدة من نوعها في شنغهاي.. وفضلاً عن ذلك، فإنها اليفة..»

وانفرجت أسارير المرأة: ها هو أحد المهرجين. وأضفى المرح حياة مفاجئة على وجهها الذي ظل جامداً حتى تلك اللحظة.

سألته: «هل نشرب، أم نصعد؟».

- «الاثنان».

وحملت إليه - كأساً من الشيدام Schiedam قائلة: «إنه مشروب تخصصت فيه هذه الدار».

وسألها كلابيك: «دون مقالب؟».

فهزت كتفيها وقالت: «ماذا يعنيني من هذا كله؟».

- «ألديك متاعب؟».

ونظرت إليه.. ينبغي أن تلزم جانب الحذر مع المهرجين.. ومع ذلك، فقد كان وحيداً، وليس معه من يريد تلهيته، إنه حقاً لا يسخر منها.

- «وهل يمكن أن يكون لدي شيء سواها.. في مثل هذه الحياة؟».

- «هل تدخنين؟».

- «الأفيون غال جداً. ومن الممكن أن أحقن، طبعاً، ولكنني أخاف، لأن الابر التي يحقنون بها قذرة، ومن الممكن أن تحدث الخراريج، وإذا أصبت بالخراريج، فإنهم يطردونني خارج الدار.. وهناك عشر نساء على استعداد لاحتلال مكاني.. ثم .....»

ولاحظ لجتها، فقال في نفسه: «إنها فلمنكية..» وقاطعها:

- «من الممكن الحصول على الأفيون بثمن ليس مرتفعاً جداً.. إنني أدفع دولارين وخمسة وتسعين سنتاً لهذا الصنف».

- «وهل أنت من الشمال أيضاً؟».

وناولها قبلة دون أن يجيبها وبدا عليها الاعتراف بالجميل. لأنها التقت بأحد مواطنيها، ولأنه منحها هذه الهدية

ـ « ما زال ذلك الثمن غالياً بالنسبة إلي.. غير أن هذا لم يكن ليكلفني شيئاً كثيراً. سأمضغ شيئاً منه الليلة».

ـ «ألا تحبين التدخين؟».

ـ «أفتعتقد أن لدي غليوناً؟ ماذا تتصور؟».

وابتسمت في مرارة، وهي سعيدة على الرغم من ذلك. غير أن الارتياب المعتاد عاودها:

ـ «لماذا أعطيتني أياه؟».

ـ «دعك من ذلك... فهذا يبعث السرور إلى نفسي... لقد كنت من هذا (الوسط)...».

وفي الواقع، لم يكن يبدو عليه أنه مدمن، ولكنه لم يكن بكل تأكيد من ذلك (الوسط) منذ مدة طويلة (كان يحتاج أحياناً إلى أن يسكر لنفسه سيراً كاملة، ولكنه قلما كان يلجأ إلى ذلك) واقتربت منه، على المقعد.

ـ «كل ما في الأمر.. حاولي أن تكوني لطيفة: فستكون هذه هي المرة الأخيرة التي أضاجع فيها امرأة...»

ـ «ولماذا؟».

كان ذكاؤها بطيئاً، ولكنها لم تكن غبية، وبعد أن أجابت، فهمت ما يرمي إليه:

ـ «أتريد أن تنتحر؟».

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تسمع فيها مثل هذه القصة، وتناولت بين راحتيها يد كلابيك الموضوعة على المائدة، ولثمتها، بحركة مرتبكة، توشك أن تكون أمومية.

ـ «يا للخسارة!..»

ـ «أتريدين أن تصعدي الآن؟»

وكانت قد سمعت الناس تقول: إن هذه الرغبة تأتي أحياناً إلى الرجال قبل الموت. ولكنها لم تكن تجرؤ على أن تكون البادئة بالنهوض: فقد خيل إليها أنها لو فعلت ذلك، فكأنما تستعجل انتحاره. واحتفظت بيده بين يديها. ونظر إليها من بعيد جداً، رغم اتصال جسديهما، وقد أرخى جسده على المقعد، وشبك ساقيه، وألصق ذراعيه بجسمه كحشرة تشعر بالبرد، ودفع أنفه إلى الأمام. وعلى الرغم من أنه لم يكن قد احتسى إلا قليلاً من الخمر، فقد كان ثملاً بهذه الكذبة، بهذا الدفء، وبهذا العالم الخيالي الذي خلقه. حين قال إنه سينتحر، لم يكن يصدق نفسه، ولكنها ما دامت قد صدقته، فقد ولج عالماً لا وجود فيه للحقيقة. إنه عالم لا يقال عنه انه صادق أو زائف، بل معاش. وما دام لا وجود للماضي الذي اخترعه الآن، ولا لتلك الحركة البدائية، التي يفترض أنها حركة حميمة وعليها تأسست علاقته بهذه المرأة، فلا وجود لشيء. ولم يعد العالم يضغط بثقله على كاهله. إذ قد تحرر، فإنه لا يعيش إلا في العالم الخيالي الذي خلقه، قوياً بالرابطة التي تقيمها كل شفقة إنسانية إزاء الموت. وبلغ من شدة انتشائه أن ارتجفت يده. وشعرت المرأة بهذه الرجفة، فظنت أن مصدرها القلق:

ـ «ألا توجد وسيلة لتدبير.. هذا الموقف؟».

ـ «كلا».

وبدا كأن القبعة الموضوعة على ركن المائدة ـ تنظر إليه في سخرية. فألقى بها على المقعد حتى لا يراها.

وسألته قائلة: «حكاية حب؟».

وانطلق مدفع من بعيد، فقالت لنفسها: «كأن عدد من سيموتون الليلة غير كاف!».

ونهض دون أن يجيب عليها، فاعتقدت أن سؤالها قد أثار في نفسه الذكريات. وعلى الرغم من فضولها، فقد ودت أن تسأله المعذرة، ولكنها لم تجرؤ، فنهضت هي أيضاً وصعدا.

وعندما خرج ـ ولم يكن يلتفت وراءه، ولكنه كان يعلم أنها تتابعه بنظراتها من وراء زجاج النافذة ـ لم تكن نفسه قد شبعت ولا شهوته، وكان الضباب قد عاد. وبعد مسير ربع ساعة (لم يستطع هواء الليل المنعش أن يهدئ أعصابه)، توقف أمام مشرب برتغالي، كان زجاج نوافذه شفافاً، فرأى بمنأى عن الزبائن امرأة سمراء نحيفة ذات عينين واسعتين جداً، قد وقفت تتأمل الليل، وتطلع إليها «كلابيك» دون حراك. «إني كالنساء اللواتي لا يأملن ما يستطعنه منهن عاشق جديد.. هيا بنا ننتحر مع هذه المرأة!»

* * *

الحادية عشرة والنصف

انتظر كيو وماي في صخب «القط الأسود» الدقائق الخمس الأخيرة. من المفروض أن يكونا الآن قد غادرا المكان فعلاً. وكان تخلف «كلابيك» عن الحضور مثاراً لدهشة [illegible] (لقد جمع له ما يقرب من مائتي دولار)، بيد أن هذه الدهشة لم تبلغ أقصاها. فكلما تصرف كلابيك على هذا النحو، بدا مشابها لنفسه، لدرجة أنه لم يكن يدهش أولئك الذين يعرفونه غير نصف دهشة. وكان كيو ينظر إليه بوصفه شخصاً غريب الأطوار

جديراً بأن يوصف في قصة، ولكنه كان معترفاً له بالجميل لأنه قام بتحذيره، وبدأ يشعر نحوه شيئاً فشيئاً بتعاطف حقيقي. ومع ذلك، فقد بدأ الشك يساوره في قيمة المعلومات التي أفضى بها البارون إليه، وزاد من تشككه هذا الموعد الذي أخلفه.

ومع أن رقصة «الفوكس تروت» لم تكن قد انتهت بعد، إلا أن حركة شديدة اتجهت صوب ضابط من ضباط تشانج ـ كاي ـ شيك دخل في هذه اللحظة. وانصرف عن الرقص أزواج من الراقصين، واقتربوا، وعلى الرغم من أن كيو لم يسمع شيئاً، إلا أنه أدرك أن الأمر يتعلق بحدث على جانب كبير من الأهمية. وكانت «ماي» قد اتجهت فعلاً نحو هذه الجماعة: ففي «القط الأسود» كانت أي إمرأة محلاً لجميع الشبهات ومن ثم بريئة من كل شبهة وسرعان ما عادت إليه.

قالت له بصوت منخفض: «لقد ألقيت قنبلة تحت سيارة تشانج ـ كاي ـ شيك. ولكنه لم يكن في السيارة».

وسألها كيو: «والقاتل؟».

وعادت إلى الجماعة مرة أخرى، ثم رجعت يتبعها رجل يريد أن تراقصه بالقوة، ولكنه لم يلبث أن تخلى عنها حين رأى أنها لم تكن وحدها.

قالت: «لقد هرب».

ـ «فلنأمل ذلك...».

وكان كيو يعلم إلى أي مدى تخلو مثل هذه المعلومات من الدقة في معظم الأحيان. ولكن، لم يكن محتملاً أن تشانج ـ كاي ـ شيك قد قتل: فإن مقتله من الأهمية بحيث لا يمكن أن يجهله الضابط. وقال كيو: «سنعرف ذلك من اللجنة العسكرية. هلمي بنا إلى هناك على الفور».

وكان من فرط ما يتمنى أن يكون تشن قد أفلت، يشك في ذلك شكاً تاماً. وسواء أكان تشانج ـ كاي ـ شيك ما زال في شنغهاي، أم أنه قد رحل فعلاً إلى نانكين، فإن محاولة الاغتيال الفاشلة تضفي على اجتماع اللجنة العسكرية أهمية بالغة. ومع ذلك، ماذا ينتظر منه؟ لقد نقل تأكيد كلاپيك إلى لجنة مركزية مستريبة، وتحرص على أن تكون كذلك. وجاء هذا الاعتداد مصداقاً لنظريات كيو، إلى حد يعفيه من القيام بتأكيدها

وفضلاً عن ذلك، كانت اللجنة تدبّر للاتحاد، لا للنضال: وكان الزعيم السياسي للحمر، وأحد زعماء الزرق قد ألفا في شنغهاي ـ منذ أيام ـ خطاً موازياً، وبدا إخفاق الجماهير في الاستيلاء على منطقة الامتيازات اليابانية في هانكيو يبين أن الحمر مشلولون في

الصين الوسطى نفسها. وكانت القوات المنشورية تزحف على هانكيو التي ينبغي أن تقاتلهم قبل أن تقاتل قوات تشانج ـ كاي ـ شيك...

وتقدم كيو في الضباب، و«ماي» إلى جواره دون أن يتكلما. إذا كان لا بدّ للشيوعيين من أن يقاتلوا الليلة، فإنهم لن يكادوا يتمكنون من الدفاع عن أنفسهم. وسواء أكانوا قد سلموا أسلحتهم الأخيرة أم لم يسلموها، فكيف يشتركون في قتال لا ينادي به ضمن كل عشرة رجال سوى واحد، ضد تعليمات الحزب الشيوعي الصيني، وكيف يحاربون جيشاً عديداً مؤلفاً من المتطوعين البورجوازيين المسلحين على الطريقة الأوروبية ومتفوقاً من حيث أنه البادئ بالهجوم؟ في الشهر الماضي، كانت المدينة كلها تطالب بجيش ثوري متحد. أما الديكتاتور فكان يمثل المصالح الأجنبية، وكانت المدينة متطرفة في وطنيتها، وكانت البورجوازية الصغيرة التي تستوعب عدداً كبيراً من أفراد الشعب، ديموقراطية، لا شيوعية. وكان الجيش، في هذه المرة هناك مهدداً، لا هارباً صوب نانكين، ولم يكن تشانج ـ كاي ـ شيك جلاد مذبحة فبراير، بل، كان بطلاً وطنياً، اللهم إلا في نظر الشيوعيين. وهكذا كان الجميع ضد البوليس، في الشهر الماضي. أما اليوم، فكان الشيوعيون ضد الجيش وستقف المدينة موقف الحياد، ولعلها أميل للجنرال. وما كانوا يستطيعون الدفاع عن الأحياء العمالية إلا في مشقة، وربما استطاعوا الدفاع عن تشاباي ثم ماذا؟ لو كان كلاپيك مخطئاً، وتأخر رد الفعل شهراً واحداً، إذن لاستطاعت اللجنة العسكرية، وكيو وكاتوف تنظيم مائتي ألف رجل. ولتمكنت جماعات الهجوم الجديدة المؤلفة من شيوعيين مقتنعين أن يسيطروا على النقابات: بيد أنه لا بد من شهر على الأقل لإنشاء منظمة دقيقة تستطيع توجيه الجماهير.

وتظل مشكلة الأسلحة قائمة. فلا بدّ من أن تعرف كيف يمكن تسليم الجماهير في حالة قيام تشانج ـ كاي ـ شيك بانقلاب للاستيلاء على السلطة، لا أن نتساءل عما إذا كان من الواجب تسليم ألفين أو ثلاثة آلاف بندقية. وإذا طال النقاش، طال بقاء الرجال بلا سلاح. حتى إذا طالبت اللجنة العسكرية بالأسلحة ـ أيّاً كانت الأسباب التي تدّعيها ـ فإن اللجنة المركزية التي تعرف أن المبادئ التروتسكية تهاجم الاتحاد مع الكومنتانج ـ تفرغ من كل موقف يمكن أن يبدو ـ سواء بالحق أو بالباطل ـ مرتبطاً بموقف المعارضة الروسية.

بدأ كيو يرى في الضباب الذي لم ينقشع بعد ـ والذي أرغمه على السير على الرصيف بعيداً عن السيارات ـ الضوء الخافت المنبعث من المنزل الذي انعقدت فيه اللجنة العسكرية صاحب والل كتفان: فلم يجد بداً من إشعال قداحته ليعرف الساعة. كان قد تأخر بضع دقائق، واعتزم الإسراع، فوضع ذراع ماي تحت ذراعه. فضمت نفسها في رفق إليه. وما

كاد يخطو بضع خطوات، حتى أحس في جسد «ماي» بشهقة، وارتخاء صاعق وسقطت على الأرض، وهي تنزلق أمامه. «ماي!» وتعثر وسقط على يديه ورجليه، وفي هذه اللحظة التي نهض فيها، تلقى بكل قوة ضربة من هراوة على قفاه. فسقط بكل جسمه.

وخرج ثلاثة من رجال البوليس من أحد المنازل. وانضموا إلى الشرطي الذي ضربه وكانت السيارة خالية تقف على مبعدة، فقذفوا كيو فيها، ثم شرعوا في الرحيل بعد أن قيدوه.

وحين ثابت «ماي» إلى رشدها (وكان ما ظنه كيو شهقة هو ضربة هراوة على أسفل الضلوع)، كانت ثلة من جنود تشانج ـ كاي ـ شيك تحرس مدخل اللجنة العسكرية، ولم تلحظهم ـ بسبب الضباب ـ إلا بعد أن اقتربت منهم اقتراباً شديداً. وواصلت «ماي» السير في نفس الاتجاه (كانت تتنفس في مشقة وتتألم من الضربة) حتى عادت بأسرع ما يمكن إلى منزل جيسور.

* * *

منتصف الليل

ما أن علم هملريش أن قنبلة قد ألقيت على تشانج ـ كاي ـ شيك، حتى انطلق جرياً وراء الأنباء. وقيل له إن الجنرال قد قتل وأن القاتل لاذ بالفرار، ولكنه ـ أمام السيارة المقلوبة وغطائها المنزوع ـ شاهد جثة تشن على الرصيف، ضئيلة، تنزف منها الدماء، وقد بللها الضباب، وجلس إلى جانبها جندي لحراستها، كما علم أن الجنرال لم يكن موجوداً في السيارة. وخيل إليه ـ وكان مخطئاً ـ أن رفقه النجاه تشن إليه، كان من أسباب مصرعه فهرع يائساً إلى مركز الإسعاف الشيوعي في حيه، ومكث هناك ساعة يناقش ـ بلا جدوى ـ مسألة الاغتيال. وفيما هو كذلك دخل أحد الرفاق وأنهى إليهم بالخبر التالي: هو أن جنود تشانج ـ كاي ـ شيك قد أغلقوا لتوهم إتحاد النساجين في شاباي.

ـ «ولم يقاوم الرفاق؟».

ـ «لقد أعدم الذين احتجوا جميعاً رمياً بالرصاص على الفور. وفي شاباي، يطلق الرصاص على المجاهدين أيضاً، أو تحرق منازلهم.. ولقد تفرقت الحكومة البلدية وأغلقت النقابات.»

ولم تصدر تعليمات من اللجنة المركزية. وانصرف الرفاق المتزوجون في الحال، لتهريب زوجاتهم وأطفالهم.

وما أن خرج هملريش حتى سمع طلقات الرصاص، وكان يجازف بأن يتعرف الجنود عليه. ولكن كان لا بد من اصطحاب الطفل والمرأة قبل كل شيء. ومرت أمامه في

الضباب سيارتان مصفحتان، وعربات نقل محملة بجنود تشانج ـ كاي ـ شيك. وعلى بعد، كانت طلقات الرصاص لا تنقطع أبداً، كما كان بعضها ينطلق على مسافة قريبة جداً.

ولم يكن ثمة جنود في شارع الجمهوريتين، ولا في الشارع الذي يقع حانوته في ناصية من نواصيه. كلا.. انقطع ظهور الجنود. وكان باب الحانوت مفتوحاً. وجرى إلى الداخل، وهناك في كل مكان على الارض، قد تناثرت قطع الاسطوانات في بقع كبيرة من الدم. لقد «مسح» الحانوت بالقنابل اليدوية، كأنه خندق. وعلى منضدة الحساب، استلقت امرأته، مقعية تقريباً، وقد اصطبغ صدرها بلون الجرح. وفي ركن، ذراع طفل، وبدت اليد ـ وهي منفصلة عن الجسد ـ أصغر حجماً مما كانت عليه في الواقع. وحدث هملريش نفسه قائلاً: «على شرط أن يكونا قد ماتا!». وكان خائفاً ـ على الأخص ـ من الاحتضار الذي ينبغي أن يشهده، عاجزاً لا يستطيع إلا أن يتألم فحسب، كما هي العادة، كان يخشى ذلك أكثر مما يخشى هذه الأدراج الملطخة بالبقع الحمراء والشظايا. وأحس من خلال حذائه بالأرض اللزجة. «هذا دمهما». وبقي جامداً في مكانه، لا يجرؤ على الحركة وهو ينظر.. وينظر... واكتشف أخيراً جثة الطفل على مقربة من الباب الذي كان يخفيها. وانفجرت على البعد قنبلتان. وكان هملريش يتنفس في مشقة، وقد سحقته رائحة الدماء المنتشرة. «لا داع لدفنهما...» وأغلق الباب بالمفتاح، ووقف أمامه. «إذا أتوا وتعرفوا علي فأنا هالك لا محالة». ولكنه لم يستطع الانصراف.

وكان يعلم أنه يتعذب، غير أن هالة من اللامبالاة أحاطت بألمه.. تلك اللامبالاة التي تعقب الأمراض والضربات فوق الرأس. ما من ألم يمكن أن يثيره: وخلاصة القول إن القدر قد نجح هذه المرة في أن يسدد إليه ضربة أفضل من سائر الضربات الأخرى. ولم يكن الموت يدهشه: فهذا يتساوى مع الحياة. وكان الشيء الوحيد الذي يمضه هو تفكيره في أنه قد كان هناك وراء هذا الباب عذاب يعادل ما يوجد الآن من دماء. ومع ذلك، فلقد أساء القدر اللعب هذه المرة، فهو حين انتزع منه كل ما يملكه، قد حرره.

ودخل، ثم أغلق الباب. وعلى الرغم من انهياره، وإحساسه بأنه قد تلقى ضربة بالهراوة على أم هنقه، وتخاذل كتفيه، على الرغم من كل هذا ـ فإنه لم يكن يستطيع أن يطرد من أعماقه هذه الفرحة الضارية الثقيلة العميقة، فرحة التحرر. وفي فزع ورضا أحس بها تزمجر في نفسه كنهر يتدافع تحت الأرض، ويقترب. وكانت الجثتان مطروحتين هناك، وقدماه اللتان كانتا تلتصقان بالأرض، قد التصقتا بدمائهما. ما من شيء يمكن أن يكون أشد مقتاً من هذه الجريمة، وعلى الأخص جريمة قتل الطفل المريض. فقد كان يخيل إليه أن هذا الطفل أشد براءة من المرأة الميتة. ولكنه، لم يعد الآن عاجزاً. الآن يستطيع أن يقتل هو

أيضاً. وتكشف له بغتة أن الحياة ليست هي الطريقة الوحيدة للاتصال بين الكائنات، بل إنها ليست أفضل طريقة، إنه كان يعرفها ويحبها، ويملكها في الانتفاع أكثر مما يملكها في الحياة. وأحس، مرة أخرى، بتعلبه بلصقان، وترنّح: إن العضلات لا يساعدها الفكر.. بيد أن حاسة شديدة ضجت بالثورة في نفسه، أقوى حاسة عرفها في حياته، واستسلم لهذه الثورة الرهيبة استسلاماً تاماً. «يستطيع المرء أن يقتل في حب.. في حب. يا لعنة الله!» وردد هذا القول وهو يضرب منضدة الخشب بقبضته ـ وكأنه يتحدى الكون كله. وسحب يده في الحال. وقد أحس كأن شيئاً ضغط على حلقه بحيث لا يستطيع أن يتنفس: لقد كانت منضدة الخشب ملطخة بالدماء أيضاً. ونظر إلى بقعة الدم التي أصبحت قاتمة اللون فوق يده المرتعشة وهي تهتز كأنما أصابته نوبة عصبية: وراحت تنفصل عنها قشور صغيرة. يجب أن يضحك. أن يبكي. أن يهرب من هذه العقدة الملفوفة في الصدر.. لا شيء يتحرك. واستقرت لامبالاة الكون الشاسعة مع النور الساكن على الاسطوانات وعلى الأواني، وعلى الدم. وأخذت هذه العبارة «كانوا ينتزعون أطراف المحكوم عليهم بأسياخ محماة على النار» تصعد وتهبط في دماغه، وكان قد نسيها منذ عهد المدرسة، ولكنه أحس أنها تعني في غموض، أنه يجب أن يرحل، وأن ينتزع نفسه هو أيضاً من هذا المكان.

وأخيراً، أصبح الرحيل ممكناً، دون أن يدري كيف أصبح ذلك. واستطاع أن يخرج، وشرع يسير في تيه مكدود يثير في نفسه دوامات من الحقد لا حدود لها.. وتوقف، بعد أن قطع ثلاثين متراً: «لقد تركت الباب مفتوحاً عليها». وعاد على أعقابه.. وكلما اقترب أحس بالشهقات تتكون وتتعقد في مكان أكثر انخفاضاً من الحلق، هناك في الصدر، حيث استقرت. وأغمض عينيه، ثم شدّ الباب. فقرقع القفل: إنه مغلق... وانصرف مرة أخرى. وغمغم قائلاً في الطريق: «لم ينته الأمر بعد، بل لقد بدأ.. لقد بدأ» وتقدم ـ وقد دفع كتفه إلى الأمام ـ كقائد زورق متجهاً صوب بلاد غامضة لا يعرف عنها إلا أن الناس يقتلون فيها، وكأنه يسحب بكتفيه ودماغه ثقل موتاه جميعاً. الذين لم يعودوا يمنعونه ـ أخيراً ـ عن التقدم.

ويديه مرتجفتين، وأسنان تصطك، تدفعه حريته الرهيبة، وصل بعد عشر دقائق إلى مركز الإسعاف. وكان منزلاً من طابق واحد. ولم يكن من شك أنهم قد وضعوا المراتب مرفوعة خلف النوافذ، فعلى الرغم من عدم وجود المصاريع الخشبية لم يكن المرء يستطيع أن يرى مستطيلات مضيئة في الضباب وإنما أشعة رأسية فحسب، وكان الهدوء الذي يخيم على الشارع ـ الذي يكاد يكون رقاقاً ـ هدوءاً مطلقاً. وكانت هذه الخطوط المضيئة تحدد هناك شدة إشارات النداء الصوتية المتصلة والحادة في الوقت نفسه. ودق الجرس، ففتح الباب

نصف فتحة، وتعرفوا عليه. ووراء الباب وقف أربعة من المحاربين وقد أمسكوا بمسدسات الموزر في قبضاتهم، ينظرون إليه أثناء مروره. وكان الدهليز الواسع ـ أشبه بجماعات الحشرات يعج بحياة غامضة الاتجاه، ولكنها واضحة الحركة. كأن كل شيء يأتي من الكهف.. أما الطابق العلوي فكان خالياً من الحياة. وبمعزل عن الآخرين، كان هناك عاملان يقومان بتركيب مدفع رشاش فوق أعلى السلم يسيطر على الدهليز. ولم يكن هذا المدفع يلمع، ولكنه كان يجذب الانتباه كالمحراب في الكنيسة. وكان ثمة طلبة وعمال يركضون. ومرّ أمام لفائف من الأسلاك الشائكة (فيم يمكن أن نفيد هذه الأسلاك؟) وصعد درجات السلم ثم دار حول المدفع الرشاش، وأخيراً بلغ السطح. وخرج كاتوف من أحد المكاتب، ونظر إليه نظرة استفهام. ودون أن يقول شيئاً، مد يده الدامية

ـ «هل جرحت؟ هناك ضمادات في الطابق السفلي. هل أخفي الصبي؟»

ولم يكن همطريش يستطيع أن يتكلم.. فدفع يده في عناد وبلاهة، وقال لنفسه: «هذا دمها» بيد أن ذلك ليس مما يمكن الإفصاح عنه.

وقال أخيراً: «عندي سكين.. أعطني بندقية».

ـ «لم يعد لدينا منها الكثير».

ـ «قنابل يدوية إذن؟».

وتردد كاتوف.

ـ «عليك اللعنة، أتظن أنني خائف!»

ـ «انزل.. هناك قنابل يدوية في الصناديق.. إنها ليست كثيرة.. هل تعرف أين كيو؟».

ـ «لم أره.. ولكنني رأيت تشن: لقد مات».

ـ «أعلم ذلك».

ونزل همطريش.. وكان بعض الرفاق قد غاصوا بأذرعهم حتى أكتافهم، يفتشون في صندوق مفتوح. لقد أوشكت الذخيرة على النفاد. وأخذ الرجال المضطربون يتحركون في نور المصابيح الساطع، ولم تكن هناك فتحات لمرور الهواء. وأدهشه حجم هذه الأجساد الكثيفة التي التقى بها متحلقة حول الصندوق، بعد الأشباح التي كانت تتسلل تحت مصابيح الدهليز المحجوبة، أدهشه حجم هذه الاجساد. وكأن هؤلاء الرجال قد اكتسبوا فجأة ـ حيال الموت ـ الحق في حياة أقوى من حياة الآخرين. وملأ جيوبه ثم صعد مرة أخرى وكان الآخرون ـ الأشباح ـ قد انتهوا من تركيب المدفع الرشاش، ووضعوا الأسلاك

الشائكة خلف الأبواب إلى الوراء قليلاً حتى يمكن فتحه، إذ كانت دقات الجرس تتوالى دقيقة بعد أخرى. وأطل من كوة الباب: كان الشارع الذي يلفه الضباب هادئاً وخالياً دائماً. وكان الرفاق يصلون دون أن يكون من الممكن تمييز أشكالهم في الضباب، وكأنهم أسماك في مياه عكرة، تحت عمود الظل الذي تلقيه سطوح البناء. واستدار على أعقابه لكي يبحث عن كاتوف: في وقت واحد، دقتان متعجلتان من الجرس، وطلقة رصاص أعقبها صوت أنفاس تختنق، ثم سقط جسم.

«ها هم أولاء!» صاح بهذه العبارة في وقت واحد عدد من الحراس الواقفين عند الباب وخيم الصمت على الدهليز، تقطعه الأصوات المكتومة وجلبة الأسلحة الصاعدة من الكهف. واتخذ الرجال مراكز القتال.

* * *

الساعة الواحدة والنصف

تقدم كلاپيك في دهاليز فندقه الصيني، وهو يفيق من كذبته، كما يفيق الآخرون من نشوة الخمر. وكان الخدم الوطنيون المنبطحون على منضدة مستديرة تحت لوحة الأجراس، يرشون بذور عباد الشمس حول المباصق.. وكان يعرف أنه لن ينام، ففتح باب حجرته في كآبة، وألقى سترته فوق النسخة المألوفة من «أقاصيص هوفمان» وسكب شيئاً من الويسكي، إذ كانت الخمر تبدد القلق الذي يهبط عليه في بعض الأحيان. ثمة شيء قد تغير في الحجرة. واجتهد في أن يتحول بفكره عن هذا الموضوع، فإن غياب أشياء معينة غياباً لا تفسير له خليق بأن يسلط عليه قلقاً طاغياً. وكان قد توصل إلى الهرب من كل ما يؤسس عليه الناس حياتهم: الحب، الأسرة، العمل، ولكنه لم ينجح في الهرب من الخوف. ولقد ابتق الخوف في نفسه شعوراً حاداً بوحدته، ولكي يطرد هذا الشعور كان يدلف في العادة إلى أقرب حانة، ويلجأ إلى النسوة اللواتي يمنحن أجسادهن ويفتحن قلوبهن بينما يشرد منهن الفكر إلى شيء آخر. أما الليلة فقد كان الفرار مستحيلاً: فقد كان منهك القوى، متخماً بالأكاذيب وضروب الأخوة، وأبصر نفسه في المرآة فاقترب منها قائلاً:

ـ «مع هذا كله أيها العزيز.. لماذا تهرب، في واقع الأمر؟ وكم من الوقت سيدوم كل هذا؟ لقد كانت لك زوجة. ولكن ما علينا ما علينا! وعشيقات، وأموال، وتستطيع أن تفكر في كل ذلك حين تشعر بالحاجة إلى الأشباح لتهزأ بك. لا كلمة! إن لك مواهب، كما يقولون ـ وخيالاً وكل الصفات الضرورية لخلق رجل طفيلي. وتستطيع أن تكون وصيفاً لـ «فرال» حين تصل من العمر إلى أرذله. وهناك أيضاً مهنة الحنان المتسول،

والبوليس والانتحار. قواد؟ ها هو جنون العظمة يعاودك. يبقى الانتحار.. وهذا ما أقوله لك... ولكنك لا تريد أن تموت. لا تريد أن تموت أيها الوغد الصغير! انظر، فإن لك مع ذلك سحنة من تلك السحن الجميلة التي تليق بالأموات...»

وازداد اقتراباً حتى لامست أنفه المرآة، وشوه سحنته، ففتح فمه متخذاً هيئة المزراب! وقال كأن هذا القناع يجيبه:

ـ «ألا يستطيع كل إنسان أن يموت؟ من الواضح، أنه لا بد من وجود جميع الأصناف لكي يكون ثمة عالم. صه، فإنك حين تموت، ستذهب إلى الفردوس. وسيكون الله رفيقاً طيباً لك».

وأبدل من سحنته، فأغلق فمه، وسحبه نحو ذقنه، وأغمض عينيه نصف إغماضة، كأنه يرتدي قناع محارب من الساموراي في حفلة تنكرية. وفي الحال ـ وكأن القلق الذي لم تكف الأقوال للافصاح عنه، قد وجد له تعبيراً مباشراً يؤديه بكل قوته ـ بدأ في تغيير سحنته، فجعلها قرداً تارة، وأبله تارة أخرى، ومذعوراً تارة ثالثة، وفي حالة إعياء تارة رابعة. وتحول الى كل الصور التمثيلية التي يمكن أن يعبر بها الوجه الإنساني. ولم يكن هذا كافياً فاستخدم أصابعه، يشد بها ركني عينيه، أو يوسع بها فمه حتى يصبح كالرجل الضاحك الذي يشبه فمه فم الضفدعة، مفرطحاً أنفه، مطيلاً أذنيه. وكان كل وجه من هذه الوجوه يتحدث إليه، ويكشف له عن جزء من نفسه حجبته الحياة، واتخذت هذه العربدة في الحجرة المنعزلة مع ضباب الليل الذي تكاثف عند النافذة، صورة الجنون الفظيعة. وسمع ضحكته ـ رنة صوت واحدة شبيهة بجرس في صوت أمه، واكتشف وجهه فجأة، فتراجع في فزع، وجلس لاهث الأنفاس. وكانت هناك كراسة من الورق الأبيض، وقلم من الرصاص على المقعد. لو أنه استمر على هذا الحال فسوف ينقلب مجنوناً، ولكي يدافع عن نفسه ضد هذه المرآة المخيفة، شرع في الكتابة:

«سينتهي بك الأمر إلى أن تصبح ملكاً، يا عزيزي توتو، ملكاً في دفء مستشفى مريح للمجانين، بفضل هذياناتك الذي هو صديقك الوحيد، إذا واصلت الشراب. ولكن، هل أنت مخمور في هذه اللحظة، أم لا.. أنت الذي تتخيل كل هذه الأشياء، ماذا تنتظر لكي تتخيل نفسك سعيداً؟ هل تعتقد..»

وطرق الباب.. فقد عرج «كلاپيك» إلى الواقع، متحرراً ولكنه مبهور.. وطرق الباب من جديد.

ـ «ادخل».

معطف من الصوف، وقبعة من القلين الأسود، وشعر أشيب: إنه الأب جيسور.

وتلعثم كلابيك قائلاً: «ولكني... ولكني... ولكني...»

قال جيسور: «لقد ألقي القبض على كيو.. هل تعرف كونيج؟».

ـ «أنا.. ولكنني لم أتسبب في شيء...»

ونظر إليه جيسور متمعناً وقال لنفسه: «لعله لا يكون مخموراً.» ، وردد قائلاً: «هل تعرف كونيج؟».

ـ «أجل، أنا، أنا.. أعرفه.. ولقد أديت له خدمة.. خدمة عظيمة».

ـ «وهل تستطيع أن تطلب منه خدمة؟».

ـ «يستطيع كونيج بوصفه مديراً للأمن عند تشانج ـ كاي ـ شيك أن يطلق سراح كيو، أو على الأقل، أن يمنع إعدامه رمياً بالرصاص: هذا أشد الأمور استعجالاً، أليس كذلك...»

ـ «مفهوم... مفهوم...»

وكان مع ذلك، قليل الثقة في اعتراف كونيج بجميله، إلى درجة أنه رأى من العبث بل من الوقاحة أن يذهب لزيارته، حتى بعد المعلومات التي أدلى بها شبيلفسكي. وجلس على السرير وقد طأطأ أنفه إلى الأرض. لم يكن يجرؤ على الكلام، وتبين من لهجة جيسور أنه لا يشك مطلقاً في مسئوليته ازاء هذا الاعتقال: بل كان جيسور يرى فيه الصديق الذي جاء يحذر كيو في ذلك الأصيل، لا ذلك الرجل الذي كان يقامر في الموعد الذي ضربه لـ «كيو». بيد أن «كلابيك» لم يستطع أن يقنع نفسه بهذا فلم يتجاسر على النظر إليه، ولم يستطع أن يتمالك هدوء أعصابه. وأخذ جيسور يتساءل من أية دراما، أو أي شطط خرج كلابيك، دون أن يتكهن بأن وجوده سبب من أسباب هذه الأنفاس اللاهثة. وكان لـ «كلابيك» أن جيسور يتهمه:

ـ «أنت تعرف يا عزيزي، أنني لست.. مجنوناً ـ في نهاية الأمر ـ إلى هذا الحد، أنا.. أنا...»

ولم يكن يستطيع أن يكف عن التلعثم، وكان يبدو له أحياناً أن جيسور هو الشخص الوحيد الذي فهمه، وأنه أحياناً يعتبره مهرجاً. ونظر إليه الرجل العجوز دون أن يقول شيئاً.

ـ «أنا.. ما رأيك في؟».

وكان جيسور يود لو أمسك به من كتفه، واقتاده إلى كونيج بدلاً من الحديث معه،

غير أن هذه الحيرة كانت تبدو تحت السكر الذي عزاه إليه، حتى أنه لم يرفض الدخول في اللعبة.

ـ «هناك أولئك الذين يشعرون بالحاجة إلى الكتابة وأولئك الذين يشعرون بالحاجة إلى الحلم، وأولئك الذين يشعرون بالحاجة إلى الكلام.. وهذا كله سواء.. والمسرح ليس شيئاً جدياً، وإنما مصارعة الثيران هي الشيء الجدي، وكذلك الروايات ليست شيئاً جدياً، وإنما جنون الكذب هو الجدي».

ونهض كلابيك، فسأله جيسور:

ـ «هل أصيب ذراعك؟».

ـ «مجرد ألم في العضلات.. لا كلمة...»

وكان كلابيك قد أدار ذراعه في حركة مرتبكة لاخفاء ساعة يده عن نظر جيسور، وكان هذه الساعة التي دلته على الوقت في دار القمار ـ تريد أن تشي به.. غير أنه لاحظ من سؤال جيسور أن هذه الحركة كانت حمقاء.

ـ «متى سنذهب لرؤية كونيج؟».

ـ «صباح غد؟» فقال جيسور في مرارة:

ـ «ولماذا لا يكون ذلك الآن؟ إن البوليس لا ينام الليل ويمكن أن يحدث أي شيء...»

ولم يكن كلابيك يريد شيئاً أفضل من ذلك. ولم يكن هذا الشعور بدافع من الندم ـ فلو أنه كان على مائدة القمار من جديد لبقي مرة أخرى ـ وإنما على سبيل التعويض.

ـ «هيا بنا يا عزيزي... بسرعة...»

وأقلقه من جديد التغيير الذي لاحظه حين دخل الحجرة، ونظر في إمعان، فأذهله أنه لم يلمح ذلك التغيير من قبل. كانت إحدى اللوحات الطاوية «التي تحمله على جناح الأحلام» واحد تمثالين عنده، قد اختفت. وعلى المائدة، وقع نظره على رسالة بخط شبيلفسكي. وتكهن بالأمر. ولكنه لم يجرؤ على قراءة الخطاب، ذلك لأن شبيلفسكي هو الذي أبلغه بأن كيو مهدد. فلو أنه تهور بالحديث عنه، فلن يمسك نفسه عن الإفضاء بكل شيء. فتناول الخطاب، ووضعه في جيبه.

وما أن خرجا إلى الشارع، حتى التقيا بالسيارات المصفحة وعربات النقل المحملة بالجنود

ولم يكن « كلابيك » قد استرد هدوءه ، ولكي يخفي انزعاجه الذي لم يستطع أن يتخلص منه ، تظاهر بالجنون ، كعادته .

ـ « ليتني كنت ساحراً ، إذن لأرسلت إلى الخليفة حصاناً بقرن واحد .. أجل .. حصاناً بقرن واحد .. بحيث يبدو في القصر بلون الشمس ، صائحاً : « اعلم أيها الخليفة أن السلطانة الاولى تخونك ! لا كلمة ! » وسأبدو أنا رائعاً لو كنت على هيئة حصان بقرن واحد ، وأنا بأنفي هذا ! ومن المفهوم طبعاً ، أن هذا كله غير حقيقي . يقال إن أحداً لا يعرف مقدار اللذة التي يمكن أن يشعر بها المرء إذا عاش في نظر شخص آخر حياة أخرى غير حياته هو .. وعلى الأخص ، في نظر امرأة ما ... »

ـ « ومع هي المرأة التي لم تتظاهر بحياة زائفة على الأقل بالنسبة لرجل من الرجال الذين عرضوا لها في الشارع ؟ » .

ـ « هل تعتقد .. أن الناس جميعاً مصابون بجنون الكذب ؟ » .

وكانت جفون كلابيك تختلج في عصبية ، وأبطأ في سيره .

قال : « كلا ... اصغ إلي .. تكلم معي في صراحة : لماذا تعتقد أنهم ليسوا كذلك ؟ »

وأحس الآن في نفسه برغبة ـ غريبة عليه بصورة شاذة ، ولكنها جد قوية ـ في أن يسأل جيسور عن رأيه في الميسر ، ومع ذلك ، كان يعتقد ـ اعتقاداً لا شك فيه ـ أنه لو تحدث عن الميسر فسيعترف بكل شيء .. هل سيتكلم ؟ إن الصمت يدفعه إلى ذلك قسراً ، ولحسن الحظ ، أجاب جيسور :

ـ « لعلي آخر من يصلح من الناس لاجابتك .. الأفيون لا يعلّم المرء إلا شيئاً واحداً ، وهو أنه خارج الألم الجثماني ، لا يوجد شيء واقعي » .

ـ « الألم ، أجل .. و .. الخوف .. »

ـ « الخوف ؟ » .

ـ « ألم تشعر بالخوف قط .. أثناء تناولك الأف .. الأفيون ؟ »

ـ « كلا ... لماذا ؟ » .

ـ « آه ... »

والحقيقة أن جيسور كان يعتقد أنه لو كان العالم بلا واقع فإن الناس ، بل أولئك الذين يعارضون العالم أشد معارضة ، يملكون واقعاً قوياً جداً ، وأن كلابيك بالذات ، واحد من الكائنات النادرة جداً التي لا واقع لها . وكان « جيسور » يعاني هذه الحقيقة في قلق ، لأنه بين هاتين اليدين المصبوغتين من الضباب وضع مصير « كيو » وهنالك ، تحت المواقف التي

يتخذها كل إنسان ، أعماق يمكن لمسها ، والتفكير في الألم الذي يمكن أن يحتمله الشخص يجعل من الممكن تقدير طبيعة هذه الأعماق . وقد كان ألم كلابيك مستقلاً عنه ، كألم الطفل ، فهو لم يكن مسؤولاً عنه ، ومن الممكن أن يحطمه هذا الألم ، ولكنه لا يمكن أن يدخل عليه أي تغيير . وكان كلابيك يستطيع أن يتوقف عن الوجود ، وأن يختفي في رذيلة ما ، أو ضرب من ضروب الجنون ، ولكنه لا يستطيع أن يصبح رجلاً . « قلب من ذهب ، ولكنه أجوف » ، ولاحظ جيسور أن أعماق كلابيك لا تنطوي على ألم أو وحدة ، كما هي الحال بالنسبة لسائر الناس ، ولكنها تنطوي على الإحساس . وكان جيسور يحكم أحياناً على الناس بأن يتخيلهم في شيخوختهم : أما كلابيك فلم يكن يستطيع أن يشيخ ؛ فالعمر لا يؤدي به إلى التجربة الإنسانية ، وإنما إلى الادمان : إدمان النساء أو المخدرات ـ حيث تتلاقى جميع وسائله لتجاهل الحياة . وحدّث البارون نفسه قائلاً : « ربما لو سردت عليه كل شيء ، لوجد كل شيء عادياً .. » وكانت طلقات الرصاص تدوي الآن في أنحاء المدينة الصينية كلها . وطلب كلابيك من جيسور أن يتركه عند حدود منطقة الامتيازات : إذ أن « كونيج » لن يستقبله . وتوقف جيسور ، وهو ينظر إلى طيفه الهزيل يبتلعه الضباب .

كان مقر القسم الخاص من بوليس تشانج ـ كاي ـ شيك ، فيلا بسيطة مشيدة حوالي ١٩٢٠ على طراز « بيكون ـ لي ـ برويير » ، غير أن نوافذها كانت مخاطة بزخارف برتغالية مسرفة ، ضاربة إلى الصفرة والزرقة . ووقف على الباب حارسان ، وجنود آخرون أكثر من اللازم ، وكان الرجال جميعاً مسلحين . هذا كل شيء . وعلى بطاقة قدمها له سكرتير ، كتب كلابيك « توتو » ، وترك السطر الخاص بالزيارة خالياً ، ثم انتظر . وكانت هذه هي المرة الأولى التي يجد نفسه فيها في مكان مضاء منذ أن غادر حجرته : فأخرج من جيبه رسالة شبلفسكي وأخذ يطالعها .

« صديقي العزيز

لقد استلمت لاخاحك . وكانت شكوكي قائمة على أساس ، ولكني أمعنت الفكر ، إنك سمح لي على هذا النحو بأن أعود إلى الطمأنينة ، والأرباح التي تلوح لي بها صفقتي في هذه اللحظة ـ عظيمة القيمة ومضمونة إلى درجة أنني سأتمكن ـ بكل تأكيد ـ قبل عام واحد ، من أن أقدم لك مصحوبة بشكري تحفاً من نفس النوع ، بل أجمل منها . إن تجارة الأغذية في هذه المدينة ... »

وأعقب ذلك أربع صفحات من الشروح .

وقال كلابيك لنفسه : « ليس ذلك أفضل ... ليس أفضل بحال من الأحوال .. » غير أن حارساً أقبل يطلبه

كان كونيج ينتظره، جالساً إلى مكتبه، ووجهه ناحية الباب. ونهض كونيج بجسمه [illegible]لمكتنز ووجهه الأسمر، وأنفه المنحدر في سحنته المربعة، وتقدم نحوه وشدّ على يده بطريقة [illegible]سريعة قوية أبعدتهما أكثر من أن تكون قد قربت بينهما.

ـ «هل أنت على ما يرام؟ حسن. كنت أعرف أنني سأراك اليوم. وكنت سعيداً [illegible]لاستطاعتي أن أكون ذا نفع لك ـ بدوري».

فأجاب كلابيك: «أنت رجل موهوب. ولكنني أسائل نفسي: أليس ثمة سوء تفاهم؟ [illegible]ـات تعلم أنني لا أشتغل بالسياسة..».

ـ «لا وجود لسوء تفاهم».

وقال كلابيك لنفسه: «إن عرفانه بالجميل يبدو أشبه بالتعطف من جانبه».

ـ «أمامك يومان للرحيل. لقد أسديت إلي خدمة ذات مرة؛ وهأنذا اليوم قد أرسلت [illegible]من يحذرك».

ـ «كي... كيف؟ أكنت أنت الذي أرسلت من يحذرني؟».

ـ «وهل تعتقد أن شبيلفسكي كان يجرؤ؟ إنك تعامل إدارة الأمن العصبي، غير أن العصبيين لم يعودوا هم الذين يديرونها. وهكذا لم يعد ثمة مجال للسخافات الآن».

وبدأ كلابيك يعجب بـ «شبيلفسكي»، وإن شاب هذا الإعجاب ضرب من الغضب.

واستطرد قائلاً: «وما دمت تريد أخيراً، أن تتذكرني، فاسمح لي أن أطلب منك شيئاً آخر».

ـ «وما هو؟».

ولم يعد «كلابيك» يأمل كثيراً: فإن كل إجابة جديدة من كونيج أثبتت له أن الصداقة التي كان يعتمد عليها، لا وجود لها، أو لم يعد لها وجود. وإذا كان كونيج قد قام بتحذيره، فمعنى ذلك أنه لم يعد مديناً له بشيء. وهكذا قال مدفوعاً بالرغبة في إراحة [illegible]ـسه، أكثر من أن يكون مدفوعاً بالأمل:

ـ «أليس في الإمكان القيام بأي شيء من أجل الفتى جيسور؟ أعتقد أنك لا تهتم كثيراً [illegible]بهذه المسائل...».

ـ «ومن يكون؟».

ـ «شيوعي... على ما أعتقد».

ـ «ولماذا هو شيوعي أولاً؟ الأن والده شيوعي؟ أم لأنه مولد؟ أم لأنه لا يجد عملاً؟ [illegible]من الجائز أن يكون أحد العمال شيوعياً، فما بالك به! وأخيراً، ماذا؟».

ـ «ليس من الممكن تلخيص المسألة في يسر...».

واستغرق كلابيك في التفكير:

ـ «ربما، لأنه مولّد... ولكنه كان يستطيع أن يدبر أمره، فقد كانت والدته يابانية... ولكنه لم يحاول، إنه يقول شيئاً عن: (إرادة الكرامة)...».

ـ «بدافع الكرامة!».

واستولى الذهول على كلابيك: كان «كونيج» يصرخ في وجهه، ولم يكن ينتظر أن يكون لهذه الكلمة مثل هذا التأثير الشديد. فتساءل: «هل أفلت لساني؟».

وقال كونيج متسائلاً: وهو يحرك سبابته في عصبية وكأنه يستمر في الكلام دون أن يسمعه أحد:

ـ «ماذا يعني هذا؟» وردد قائلاً: «بدافع الكرامة!» ولم يكن كلابيك يستطيع أن يخطئ في فهم اللهجة التي تشيع في صوته: إنها لهجة الحقد. وكان واقفاً على يمين كلابيك، فأصبح أنفه الذي كان يبدو معقوفاً حدة شديدة على وجهه.

ـ «قل لي ـ يا عزيزي الصغير توتو، هل تؤمن بالكرامة؟».

ـ «عند الآخرين...».

ـ «نعم؟».

فأخلد كلابيك إلى الصمت.

ـ «أتعرف ما كان يفعله الحمر بالضباط الأسرى؟».

وظل «كلابيك» ممتنعاً عن الإجابة. لقد أصبح الأمر خطيراً، وأحس أن هذه الجملة تمهيد، أو مساعدة يعطيها كونيج لنفسه: فهو لم يكن ينتظر رداً.

ـ «كنت في سيبريا، مترجماً في معسكر للأسرى. وتمكنت من الخروج من هذا المعسكر بأن التحقت بخدمة الجيش الأبيض تحت قيادة سيمينوف... وكان البيض والحمر عندي سيان، كل ما كنت أريده هو أن أعود إلى ألمانيا. وأسرني الحمر. وكدت أموت من البرد. [illegible] ظلوا يلطمونني بقبضاتهم وهم يدعونني بالكابتن (كنت ملازماً حينذاك) حتى أسقط على الأرض، ليرفعوني من جديد. ولم أكن أرتدي بزة سيمينوف الرسمية ذات رؤوس الموتى الصغيرة: بل كنت أضع نجمة فوق كل كتف».

وتوقف عن الكلام، فقال كلابيك لنفسه: «إنه يستطيع أن يرقص دون أن يهوك في المسألة إلى هذا الحد». واستطرد «كونيج» بصوت لاهث ينطوي على شيء حاول كلا[illegible] أن يفهمه.

ـ « لقد دقوا مسماراً في كل كتف من كتفي خلال كل من النجمتين. مسماراً طويلاً كالاصبع .. انصت جيداً لما أقول يا عزيزي الصغير توتو ».

وأمسك بذراعه، وقد سدد عينيه في عيني كلاييك، وهو ينظر إليه نظرة غائمة:

ـ « وبكيت كما تبكي المرأة.. كما يبكي العجل.. بكيت أمامهم.. أتفهم؟ أجل؟ فلنترك القصة عند هذا الحد... فلن يخسر أحدنا شيئاً ».

وأوضحت هذه النظرة التي تعبر عن رجل يشتهي شيئاً ما.. أوضحت لكلاييك ما يريد. ولم يكن هذا الاعتراف موضع دهشة: ذلك أنه لم يكن اعترافاً، بل كان انتقاماً. ومن المؤكد أنه يقص هذه الحكاية ـ أو يرددها لنفسه ـ في كل مرة يستطيع فيها أن يقتل، وكأن هذه القصة تستطيع أن تخدش المهانة التي لا حدود لها.. المهانة التي تعذبه، حتى ينبثق منها الدم.

ـ « من الأفضل ـ يا عزيزي ـ ألا تحدثني كثيراً عن الكرامة.. إن كرامتي.. كرامتي أنا، هي أن أقتلهم. وماذا تريد أن يهمني من الصين! ها! وهل تعنيني الصين؟ إنني لم أنضم إلى الكومنتانج إلا لكي أستطيع أن أقتل عدداً منهم... إنني لم أعد أحيا، كما كنت أحيا من قبل، كإنسان، كأي شخص كان، كآخر أحمق من الحمقى الذين يعبرون أمام هذه النافذة، إلا حين يقتلون.. إن حالي أشبه بحال مدمن الأفيون مع غليونه... ضرب من الجنون.. لقد جئت تطلب مني أن أنقذه؟ لو أنك أنقذت حياتي ثلاث مرات... »

وهز كتفيه، ثم استطرد غاضباً:

ـ « هل تعرف يا عزيزي توتو ما يعنيه أن ترى حياة شخص ما تتخذ معنى.. معنى مطلقاً، وأن تشمئز من نفسك... »

وأنهى جملته من بين أسنانه، ولكن دون أن يتحرك، وقد وضع يديه في جيبه، وأخذ شعره المرتب يهتز مع كل كلمة ينتزعها من نفسه.

قال كلاييك بصوت هامس: « هناك النسيان... »

ـ « لقد انقضى أكثر من عام دون أضاجع امرأة! فهل يكفيك هذا؟ و... »

وتوقف بغتة، ثم استطرد بصوت أشد انخفاضاً:

ـ « ولكن قل إذن يا عزيزي توتو ـ إن الفتى جيسور، الفتى جيسور.. لقد أشرت إلى سوء تفاهم. أما زلت تريد أن تعرف لماذا صدرت إدانتك؟ سأنبئك بالسبب. ألم تكن أنت الذي عقدت صفقة بنادق « شاندونغ »؟ فهل تعرف لمن كانت هذه البنادق؟ »

ـ « إننا لا نطرح أسئلة في هذه المهنة، ولا كلمة! »

وقرب سبابته من فمه، وفقاً لعاداته المألوفة.. ولكنه أحس بالحرج على الفور.

ـ « لقد كانت مرسلة إلى الشيوعيين. وما دمت تجازف بحياتك، فكان من الواجب عليهم أن يخبروك.. ومهما يكن من أمر، فقد كانت المسألة كلها نصباً واحتيالاً. لقد استخدموك لكسب الوقت، وفي نفس الليلة نهبوا السفينة. وإن لم أكن مخطئاً، فقد كان ربيبك الحالي هو الذي ورّطك في هذه المسألة ». وأوشك كلاييك أن يجيبه بقوله: « ومع ذلك فقد تسلمت قيمة عمولتي ». غير أن هذا التصريح الذي أدلى به محدثه قد أشاع الرضا على وجه هذا الأخير، إلى درجة أن البارون لم يعد يريد الآن إلا الانصراف. وعلى الرغم من أن كيو قد وفى بوعوده، إلا أنه قامر بحياته دون أن يخبره. هل كان من الممكن أن يقامر بها لو أنه عرف؟ كلا. كان كيو على حق حين آثر قضيته عليه؛ ومن ناحية أخرى فإنه (أي البارون) على حق حين يتخلى عن « كيو » لا سيما وهو في الحقيقة لا يستطيع شيئاً.

ـ « إذن، فأمامي ثمان وأربعون ساعة للرحيل؟ ».

ـ « أجل.. أنت لا تصر على ما تريد.. وأنت مصيب في ذلك. إلى اللقاء ».

« يقول إنه لم يرقد مع إمرأة منذ أكثر من عام » بهذا حدث كلاييك نفسه وهو ينزل درجات السلم.. لا بد أنه يفضي في العادة بهذه الاعترافات، لاولئك الذين سوف يموتون... وأياً كان الأمر، فالأفضل حقاً أن ألوذ بالفرار. ولم يستطع أن يتخلص من اللهجة التي قال بها كونيج هذه العبارة: « لكي يعيش المرء كإنسان.. كأي إنسان.. » وظل مشدوهاً بهذا الإدمان الشامل الذي لا يستطيع أن يشبعه إلا الدم وحده: وكان قد شاهد من ضحايا الحروب الأهلية في الصين، وفي سيبريا، ما يكفي لكي يعرف ما ينجم عن المذلة الشديدة من إنكار للعالم: الدم المراق في عناد، والمخدرات، والأمراض العصبية هي وحدها التي تغذي المرء في مثل هذه العزلة. وأدرك الآن لماذا كان كونيج يحب صحبته، إذ لم يكن يجهل كيف يضعف ـ في حضرته ـ كل واقع. ومشى متباطئاً، فزعاً من أن يجد جيسور الذي كان ينتظره في الجانب الآخر من الأسلاك الشائكة. ماذا يقول له؟.. ها قد فات الأوان: إذ تقدم جيسور للقائه ـ تدفعه اللهفة ـ خارجاً من الضباب، على بعد مترين منه. وكان يحدق فيه ببصر زائغ، كالمجانين.

واستولى الفزع على كلاييك، فتوقف عن السير.. وكان « جيسور » قد أمسك بذراعه:

وسأله بصوت حزين، دون أن يغيره الانفعال: « ألا يمكن عمل أي شيء؟ وهز كلاييك رأسه بالنفي، دون أن ينطق بشيء ».

ـ « هيا بنا. سأطلب المعونة من صديق آخر ».

وكان جنونه قد تكشف له، حين أبصر كلاييك خارجاً من الضباب. والحوار الذي تخيله بينهما، بعد عودة البارون، كان عبثاً. ذلك أن كلاييك لم يكن متزجاً أو وسيطاً.. وإنما كان ورقة لعب. وما دام اللعب قد تم بهذه الورقة، وخسرت - وهذا ما كان ظاهراً على وجه كلاييك - فلا مفر من اللعب بورقة أخرى. وعلى الرغم من أنه كان مفعماً بالقلق والكرب الشديد، فقد ظل محتفظاً بصفاء فكره في أعماق يأسه. وكان «فيرال» قد خطر على باله، غير أن «فيرال» لم يكن ممن يتدخلون في نزاع من هذا القبيل. وذهب ليحاول إقناع صديقين له بالتدخل..

واستدعى كونيج سكرتيراً وقال له:

- «غداً، أريد الفتى جيسور - هنا - بعد انتهاء اجتماعات المجلس».

* * *

الساعة الخامسة

من نوافذ الطابق الأول شاهد كاتوف وهمليريش فوق الومضات القصيرة المنبعثة من طلقات الرصاص المصفرة، في نهاية الليل - مطلع النهار وهو يحدث انعكاسات ضوئية رصاصية على السقوف المجاورة في نفس الوقت الذي أخذت فيه ملامح المنازل في الوضوح. وشرع كل منهما يميز من جديد وجه الآخر، ويعرف ما يفكر فيه، بعد أن بلل المطر شعرهما، وعلاهما الشحوب. إنه اليوم الأخير. لم تعد ثمة ذخيرة تقريباً، وما من حركة شعبية هرعت لنجدتهما.. هناك طلقات مدافع ناحية «شاباي»: إنهم رفاق محاصرون مثلهما. ولقد شرح «كاتوف» لـ «هلمريش» لماذا أصبحا هالكين: ففي أية لحظة سيحمل رجال تشانج - كاي - شيك المدافع الصغيرة العيار التي يستخدمها حرس الجنرال، وما لم يتمكنوا من إدخال واحد من هذه المدافع في المنزل المواجه لمركز الإسعاف، فسوف تتداعى المراتب والجدران كما في ألعاب المهرجان. وكان المدفع الرشاش الذي يملكه الشيوعيون لا يزال يسيطر على باب هذا المنزل، حتى إذا نفد الرصاص، انتهت سيطرته عليه. وهذا شيء لن يطول انتظاره، إذ أنهم ظلوا يطلقونه في ثورة غضب، مدفوعين بثأر لم يدون أن يأخذوا به مقدماً؛ ولما كانوا يعلمون أن مصيرهم القتل لا محالة، فإن القتل كان هو المعنى الوحيد الذي يمكن أن يخلعوه على ساعاتهم الأخيرة.. بيد أنهم بدأوا يملون هذا أيضاً. وأصبح أعداؤهم لا يظهرون إلا نادراً، بعد أن أحسنوا التحصن شيئاً فشيئاً. وبدا كأن القتال قد ضعف أثناء الليل، وأن هذا النهار الوليد الذي يكشف عن شبح عدو واحد، يصل لهم التحرر، كما حل الليل سحبهم، وهو عاطر واضح الظلال. وأصبح انعكاس ضوء النهار رمادياً شاحباً، على سقوف المنازل، وفوق المعركة المتوقفة، بدا كأن النور يمتص قطعاً كبيرة من الليل، دون أن يترك أمام المنازل سوى مثلثات سود. وطفقت الظلال تنكمش رويداً رويداً، وكان النظر إليها يتيح للمرء ألا يفكر في الرجال الذين سيلقون حتفهم هناك. كانت هذه الظلال تتقلص كما تفعل كل يوم في حركتها الأبدية، وإن تكن تفعل اليوم ذلك في فخامة وحشية، لأنهم لن يروها بعد ذلك أبداً. وفجأة انبثت النوافذ المقابلة جميعاً، وانهمر الرصاص صوب الباب كأنه حفنة من الحصى: كان أحد رجالهم قد أبرز سترة فوق طرف عصا.. وقنع العدو بموقف المراقبة.

قال همليريش: «١١، ١٢، ١٣، ١٤» وكان يحصي الجثث التي ظهرت الآن في عرض الشارع.

وأجاب كاتوف بصوت يكاد يكون منخفضاً: «هذا كله مضيعة للوقت.. وما عليهم إلا أن ينتظروا... فالنهار لهم».

ولم يكن هناك سوى خمسة من الجرحى مستلقين في الحجرة، ولم يكونوا يتأوهون، بل كان منهم اثنان يدخنان وهما يتطلعان إلى النهار الذي بدأ يبزغ بين الجدار والمراتب. وعلى مسافة أبعد، كان «سوين»، ومقاتل آخر يحرسان النافذة الثانية. وكادت طلقات الرصاص أن تنقطع.. هل كانت قوات تشانج - كاي - شيك تنتظر في كل مكان؟ وحين كان الشيوعيون هم المنتصرين في الشهر السابق، فإنهم كانوا يعرفون تقدم تلك القوات ساعة بساعة، ولكنهم اليوم لا يعرفون شيئاً، كما كان المنهزمون حينذاك لا يعرفون شيئاً. وانفتح باب المنزل المعادي، وكأنما ليؤكد ما قاله كاتوف منذ لحظة (كان المنزلان أحدهما في مواجهة الآخر)، وفي الحال، أنبأت فرقة مدفع رشاش الشيوعيين بما يجري حولهم. وحدث كاتوف نفسه قائلاً: «إنهم يحملون المدفع عن طريق الأسطح».

- «من هنا!».

وكان رجاله المشرفون على المدفع الرشاش هم الذين ينادون. فخرج همليريش وكاتوف كصاً، بعد أن أدركا الموقف: إن المدفع الرشاش المعادي - الذي تحميه دون شك درع من الصلب - يطلق نيرانه بلا توقف. ولم يكن ثمة شيوعيون في ممر مركز الإسعاف، نظراً لأن هذا الممر يقع تحت نيران مدفعهم الرشاش الذي يسيطر من أعلى درجة في السلم - وهو مصوب إلى أسفل - على طريق دخول أعدائهم. غير أن الدرع المصفحة تحمي الآن هؤلاء الأعداء. ومع ذلك فلا بد قبل كل شيء - من الاستمرار في إطلاق النار. وكان المداف قد سقط على جانبه، صريعاً بلا شك! وكان خزان المدفع هو الذي صرع... وطفق

علا الخزان، ثم يطلق النار، رصاصة تلو رصاصة. وكان الرصاص يجعل قطعاً من خشب السلم ومن قشرة الحائط تتطاير، وكانت بعض الأصوات المكتومة التي تنبعث في فترات غريبة السرعة من الصمت تدل على أن بعض تلك الرصاصات يدخل في جسد شخص حي أو ميت. ووثب هلمريش وكانوف، وزمجر البلجيكي قائلاً: «لن تكون أنت!»، وبضربة من كتفه نحى كانوف، فتدحرج في الدهليز، ووثب هو إلى مكان الحداف. وكان العدو يطلق نيرانه الآن في مكان أشد انخفاضاً.. ولم يستمر إطلاقه طويلاً، وسأل هلمريش: «أما زالت هناك ضمادات؟»، وبدلاً من أن يجيب أبرز مالك خزان المدفع الرشاش رأسه إلى الأمام، وهبط السلم كله، ولاحظ هلمريش أنه لا يعرف كيف يحشو مدفعاً.

وصعد في قفزة واحدة وأحس أن عينه وسمانة ساقه قد أصيبت إصابة خفيفة. وفي الدهليز، فوق الزاوية التي يطلق العدو منها النار، توقف: ولم تكن عينه قد أصيبت إلا بقطعة من الجص انفصلت عن الحائط برصاصة، وكانت سمانة ساقه تنزف: فقد أصيبت إصابة سطحية برصاصة أخرى. لقد دخل الآن الحجرة التي كان بها كانوف متكئاً، يجذب نحوه مرتبة بإحدى يديه (لا لكي يحتمي وراءها، بل ليختبئ) ويمسك بالأخرى مجموعة من القنابل اليدوية: إذ كانت القنابل اليدوية - إذا انفجرت - هي التي تستطيع وحدها أن تؤثر في الدرع المصفحة.

وكان لا بدّ من إلقائها من النافذة في ممر الأعداء. ووضع كانوف مجموعة أخرى وراءه، فأمسك بها هلمريش وألقاها في نفس الوقت الذي قذف فيه كانوف بمجموعة من فوق المرتبة. ووجد كانوف نفسه ملقى على الأرض، وقد حصده الرصاص، وكأن قنابله اليدوية هي التي طرحته أرضاً: فبمجرد ظهور رأسيهما وأذرعهما من وراء المرتبة، انهال عليهما الرصاص من النوافذ جميعاً - ألم تكن هذه الفرقعة الشبيهة بفرقعة عيدان الكبريت صادرة عن ساقية؟، ألقى هلمريش على نفسه هذا السؤال بعد أن انبطح في الوقت المناسب. وما برحت الرصاصات تدخل دائماً، غير أن الجدار كان يحمي رجلين الآن بعد أن سقطا: إذ كانت فتحة النافذة على بعد ستين سنتيمتراً فوق الأرض. وعلى الرغم من طلقات البنادق كان هلمريش يشعر بالسكون، فقد صمت المدفعان الرشاشان وتقدم على مرفقه صوب كانوف الذي لم يكن يبدي حراكاً، وجره من كتفيه. وتبادل الاثنان النظرات في صمت، خارج نطاق الرصاص: وكان نور النهار الساطع قد أضاع الغرفة الآن على الرغم من التراب والاستحكامات. وفقد كانوف وعيه، وقد نفثت مخدته بقعة حمراء أخذت تتسع على أرض الحجرة وكأنها موضوعة على شافة. وتناهى إلى هلمريش صوت سوين وهو يصيح: «المدافع!»، ثم انطلق انفجار هائل بلا دوي، وفي اللحظة التي رفع فيها رأسه، تلقى صدمة عند قاعدة أنفه، وفقد وعيه بدوره.

وثاب هلمريش إلى رشده شيئاً فشيئاً، صاعداً من الأعماق صوب هذا السطح من الصمت الغريب، حتى لقد خيل إليه أنه هو الذي يبعث فيه الحياة: لقد كف المدفع عن الانطلاق. وكان المدفع قد تحطم بزاوية مائلة. وعلى الأرض، وقد غطتهم قطع الجص والحطام، رقد كانوف والآخرون، فاقدين وعيهم، أو فارقتهم الحياة. وكان يشعر بغثيان شديد، بالجص. ولم يكن الجرح الذي أصيب به في سمانة ساقه خطيراً. وزحف حتى بلغ الباب، وعند الدهليز، تمكن من النهوض متثاقلاً مستنداً على الجدار. وباستثناء رأسه الذي وقعت عليه قطعة انفصلت عن البناء، فقد كان ألمه منتشراً لا يستطيع له تحديداً، ونزل متعلقاً بالسياج.. لا على السلم المؤدي الى الشارع حيث ينتظر الأعداء دائماً، بلا شك، ولكن على السلم المؤدي الى الفناء. كان قد انقطع إطلاق النار.. وكانت جدران ممر الدخول مليئة بالفجوات التي كانت تؤوي فيما سبق مناضد. فألقى بنفسه في أول فجوة صادفها، ونظر إلى الفناء.

إلى يمين منزل يبدو مهجوراً (وإن كان على يقين من أنه ليس كذلك) كانت هناك حظيرة من صفيح، وعلى بعد منزل به حافتان بارزتان كالقرنين (على طراز المعابد الهندية)، وصف من الأعمدة الخشبية التي يتناقص طولها شيئاً فشيئاً حتى تغوص صوب الريف الذي لن يراه أبداً. وكانت الأسلاك الشائكة المتشابكة عبر الباب تخطط هذا المنظر الميت والنهار الرمادي بخطوط سوداء، كأنها تصدعات في وعاء صيني. وظهر شبح وراء هذا المنظر.. شبح أشبه بالدب: إنه رجل قادم بوجهه وقد انحنى ظهره تماماً، وبدأ يتعلق بالأسلاك الشائكة.

وكان رصاص هلمريش قد نفد، فجعل يتابع ببصره هذه الكتلة التي تمر من سلك إلى آخر قبل أن تستطيع التنبؤ بحركتها (كانت الأسلاك واضحة في ضوء النهار، ولكنها كانت خارج منظوره)، وتعلقت الكتلة، ثم سقطت، وتعلقت من جديد، كالحشرة الضخمة. واقترب هلمريش ملتصقاً بالحائط. وكان من الواضح أن الرجل سيعبر، ومع ذلك فقد حدث في هذه اللحظة أن أخذ - بعد أن تورط - يحاول التخلص من الأسلاك التي اشتبكت بثيابه وهو يصدر قباعاً[1] غريباً، وخيل إلى هلمريش أن هذه الحشرة المتوحشة يمكن أن تبقى هناك إلى الأبد هائلة مطوية على نفسها، غير أنها مدت يداً واضحة سوداء مفتوحة متباعدة الأصابع لتمسك بسلك آخر، وواصل الجسم حركته.

(١) الصوت الذي يحدثه الخنزير

وكانت هذه هي النهاية.. فوارده، الشارع والمدفع الرشاش، وفوق، كاتوف ورجاله منطرحين أرضاً. وهذا المنزل المهجور، القائم في مواجهة المركز بلا شك يكمن فيه ضاربو المدفع الرشاش، أولئك الذين ما زالوا يملكون ذخيرة من الرصاص. فإذا خرج أطلقوا الرصاص على ركبتيه، لكي يأخذوه أسيراً (أحس فجأة، بهشاشة هذه العظام الصغيرة، الرضفات)[2] ولكنه ربما استطاع على الأقل أن يقتل هذا الشخص.

ومضى هذا المسخ المؤلف من الدب والإنسان والعنكبوت يخلص نفسه من الأسلاك. وإلى جانب كتلته السوداء، كان ثمة خط من النور يحدد ضلع مسدسه. وأحس هلمريش بنفسه كأنه في أعماق ثقب، أقل افتتاناً بهذا المخلوق البطيء الذي يقترب كالموت نفسه، منه بكل ما يعقبه، بكل ما سيسحقه مرة أخرى كغطاء التابوت حين يطبق على إنسان حي. وكان ما خنق حياة أيامه جميعاً، هو الذي يعود ها هنا ليسحقه بضربة واحدة. «لقد طحنتوني طيلة سبعة وثلاثين عاماً، وسيقتلونني الآن». ولم يكن عذابه هو الذي يقترب فحسب، بل كان عذاب زوجته المبقورة البطن، وعذاب ابنه المريض المقتول: لقد امتزج هذا كله في ضباب من العطش والحمى والحقد. وأحس من جديد ببقعة الدم على يده اليسرى، دون أن ينظر إليها. ولم تكن كالحرق أو كشيء يضايقه، بل كل ما في الأمر أنه كان يعلم أنها موجودة هناك، وأن هذا الرجل سيخرج في نهاية الأمر من الأسلاك. وهذا الرجل الذي سيكون أول عابر، لن يقتل أولئك الذين يزحفون في الطابق العلوي في سبيل المال، وإنما من أجل فكرة، من أجل إيمان، وهذا الشبح المتوقف الآن أمام سد الأسلاك الشائكة، كان هلمريش يبغضه، بل يبغض حتى تفكيره - فلم يكن يكفي أن يقتلهم هذا الجنس من السعداء، بل ينبغي أن يعتقد أيضاً أنه على صواب. وكان الطيف - بعد أن شدّ الآن قامته - يمتد بشكل عجيب على القناء الرمادي، وعلى أسلاك البرق التي تغوص في الهدوء الذي لا حد له لهذا الصباح الربيعي المطر. ومن إحدى النوافذ ارتفعت صيحة نداء، رد عليها الرجل، وملأت اجابته الدهليز، وأحاطت بهلمريش. واختفى خط النور الواقع على المسدس، غائصاً في الجراب، وحل مكانه قضيب مسطح يكاد يكون أبيض في هذه العتمة: كان الرجل يسحب حربته.. ولم يكن رجلاً، بل كان كل ما عاناه هملريش حتى هذه اللحظة. وفي هذا الدهليز المظلم، وازاء هؤلاء الجنود القابعين وراء المدفع الرشاش عبر الباب، وهذا العدو الذي يدنو.. مس البلجيكي جنون الحقد، وبدا له أن دم أهله لم يعد بقعة دم على يده، بل إنه ما زال سائلاً وساخناً. «هكذا قد أذاقونا جميعاً الموت طيلة حياتنا.. ولكن هذا سيدفع الثمن.. سيدفع الثمن....» واقترب الرجل - خطوة خطوة،

(2) الرضفات جمع رضفة وهي صابونة الركبة.

وقد شهر حربته إلى الأمام. وجلس هملريش القرفصاء، وأبصر على الفور أن الطيف يكبر، بينما أخذ الجذع يتصاغر فوق ساقين قويتين كالأوتاد. وفي اللحظة التي وصلت فيها الحربة فوق رأسه، نهض وتعلقت يده اليمنى بعنق الرجل، وجعل يضغط عليها. وسقطت الحربة من جراء الصدمة. وكان هذا العنق أضخم من أن تطوقه يد واحدة، فغاص الابهام وأطراف الأصابع في تشنج داخل اللحم بدلاً من أن توقف تنفسه، غير أن يده الأخرى كانت قد أصيبت بالجنون، فأخذت تخبط على الوجه اللاهث في غضب عنيف. وطفق هملريش يزمجر قائلاً: «ستدفع الثمن! ستدفع الثمن!» وترنح الرجل، وبغريزته استند إلى الحائط. ودق هملريش رأسه على الحائط بكل قوته، وانحنى لحظة، وأحس الرجل الصيني بجسم ضخم يدخل فيه، ويمزق أحشاءه: إنها الحربة. وفتح يديه الاثنتين، ثم وضعهما على بطنه وهو يئن أنيناً حاداً، وسقط، وكتفاه إلى الأمام، بين ساقي هلمريش، ثم ارتخى دفعة واحدة، وعلى يده المفتوحة سقطت قطرة من الدم من الحربة تبعتها قطرة أخرى. وكأن هذه اليد التي تتلطخ لحظة بعد أخرى بالدم، كانت رمزاً لثأره، ولهذا تجاسر هملريش أخيراً ونظر إلى يده، فأدرك أن بقعة الدم قد امحت منذ ساعات.

واكتشف أنه قد لا يموت. فاندفع يجرد الضابط من ثيابه وقد استولى عليه في وقت واحد الحب لهذا الرجل الذي جاء يحمل له الخلاص، والغضب لأن ثيابه لا تنتزع بسرعة كافية من جسمه، وكأنه يحتجزها. وأخذ يهز هذا الجسد المنقذ، وكأنه يرقصه ليسقط عنه الثياب. وأخيراً، ارتدى حلة الضابط، وأظهر نفسه من النافذة المطلة على الشارع، وقد أخفى وجهه المائل بحافة الكاسكيت، وفتح الأعداء الرابضون في مواجهة المركز - النوافذ وهم يتصايحون: «ينبغي أن أنجو بجلدي قبل أن يصلوا إلى هنا». وخرج من جانب الشارع، ثم انعطف إلى اليسار، كما كان ينبغي أن يفعل الرجل الذي قتله، لكي يلحق بجماعته.

وصاح الرجال الواقفون في النافذة: «أسرى!».

وأتى مصادفة بحركة صوب أولئك الذين كان من المفروض أن ينضم إليهم. وكان امتناعهم عن إطلاق النار عليه شيئاً طبيعياً وغبياً في الوقت نفسه، إذ لم يتبق في نفسه شيء من الدهشة. واستدار إلى اليسار مرة أخرى، وانصرف نحو منطقة الامتيازات. وكانت هذه المنطقة محروسة، ولكنه كان يعرف جميع المنازل ذات المدخلين التي توجد في شارع «الجمهوريتين».

وكان رجال الكومنتانغ قد شرعوا يخرجون، الواحد تلو الآخر.



الجزء السادس

الساعة العاشرة

قال الحارس: «مؤقتاً».

وأدرك كيو أنهم يزجون به في السجن العام.

وما أن دخل السجن، بل وقبل أن يستطيع النظر، صدمته الرائحة الكريهة: مزيج من السلخانة، ومعرض الكلاب، والمراحيض. وكان الباب الذي اجتازه لتوه يؤدي إلى دهليز شبيه بالدهليز الذي غادره، وعلى اليمين، وعلى اليسار، وحتى السقف قضبان خشبية ضخمة. وفي تلك الأقفاص الخشبية، كان ثمة رجال. وفي الوسط، كان السجان يجلس إلى منضدة صغيرة عليها سوط: مقبضه قصير، وذبالته مفرطحة عريضة كالكف، وسمكها سمك أصبع.. وقصارى القول إنه سلاح. قال: «ابق هنا، يا ابن الخنزير».

وكتب الرجل الذي اعتاد الظلام - البيانات المطلوبة عن أوصافه. وكان كيو ما زال يعاني من ألم رأسه، وأعطاه السكون إحساساً بأنه سيغمى عليه، فاستند بظهره على القضبان.

وصاح صوت من خلفه: «كيف.. كيف.. كيف حالك؟»

كان صوتاً غريباً كصوت الببغاء، ولكنه صوت إنسان. وكان المكان من الظلمة بحيث لم يستطع أن يميز وجهه، إذ لم يكن يبصر سوى أصابع ضخمة متشبثة بالقضبان - غير بعيد عن عنقه. ووراءها كانت أشباح مسرفة في الطول تتزاحم، منها ما رقد على أرائك خشبية، ومنها ما ظل واقفاً: رجال أشبه بالدود.

أجاب وهو يتنحى: «لست على ما يرام تماماً».

وقال السجان: «اغلق فمك.. يا ابن السلحفاة.. إذا كنت لا تريد أن تتلقى يدي فوق فمك».

وكان كيو قد استمع عدة مرات إلى كلمة «مؤقت» وبذلك أدرك أنه لن يبقى طويلاً في هذا المكان. واعتزم ألا يستمع إلى الشتائم، وأن يحتمل كل ما يمكن احتماله، المهم هو أن يخرج من هنا لمواصلة الكفاح. ومع ذلك، فقد أحس إلى درجة الغثيان بالمذلة التي يشعر بها كل إنسان أمام الانسان الذي يخضع له تمام الخضوع: عاجزاً حيال هذا الشبح القذر ذي السوط - مسلوباً من نفسه.

وصاح الصوت من جديد: «كيف.. كيف.. كيف حالك؟»

وفتح السجان بابا، يتخلل لحس الحظ قضبان اليسار: ودخل كيو الاصطبل. وفي مؤخرته، كانت هناك أريكة خشبية يرقد عليها رجل واحد. وأعيد إغلاق الباب.

وسأله الرجل: «سجين سياسي؟».

- «أجل. وأنت؟».

- «كلا. كنت في عهد الامبراطورية من المناذرة (المثقفين)..»

وبدأ كيو يتعود على الظلمة.. وبالفعل كان محدثه رجلاً مسناً، أشبه بالقط الأبيض العجوز الذي يكاد يكون بلا أنف، وله شارب هزيل وأذنان مدببتان:

- «... إنني أبيع النساء.. وحين تكون تجارتي رائجة، أعطي نقوداً للبوليس، فيتركني في سلام.. وحين تسوء الأحوال يعتقد انني أضن عليه بالمال، فيزج بي في السجن. ولما كانت الأحوال سيئة في الوقت الحاضر، فإنني أفضل أن أطعم في السجن بدلاً من أن أموت جوعاً وأنا متمتع بحريتي...»

- «هنا!».

- «فلتعلم.. إن المرء يعتاد على ذلك.. والأحوال في الخارج كذلك ليست حسنة جداً، حين يكون المرء عجوزاً مثلي، وضعيفاً...»

- «ولكن، كيف لم توضع مع الآخرين؟».

- «إنني أرشو كاتب السجن أحياناً.. وهكذا، في كل مرة أحضر إلى هنا، أضم إلى فئة المساجين (المؤقتين)».

وحل السجان الطعام: أدخل من بين القضبان سلطانيتين صغيرتين مليئتين بعجينة بلون الوحل ينبعث منها بخار آسن كالجو المحيط بالمكان. لقد دس مغرفة في قدر من الفخار، وقذف بالعجينة المتماسكة في كل سلطانية صغيرة، فسقطت فيها محدثة صوتاً كالطبل، ثم انصرف إلى المساجين القابعين في القفص الآخر، واحداً واحداً.

قال صوت: «لا داع لذلك: فالموعد غداً». (وقال المثقف العجوز لـ «كيو» إنه يعني بذلك تنفيذ حكم الإعدام فيه).

وقال صوت آخر: «وأنا أيضاً.. وعلى هذا يمكنك أن تعطيني ضعف كمية العجين، فإن التفكير فيما سيحدث غداً، يجعلني أشعر بالجوع».

وسأله الحارس: «أتريد قبضتي على فمك؟».

ودخل جندي، ليسأله سؤالاً. فاجتاز القفص الأيمن، وضرب جسداً في رفق، وقال:

- «إنه يتحرك.. ليس من شك أنه ما زال حياً...»

وانصرف الجندي.

ومد «كيو» بصره بكل انتباهه محاولاً أن يرى إلى أي هذه الأشباح تنتمي تلك الأصوات التي اشتد قربها من الموت، ولعله قد بات مثلها. ولم يستطع أن يميز شيئاً: هؤلاء الرجال سيموتون قبل أن يزيدوا بالنسبة إليه عن مجرد أصوات.

وسأله رفيقه: «أنت لا تأكل؟».

- «كلا».

- «إن الحال يكون دائماً على هذا النحو في البداية...»

وتناول سلطانية كيو. ودخل الحارس، ثم لطم الرجل بكل قوته، وخرج من جديد، حاملاً السلطانية دون أن يتفوه بكلمة.

وتساءل كيو بصوت خفيض: «لماذا لم يلمسني أنا؟».

- «لقد كنت أنا وحدي المذنب، ولكن، ليست هذه هي العلة: فأنت سجين سياسي، مؤقت، كما أنك ترتدي ثياباً أنيقة، ولهذا سيحاول أن ينتزع منك - أو من أهلك - شيئاً من النقود.. ولكن هذا لا يمنع.. انتظر...»

وقال كيو لنفسه: «المال يتعقبني حتى في هذا الجحر!».

وكان المشهد متفقاً مع جو الأساطير، حتى لقد خيل إليه أن خسة السجان خسة غير واقعية تماماً، وبدت له في الوقت نفسه قدراً نتناً، وكأن السلطان يكفي لتحويل كل إنسان إلى حيوان.. كما لم تكن هذه المخلوقات المغمورة التي يعج بها المكان وراء القضبان، والتي تثير الخوف وكأنها الزواحف أو الحشرات الهائلة التي راودت أحلام طفولته.. لم تكن هذه أيضاً من بني البشر. عزلة ومذلة كاملتان. ودار في نفسه: «انتبه» إذ أحس أنه قد ازداد ضعفاً. وخطر له أنه لو لم يكن قد تغلب على فكرة موته، لاتقى بالرعب، وفتح محبس حزامه، ودس قنينة السيانور في جيبه.

وهتف به الصوت من جديد: «كيف.. كيف، كيف حالك؟»

وصاح المساجين من القفص الآخر معاً: «كفى!».

وكان كيو قد تعود الآن على الظلمة، فلم يدهشه عدد الأصوات: فقد كان هناك يزيد على عشرة أجسام راقدة على الأرائك الخشبية، وراء القضبان.

وصاح السجان: « أظنك ستخرس؟ ».

ـ « كيف .. كيف .. حالك؟ ».

ونهض السجان.

وسأل كيو بصوت خافت: « أتراه مهرجاً أم متمرداً؟ »

فأجاب المثقف: « لا هذا ولا ذاك. إنه مجنون ».

ـ « ولكن لماذا ... »

وكف كيو عن توجيه الأسئلة: فقد سد جاره أذنيه. وتردد في الظلمة صياح حاد أجش، ينم عن الألم والرعب في آن واحد. فبينما كان كيو ينظر إلى جاره المثقف، كان السجان قد دخل القفص الآخر بسوطه. وطرقعت ذبالة السوط، فانطلقت الضجة نفسها مرة أخرى. ولم يجرؤ كيو على سد أذنيه، بل النظر، متعلقاً بقضيبين، الصرخة الرهيبة التي ستسري مرة أخرى في جسده حتى أظافره.

قال أحد الأصوات: « أضربه بشدة، حتى يدعنا في سلام! »

وقالت أربعة أو خمسة أصوات: « فليته هذا كله حتى ننام في هدوء ».

ومال المثقف على كيو، ساداً أذنيه دائماً: « هذه هي المرة الحادية عشرة التي يضربه فيها ـ على ما يبدو ـ منذ سبعة أيام. فأنا هنا منذ يومين: وهذه هي المرة الرابعة منذ مجيئي. وعلى الرغم من كل شيء .. فالمرء يسمع قليلاً .. وأنا لا أستطيع أن أغمض عيني، كما ترى: إذ يخيل إلي أنني حين أنظر إليه، فكأني أمد له يد المساعدة، وأنني لا أتخلى عنه ... »

ونظر كيو أيضاً، ولكنه لم يكد يبصر شيئاً .. وتساءل في فزع: « شفقة أم قسوة؟ » إن كل ما هو منحط في الإنسان، وكل ما هو قابل للافتتان قد أهيب به هنا في عنف وحشي كأشد ما تكون الوحشية، وكان كيو يصارع بكل فكره هذا الهوان الانساني: وتذكر الجهد الذي كان ضرورياً بالنسبة إليه دائماً لكي يفر من رؤية الأجسام الإنسانية المعذبة إذا التقى بها مصادفة، كان ينتزع نفسه انتزاعاً من مثل هذا المشهد. أما أن بشراً يستطيعون شهود رجل مجنون، غير مؤذ ـ بل عجوز بلا ريب إذا حكمنا عليه من صوته ـ ويوافقون على تعذيبه، فقد استحضر هذا إلى ذاكرته نفس الفزع الذي أحس به حين أفضى إليه تشن باعترافاته، ليلة هانكيو: « الأخطبوط ... ». وقد حدثه كاتوف عن المجهود الذي يبذله طالب الطب حين يفتح أمامه ـ للمرة الأولى ـ بطن إنسان، فيسفر عن أعضاء حية. إنه نفس الرعب الذي يشل المرء، الرعب الذي يختلف اختلافاً تاماً عن الخوف، رعب حيار حتى قبل أن يحكم عليه الذهن الواعي، وإنه لرعب أبعث على الحيرة بمقدار ما أحس كيو

بخضوعه له. ومع ذلك، فإن عينيه اللتين كانتا أقل تعوداً على الظلمة من عيني رفيقه، لم تميزا سوى ومضة الجلد التي تنتزع الأنات كأنها خطاف. ومنذ الضربة الأولى، لم يبد حراكاً، بل ظل متشبثاً بالقضبان، وقد وضع يديه في مستوى وجهه. ولكنه لم يلبث أن صاح:

ـ « أيها السجان! »

ـ « أتريد ضربة؟ »

ـ « أريد أن أكلمك. »

ـ « نعم؟ »

وبينما كان السجان يغلق القفل الضخم غاضباً، أخذ المذنبون الذين تركهم يتواثبون، إذ كانوا يبغضون المسجونين « السياسيين » الذين لم يكونوا يختلطون بهم.

ـ « أقدم، أيها السجان، أقدم! دعنا نضحك! ».

وكان الرجل قد وقف في مواجهة كيو، يشطر جسمه رأسياً قضيب من القضبان الحديدية، ويعبر وجهه عن أحقر أنواع الغضب .. غضب الأحمق الذي يعتقد أن سلطته موضع الاعتراض، ومع ذلك، لم تكن ملامحه خسيسة: فهي، منتظمة. عادية.

قال كيو: « اسمع .. »

وحدق كل منهما في عيني الآخر، وكان السجان أطول من كيو الذي ما برحت يداه متشبثتين بالقضبان على كل من جانبي رأسه. وقبل أن يفطن كيو إلى ما حدث، خيل إليه أن يده اليسرى قد تمزقت إرباً: فقد هوى السوط الذي يمسك به السجان خلف ظهره، على يده بكل قوة .. ولم يستطع كيو أن يمنع نفسه من الصراخ.

ودمدم المساجين الذين يقفون قبالته: « حسن جداً! .. لقد جاء دورهم. »

وكانت يدا كيو قد سقطتا بطول جسمه، وقد استولى عليها خوف ذاتي، دون أن يلحظ هو شيئاً من ذلك.

وسأله الحارس: « ألديك شيء آخر تريد أن تقوله؟ ».

وكان السوط الآن بينهما.

وصر كيو على أسنانه بكل قوته، وبنفس المجهود الذي يحتاج إليه لرفع ثقل هائل، ودون أن تفارق عيناه الحارس، حول يديه مرة أخرى نحو القضبان. وبينما كان يرفعهما متمهلاً، تراجع الرجل تراجعاً غير ملحوظ، لكي يفسح لحركته مكاناً .. وفرقع السوط على القضبان هذه المرة. وكان رد الفعل المنعكس أقوى من كيو. فسحب يديه، ولكنه

أعادها فوراً في توتر أرهق كتفيه، فأدرك الحارس من نظرته أنه لن يسحبها هذه المرة، فبصق في وجهه ورفع السوط مشدداً.

قال كيو: «إذا أنت... كففت عن ضرب المجنون.. فسوف أعطيك حين أخرج.. خمسين دولاراً».

ولاح التردد على السجان، ولكنه قال أخيراً:

- «طيب».

ونحى نظرته بعيداً، وأحس كيو أنه تخلص من توتر عنيف حتى ظن أنه على وشك الإغماء. وكانت يده اليسرى تؤلمه إلى درجة أنه لم يكن يستطيع أن يطبقها. ورفعها في نفس الوقت الذي رفع فيه يده الأخرى إلى مستوى كتفيه، وتركها ممدودة، في هذا الوضع.

وانطلقت ضحكات أخرى.

وسأله الحارس وهو يقهقه أيضاً: «أتبسط لي يدك؟».

وصافحه. وأحس كيو أنه لن ينسى طوال حياته هذه الضغطة على اليد، لا بسبب ما عاناه من ألم، ولكن لأن الحياة لم تفرض عليه شيئاً أبشع من ذلك. فسحب يده، وألقى بنفسه على الأريكة. وتردد الحارس، وهز رأسه وهو يحكه بمقبض السوط، ثم عاد إلى المنضدة، بينما طفق الرجل المجنون ينشج بالبكاء.

ومرت ساعات رتيبة من المهانة. وأخيراً، أقبل عدد من جنود يطلبون كيو لاقتياده إلى الشرطة الخصوصية. لعلهم يسوقونه إلى الموت، ومع ذلك، فقد خرج في فرحة أدهشه عنفها: فقد خيل إليه أنه ترك هناك شطراً دنساً من نفسه.

- «ادخل!»

ودفع أحد الحراس الصينيين «كيو» من كتفه، ولكن دون لكز، ذلك أن الحراس حين يتعاملون مع الأجانب (وكان كيو بالنسبة للشخص الصيني يابانياً أو أوروبياً، ولكنه أجنبي بكل تأكيد) كانوا يخففون من الوحشية التي يعتقدون أنهم ملزمون باتباعها.. وبإشارة من كونيج، ظلوا خارج الحجرة. وتقدم كيو صوب المكتب، مخفياً في جيبه يده اليسرى المتورمة، ناظراً إلى هذا الرجل الذي أخذ بدوره يبحث عن عينيه: وجه حليق حاد الزوايا، أنف منحرف، وشعر ممشط: «من الجلي أن رجلاً سيأمر بقتلك دون شك - يشبه أي رجل آخر» ومدّ كونيج يده نحو مسدسه الموضوع على المائدة: كلا.. لقد تناول علبة السجاير، وقدمها لـه كيو».

- «شكراً.. إني لا أدخن».

- «إن طعام السجن كريه، كما ينبغي أن يكون، فهل تحب أن تتناول غداءك معي؟».

وعلى المائدة، كانت القهوة، والبن، وفنجانان، وشرائح من الخبز.

- «بعض الخبز فحسب. أشكرك».

وابتسم كونيج:

- «إنه نفس وعاء القهوة لي ولك، كما ترى...».

وكان كيو قد حزم أمره على الحذر، ومهما يكن من أمر، فإن كونيج لم يلح في شيء. وظل كيو واقفاً (لم يكن هناك مقاعد) أمام المكتب، وهو يقضم خبزه كالطفل. وكان كل شيء بعد مهانة السجن يتسم بخفة غير حقيقية. وكان يعلم أن حياته في خطر، بيد أن الموت نفسه بدا له أمراً بسيطاً. وأوحت إليه إنسانية رئيس الشرطة بشيء قليل من الثقة، وقد ظل كونيج بعيداً عنه، وكأنه منفصل عن أريحيته: فهي متقدمة قليلاً، وهو متأخر قليلاً. ومع ذلك، لم يكن من المحال أن تصدر رقة هذا الرجل عن اللامبالاة: فهو من الجنس الأبيض، وربما انتهى إلى هذه المهنة عن طريق المصادفة، أو الجشع. وكان هذا ما يتمناه كيو الذي لم يكن يشعر نحوه بأي تعاطف، ولكنه كان يريد أن يستريح، أن يتخلص من التوتر الذي أرهقه في السجن، واكتشف مبلغ الارهاق الذي يلحق بالمرء حين يكون مرغماً على اللجوء كلية إلى ذاته.

ودق جرس التليفون.

وقال كونيج: «آلو. أجل، جيسور، كيوشي[1].. تماماً. إنه عندي».

ثم قال مخاطباً كيو: «يسألونني عما إذا كنت ما زلت حياً».

- «لماذا أرسلت في طلبي؟»

- «أعتقد أننا سنتفاهم».

التليفون من جديد.

- «آلو. كلا... كنت أقول له إننا سنتفاهم بكل تأكيد. رمياً بالرصاص؟ اتصل بي مرة أخرى. سنرى».

ومنذ أن دخل كيو، لم تتحول نظرة كونيج عن عينيه.

وسأله وهو يغلق السماعة: «ما رأيك في الموضوع؟».

- «لا شيء».

---

(1) «كيو» اختصار لاسم «كيوشي».

وخفض كونيج عينيه ، ثم رفعهما :

ـ « هل أنت حريص على الحياة ؟ » .

ـ « هذا يتوقف على الكيفية التي عليها أعيش » .

ـ « من الممكن أيضاً أن يموت المرء بطرق متباينة . »

ـ « ليس لنا أن نختار ... »

ـ « أعتقد أننا نختار دائماً طريقتنا في الحياة ؟ »

وكان « كونيج » يفكر في نفسه . أما كيو ، فكان قد اعتزم ألا يتزل عن أي شيء جوهري ، ولكنه لم يكن يريد في الوقت نفسه أن يثير غضبه :

ـ « لا أدري ، وأنت ؟ » .

ـ « لقد قالوا لي : إنك شيوعي ، بدافع .. من الكرامة .. فهل هذا صحيح ؟ » .

ولم يفهم كيو بادئ الأمر ، إذ كان يتساءل ـ وهو ينتظر في توتر أن يدق جرس التليفون ـ ماذا يعنيه هذا الاستجواب الغريب ، وأخيراً سأل كونيج : « أتهم بهذا حقاً ؟ » .

ـ « أكثر مما يمكن أن تظن . »

وكان ثمة تهديد يشيع في لهجته ، وإن لم يظهر في عبارته نفسها ، وأجاب كيو :

ـ « أعتقد أن الشيوعية ستجعل الكرامة ممكنة بالنسبة لأولئك الذين أحارب معهم . وعلى كل حال فإن القوة المضادة للشيوعية ترغمهم على ألا تكون لهم كرامة ، اللهم إلا إذا كانت لهم حكمة .. والحكمة نادرة بينهم ، كما هي نادرة بين غيرهم .. بل ربما كانت أشد ندرة بينهم لأنهم فقراء ، ولأن عملهم يفصلهم عن حياتهم . لماذا سألتني هذا السؤال ، ما دمت لا تصغي لإجابتي ؟ »

ـ « ماذا تعني بالكرامة ؟ إنها لا تعني شيئاً على الإطلاق » .

ودق جرس التليفون . وقال كيو لنفسه : « حياتي » ، ولم يرفع كونيج السماعة .

قال كيو : « إنها ضد المذلة .. وحين يأتي المرء من حيث أتيت ، فإنها تعني شيئاً » .

وظل جرس التليفون يرن دون مجيب ، فوضع كونيج يده على الجهاز وألقى هذا السؤال فحسب : « أين أخفيت الأسلحة ؟ »

ـ « لا تستطيع أن تدع التليفون هادئاً . لقد فهمت أخيراً ، إن هذه المكالمة مجرد تمثيلية تقومون بإخراجها من أجلي . »

والتقى كيو بسرعة ، فقد كان كونيج على وشك أن يقذف على رأسه بأحد المسدسين ، الفارغ طبعاً ، ولكنه وضعه على المنضدة .

وقال : « عندي ما هو أفضل من ذلك .. أما فيما يتعلق بالتليفون ، فسرعان ما سترى إن كان مجرد حيلة ، أيها العزيز .. هل سبق لك أن شاهدت شخصاً يعذبونه ؟ » .

وحاول كيو أن يضم أصابعه المتورمة في جيبه . وكان « السيانور » في هذا الجيب الأيسر ، فخشي أن يسقط منه إذا حاول أن يرفعه إلى فمه .

ـ « لقد شاهدت على الأقل أناساً عذبوا : فقد خضت غمار الحرب الأهلية . وما يدهشني ، هو لماذا سألتني عن المكان الذي خُبِّئت فيه الأسلحة .. فأنت تعرف مكانها ، أو ستعرف ـ فلماذا تسألني ؟ » .

ـ « لقد سحق الشيوعيون في كل مكان » .

وظل كيو صامتاً .

ـ « لقد سحقوا فعلاً . فكر ملياً : إذا اشتغلت من أجلنا ، فقد نجوت ، ولن يعلم ذلك أحد .. إني أدبر أمر هربك ... »

وحدث كيو نفسه قائلاً : « كان لا بد أن يبدأ الأمر على هذا النحو » . ومنحته المعصية قدرة على السخرية ، وإن لم يكن يريدها . ولكنه كان يعرف أن البوليس لا يقنع بالعهود المشكوك فيها . ومع ذلك ، فقد أدهشه هذا العرض ، وكأنه عرض تقليدي ـ قد كف عن أن يكون حقيقياً .

واستطرد كونيج قائلاً : « أنا وحدي الذي سأعرف . هذا يكفي ... »

وتساءل كيو : « لماذا هذا الاعتداد الذي تنطق به عبارة « هذا يكفي ؟ » .

وأجاب في صوت محايد : « لن أدخل في خدمتك » .

ـ « حذار ، فإنني أستطيع أن أرسلك إلى البوليس السري مع عشرة من الأبرياء قائلاً لهم : إن مصيرهم مرهون بك ، وإنهم سيبقون في السجن إذا لم تتكلم ، وإنهم أحرار في اختيار وسائلهم ... »

ـ « الجلادون ، أبسط من ذلك كثيراً ... »

ـ « هذا خطأ . فإن تعاقب الصراعات وألوان القسوة خير من ذلك . لا تتحدث عما لا تعرف ... بعد على الأقل » .

ـ « لقد شاهدتهم تقريباً يعذبون مجنوناً .. مجنوناً .. أتفهمني ؟ »

ـ « هل تقدر المخاطرة التي تخاطرها تمام التقدير ؟ » .

ـ « قلت لك ، إني اشتركت في الحرب الأهلية .. فأنا أعرف . ولقد قام رجالنا أيضاً بالتعذيب فلا بد من مبررات كثيرة للناس لكي نعوض هذا الذي ارتكبناه .. وعلى أي حال ، فإن ألتحق بخدمتكم »

وظن كونيج أنه على الرغم مما قاله له « كيو » فإنه لم يفطن إلى وطأة الخطر الذي كان يتهدده. وقال لنفسه: « إن شبابه يساعده ». وكان قد استجوب منذ ساعتين، سجيناً من الشيكا، ولم تمض عشر دقائق حتى كانا قد تآخيا؛ ذلك أن كلاً منهما كان ينتمي إلى عالم لم يعد هو عالم الناس، وإذا كان « كيو » لا يخاف نظراً لقصور في خياله، فصبراً...

ـ « ألم تسأل نفسك لماذا لم أقذف بالمسدس في وجهك؟ »

ـ « إنني أعتقد أنني قريب من الموت.. وهذا يطفئْ حب الاستطلاع. وقد قلت إن لديك وسائل أفضل... »

ودق « كونيج » الجرس.

ـ « ربما جئت إليك الليلة لأسألك ما رأيك في الكرامة الانسانية ».

وأردف قائلاً للحراس الذين دخلوا: « إلى فناء السجن.. قسم أ ».

* * *

السـاعة الرابعة

اختلط كلاپيك بالحركة التي تدفع جماهير منطقة الامتيازات صوب الأسلاك الشائكة: ففي شارع الجمهوريتين كان الجلاد يمر حاملاً سيفه المقوس على كتفه، تتبعه كوكبة من رجال البوليس المسلحين بمسدسات الموزر. وعاد كلاپيك أدراجه على الفور. وتوغل في منطقة الامتيازات. لقد قبضوا على كيو، وتحطم الدفاع الشيوعي، وقتل عدد كبير من أصدقاء الحركة في المدينة الأوروبية نفسها.. وقد أمهله كونيج حتى المساء: فلن يظل مستمتعاً بالحماية بعد ذلك.. وكانت ثمة طلقات في كل مكان تقريباً. ويخيل إليه، والريح تحملها، أنها تقترب منه ومعها الموت. قال وهو يصر على أسنانه: « لا أريد أن أموت، لا أريد أن أموت... » ولاحظ أنه يركض.. وأخيراً وصل إلى رصيف الميناء.

لم يكن يحمل جواز سفر، كما لم يكن يملك من المال ما يكفي لشراء تذكرة.

ثلاث بواخر، إحداها فرنسية. وتوقف كلاپيك عن الجري. أيختبئ في زوارق النجاة المغطاة بقماش القلوع السميك؟ لا مندوحة له من الصعود إلى السطح، ولن يسمح له الرجل القائم على السلم بالعبور. هذه حماقة، على كل حال.. ماذا عن المخازن الموجودة في بطن الباخرة؟ أحمق. أحمق، أحمق. أيذهب لمقابلة القبطان، بالقوة؟ كم تخلص من مأزق في حياته على هذا النحو! أما في هذه المرة فقد يظنه القبطان شيوعياً، ويرفض قبوله على سفينته. والسفينة سترحل بعد ساعتين، هذه إذن لحظة غير مناسبة لإزعاج القبطان. وإذا اكتشف أمره بعد إبحار الباخرة فسوف يدبر أموره، ولكن، ينبغي الصعود إليها الآن.

وتخيل نفسه في ركن ما، قابعاً في برميل، بيد أن خياله لم ينقذه هذه المرة. وبدا له كأنه يقدم نفسه قرباناً لهذه البواخر الهائلة، الجاثمة، المحملة بالمصائر، التي لا تأبه له إلى درجة الحقد، وكأنما يضرع إليها لتشفع له عند إله مجهول. ووقف ازاء الباخرة الفرنسية، وأخذ ينظر، مفتوناً بسلم الصعود، إلى الناس الذين يصعدون وينزلون (لم يكن منهم من يفكر فيه، أو يخمن لهفته، ولهذا السبب ود لو يقتلهم جميعاً)، وهم يبرزون تذاكرهم أثناء اجتيازهم المعبر. هل يلفق تذكرة زائفة؟ سخف!

ووخزته بعوضة، فهشها، وحينئذ لمس وجنته: لقد بدأت لحيته تنبت. وقرر أن يذهب للحلاقة دون أن يبتعد عن السفينة، وكأن اعتناء المرء بزينته مما ييسر أمر الرحيل. وهناك وراء مخازن البضائع، بين الحانات الأمريكية وحوانيت العاديات، لمح حانوت حلاق صيني وكان صاحب المحل يملك مقهى زرياً أيضاً، ولم يكن يفصل بين تجارتيه سوى حصيرة مشدودة. وجلس كلاپيك ـ منتظراً دوره ـ إلى جانب الحصير، وواصل مراقبة سلم الباخرة. وعلى الجانب الآخر، كان ثمة أشخاص يتحدثون. قال صوت رجل: « هذا هو الثالث ».

أجابه صوت امرأة: « لن يأخذنا أحد ومعنا الطفل. ماذا لو حاولنا الذهاب إلى أحد الفنادق الفخمة، فربما؟... »

ـ « بهذه الثياب التي نرتديها؟ إن البواب ذا الأشرطة سيطردنا قبل أن نلمس الباب ».

ـ « للأطفال الحق في البكاء هناك أيضاً.. فلنحاول مرة أخرى في أي مكان آخر ».

ـ « منذ أن يرى أصحاب الفنادق الطفل، فإنهم سيرفضون. وليست هناك سوى الفنادق الصينية التي يمكن أن تقبل، غير أن الطفل سيمرض بسبب طعامهم القذر ».

ـ « لو أننا استطعنا أن نهرب الطفل، في أحد الفنادق الأوروبية الفقيرة، فربما لم يجرؤوا على إلقائنا إلى الخارج، ما دمنا قد أقمنا فعلاً. ومهما يكن من أمر، فإننا نكون قد كسبنا ليلة. وعلينا أن نلف الطفل حتى يعتقدوا أنه حزمة من الثياب ».

ـ « الثياب لا تصرخ ».

ـ « لن يصرخ و(البزازة) في فمه ».

ـ « ربما... سأدبر الأمر مع الرجل، على أن تلحقي بي فيما بعد. لن تمكثي هكذا أكثر من دقيقة أمامه ».

وساد الصمت. ونظر كلاپيك إلى الصقالة.. وتناهى إلى سمعه حفيف أوراق.

ـ « إنك لا تستطيع أن تتصور كم يحز في نفسي. أن أحمله على هذا النحو. وإني لأشعر أن ذلك سيكون فألاً سيئاً طيلة حياته... وأخشى أن يؤذيه... »

وعاد الصمت من جديد. أتراها قد رحلا؟ وترك الزبون مقعده.. وأشار الحلاق إلى كلابيك، الذي استقر في ذلك المقعد دون أن تتحول عينه عن الباخرة.. وكان السلم خالياً في هذه اللحظة. ولكن ما كاد وجه كلابيك يغطى بالصابون حتى صعد بحار، وقد أمسك بيديه دلوين جديدين (لعله قد اشتراهما لتوه) ووضع مكنسة على كتفه. وتابعه كلابيك بنظراته خطوة خطوة؛ وود لو كان كلباً على شرط أن يصعد الكلب هذا السلم وأن يرحل. ومر البحار أمام الرجل الواقف على «الصقالة» دون أن يقول شيئاً.

ودفع كلابيك أجر الحلاقة، وهو يرمي بقطع النقود على الحوض، ونزع المناشف التي وضعها حول رقبته، وخرج، ممتلئ الوجه بالصابون. وكان يعرف أين يجد بائعي الثياب القديمة.. وحلق الناس فيه. فعاد على أعقابه بعد عشر خطوات، وغسل وجهه، ومضى من جديد.

ووجد - دون عناء - حلة بحار زرقاء عند أول بائع التقى به. وبلغ فندقه بأسرع ما يستطيع، وأبدل ثيابه. «تلزمني أيضاً مكانس أو أي شيء من هذا القبيل. هل اشتري من الخدم مكانس قديمة؟ سحقا: فلماذا يتنزه بحار بمكانسه على البر؟ لكي يتنفس هواء أجمل؟ هذه بلاهة تامة. إنه إذا كان قد اجتاز الصقالة بمكانسه فذلك لأنه ابتاعها من البر.. إذن فلا بد أن تكون المكانس جديدة.. فعلينا بشرائها».

ودخل دكاناً بطريقته «الكلابيكية» المعتادة.. وازاء نظرة الاحتقار التي رشقه بها البائع الانجليزي هتف قائلاً: «في أحضاني!» ووضع المكنسة على كتفه، واستدار، فأسقط مصباحاً من النحاس، وخرج.

وكانت هذه العبارة: «في أحضاني!» تعبر عما يشعر به على الرغم مما فيها من مبالغة مقصودة. فقد كان حتى هذه اللحظة يمثل ملهاة يسودها القلق، إراحة لضميره وبدافع من الخوف، ولكن دون أن يفلت من الفكرة التي لا يستطيع الاعتراف بها لنفسه وهي أنه قد فشل، غير أن ازدراء البائع - على الرغم من أن كلابيك، متناسياً حلته، لم يكن ليتخذ هيئة البحار - اثبت أنه يستطيع النجاح. واتجه صوب الباخرة، والمكنسة فوق كتفه، متطلعاً في سيره إلى العيون جميعاً لكي يجد فيها تأكيداً لمهنته الجديدة. وعاوده مرة أخرى ذلك الذهول الذي أحس به حين كان يقف أمام الصقالة.. ذهول لاحساسه بأن مصيره أمر لا يعمل به الآخرون، وبأنه لا وجود له إلا بالنسبة إلى نفسه. فلقد كان المسافرون يصعدون منذ لحظة دون أن يلتفتوا إلى هذا الرجل الواقف على الرصيف، كما لم يلتفتوا هناك مصيره، والآن ينظر السائلة بلا اكتراث لهذا البحار، ولم يبرز من هذا الحشد شخص مندهش، أو شخص يتعرف عليه، بل ما من وجه ظهر عليه شيء من الفضول.. ولم يكن الأمر أن حياة

زائفة يمكن أن تدهشه، ولكنها فرضت عليه هذه المرة فرضاً، وربما توقفت عليها حياته الحقيقية. وأحس بالظمأ. فتوقف عند مشرب صيني، ووضع مكانسه على الأرض. وما أن شرب، حتى أدرك أنه لم يكن ظمآناً على الاطلاق، بل كان يلتمس اختباراً آخر. وكانت الطريقة التي ناوله بها صاحب المشرب باقي نقوده كافية لكي يعلم ذلك. فمنذ أن أبدل ثيابه، تبدل العالم من حوله. وأخذ يبحث فيم تغير العالم: إنها النظرات التي لم تعد كما كانت. لقد أصبح جليسه العادي المتلقي لحزونه بالكذب جمهوراً من الناس.

وفي الوقت نفسه - سواء أكان الأمر متعلقاً بغريزة الدفاع أو باللذة - فقد غمره هو نفسه ذلك القبول العام لشخصيته الجديدة. والتقى على حين غرة، ومصادفة، بأروع نجاح في حياته.. كلا.. إن الناس لا وجود لهم، ما دام يكفي المرء ثوب لكي يهرب من نفسه ولكي يجد حياة أخرى في عيون الآخرين. وقد كان هذا - من حيث العمق - هو الغربة عينها، والسعادة عينها اللتين فاز بهما حين اختلط لأول مرة بالجمهور الصيني. «ومع ذلك يقولون بالفرنسية (صنعت قصة) faire une histoire بمعنى كتبتها، لا بمعنى عشتها!» وتسلق المعبرة - حاملاً مكانسه كأنها البنادق، ومر - وقد لانت ساقاه - أمام الرجل الواقف عند «الصقالة»، حتى وجد نفسه على سطح السفينة. ومضى إلى الأمام بين الركاب، ووضع مكانسه على لفة من الحبال. لم يكن ثمة ما يخاطر به الآن قبل أول مرسى، ومع ذلك فقد كان أبعد ما يكون عن الاطمئنان. واقترب منه أحد الركاب، وكان روسياً يشبه رأسه شكل حبة الفول، وقال له:

- «هل أنت من بحارة السفينة؟»

ودون أن ينتظر جواباً استطرد قائلاً:

- «هل الحياة ممتعة على ظهر السفينة؟»

- «أما عن هذا، فليست لديك أية فكرة، يا صديقي. إن الفرنسي يحب الترحال، هذه حقيقة؛ فلا تتفوه بكلمة. الضباط أنذال، غير أنهم ليسوا أكثر نذالة من أصحاب الأعمال، والمرء لا ينام نوماً مريحاً (أنا لا أحب الأسرة المعلقة: مسألة ذوق)، ولكننا نأكل جيداً، كما أن المرء يرى أشياء كثيرة. حينما كنت في أمريكا الجنوبية كان المبشرون يلقنون المسيحيين عن ظهر قلب خلال أيام وأيام، تراتيل صغيرة باللغة اللاتينية. فإذا وصل الأسقف، بدأ المبشر في قيادة الفرقة: ويسود الصمت، المسيحيون يتملكهم الاحترام. ولكن لا تفوه بكلمة! لقد خانت الترنيمة من تلقاء نفسها - فإن ببغاوات الغابة - يا صديقي - الذين لم يسمعوا غيرها، يشدونها في خشوع وتبجيل. أين النغمة مرة وسط البحر، في عرض «سولاوويسي» (بأندونيسيا) منذ عشر سنوات سفن غريبة.. قديمة هائمة، مسحورة

كغلاف جوزة الهند الخشبي وملآنة بأموات أهلكهم الطاعون، وقد تدلت أذرعهم هكذا على طول السياج تحت سيل من النوارس. تماماً...».

ـ «هذا من قبيل حسن الحظ.. فأنا أسافر منذ سبعة أعوام، ومع ذلك لم أشاهد شيئاً كهذا».

ـ «لا بدّ من إدخال أساليب الفن في الحياة يا صديقي.. لا لكي تنشئ فناً. كلا.. والله، كلا! ولكن للاستمتاع بالحياة.. لا تتفوه بكلمة!».

وربت على بطنه، واستدار في حذر، فقد وقفت سيارة يعرفها عند أسفل السلم: إنه فيرال يعود إلى فرنسا.

وشرع صبي يجوب جناح الدرجة الأولى، وهو يقرع جرس الرحيل. وكانت كل دقة من الجرس ترن في داخل صدر كلاييك.

وهجس في نفسه: «أوروبا.. لقد انتهى العيد.. والآن إلى أوروبا». وبدا له كأن فرنسا ماثلة أمامه مع الجرس الذي أخذ يقترب منه، لا بوصفه إيذاناً بالخلاص، بل بالسجن. ولولا خطر الموت الذي يتهدده، لنزل إلى الشاطئ مرة أخرى.

وسأل الروسي: «هل مشرب الدرجة الثالثة مفتوح؟».

ـ «منذ ساعة. ويستطيع كل الناس أن يذهبوا إليه إلى أن تبحر السفينة».

ـ «هيا بنا لنسكر...».

* * *

الساعة السادسة

في القاعة الكبيرة ـ التي كانت يوماً ما فناء مدرسة ـ انتظر مئتا جريح شيوعي حتى يتم الاجهاز عليهم. وكان «كاتوف» الذي جاء ضمن الدفعة الأخيرة، يتكئ على مرفقه، وينظر حواليه. كان الجميع ممددين على الأرض، وقد جعل كثيرون منهم يئنون بطريقة منتظمة غير مألوفة، وكان بعضهم يدخنون كما فعل أولئك الذين كانوا في مراكز الإسعاف، بينما أخذت حلقات الدخان تتصاعد حتى السقف، الذي قد شمله الظلام رغم النوافذ الأوروبية الواسعة، التي أعتمها المساء والضباب في الخارج. وكان هذا السقف يبدو عالياً جداً، فوق هؤلاء الرجال الراقدين جميعاً. ومع أن النهار لم يكن قد اختفى بعد، فإن الجو كان جواً ليلياً. وتساءل كاتوف: «أيرجع هذا إلى الجروح، أم لأننا نرقد جميعاً كأننا في محطة؟ إنها محطة، وسنرحل منها إلى لا مكان.. هذا كل ما في الأمر...».

وكان أربعة من الحراس الصينيين يتجولون وسط الجرحى، وقد لبسوا الحراب في بنادقهم، وكانت حرابهم تعكس بصورة غريبة ضوء ذلك النهار الواهن، وقد بدت واضحة مستقيمة فوق جميع هذه الأجساد التي فقدت شكلها. وفي الخارج، في أعماق الضباب، كانت الأضواء الصفراء ـ التي تنبعث من مصابيح الغاز بلا شك ـ تبدو هي أيضاً ساهرة عليهم، وكأنما صدر عنها (لأنه صدر كذلك من أعماق الضباب) صفير طغى على الهمسات والتأوهات: إنه صفير قاطرة، لقد كانوا على مقربة من محطة «شاباي». ثمة شيء في هذه القاعة الواسعة متوتر توتراً عنيفاً، لم يكن هو انتظار الموت. وعلم «كاتوف» ذلك من حلقه: إنه العطش والجوع. وطفق ينظر ـ وقد أسند ظهره إلى الجدار ـ من اليسار لليمين: كثير من الوجوه المعروفة، إذ كان عدد كبير من الجرحى محاربين في «التشون» tchons (المجموعات) وعلى طول جانب من الجوانب الضيقة في القاعة، كان مكان خال ـ طوله ثلاثة أمتار ـ محجوزاً. فسأل بصوت مرتفع: «لماذا يبقى الجرحى مكدسين بعضهم فوق بعض بدلاً من أن يتحركوا إلى ذلك المكان؟» وكان كاتوف ضمن الدفعة التي جيء بها أخيراً. واستند على الحائط، محاولاً النهوض، وعلى الرغم من أن جروحه كانت توجعه فقد خيل إليه أنه يستطيع أن يظل واقفاً، ولكنه توقف، وهو ما زال منحنياً: ودون أن يتفوه أحد بكلمة واحدة، أحس حوله برعب شديد جعله يجمد في مكانه. أكان ذلك الرعب في النظرات؟ إنه لا يكاد يتبينها. أكان في الأوضاع؟ لقد كانوا جميعاً في أوضاع الجرحى الذين يتعذبون لحسابهم الخاص. ومع ذلك، وأياً كانت الطريقة التي انتقل بها، فقد كان الرعب ماثلاً هناك ـ لم يكن خوفاً بل كان فزعاً.. فزع الحيوان.. فزع الانسان المنفرد ازاء ما ليس إنسانياً. ودون أن ينقطع عن الاستناد إلى الجدار، تخطى كاتوف جسد جاره.

وتساءل صوت منبعث من الأرض: «هل أنت مجنون؟».

ـ «لماذا؟».

سؤال وأمر في آن معاً. ولكن ما من مجيب. وبدلاً من أن يلقيه أحد الحراس ـ وكان على بعد خمسة أمتار منه ـ على الأرض، نظر إليه في ذهول:

وسأل من جديد في عنف أشد: «لماذا؟».

فقال صوت آخر منبعثاً من الأرض دائماً: «إنه لا يعرف»، وفي الوقت نفسه، قال صوت آخر أشد انخفاضاً: «سيعرف في الوقت المناسب..».

وكان قد ألقى سؤاله الثاني بصوت مرتفع جداً. وكان تردد هذا الحشد ينطوي في ذاته على شيء رهيب، ولأن جميع هؤلاء الرجال تقريباً يعرفونه: لقد كان الخطر المعلق على هذا الحائط يجثم على الجميع، والأخص عليه هو.

قال أحد الجرحى: «عد إلى الرقاد».

لماذا لا يناديه أي منهم باسمه؟ ولماذا لا يتدخل الحارس؟ لقد رآه وهو يعيد إلى الأرض بكعب بندقيته منذ لحظة جريحاً كان يريد تغيير مكانه... واقترب من محدثه الأخير، واستلقى إلى جواره، فقال الرجل بصوت منخفض: «إنهم يضعون هناك أولئك الذين سيعذبونهم».

وفهم كاتوف. الجميع يعرفون، ولكنهم لا يجرؤون على قول ما يعرفون سواء أكانوا يخافون من الكلام، أم لأن ما من واحد فيهم يجرؤ على التحدث بذلك إليه. فقد قال صوت: «سيأتي ذلك في الوقت المناسب...».

وفتح الباب... ودخل جنديان يحملان مصباحين يحيطان بنقالات تدحرج الجرحى كاللفافات، بالقرب من كاتوف. وجاء الليل، صاعداً من الأرض حيث تتقاطع التأوهات كالجرذان الهاربة، ممتزجة برائحة بشعة: فقد كانت الغالبية العظمى من الرجال لا تستطيع الحركة.. وأغلق الباب من جديد.

ومضى الوقت.. لا شيء سوى خطوات الحراس، ولمعة الحراب الأخيرة فوق آلاف من صرخات الألم. وفجأة، وكأنما جعلت الظلمة الضباب أشد كثافة، تردد من بعيد جداً صفير القاطرة، أشد اكتئاماً. وضغط أحد الواصلين الجدد ـ وكان منبطحاً ـ بيديه على أذنيه، وجأر ولم يصرخ الآخرون. غير ان الرعب كان ماثلاً هناك من جديد، على سطح الأرض.

ورفع الرجل رأسه، وانتصب على مرفقيه، وصاح: «أوغاد، قتلة!».

وتقدم أحد الحراس، فدحرجه بضربة من قدمه في ضلوعه. فسكت. وابتعد الحارس وشرع الجريح يجمجم. وكان المكان قد اشتدت ظلمته الآن إلى درجة لم يستطع معها كاتوف أن يميز نظرته. ولكنه كان يسمع صوته، وأحس أنه سيتكلم كلاماً واضحاً في الحال. والواقع أنه لم يلبث أن قال: «... إنهم لا يطلقون بنادقهم على الأسرى، ولكنهم يلقون بهم أحياء في مرجل القاطرة. والآن.. ها هم يصفرون..» وعاد الحارس، فساد الصمت، ولم تنبعث إلا أصوات الألم.

وفتح الباب من جديد. حراب أخرى، مضاءة الآن من أسفل إلى أعلى بضوء المصابيح. ولكن، دون أن يحملوا أية جرحى هذه المرة. ودخل ضابط من ضباط الكومنتانغ بمفرده. ومع أن كاتوف لم يعد يرى سوى كتلة الأجسام، إلا أنه أحس أن كل رجل قد تخشب. وهناك، وقف الضابط، بلا حجم، مجرد شبح لا يكاد يعلوه ضوء

المصابيح على خلفية المساء، وقف ليلقي أوامره على أحد الحراس.. واقترب هذا الأخير باحثاً عن كاتوف، فلم يلبث أن عثر عليه. ودون أن يلمسه، ودون أن يتفوه بشيء، أومأ إليه فقط ـ باحترام ـ أن ينهض. فاستطاع النهوض في مشقة، وقد أدار وجهه إلى الباب، هناك حيث استمر الضابط في إلقاء أوامره، بينما وقف الجندي إلى يساره ممسكاً البندقية بإحدى ذراعيه، والمصباح بالذراع الأخرى. وعلى يمينه، لم يكن غير الفراغ الشاغر والجدار الأبيض. وأشار الجندي إلى الفراغ ببندقيته، فابتسم كاتوف في مرارة، وفي كبرياء يائسة غير أن أحداً لم يكن يرى وجهه: أما الحارس فقد تعمد ألا ينظر إليه، بينما استند كل جريح من أولئك الجرحى الذين لا يحتضرون على ساق أو ذراع، أو ذقن، ليتابعوا بنظراتهم شبحه الذي لم يكن حالك السواد، والذي أخذ يكبر على حائط المعذبين.

وخرج الضابط، بينما ظل الباب مفتوحاً.

وأدى الحراس تحيتهم بالسلاح: فقد دخل أحد المدنيين، ومن الخارج صاح صوت «قسم ٤»، لم يلبث أن أقفل الباب على أثره. واصطحب أحد الحراس الرجل المدني نحو الحائط دون أن يكف عن الدمدمة، وتعرف كاتوف الذي كان قريباً جداً.. تعرف ـ مذهولاً ـ على كيو. ولما لم يكن كيو جريحاً، فقد ظن الحراس الذين شاهدوه بين ضابطين، أنه أحد مستشاري تشانغ ـ كاي ـ شيك الأجانب، وحين أدركوا الآن خطأهم، أخذوا يسبونه من بعيد. ورقد «كيو» في الظل إلى جانب كاتوف.

وسأله كاتوف: «هل تعرف ما ينتظرنا؟».

ـ «لقد حرصوا على إخطاري.. ولكنني لا أبالي: إن لدي السيانور.. أمعك أنت أيضاً؟».

ـ «أجل..».

ـ «ألست جريح؟».

ـ «في الساقين... ولكنني أستطيع أن أمشي».

ـ «أكنت هنا منذ زمن طويل؟».

ـ «كلا... متى اعتقلوك؟».

ـ «مساء أمس.. أما من طريقة للهرب، من هنا؟».

ـ «ما من سبيل.. إن الجميع تقريباً مصابون بجراح خطيرة.. وفي الخارج، جنود من كل مكان.. ألم تر المدافع الرشاشة أمام الباب؟».

ـ «بل.. أين اعتقلوك؟».

وكان الاثنان في حاجة إلى الهرب من هذه السهرة الجنائزية، وفي حاجة إلى أن يتكلما

ويتكلم. أما كاتوف فقد أخذ يتحدث عن الاستيلاء على مركز الاسعاف وأما كيو، فقد جعل يتحدث عن السجن، وعن مقابلته مع كونيج، وعما عرفه منذ ذلك الحين. قبل أن يدخل السجن المؤقت، وكان قد علم أن « ماي » لم تعتقل.

كان كاتوف راقداً على جنبه، على مقربة منه، يفصله عنه كل ما يعانيه من ألم: فم منفرج، وشفتان متضخمتان تحت أنفه المرح، وعينان شبه مغمضتين.. ولكنه كان مرتبطاً بهذا الرجل، تصله به تلك الصداقة المطلقة، الخالية من التحفظات والريبة، التي لا يمنحها سوى الموت؛ وهذه الحياة التي قدر عليها الموت، وقد حطت إلى جوار حياته في ذلك الظل المليء بالتهديدات والجروح، وسط هؤلاء الإخوة جميعاً من مشولي الثورة: إن كل واحد من هؤلاء الرجال قد قطن في غيظ قطنة عابرة إلى العظمة الوحيدة التي يمكن أن تكون له وحده.

واقتاد الحراس ثلاثة من الصينيين، ووضعوا منفصلين عن حشد الجرحى، وعن الرجال الراقدين على طول الجدار أيضاً. وكان قد تم اعتقالهم قبل القتال، وحوكموا محاكمة غامضة، وهم ينتظرون الآن الاعدام رمياً بالرصاص.

ونادى أحدهم: « كاتوف! ».

وكان « لو ـ يو ـ شوين » شريك همليريش.

ـ « ماذا؟ ».

ـ « هل تعرف إذا كان الرمي بالرصاص يجري على مقربة من هذا المكان، أم بعيداً عنه؟ ».

ـ « لا أدري. إننا لا نسمع شيئاً.. على أية حال ».

وقال صوت أبعد قليلاً:

ـ « يبدو أن الجلاد، سينتزع ـ بعد تنفيذ الحكم ـ أسنانك الذهبية ».

فقال صوت آخر:

ـ « لا أبالي، لأنني لا أملك أسناناً ذهبية ».

وكان الصينيون الثلاثة يدخنون السجاير، نفساً وراء الآخر، في عناد.

وسألهم أحد الجرحى، وكان أبعد قليلاً: « ألديكم عدد من علب الكبريت؟ ».

ـ « أجل ».

ـ « ارسلوا إلي واحدة ».

وأرسل إليه « لو » علبته.

وقال بصوت هامس: « أريد أن يتمكن أحدكم من إبلاغ ابني أنني قد استقبلت الموت بشجاعة »، وأضاف بصوت أشد همساً: « ليس من اليسير على المرء أن يموت ».

واكتشف « كاتوف » في نفسه سروراً مكتوماً: فليس لديه زوجة أو أطفال.

وفتح الباب.

وصاح الحارس: « ارسل إلي واحداً! ».

وتلاصق الرجال الثلاثة واحداً بجوار الآخر.

قال الحارس: « ما بالكم؟.. احزموا أمركم... ».

ولم يجرؤ على الاختيار. وفجأة تقدم أحد الصينيين المجهولين خطوة إلى الامام، وألقى سيجارته التي لم تكد تشتعل، وأشعل أخرى بعد أن حطم عودين من الثقاب، ومضى نحو الباب حثيث الخطا وهو يزرر أزرار سترته واحداً وراء الآخر. وأغلق الباب من جديد.

وجمع أحد الجرحى أعواد الثقاب المحطمة. وكان هو وجيرانه قد كسروا العلبة التي أعطاها لهم « لو ـ يو ـ شوين » قطعاً صغيرة، وأخذوا يلعبون بها « السيجة » وبعد أقل من خمس دقائق، فتح الباب مرة أخرى:

ـ « واحد آخر! ».

وتقدم « لو » ورفيقه معاً، وقد أمسك كل منهما بذراع صاحبه. وأخذ « لو » يتلو بصوت مرتفع لا طابع له، مشهد موت البطل من مسرحية شهيرة، غير أن المجتمع الصيني القديم كان قد انهار تماماً، فلم يستمع إليه أحد.

وسأل الجندي: « أيكما؟ ».

فلم يجب أحد.

ـ « هيا.. لا مفر من الكلام.. أليس كذلك؟ ».

وفرقهما بضربة من بندقيته: وكان « لو » أقرب إليه من الآخر ـ فأمسكه من كتفه.

وخلص « لو » كتفه من قبضة الجندي، وتقدم. أما رفيقه فعاد إلى مكانه، ورقد.

وأحس كيو كم سيكون الموت أصعب بالنسبة لهذا الرجل من سبقاه: فلقد أصبح م[illegible] وحيداً الآن وحيداً. وإنه لفي مثل شجاعة « لو » ما دام قد تقدم معه. غير أن طريقته الـ[illegible] يرقد بها الآن على الأرض، ككلب الصيد القابع، وقد أحاطت ذراعاه بجسمه، كانت تفصح عن خوفه. والواقع، أنه أصيب بنوبة عصبية، حين لمسه الحارس. وأمسك[illegible] جنديان: أمسك أحدهما قدميه، وأمسك الآخر رأسه وحملاه.

أغمض كيو عينيه، بعد أن رقد على ظهره، واضعاً يديه على صدره: كان [illegible]

الوضع الذي يتخذه الموتى تماماً. وتخيل نفسه في هذا الوضع، ممدداً بلا حراك، مغمض العينين، تعلو وجهه تلك الطمأنينة التي يهبها الموت لمدة يوم واحد للجثث كلها تقريباً، وكأنما يجب التعبير عن كرامة أبأس الناس. لقد شاهد أشخاصاً كثيرين يحتضرون، واعتقد دائماً ـ تساعده في ذلك تربيته اليابانية ـ أنه من الجميل أن يموت المرء «ميتته» الخاصة، أي موتاً يشابه الحياة التي عاشها. وكان يعتقد أيضاً أن الموت شيء سلبي، أما الانتحار ففعل إيجابي. وحين يأتون للبحث عن أول واحد فيهم، فسوف يقتل نفسه في وعي تام. وتذكر ـ وقد توقف قلبه عن الخفقان ـ اسطوانات الحاكي. كان زماناً يحتفظ فيه الأمل بمعناه! لن يعود لرؤية «ماي». وكان الألم الوحيد الذي يمس أعماق نفسه هو ألمها، وكأن موته إذناب. وخطر له: «هذا هو ندم الموت» في سخرية مقبضة. ولم يكن يشعر بشيء من هذا تجاه أبيه الذي كان يبدو له دائماً في مظهر القوة، لا في مظهر الضعف. وكانت «ماي» قد خلصته منذ عام من كل شعور بالعزلة، وإن لم تخلصه تماماً من كل شعور بالمرارة. وما كاد يفكر فيها حتى انبثق في نفسه ذلك الشعور الغامر بالهرب في الحنان الذي يحدثه اندماج الأجساد لأول مرة، هذا في الوقت الذي انفصل فيه تماماً عن الأحياء.. «ينبغي الآن أن تنساني..» ولو كتب ذلك إليها لما زادها إلا عذاباً وتعلقاً به. «وكأنني أقول لها أن تحب شخصاً آخر». يا للسجن من مكان يتوقف فيه الزمن، بينما يستمر في كل مكان آخر... كلا! إنما في فناء السجن هذا الذي تفصله المدافع الرشاشة عن بقية العالم.. في هذا المكان، على الثورة ـ أياً كان مصيرها، وأياً كان المكان الذي ستبعث منه ـ أن تتلقى الضربة القاضية، وفي كل مكان، يكدح الناس فيه، في الألم، وفي الباطل، وفي الذلة، تتجه الأفكار إلى قوم حكم عليهم بالاعدام شبيهين بهؤلاء، كما يصلي المؤمنون. وفي المدينة، بدأ الناس يحبون هؤلاء الذين قدر عليهم الموت، وكأنهم ماتوا فعلاً... ومن بين كل الأماكن التي غطتها هذه الليلة الأخيرة من الأرض، كان مكان الحشرجات هذا هو أشد الأماكن ثقلاً بما يحمله من حب رجولي، بلا أدنى ريب. عليك بالأنين مع هذا الحشد الراقد، وبالانضمام إلى هذا الألم المبذول ـ إلى أقصى همس شكاواه! وأشاعت ضجة غير مسموعة همس الألم هذا حتى أعماق الليل: لقد كان لهؤلاء الرجال جميعاً أطفال، شأنهم في ذلك شأن همليريش، ومع ذلك، فإن المصير المحتوم الذي تقبلوه قد تصاعد مع طنين الجرحى الصادر منهم، كما تصعد الطمأنينة في المساء، حتى غمر كيو وهو مغمض العينين، وقد شبك يديه فوق جسده المهجور، في خلال النشيد الجنائزي. هكذا يكون قد قاتل في سبيل ما يحمل في عصره من المعاني، وأعظم الآمال. وها هو يموت وسط هؤلاء الذين ود أن يعيش بينهم، إنه يموت ـ كأي واحد من أولئك الرجال الراقدين ـ لأنه أعطى معنى لحياته. وما قيمة حياة لا يقبل المرء أن يموت في سبيلها؟ ومن السهل أن يموت الإنسان، حين لا يموت وحيداً. إنه موت مشبع بهذه الرجفة الأخوية بهذا الجمع من المهزومين الذين ستعترف بهم الجماهير على أنهم شهداؤها، أسطورة دامية ستتألف منها أساطير ذهبية! كيف يمكن ألا يسمع ـ والموت مطل عليه فعلاً ـ هذه الهمسة من التضحية الإنسانية التي تهيب به قائلة إن قلب الإنسان الباسل ملاذ للموتى لا يقل قدراً عن الروح؟ إنه يمسك الآن بالسيانور في يده. وكم تساءل مراراً: أيموت في يسر؟ وكان يعلم أنه لو قرر أن يقتل نفسه، فسيقتل نفسه، ولكن، لما كان يعرف عدم المبالاة الضارية التي بها تحيط لنا الحياة القناع عن أنفسنا، فإنه لم يكن بلا قلق بشأن اللحظة التي سيسحق فيها الموت فكره بكل ثقله، دون رحمة.

كلا، إن الموت يمكن أن يكون فعلاً مجيداً، والتعبير الأسمى عن حياة ما أشبه هذا الموت بها، كما أنه يعني أيضاً الإفلات من هذين الجنديين اللذين يقتربان منه في تردد. وحطم قطعة السم بين أسنانه، كما لو كان أمر بذلك، وسمع «كاتوف» يسأله في قلق، ويلمسه، وفي اللحظة التي أراد فيها أن يتشبث به، وقد تقطعت أنفاسه، أحس أن قواه جميعاً تتجاوزه، وتتفسخ بعيداً عنه قبل أن يستولي عليه تشنج جبار.

وأقبل الجنود يبحثون بين الحشد عن سجينين لا يستطيعان النهوض. ولم يكن من شك في أن إحراق المرء حياً يمنحه حقاً في تشريفات خاصة، وإن تكن محدودة: فقد حملا على نقالة واحدة، هذا فوق ذاك، أو يكاد يكون فوقه، ثم ألقيا على يسار كاتوف، وكان إلى يمينه يرقد «كيو» بعد أن فارقته الحياة، وفي المكان الخالي الذي يفصل هؤلاء الرجال عن الذين لم يحكم عليهم إلا بالموت، أقعى الجنود على مقربة من مصابيحهم. وغاصت الرؤوس والنظرات رويداً رويداً في الظلام، بحيث لم تكن تعود إلا نادراً إلى هذا الضوء الذي كان يدل في مؤخرة القاعة، على مكان الماثلين للإعدام.

وأحس كاتوف منذ أن مات كيو ـ الذي ظل يحتضر دقيقة على أقل تقدير ـ أنه قد رد إلى عزلة زاد من شدتها وإيلامها أنه كان في كنف من رجاله. وكانت صورة الصيني الذي لزم أن يحملوه ليقتلوه، ـ وقد عصفت به نوبة عصبية ـ تسيطر عليه. ومع ذلك، فقد كان يجد في هذا التسليم التام إحساساً بالراحة، وكأنه كان ينتظر هذا منذ سنوات، راحة يلقاها مصادفة، ويعثر عليها من جديد، في اللحظات الفاجعة من حياته. ترى أين قرأ «... العادة: ليست كشوف المكتشفين بل آلامهم هي التي أحسدهم عليها، ومضى إلى تعذيبي...» وترامى الصفير البعيد إلى القاعة للمرة الثالثة. وكأنما ليجيب على صفارة، وثب جاراه الراقدان على يساره... وكانا صينيين في ميعة الصبا، أحدهما سويين»

يعرفه إلاّ لأنه قاتل معه في مركز الاسعاف. أما الثاني، فلم يكن يعرفه (لم يكن لي) لماذا لم يكونا مع الآخرين!

وسأل: «تنظيم جماعات القتال؟».

فأجاب سوين: «محاولة اغتيال تشانج ـ كاي ـ شيك».

ـ «مع تشن؟».

ـ «كلا.. لقد أراد أن يلقي القنبلة بمفرده. ولم يكن تشانج في السيارة. أما أنا فكنت أنتظر السيارة من مكان أبعد. وقد ألقوا القبض علي، ومعي القنبلة».

وكان الصوت الذي أجابه مختنقاً، مما دعا كاتوف إلى أن يتفرس بانتباه في الوجهين: كان الشابان يبكيان، دون أن تصدر عنهما زفرة. وجال في ضمير كاتوف: «لا جدوى من الكلمات» وأراد سوين أن يحرك كتفه، ولكن وجهه تقلص من الألم، فقد كان جريحاً في ذراعه أيضاً.

قال: «سأحرق.. سأحرق حياً.. والعينان أيضاً، العينان، أتفهم؟».

وهنا كان رفيقه ينتحب.

قال كاتوف: «من الممكن أن يكون ذلك بحادثة».

وكان يبدو أنهما لا يتحادثان معاً، بل كأنهما يخاطبان شخصاً ثالثاً غير مرئي.

ـ «ليس الأمر سواء».

ـ «كلا.. فهذا أقل روعة».

وردد سوين بصوت أشد انخفاضاً: «والعينان أيضاً.. العينان أيضاً.. وكل أصبع من الأصابع.. والبطن، البطن....»

قال الآخر بصوت أصم: «اسكت!».

وكان يريد أن يصرخ، ولكن لم يعد في استطاعته أن يفعل ذلك، وتصلبت يداه على مقربة من جروح سوين الذي تقلصت عضلاته.

ولتم كاتوف «الكرامة الإنسانية» وقد عادت إلى خاطره المقابلة التي تمت بين كيو وكونيج، وكف كل من الماثلين للإعدام عن الكلام. وفيما وراء شعلة المصباح، في الظلمة التي أطبقت الآن تماماً، لم تنقطع جلبة الجروح ـ وازداد اقتراباً من سوين ورفيقه، وكان أحد الحراس يروي قصة لزملائه: فكانوا برؤوسهم المجتمعة يحولون بين المصباح والماثلين للإعدام الذين لم يعد من الممكن أن يرى بعضهم بعضاً. وعلى الرغم من الجلبة، وعلى الرغم من كل أولئك الرجال الذين قاتلوا مثله، كان كاتوف وحيداً.. وحيداً بين جثة صديقه

الميت، ورفيقيه المذعورين.. وحيداً بين هذا الجدار، وذاك الصفير المتبدد في الليل. بيد أن الإنسان يستطيع أن يكون أقوى من هذه الوحدة، بل ربما استطاع أن يكون أقوى من هذا الصفير البشع: كان الخوف في نفسه يصارع ضد أفظع إغواء في حياته. وفتح بدوره قفل حزامه. وأخيراً قال بصوت منخفض جداً: «أنت، يا من هناك.. سوين، ضع راحتك على صدري، وخذه مني حين ألمسه: إنني أريد أن أعطيك ما عندي من السيانور... إنه لا يكفي إلا اثنين فقط».

كان قد زهد في كل شيء، إلاّ في أن يقول إن السيانور يكفي لاثنين فقط، وحطم قطعة السيانور إلى نصفين، وهو راقد على جنبه. وحجب الحراس الضوء: الذين كانت تحيط بهم هالته المضطربة، ولكن، ألن يتحركوا؟ من المحال أن يرى المرء شيئاً، وكان كاتوف يقدم هذه الهبة التي هي أثمن من حياته لتلك اليد الدافئة التي استقرت عليه، لا إلى أجسام، ولا إلى أصوات. وتقلصت كأنها حيوان، وانفصلت عنه على الفور. وانتظر، وقد توتر جسده كله.. وفجأة، سمع أحد الصوتين:

ـ «لقد ضاعت.. سقطت».

ولم تكد اللهفة تغير شيئاً من هذا الصوت، وكأن هذه الكارثة الحاسمة الفاجعة، لم تكن ممكنة، وكأن كل شيء كان يمكن علاجه. أما بالنسبة لكاتوف، فقد كان الأمر محالاً.. وتصاعد غضب لا حدود له داخل نفسه، ولكنه لم يلبث أن هدأ، وقد تغلبت عليه هذه الاستحالة. ومع ذلك! كيف يعطي «هذا» لكي يفقده هذا الأبله!

وسأل: «أين؟».

ـ «قبل جسدي.. لم أستطع أن أمسك به حين ناولني إياه سوين: إن يدي جريحة أيضاً».

قال سوين: «لقد أسقط الجزءين».

لا شك أنهم سيبحثون في المكان الممتد بينهم.. وبحثوا بعد ذلك بين كاتوف وسوين، الذي كان يرقد عليه الآخر تقريباً، إذ كان كاتوف يشعر دون أن يرى شيئاً أن كتلة الجسدين قريبة منه. وأخذ يبحث هو أيضاً، جاهداً في التغلب على عصبيته، وفي وضع يده منبسطة على الأرض من عشرة سنتيمترات، إلى عشرة سنتيمترات، وفي كل مكان يستطيع أن يبلغه. ومست أيديهما يده. وفجأة أمسكت بها إحداهما، وضغطت عليه، واحتفظت بها.

وقال أحد الأصوات: «وحتى لو لم نجد شيئاً...»

وضغط كاتوف هو أيضاً على اليد، وقد أوشك على البكاء، متأثراً بهذه الأخوة المسكينة التي لا وجه لها، ولا صوت حقيقياً لها تقريباً (فإن أنواع التهامس جميعاً متشابهة) وهي التي منحت له في هذا الكلام نظير أعظم هبة قدمها في حياته، وربما قدمها عبثاً. ومع أن سوين واصل بحثه، فإن اليدين ظلتا متحدتين. وتحول الضغط فجأة إلى تشبث:

- «ها هي ذي».

يا للعبث!.. ولكن، سأل الآخر:

- «هل أنت متأكد من أنها ليست حصاة؟».

لقد كان على الأرض قطع كثيرة من الجص.

قال كاتوف: «أعطنيها!».

وبأطراف أصابعه، تعرف على شكليها.

وناوله أياها - ردها إليه - وضغط بقوة أشد على اليد التي كانت تبحث من جديد عن يده، وانتظر، وقد ارتجفت كتفاه، واصطكت أسنانه، وخطر له: «حبذا لو أن السيانور لم يتحلل على الرغم من الورقة المفضضة!». وفجأة لوت اليد التي يمسك بها يده، فكأنه قد اتصل خلالها بالجسم الغائب في الظلام، وأحس أن هذا الجسم متوتر. وتاق إلى مثل هذا الاختناق التشنجي. وفي نفس هذه اللحظة تقريباً، انطلقت من الآخر صرخة مكتومة لم يلحظها أحد.. ثم، لا شيء.

وأحس كاتوف أنه مهجور. فانبطح على بطنه، وانتظر.. دون أن تنقطع الرجفة التي أصابت كتفيه.

وفي منتصف الليل، عاد الضابط. وبين صليل الأسلحة المتصادمة، اقترب ستة جنود من المحكوم عليهم بالإعدام. لقد استيقظ المعتقلون جميعاً. ولم يظهر المصباح الجديد بدوره غير صورة طويلة مختلطة - قبور في الأرض المقلوبة فعلاً - وومضات على بعض العيون. وكان كاتوف قد تمكن من النهوض. وأخذ الجندي الذي يقود هذه الكوكبة من الحرس، بذراع كيو. فأحس بتصلبها، فأمسك بسوين على الفور، وكان ذاك متصلباً أيضاً.. وانتشر اللغط من أول صفوف المعتقلين إلى آخرها.. وأمسك قائد الكوكبة بقدم الأول ورفع ساقه ثم ساق الثاني، ولكنهما سقطتا، متصلبتين. فنادى الضابط الذي صنع مثل صنيعه وتضخمت الضجة بين صفوف المعتقلين ونظر الضابط إلى كاتوف:

- «موتى؟».

لماذا يجيبه؟

- «اعزلوا أقرب ستة من المساجين!».

فأجاب كاتوف: «لا فائدة، فأنا الذي أعطيتهما السيانور».

وتردد الضابط ثم سأله أخيراً: «وأنت؟».

فأجاب كاتوف في سرور عميق: «لم يكن هناك إلا ما يكفي لاثنين».

وخطر له: «سأتلقى الآن ضربة بكعب البندقية في وجهي».

وتحول لغط المساجين إلى صخب.

وقال الضابط: «هيا.. فلتسر». ولم يضف شيئاً إلى ذلك.

ولم ينس «كاتوف» أنه قد حكم عليه بالإعدام فعلاً، وأنه أبصر المدافع الرشاشة مصوبة نحوه، وأنه استمع إليها حين أطلقت... «ما أن أصبح في الخارج، حتى أحاول أن أخنق واحداً منهم، وسأترك يدي مطبقتين عليه حتى يضطروا إلى قتلي.. وسيحرقونني، ولكني سأكون ميتاً حينذاك». وفي هذه اللحظة نفسها لف أحد الجنود ذراعه حول جسم كاتوف، بينما شد آخر يديه خلف ظهره، وربطهما. وحدث نفسه قائلاً: «ما أسعد حظ هذين الصغيرين! هيا! فلنفترض أنني مت أثناء اشتعال حريق!» وشرع في المسير. وأطبق الصمت مرة أخرى كأنه فخ، على الرغم من التأوهات. وسلطت شعلة المصباح - كما فعلت ذلك منذ لحظة على الجدار الأبيض - ظل كاتوف الذي أصبح الآن حالك السواد على النوافذ الكبيرة التي تطل على الليل، وكان يمشي متثاقلاً، يقدم ساقاً وراء أخرى، تعوقه جروحه عن المسير، وحين كان تمايله يقترب من المصباح، كان طيف رأسه يتبدد في السقف. وكانت ظلمة القاعة كلها قد شاعت فيها الحياة، وأخذت تتابعه بنظراتها خطوة خطوة. وساد السكون إلى درجة أن الأرض كانت ترن كلما وطئتها قدمه، وطفقت الرؤوس التي تهتز من أعلى إلى أسفل، تتابع إيقاع خطواته، بشعور من الحب، والذعر، والاستسلام وكأن كل امرىء - رغم تشابه حركات الجميع - يكشف عن نفسه وهو يتتبع هذا الرحيل المترنح. وظل الجميع مرفوعي الرؤوس: وأغلق الباب من جديد.

وبدأت تصعد من الأرض جلبة من الأنفاس العميقة، هي بعينها جلبة أنفاس النوم: لقد كان جميع أولئك الذين لم يموتوا بعد، وهم لا يبدون الآن حراكاً، وإنما يتنفسون من أنوفهم، وقد التصقت من القلق أفكاكهم، ينتظرون الصفير.

اليوم التالي

كان جيسور ينظر إلى غليونه، ما يزيد على خمس دقائق. وأمامه، كان المصباح موقداً، «هذا لا يلزم المرء بشيء»، وصندوق الأفيون الصغير مفتوحاً، والإبر ممسوحة. وفي الخارج، كان الليل. وفي الحجرة، كان ضوء المصباح الصغير، ومستطيل كبير مع النور، هو

باب الحجرة المجاورة مفتوحاً حيث حملوا جثة كيو. وكان الفناء قد أخلي الآخرين ممن أعدموا، ولم يكن ثمة من يعترض على أن تؤخذ الجثث التي تلقى في الخارج. ولم يعثر أحد على جثة كاتوف. وقد أحضرت «ماي» جثة كيو، متخذة من الاحتياطات، ما تتخذه مع جريح شديد الاصابات. كان هناك ممدداً.. ولم يكن رزيناً - كما كان كيو قبل أن ينتحر، يعتقد أنه سيكون، بل كان متشنجاً بسبب الاختناق، شيئاً آخر مختلفاً عن الإنسان. ومشطته ماي قبل زينته الجنائزية، وهي تتحدث بفكرها إلى الحضرة الأخيرة لهذا الوجه بكلمات الأمومة الهائلة، دون أن تجسر على النطق بها، خوفاً من أن تسمعها هي نفسها. ولفظت قائلة: «يا حي» وكأنها تقول: «يا جسدي» إذ كانت تعرف جيداً أنه ليس شيئاً غريباً، بل جزءاً من ذات نفسها، انتزع منها، «يا حياتي..» وفطنت إلى أنها تقول ذلك ، بيد أنها كانت قد تجاوزت - منذ وقت طويل - مرحلة الدموع.

وراود جيسور هذا الخاطر: «كل ألم لا يساعد أحداً ألم لا معنى له». وكان في حالة من حالات الحذر وقد سحره مصباحه، لائذاً بذلك الافتتان. «إن السلام هناك... السلام» ولكنه لم يكن يجرؤ على أن يمد يده. وكان لا يؤمن بأي حياة بعد الموت، كما لم يكن يضمر أي إجلال للموتى، ومع ذلك لم يجرؤ على أن يمد يده.

واقتربت منه، وقد لان ثغرها، وغرق في هذا الوجه الغائب النظرة.. ووضعت أصابعها في رفق على معصمه.

قالت بصوت قلق يوشك أن يكون همساً: «تعال.. يبدو لي أنه قد استدفأ قليلاً...»

وبحث عن عيني هذا الوجه الإنساني الذي اشتد به الألم، دون أن يدركه الشرود قط. ونظرت إليه بلا ارتباك، نظرة الأمل فيها أقل من الضراعة، ذلك أن آثار السم غير بقية دائماً، وقد كانت طبيبة. ونهض، ثم تبعها، وهو يذود عن نفسه أملاً بلغ من القوة بحيث خيل إليه أنه لو استسلم له، فإنه لن يستطيع احتمال استرداده منه. وجس جبهة كيو التي علتها الزرقة، وهذه الجبهة التي لن تحمل تجاعيد أبداً.. كانت باردة، برودة الموت التي لا لبس فيها. ولم يجرؤ على أن يسحب أصابعه، وأن يلتقي بنظرة ماي، فترك عينيه مثبتتين على راحة كيو المفتوحة، هناك بدأت بعض الخطوط تنمحي فعلاً..

قال: «كلا» عائداً إلى حزنه العميق الذي لم يكن قد فارقه. ولاحظ أنه لم يكن قد صدق ماي. وأجابته:

- «واحسرتاه» دون أن تضيف شيئاً آخر.

ورآه ينصرف إلى الحجرة المجاورة، مترددا. فيم يفكر؟ ما دام كيو هنا، فإن كل

تفكير يجب أن يدور حوله. إن هذه الميتة كانت تتوقع منها شيئاً ما، إجابة تجهلها، ولكنها مع ذلك موجودة. يا لحظ الآخرين الخسيس، بصلواتهم، وزهورهم الجنائزية! اجابة تعدو القلق الذي ينتزع من يديها ضمات الأمومة التي لم يتلقها أي طفل منها، إجابة أعمق من هذا النداء الرهيب الذي يدفع به المرء إلى محادثة الموتى بأرق صور الحياة. إن هذا الفم الذي قال لها بالأمس: «ظننت انك ميتة» لن يتكلم بعد الآن أبداً، وما كان ينبغي أن تدخل في تواصل مع ما تبقى هنا من حياة بائسة.. مع جسد، بل مع الموت نفسه. وظلت هناك، بلا حراك، تنتزع من ذكرياتها آلام احتضار عديدة سبق أن تأملها في إذعان، وقد سرت في نفسها سلبية شاملة وهي ترحب في وحشية بالعدم ترحيباً لا جدوى منه.

واستلقى «جيسور» من جديد على الأريكة. «ثم ينبغي أن استيقظ فيما بعد...» إلى متى سيحمل إليه كل نهار هذا الموت من جديد؟ كان الغليون هناك: يمثل السلام. ما عليه إلا أن يمد يده، ليعد الكرة الصغيرة. وسيفكر بعد ربع ساعة في الموت نفسه بعدم اكتراث بسماحة لا حد لها، كما يفكر في مشلول يريد أن يوقع به الأذى، فلن يكون في استطاعة الموت أن يبلغه، وإنما سيفقد كل سيطرة، ينسلّ في رفق نحو الطمأنينة التي تشمل الكون كله. كان التحرر هناك.. قريباً غاية القرب. ما من معونة يمكن أن تمنح للموتى. فلماذا نزداد عذاباً؟ وهل الألم قربان للحب.. أم للخوف؟.. غير أنه ظل لا يجرؤ على أن يلمس العصبية، وراح القلق يعتصر حلقه في نفس الوقت الذي اعتصرته فيه الرغبة والشهقات المكبوتة. وأمسك اعتباطاً أول كتيب صادفه (لم يكن يمس أبداً كتب كيو، ولكنه كان يعلم أن كيو لن يقرأها) وكان عدد من مجلة «سياسة بكين» قد سقط عندما أحضروا الجثة - وفي هذا العدد كان نص المحاضرة التي طرد جيسور بسببها من الجامعة. وعلى الهامش، وجد كتابة خطها كيو: «هذه المحاضرة هي محاضرة أبي». ولم يخبره كيو قط أنه كان يوافق عليها. وطوى جيسور المجلة في رفق، وتأمل أمله الميت.

وفتح الباب، وقذف بالأفيون في الظلام، ثم عاد إلى الجلوس، خفيض الكتفين، منتظراً الفجر، منتظراً أن يخفت صوت الألم نتيجة لاستنفاده في الحوار الدائر بينه وبين نفسه، ألمه.. وعلى الرغم من العذاب الذي فتح فمه، وأبدل قناعه الرزين بوجه ذاهل، فإنه لم يفقد كل سيطرة على نفسه. وفي هذه الليلة، تغيرت حياته، فإن قوة الفكر ليست عظيمة حيال التغير الذي يمكن أن يفرضه الموت على إنسان ما. ولقد رُدّ إلى نفسه من الآن فصاعداً.. ولم يعد للعالم معنى، بل لم يعد له وجود: سكون بلا رجعة، هناك، إلى جانب هذا الجسد الذي كان معقد الصلة بينه وبين الكون. سكون أشبه بانتحار الآلة. لم ينتظر من كيو نجاحاً أو سعادة، ولكن، ماذا يكون العالم إذا خلا من كيو؟ «لقد قذف بي خارج

الزمان . لقد كان الابن خضوعاً للزمان ، لتدفق الأشياء ، ولقد كان جيسور بلا شك أملاً ، كما كان قلقاً : أملاً في لا شيء ... انتظاراً ... وكان ينبغي أن يتحطم حبه ، لكي يكتشف هذا ، ومع ذلك ، كان كل ما يحطمه يجد لديه ترحيباً نهماً ! ثمة شيء جليل في أن يموت الإنسان ، بهذا حدث نفسه . وأحس بالألم الجوهري يرتعش في نفسه ، لا ذلك الألم الذي يأتي من الكائنات أو من الأشياء ، بل الألم الذي ينبع من الانسان نفسه ، والذي تحاول الحياة أن تنتزعها منه ، وكان يستطيع أن يتحاشاه . ولكن على شرط أن ينقطع عن التفكير فيه ، بيد أنه كان يغوص فيه أكثر فأكثر ، وكان هذا التأمل المذعور هو الصوت الوحيد الذي كان يمكن أن يسمعه الموت ، كان هذا الألم لكونه إنساناً ، والذي ملأه إلى أعماق فؤاده ، كان هو الخطاب الوحيد الخليق بأن تسمعه جثة ابنه المقتول .

الجزء السابع

باريس، يوليو

كان فيرال يروّح بالصحيفة التي هوجم فيها الاتحاد أعنف هجوم، حين وصل آخر الوافدين إلى حجرة انتظار وزير المالية. وبين جماعات المنتظرين كان يجلس المدير المساعد للحركة العامة للأرصدة، (كان شقيق فيرال قد مرض - بحكمة - في الأسبوع السابق) - ومندوب بنك فرنسا، ومندوب البنك الرئيسي للشؤون الفرنسية، ومندوبو مؤسسات التسليف. وكان فيرال يعرفهم جميعاً: فهذا ابن فلان، وهذا صهر فلان، وهؤلاء من الموظفين السابقين في التفتيش المالي وفي الحركة العامة للأرصدة، وكانت العلاقة بين الدولة والمؤسسات أوثق من ألا تدفع هذه المؤسسات إلى الإفادة من ارتباطها بموظفين يجدون لدى زملائهم القدامى ترحيباً مواتياً. ولاحظ فيرال دهشتهم، فقد كان من مقتضيات العرف أن يصل قبلهم. وحين لم يروه هناك، ظنوا أنه لم يستدع للاجتماع. أما أن يسمح لنفسه بالحضور آخرهم، فكان شيئاً أدهشهم. وكان كل شيء يفصل بينهم: رأيه فيهم، ورأيهم فيه، وطريقتهم في ارتداء ملابسهم: فقد كانوا جميعاً تقريباً يرتدون ثيابهم في إهمال لاشخصي، أما فيرال فكان يرتدي بذلته الغليظة الموشاة، وقميصاً من الحرير الرمادي ذا ياقة لينة من شنغهاي. ومجمل القول إنهما كانا جنسين مختلفين.

وأدخلوا لدى الوزير على الفور تقريباً.

وكان فيرال يعرف الوزير معرفة سطحية.. أيرجع هذا التعبير على الوجه الذي ينتمي إلى عصر آخر إلى شعره الأبيض الكثيف كشعر «الباروكة» الشائعة في عصر الوصاية؟ إن هذا الوجه الدقيق الملامح ذا العينين الصافيتين، وهذه الابتسامة البالغة الحفاوة - (فقد كان برلمانياً قديماً) تتفق مع شهرته كوزير لبق، وهي شهرة توازي شهرة اندفاعه حين يسيطر عليه مزاجه النابليوني. وبينما كان كل أمرئٍ يتخذ مجلسه، طرقت خاطر «فيرال» حكاية شهيرة: عندما كان الوزير وزيراً للخارجية، هز ذات مرة أذيال سترة مبعوث فرنسا إلى مراكش، وفجأة تمزق ظهر السترة، فقرع الجرس قائلاً: «أحضروا إحدى ستراتي للسيد...» ثم قرع الجرس مرة ثانية في اللحظة التي اختفى فيها الحاجب وقال: «أقدم سترة.. لأنه لا يستحق سواها». وكان وجهه غاية في الجاذبية لولا نظرة يبدو أنها تنكر ما يعد به فمه. وكانت إحدى عينيه من الزجاج إثر إصابته في حادث.

وانتظم مجلسهم: مدير الحركة العامة للأرصدة على يمين الوزير وفيرال على يساره، أما المندوبون فعلى أريكة في مؤخرة المكتب.

قال الوزير: «تعرفون أيها السادة لماذا دعوتكم لهذا الاجتماع. وليس من شك في أنكم قد درستم المسألة. وأترك لمسيو فيرال أن يلخصها لكم، وأن يعرض عليكم وجهة نظره».

وانتظر المندوبون في صبر أن يقص عليهم فيرال - كما جرت العادة - بعض النوادر.

قال فيرال: «أيها السادة، من المألوف في اجتماع كهذا، أن يقدم المرء تقارير متفائلة. وتحت أعينكم تقرير التفتيش المالي. إن موقف الاتحاد - من الوجهة العملية - أسوأ مما يشي به هذا التقرير. ولن أقدم لكم أبواباً متضخمة، أو قروضاً مشكوكاً فيها. ومن الواضح أنكم تعلمون خسائر الاتحاد. وأحب أن أوجه اهتمامكم إلى جانبين من المكاسب لا يمكن أن يشير إليهما أي تقرير. وباسمهما تطلب معونتكم.

الجانب الأول هو أن الاتحاد يمثل العمل الفرنسي الوحيد من نوعه في الشرق الأقصى. وحتى في عجزه، ولو أشرف على الافلاس، سيظل نشاطه سلبياً. إن شبكات عملائه وفروع تجارته للبيع أو الشراء داخل الصين، والصلات المستقرة بين شرائه الصينيين وشركاته الانتاجية في الهند الصينية، كل هذا «باق» ويمكن بقاؤه. ولا أغالي إذا قلت إن نصف تجار «ياغتسي» يعتقدون أن فرنسا هي الاتحاد، كما أن اليابان هي «متسوبيشي وشركاه». وأنتم تعلمون أنه من الممكن مقارنة منظمتنا من حيث الاتساع بشركة ستاندارد اويل. وفضلاً عن ذلك فإن الثورة الصينية لن تكون أبدية.

والنقطة الثانية هي أنه بفضل الروابط التي تجمع بين الاتحاد وبين شطر كبير من أصحاب التجارة الصينية، قد شاركت بأشد الطرق فعالية في استيلاء الجنرال تشانغ - كاي - شيك على السلطة. وبهذا أصبح من المؤكد منذ الآن أن ذلك المشروع الخاص بمد السكك الحديدية الصينية التي نصت الاتفاقيات على أن يكون من نصيب فرنسا إنما سيعهد به إلى الاتحاد... وهذه مسألة تدركون أهميتها، وعلى هذا الأساس أطلب منكم الموافقة على تقديم المعونة التي يطلبها الاتحاد منكم، بسبب ما تثبت وجوده، يبدو لي وجيهاً أن أتمنى ألا تختفي من آسيا المنظمة القوية الوحيدة التي تمثل بلدنا - حتى ولو خرجت من الأيدي التي أسستها».

ومضى المندوبون يفحصون في عناية ذلك التقرير الذي سبق أن أحاطوا به، والذي ما كان يضيف إلى معلوماتهم شيئاً جديداً. فلقد كان كل منهم ينتظر أن يتكلم الوزير. وتكلم الوزير، فقال: «ليس من مصلحة الدولة فحسب، بل من مصلحة المؤسسات أيضاً ألا تصاب الثقة وسقوط منظمات مهمة مثل بنك الصين الصناعي، والاتحاد، لا يمكن إلا أن يكون ضاراً للجميع».

كان يتحدث ببلد، متكئاً على ظهر مقعده، شارد النظرة، وهو يداعب بطرف قلمه الشافة، الموضوعة أمامه. وانتظر المندوبون أن يزداد موقفه تحديداً.

قال مندوب بنك فرنسا: «هل يسمح سيدي الوزير بأن أعرض عليكم رأياً يختلف قليلاً؟ إنني الوحيد هنا الذي لا يمثل بنكاً للقروض، وبالتالي فلست متحيزاً. ستعمل الصدمات خلال بضع شهور، على التقليل من الودائع، هذا حق، غير أنه بعد ستة شهور، ستعود المبالغ المسحوبة آلياً، ولا سيما إلى تلك المؤسسات الرئيسية التي تقدم ضمانات أكبر. وربما كان انهيار الاتحاد - الذي هو أبعد ما يكون عن الضرر بالنسبة للبنوك التي يمثلها هؤلاء السادة - ربما كان لهم على العكس من ذلك، مفيداً...».

- «مع هذا الفارق، وهو أنه من التهور اللعب بالأرصدة. فإن إفلاس خمسة عشر بنكاً من بنوك الأقاليم لن يكون مفيداً للمؤسسات، حتى ولو لم يكن ذلك إلا بسبب الاجراءات السياسية التي سيؤدي إليها هذا الإفلاس».

وقال فيرال لنفسه: «هذا كله كلام لا يقول شيئاً اللهم إلا أن بنك فرنسا يخاف من الارتباط، وأنه سيدفع إذا دفعت المؤسسات».

وساد الصمت.. والتقت نظرة الوزير المتسائلة بنظرة أحد المندوبين: وجه ضابط من ضباط الفرسان، ونظرة ملحة، على أهبة اللوم، وصوت واضح:

- «وعلى عكس ما نصادفه في مثل المحادثات التي تجمعنا، يجب أن أقول إنني أقل تشاؤماً من السيد فيرال حول مجموع أبواب التقرير الذي قدم لنا. إن موقف بنوك الجماعة مهدد بكارثة، هذا حق، غير أن بعض الشركات يمكن الدفاع عنها حتى في صورتها الحالية».

قال فيرال: «إنه العمل في مجموعة ذلك الذي أسألكم الابقاء عليه. فإذا تحطم الاتحاد، فقدت أعماله كل معنى بالنسبة لفرنسا».

وقال مندوب آخر له وجه نحيف مرهف: «على العكس، إن السيد فيرال يبدو لي متفائلاً على الرغم من كل شيء، فيما يتعلق بالأرصدة الرئيسية للاتحاد.. والقروض لم تستبعد بعد».

وكان ينظر أثناء حديثه إلى قلابة سترة فيرال، وتابع هذا نظرته حائراً، وانتهى به الأمر إلى الفهم: إنه الوحيد الذي لم يضع أوسمته... عن عمد. وكان محدثه من حملة وسام الشرف (كوماندور) ولهذا أخذ ينظر في عداء إلى هذه العزوة التي تزدريه. ولم يكن فيرال ينظر قط أي تقدير لغير قوله.

قال: «أنتم تعلمون أنها ستستعيد.. تستعيد وتغطي. وعذابي أن البنوك الأمريكية لا عملاءها الذين سيأخذون ما نجعلهم يأخذونه».

- «فلنفترض ذلك.. وإذا غطي القرض، فمن يضمن لنا إنشاء السكك الحديدية؟؟».

قال فيرال في شيء من الدهشة (لم يكن من الممكن أن يجهل محدثه ما أزمع أن يجيبه به).

- «ولكن من المفروغ منه أن الشطر الأكبر من الأرصدة لن يدفع إلى الحكومة الصينية، وإنما سيذهب مباشرة من البنوك الأمريكية إلى الشركات المكلفة بتصنيع المواد، هذا شيء واضح. وإلا هل تعتقدون أن الأمريكيين سيقدمون القرض؟».

- «طبعاً.. غير أنه من الممكن أن يقتل تشانج - كاي - شيك أو أن يهزم، وإذا بعثت البلشفية من جديد، لن يتم إصدار القرض. ومن جهتي أنا، لا أعتقد أن تشانج - كاي - شيك سيظل قائماً بالسلطة. ومعلوماتنا تؤكد أن سقوطه وشيك».

وأجاب فيرال: «لقد سحق الشيوعيون في كل مكان.. وقد غادر بورودين لتوه هان - كيو وعاد إلى موسكو».

- «الشيوعيون.. بلا شك، ولكن، ليست الشيوعية على الإطلاق. لن تعود الصين أبداً إلى ما كانت عليه. وبعد انتصار تشانج - كاي - شيك، ما زال هناك خطر أمواج جديدة للشيوعيين...».

- «رأيي أنه سيظل في السلطة بعد عشر سنوات أخرى، ولكن، ما من مشروع لا ينطوي على شيء من المخاطرة».

وجال في خاطره: «لا تستمعوا إلا إلى شجاعتكم، التي لا تنصحكم بشيء أبداً. وتركيا، حين لم تعد درهماً واحداً إليكم، وراحت تشتري بأموالكم مدافع للحرب؟ إنكم لا تستطيعون أن تقوموا وحدكم بمشروع واحد عظيم. وحين تنتهي ألاعيبكم القذرة مع الدولة، تحسبون جبنكم حكمة، وتظنون أنه يكفيكم أن تكونوا بلا أذرع لكي تصبحوا «فينوس ميلو».. وهذه مغالاة.

وقال بصوت عذب مندوب شاب مجعد الشعر: «لو ظل تشانج - كاي - شيك مسيطراً على الحكومة، فسوف تسترد الصين استقلالها الجمركي. فمن يضمن لنا - حتى لو وافقنا على كل ما يفترضه السيد فيرال - أن نشاطه في الصين لن يفقد كل قيمته في اليوم الذي فيه تكفي بعض القوانين الصينية لاعدامه؟ وهناك أجوبة عديدة يمكن أن تقدم عن هذا السؤال، على ما أعرف..» فقال فيرال: «أجل.. عديدة».

وأجاب المندوب الذي له وجه ضابط: «ومع ذلك، يظل هذا المشروع غير يقيني، أو حتى لو افترضنا أنه لا ينطوي على أية مخاطرة، فلا بدّ له من قرض طويل الأجل، والحقيقة أنه يقتضي مشاركة في مسألة تستمر طيلة العمر.. ونحن نعرف جميعاً كيف أوشك «بيير جرمان» على أن يقود «الكريدي ليونيه» إلى الخراب لاهتمامه بشركة «ألوان البلين»، وإن تكن من أفضل المشروعات الفرنسية. وظيفتنا ليست المشاركة في صفقات، وإنما إقراض الأموال على أساس ضمانات، ولأجل قصير. أما فيما عدا ذلك، فالكلمة ليست لنا، بل للبنوك التجارية».

وساد الصمت من جديد.. صمت طويل هذه المرة.

وكان فيرال يفكر في الأسباب التي دعت الوزير إلى عدم التدخل. كان الجميع، وهو نفسه - يتحدثون بلغة تقليدية منمقة، شبيهة بلغات الطقوس الآسيوية: فليس غريباً أن يكون كل شيء صينياً. أجل، من الواضح جداً أن ضمانات الاتحاد غير كافية وإلا، فما معنى وجوده هنا؟ ومنذ أن قامت الحرب، بلغت الخسائر التي احتملها التوفير الفرنسي (وقال لنفسه: «كما تقول صحف التشهير»: وكان الغضب يمده بالحرارة) الذي اكتتب في الأسهم والسندات الخاصة بالصفقات التجارية التي أوصت بها المؤسسات والبنوك التجارية الكبرى - حوالي أربعين مليارا - أي ما يزيد على اتفاقية فرانكفورت. كانت الصفقة الرديئة تدفع نسبة سمسرة أكبر من الصفقة الجيدة، هذا كل ما في الأمر. ولكن لم يكن بد من أن تعرض هذه الصفقة الرديئة على المؤسسات بوساطة واحد من أهلها؟ إنهم لن يدفعوا إلا إذا تدخل الوزير رسمياً، لأن فيرال لم يكن واحداً منهم. فهو غير متزوج، وتدور حوله قصص نسائية، ويقال إنه من مدمني الأفيون، وقد احتقر وسام جوقة الشرف (اللجيون دونير). وربما كان متكبراً إلى درجة لا تسمح له بأن يكون متوافقاً أو منافقاً. ولعل الفردية العظيمة لا يمكن أن تنمو نمواً كاملاً إلا على سمات من النفاق: ولم يصل بورجيا إلى منصب البابا مصادفة.. ولم يكن كبار الفرديين يتجولون وسط الثوريين الفرنسيين المتشبثين بالفضيلة في أواخر القرن التاسع عشر، بل في عصر النهضة، في بناء اجتماعي هو المسيحية، بكل تأكيد..

قال أكبر المندوبين سناً وهو يمضغ في آن واحد المقاطع وشاربه القصير الأبيض كشمع الشموع: «سيدي الوزير، أما أننا على استعداد لإعانة الدولة فهذا شيء لا يحتاج إلى مزيد بيان.. مفهوم.. وأنتم تعلمون ذلك».

وسحب مونوكله، وتحولت حركات يديه ذات الأصابع الناعمة قليلاً إلى حركات رجل أعمى.

- « ولكن، مع ذلك ينبغي أن نعرف إلى أي مدى. ولا أقول إن كلامنا لا يستطيع أن [illegible]ول تقديم خمسة ملايين... حسن».

وهز الوزير كتفيه هزة غير ملحوظة.

- « ولكن، ليست هذه المسألة، ما دام ينبغي على الاتحاد أن يدفع على الأقل ٢٥٠ مليوناً من الودائع. ماذا إذن؟ إن كانت الدولة تعتقد أن أزمة على هذا القدر من الأهمية ستكون ضارة، فإنها تستطيع بنفسها أن تدير الأموال، وأولى منا بإنقاذ المودعين الفرنسيين والمودعين الألمانيين بنك فرنسا والحكومة العامة للهند الصينية، إذ أن لنا نحن أيضاً مودعينا وحملة أسهمنا. وكل منا جاء إلى هنا ليمثل مؤسسته... ».

(وقال فيرال لنفسه: « من المفهوم أن الوزير لو أوضح أنه يصر على تدعيم الاتحاد، فلن يكون ثمة مودعون أو حملة أسهم).

- « ... من منا يمكن أن يؤكد أن حملة أسهمه يوافقون على قرض يهدف إلى المحافظة على مؤسسة مزعزعة؟ إن رأي حملة الأسهم - وليسوا وحدهم في هذا الرأي - تعرفه جيداً! [illegible]ب تطهير السوق، وملاشاة الصفقات التي لا تقوى على الحياة، فالمحافظة عليها بصورة مصطنعة - هي أسوأ خدمة يمكن أن تسدى إلى الجميع. وماذا يكون من شأن المنافسة الحرة التي تقوم عليها حياة التجارة الفرنسية، لو تمت المحافظة على الصفقات الفاسدة بصورة آلية؟ ».

(وقال فيرال لنفسه: « يا صديقي، إن مؤسستك قد طالبت الدولة في الشهر الأخير، [illegible]ع التعريفة الجمركية بنسبة ٣٢٪ لتسير المنافسة الحرة، بلا شك!)

- « ... والآن؟ إن مهمتنا هي إقراض الأموال على ضمانات كما قيل بحق. والضمانات التي يقدمها لنا السيد فيرال... لقد استمعتم إلى السيد فيرال نفسه. فهل تريد الدولة أن تحل [illegible] السيد فيرال هنا، وأن تعطينا الضمانات نظير موافقتنا على منح الاتحاد الأموال التي [illegible] إليها؟ وبعبارة موجزة، هل تهيب الدولة تقديم أي تعويض - بولائنا، أم أن الدولة [illegible] - هي لا السيد فيرال - أن تيسر عملية مالية، ولو كانت طويلة الأجل؟ في الحالة الأولى، فلأننا للدولة أمرٌ مفروغ منه - أليس كذلك؟ - ولكن يجب أن نضع في اعتبارنا [illegible] حملة أسهمنا. وفي الحالة الثانية، ما هي الضمانات التي تقدمها لنا؟ ».

وحدث فيرال نفسه قائلاً: « لغة تكتنفها (الثغرة) التامة، وإن لم يكن [illegible] في [illegible] ملهاة لأعاجيب الوزير » قائلاً: « إني أتذوق المكافأة في كلمة (ولاء) [illegible] جوهر [illegible] صادر عن علاقاتكم بالدولة. وأنتم تعيشون على السمسرة، وهي وعدد لها أهمية

مؤسساتكم، ولا تعيشون من عمل أو فعالية. ولقد أعطتكم الدولة هذه السنة مائة مليون بصورة أو بأخرى، وستسترد منكم عشرين، فباركوا باسمها، وارتفعوا. ولكن لا وجود لأي خطر. وأخرج الوزير من أحد أدراج مكتبه علبة من الحلوى (الكراميلة) اللينة، وأدارها على الحاضرين. فأكل كل واحد قطعة ما عدا فيرال. إنه يعرف الآن ما يريده متدوبو المؤسسات: الدفع، ما دام من المحال مغادرة هذا المكتب دون أن يتنازلوا عن شيء ما للوزير، ولكنهم يريدون أن يدفعوا أقل مبلغ ممكن. أما الوزير... وانتظر فيرال، واثقاً من أنه ما زال يفكر: « وماذا كان يبدو على شوازيل أنه فاعل لو كان في مكاني؟ » يبدو وكأنه: الوزير لا يطلب من عظماء المملكة دروساً في الإرادة... وإنما الوقار أو السخرية ».

قال الوزير وهو ينقر المائدة نقرات خفيفة بقلمه: « السيد المدير المساعد للحركة العامة للأرصدة، سيقول لكم، مثلما أقول - إنني لا أستطيع إعطاءكم هذه الضمانات دون تصويت من البرلمان. وقد جمعتكم أيها السادة لأن المسألة التي تناقشها تتعلق بهيبة فرنسا: فهل تعتقدون أن من وسائل الدفاع عنها طرح هذه المسألة أمام الرأي العام؟ ».

- « بلا شك... بلا شك - ولكن، اسمح لي يا سيدي الوزير... ».

صمت، واستغرق المندوبون الذين كانوا يمضغون حلواهم في حالة من حالات التأمل ليحتسوا من لهجة القليم، أوفرني، التي أحسوا فجأة أنهم مهددون بها، إذا فتحوا أفواههم. ونظر إليهم الوزير دون أن يبتسم واحداً وراء الآخر، ونظر إليه فيرال - الذي كان يراه من جانب وجهه ذي العين الزجاجية - كما ينظر إلى ببغاء بيضاء كبيرة، جامدة عابسة وسط عدد من الطيور.

واستطرد الوزير قائلاً: « أرى إذن أيها السادة، أننا متفقون على هذه النقطة. ومهما كانت الطريقة التي نواجه بها هذه المشكلة، فمن الضروري تسديد الودائع. وستشارك الحكومة العامة للهند الصينية في تدعيم الاتحاد بنسبة الخمس... فما هو نصيبكم في المساهمة؟ ».

ولاذ كل منهم الآن بقطعته من الحلوى. وقال فيرال لنفسه: « متعة صغيرة. إنه يود أن يلهي، غير أن النتيجة واحدة بدون الحلوى... » وكان يدرك قيمة الحجة التي [illegible] الوزير. وقد كان أخوه هو الذي رد على هؤلاء الذين يطلبون من الحركة العامة للأرصدة تمويلاً دون تصويت من البرلمان: « لماذا لا أعطي لصديقتي العزيزة على القمر [illegible] مليون؟ ».

فترة صمت .. أطول من فترات الصمت السابقة ، وكان المندوبون يتهامسون فيما بينهم.

قال فيرال : « سيدي الوزير ، لو أن شؤون الاتحاد السليمة عادت إلى سابق عهدها ـ بصورة أو بأخرى ، ولو أن الودائع دفعت ، على أي الحالات ، ألا تعتقدون أن ثمة مجالاً لأن نتمنى بذل جهود أعظم ولكن على ألا تستبعد منه المحافظة على الاتحاد ؟ أليس لوجود هيئة قريبة على هذا المدى من الاتساع أهمية في نظر الدولة تعادل أهمية بضع مئات من الملايين في صورة ودائع ؟ » فقال الوزير : « خمسة ملايين ليست رقماً جاداً ، أيها السادة. أينبغي علي أن أهيب ـ بطريقة أشد إلحاحاً ـ بالولاء الذي تحدثتم عنه ؟ إنني أعرف أنكم تمسكون ومجالس إدارتكم تمسك ، بتحاشي رقابة الدولة على البنوك . ألا تعتقدون أن انهيار مشروع كالاتحاد لا يدفع الرأي العام إلى المطالبة بهذه الرقابة على النحو الذي يمكن أن تصبح به مستبدة ... بل ربما عاجلة ؟ ».

وحدث فيرال نفسه قائلاً : « مزيد من اللغة الصينية . فهذا معناه الوحيد هو : « كفوا عن اقتراح خمسة ملايين مضحكة ، والرقابة على البنوك تهديد لا معنى له حين تلوح به حكومة سياستها معارضة الاجراءات التي من هذا القبيل . ولا يود الوزير أن يلجأ إلى هذا الاجراء حقاً بأكثر مما يريد المندوبون المسيطرون على وكالة هافاس شن حملة صحفية على الوزير ، والدولة لا تستطيع أن تلعب لعبة خطرة ضد البنوك ، كما أن البنوك لا تريد أن تلعب مثل هذه اللعبة ضد الدولة ، ذلك لأن الدولة والبنوك متواطئة في كل شيء : نفس الموظفين ، نفس المصالح ، نفس السيكلوجية . وسيكون الصراع بينهما أشبه بالصراع بين رئيسي قلمين في دار واحدة ، وهو صراع ـ من ناحية أخرى ـ يعود بالحياة على الدار ... ولكن بصورة نسبية . وكما حدث له في فندق « أستور » ، لم تنقذه إلا ضرورة عدم إظهار الضعف ، أو أي غضب . ولكنه كان مهزوماً : فإنه حين جعل من الفعالية قيمته الجوهرية ، لم يعوض شيء وجوده إزاء هؤلاء الرجال الذين احتقر أشخاصهم وأساليبهم دائماً ، في هذا الموقف الذليل المهين . لقد كان أضعف منهم ، ومن ثم فإن كل ما يفكر فيه ـ وفقاً لمذهبه نفسه ـ قد أصبح باطلاً.

قال أكبر المندوبين سناً : « سيدي الوزير ، نحن حريصون على أن نظهر مرة أخرى ولاءنا الحسن للدولة ، ولكن ، إذا لم تكن هناك ضمانات ، فنحن لا نستطيع ـ إزاء حملة أسهمنا ـ أن نواجه قرضاً للاتحاد أقل من الودائع الموجودة ، على أن يضمن القرض باشرافنا الذي نقوم به في هذه الحالة على شؤون الجماعة السليمة . ويعلم الله أننا لسنا حريصين على هذا الاشراف ، وإنما نقوم به احتراماً لمصلحة الدولة العليا ».

وقال فيرال لنفسه : « إنه شخصية لا نظير لها حقاً ، بهيئته التي تشبه هيئة أستاذ متقاعد تحول إلى « أودبب » ضرير . وجميع البلهاء ، بل وفرنسا نفسها ، إنما يلتمسون النصح لدى هؤلاء المديرين للوكالات ، وإليهم تلقى أموال الدولة ـ كالجلد المسحور ـ حين يبتغي مد سكك حديدية استراتيجية في روسيا أو بولندا أو القطب الشمالي ! ومنذ أن قامت الحرب ، أضاعت هذه العصا الجالسة على الأريكة ـ أضاعت على المستثمرين الفرنسيين ثمانية عشر مليارا في سندات الحكومة وحدها . حسن جداً : كما كان يقول منذ عشر سنوات : « إن كل من يطلب المشورة لاستغلال ثروته من شخص لا يعرفه معرفة وثيقة ، لا بد أن يحل به الخراب » . ثمانية عشر ملياراً . فضلاً عن أربعين ملياراً ذهبت في صفقات تجارية ، وفضلاً عني أنا أيضاً.

قال الوزير : « مسيو داميرال ».

ـ « سيدي الوزير ، ليس بوسعي إلا أن أنضم إلى ما قيل على مسمعكم الآن .. ولا أستطيع ـ شأني في ذلك شأن « مسيو دي موريل » ـ أن أربط المؤسسة التي أمثلها دون الضمانات التي تحدث عنها . فلو أنني فعلت ذلك ، لانتهكت المبادئ والتقاليد التي جعلت من هذه المؤسسة واحدة من أقوى المؤسسات في أوروبا ، وهي مبادئ وتقاليد كثيراً ما عوجمت ، ولكنها تسمح لها بأن تبذل ولاءها للدولة حين تهيب بها كما أهابت منذ خمسة أشهر ، وكما تهيب بها اليوم ، وكما قد تهيب بها غداً .. وتكرار هذه النداءات ، وما عزمنا عليه من تلبيتها ـ هو ما يرغمني ـ يا سيدي الوزير ـ على أن أطلب الضمانات التي تقتضي هذه المبادئ ، وتلك التقاليد ، على أن تؤكدها لحملة أسهمنا ، والتي بفضلها سمحت لنفسي أن أقول لكم ـ يا سيدي الوزير ـ إننا تحت تصرفكم ... فليس من شك أننا نستطيع أن نسهم بعشرين مليوناً ».

وتبادل المندوبون النظرات في ذعر : ستسدد الودائع .. وفطن فيرال الآن إلى ما أراده الوزير : إرضاء شقيقه دون التزام ، وتسديد الودائع ، وأن يجعل المؤسسات تدفع ، ولكن أقل مبالغ ممكنة ، وإصدار بيان مرض . واتصلت المساومة ، سيتحطم الاتحاد غير أن انهياره لا يهم الوزير إذا سددت الودائع .. وستحصل المؤسسات على الضمان الذي طلبته (إنها ستخسر مع ذلك ، ولكن خسائر قليلة) . وسيكون من الممكن المحافظة على بعض الأعمال ، على أن تصبح تابعة للمؤسسات .. أما الباقي .. ها هي ذي أحداث شنغهاي ستحيل إلى شيء لا معنى له تماماً .. وكان يفضل أن يشعر بأنه جرد من كل شيء ، وأن يرى عمله خارج يده حياً ، وأن ينهب أو يسرق . بيد أن الوزير لن يرى سوى الخوف الذي يحتمل في نفسه من الرقابة ، وأن يحرق اليوم سترة أحد . ولو كان فيرال في مكانه ، لبدأ بتولي أمر اتحاد قد

أصلح فساده ثم أبقى عليه بعد ذلك بأي ثمن. أما المؤسسات، فلقد أكد دائماً تخوفها الذي لا علاج له. وإنه ليذكر مزهواً كلمة قالها أحد خصومه: «إن فيرال يريد دائماً أن يكون البنك داراً للمقامرة».

ودق جرس التليفون، قريباً جداً... ودخل أحد الملحقين:

- «سيدي الوزير، رئيس مجلس الوزراء على الخط الخاص»

- «قل له إن الأمور تسير سيراً حسناً جداً.. كلا، سأذهب بنفسي».

وخرج، ثم عاد بعد لحظة، وألقى نظرة استفهام على مندوب البنك الرئيسي للشؤون الفرنسية، وهو الوحيد الممثل هنا، وكان لهذا المندوب شارب مستقيم مواز لنظارته، وصلعة، وسحنة مرهقة.. ولم يكن قد تفوه بكلمة واحدة بعد.

قال متمهلاً: «إن الابقاء على الاتحاد لا يهمنا بأي حال من الأحوال، والمشاركة في السكك الحديدية أمر تؤكده الاتفاقيات لفرنسا. وإذا سقط الاتحاد، فإن شركة أخرى سوف تتكون أو سوف تنمو لتحل محله».

قال فيرال: «وهذه الشركة الجديدة، بدلاً من نهوضها بتصنيع الهند الصينية سوف تقوم بتوزيع الأرباح. ولكنها، ما دام لم يسبق لها أن فعلت شيئاً لتشانج - كاي - شيك سوف تجد نفسها في نفس الموقف الذي تجدون فيه أنفسكم إذا لم تكونوا قد أديتم شيئاً قط للدولة. وأما المعاهد فسوف تحولها شركة أمريكية، أو بريطانية، إلى «ستار» (بارافان) مرئي بكل تأكيد. وسوف تقرضونها المال الذي ترفضون إقراضي إياه. لقد أنشأنا الاتحاد لأن البنوك الفرنسية في آسيا تتبع في الضمانات سياسة من شأنها أن تنتهي إلى إقراض الانجليز لكي لا تقرض الصينيين. أما نحن فقد اتبعنا سياسة المجازفة، وهذا...»

- «أنا لم أجرؤ على أن أقول ذلك».

- «... واضح. ومن الطبيعي أن تجني نتائج هذه السياسة. وسيصل الاقتصاد (واتسم ركني واحد من ركني فمه) حتى ثمانية وخمسين مليارا من الخسارة، لا لمجلد وخمسين مليارا وبضع مئات من الملايين. فلنر معاً إذن - أيها السادة - إذا شئتم، كيف يمكن أن يتوقف الاتحاد عن الوجود».

كوبيه

في ضوء الربيع الناصع صعدت «ماي» - التي لم تكن تستطيع لشدة فقرها أن تستأجر سيارة - إلى منزل كاما. ولو كان متاع جيزور ثقيلاً، لكان لا بد من اقتراض شيء من المال من الصور الصحور، الملحقة بالسفينة. وكان جيزور قد أنبأها، وهو يغادر شنغهاي، أنه سيلجأ إلى كاما، وحين وصل، بعث إليها بعنوانه.. ومنذ ذلك الحين لم يصلها منه شيء.. حتى حين أخبرته أنه قد عين أستاذاً بمعهد صن - يات - سن في موسكو. فهل كان يخشى البوليس الياباني؟

وكانت تطالع أثناء سيرها رسالة من «بي» سلمت إليها عند وصول السفينة إلى «كوبيه»، حين كانوا يفحصون جواز سفرها، فقد استطاعت أن تؤوي - بعد موت «تشن» - هذا الشاب الذي كان تلميذاً له، في الفيللا التي لاذت بها. وجاء في الرسالة:

«... وكل أولئك الذين تمكنوا من الفرار من شنغهاي ينتظرونك، وقد استلمت الكتيبات...»

وكان قد نشر تحت اسم مستعار وصفين لموت تشن: أحدهما نابع من قلبه، قال فيه: «إن اغتيال الديكتاتور هو واجب الفرد نحو نفسه، وينبغي فصله عن العمل السياسي الذي تحدده القوى الجماعية». أما الوصف الآخر فكان موجهاً إلى التقليديين: «وكما أن الواجب البنوي - الدين الذي ندين به لأسلافنا - يدفعنا إلى أن نبحث عن أنبل حياة لنا، فكذلك يتطلب من كل فرد منا اغتيال المغتصب». وقد أعادت المطابع السرية طبع كتيباته.

«... رأيت أمس هملريش، الذي يفكر فيك. إنه الآن عامل تركيب بمصنع الكهرباء، وقد قال لي: «في الماضي بدأت أحيا حين خرجت من المصنع، أما الآن فقد بدأت أحيا حين دخلته. وهذه هي المرة الأولى في حياتي التي أعمل فيها، وأنا أعرف لماذا أعمل، لا منتظراً في صبر أن أموت...» اخبري جيسور أننا ننتظره. ومنذ أن جئت هنا أفكر في المحاضرة التي قال فيها: «الحضارة تتحول حين يصير فجأة أشد عناصرها إيلاماً - المذلة للعبد، والعمل بالنسبة للعامل الحديث قيمة من القيم، وحين لا يصبح الأمر فراراً من هذه المذلة، بل يصبح انتظاراً للخلاص بوساطتها، ولا يصبح فراراً من هذا العمل، بل العثور فيه على علة وجودك. ويجب أن يصبح المصنع - الذي ما زال أشبه بكنيسة ملحقة بالمقابر - بمثابة الكاتدرائية قديماً، وأن يرى فيه الناس - بدلاً من الآلهة، القوة الانسانية في صراعها ضد الأرض...»

أجل: إن الناس لا يساوون - بلا شك - إلا ما أمكنهم أن يغيروه. ولقد مرت الثورة الآن بمرض رهيب، ولكنها لم تمت. وقد كان كيو وأمثاله سواء أكانوا أحياء أم موتى، مهزومين أم منتصرين، هم الذين أخرجوها إلى العالم. وتابعت قراءة الرسالة:

«يأمرونني إلى الصين بوصفي مهيجاً للثورات، فأنا لا أستطيع أن أصبح قط شيوعياً

خالصاً.. وما من شيء قد انتهى هناك. وربما التقينا هناك، مرة أخرى، وقد قيل لي إن طلبك قد قبل».

وسقطت من الرسالة المطوية قصاصة مقطوعة من صحيفة، فتناولتها:

«ينبغي أن يصبح العمل السلاح الرئيسي في حرب الطبقات. وإن أهم خطة للتصنيع في العالم هي الآن موضع بحث، وهذه الخطة تهدف إلى تغيير جمهوريات الاتحاد السوفييتي كلها في خمس سنوات، وجعلها واحدة من أول الدول الصناعية في أوروبا، ثم اللحاق بأمريكا، وتجاوزها.. هذا المشروع العملاق...»

وكان جيسور ينتظرها واقفاً داخل إطار الباب، مرتدياً الكيمونو. ولم يكن في الممر حقائب.

وسألته وهي تدخل حجرة مجردة من الأثاث، لا تحتوي شيئاً سوى الحصر والأوراق، وقد أسفرت مصاريعها المنزوعة عن الخليج بأكمله: «هل تسلمت رسائلي؟».

- «أجل».

- «فلنسرع، لأن السفينة ستعاود الرحيل بعد ساعتين».

- «لن أرحل، يا ماي».

ونظرت إليه، ثم قالت لنفسها: «لا جدوى من استجوابه، فسوف يشرح قصده». بيد أنه هو الذي سأل:

- «ماذا ستصنعين؟».

- «سأحاول أن أخدم في أقسام مهيجات الثورة. ويبدو أن الأمر قد دبر فعلاً. سأصل إلى فلاديفوستوك بعد غد، لأرحل منها فوراً إلى موسكو. فإذا لم تسر الأمور على ما يرام، فسأعمل طبيبة في سيبريا. وأرجو أن ينجح الأمر الأول.. فلقد مللت من التمريض والحياة دائماً مع المرضى، حين لا يكون ذلك في سبيل كفاح معين - يحتاج إلى حالة خاصة من النعمة الإلهية، وأنا، لم يعد في نفسي أي نوع من النعم... وفضلاً عن ذلك، فقد أصبح من غير المحتمل بالنسبة لي الآن أن أشاهد شخصاً يموت.. وأخيراً... إن كان لا بد من أن أفعل ذلك.. فهذه طريقة للأخذ بثأر كيو».

- «لا ينتقم المرء وهو في مثل سني..».

والواقع أن شيئاً في نفسه كان قد تغير.. كان بعيداً.. منفصلاً، وكأن شطراً واحداً من نفسه هو الذي يوجد معها في هذه الحجرة. وتمدد على الأرض، فلم يكن ثمة مقاعد واستلقت هي أيضاً إلى جانب صينية للأفيون، وسألته قائلة: «فماذا أنت صانع؟».

وهز كتفيه في غير مبالاة وقال:

- «إنني هنا - بفضل كاما - أستاذ حر لتاريخ الفن الغربي، لقد عدت إلى مهنتي الأولى، كما ترين...».

وبحثت عن عينيه، وهي مشدوهة، وقالت:

- «وحتى الآن، بعد أن هزمنا سياسياً، وأوصدت مستشفياتنا، تتكون جماعات سرية في الأقاليم جميعاً.. ولن ينسى رجالنا قط أنهم يقاسون من أجل قضية بشر آخرين، لا بسبب حياتهم السابقة. وقد كنت تقول: «لقد استيقظوا وانتبهوا من نوم ران عليهم ثلاثين قرناً، ولن يعودوا بعده للنوم مرة أخرى». وكنت تقول أيضاً إن أولئك الذين منحوا وهبهم بالثورة إلى ثلاثمائة مليون بائس، لم يكونوا ظلالاً كالبشر العابرين - ولو أصابتهم الهزيمة، أو التعذيب.. ولو أصبحوا أمواتاً..».

وصمتت برهة، ثم استطردت قائلة: «وهم أموات الآن».

- «إنني أفكر في ذلك دائماً - يا «ماي». هذا شيء آخر.. إن موت كيو، ليس هو العذاب فحسب، أو التغيير فحسب.. إنه... تحول. إنني لم أحب العالم قط حباً جماً، وإنما كان كيو هو الذي يربطني بالبشر، وبه كانوا يوجدون بالنسبة لي.. أنا لا أرغب في الذهاب إلى موسكو.. وسيكون تدريسي سيئاً هناك. لقد انقطعت الماركسية عن الحياة داخل نفسي... كانت في نظر كيو إرادة، أليس كذلك؟ أما في نظري أنا، فإنها قدر، وكنت أوافقه لأن قلقي من الموت يتفق مع القدر. ولم يعد في نفسي شيء من القلق تقريباً - يا «ماي» - منذ أن مات كيو أصبح الموت عندي سواء. لقد تحررت في آن واحد (تحررت!..) من الموت ومن الحياة، فماذا عساني أصنع هناك؟».

- «أن تتغير من جديد، ربما».

- «ليس عندي ابن آخر أفقده».

وأدنى منه صينية الأفيون، وأخذ يعد غليونه، وأشارت بإصبعها - دون أن تقول شيئاً - إلى ربوة من الروابي القريبة: كان ما يقرب من مائة عامل، مربوطين من أكتافهم، يسحبون حملاً ثقيلاً جداً غير مرئي، في حركة العبيد المعروفة منذ آلاف السنين.

قال: «أجل، أجل».

وأضاف بعد لحظة: «ومع ذلك، احذري: فهؤلاء على استعداد للموت في سبيل اليابان».

- «وكم يستغرق ذلك من الوقت؟».

- «أطول من العمر الذي سأعيشه».

وكان جيسور قد دخن غليونه في شهيق واحد. وعاد ففتح عينيه:

ـ «من الممكن أن يخدع الإنسان الحياة زمناً طويلاً، ولكنها تنتهي دائماً بأن تجعل منا ما جعلنا من أجله. إن كل رجل عجوز اعتراف، صدقيني، وإذا كان كثير من الشيوخ يقضون حياة فارغة، فذلك لأن كثيراً منهم كانوا فارغين، ولكنهم يخفون هذه الحقيقة. بيد أن هذا نفسه لا أهمية له. وينبغي على الناس أن يتمكنوا من إدراك إنه لا وجود لشيء حقيقي، وأن هناك عوامل من اختراع التأمل ـ بالأفيون أو بدونه ـ حيث كل شيء باطل....»

ـ «وماذا تتأمله في تلك العوالم؟».

ـ «ربما، لاشيء سوى هذا الباطل.. وهذا كثير».

وكان كيو قد قال لماي: «إن الأفيون يلعب دوراً كبيراً في حياة أبي، ولكنني أسائل نفسي أحياناً: هل الأفيون هو الذي يحدد حياته، أم أنه يبرر به بعض القوى التي تبعث القلق في نفسه...»

وواصل جيسور حديثه قائلاً: «لو أن تشن عاش خارج الثورة، فاعتقدي أنه كان سينسى اغتيالاته بلا شك. ينسى...»

ـ «إن الآخرين لم ينسوا، وقد حدثت محاولتان إرهابيتان منذ موته.. إنه لم يعلق النساء، وهذا لم أعرفه قط، ولكنني أعتقد أنه ما كان يستطيع أن يعيش خارج الثورة، ولو عاماً واحداً. لا وجود لكرامة لا تؤسس على الألم».

وكان لا يكاد يسمعها.

واستطرد قائلاً: «... ينسى... منذ أن مات كيو، اكتشفت الموسيقى. الموسيقى وحدها تستطيع أن تتحدث عن الموت. إنني أنصت إلى «كاما» الآن كلما أخذ في العزف. ومع ذلك دون أن أبذل مجهوداً من جهتي (كان يتحدث إلى نفسه بقدر ما يتحدث إلى ماي) ماذا أتذكر أيضاً؟ رغباتي وقلقي، مصيري نفسه، حياتي، أليس كذلك؟..»

(وحدثت ماي نفسها قائلة: «ولكن في أثناء تحررك من حياتك، هناك رجال من أمثال كاتوف، يحرقون في المراجل.. ومن أمثال كيو...»)

وضاعت نظرة جيسور في الخارج، وكأنها تتبع حركة نسيانه.. وهناك عبر الطريق، كانت الاف الأصوات المنبعثة من أعمال الميناء تبدو وكأنها ترحل مع الأمواج صوب البحر المضيء.. وكانت تتجاوب مع لألاء الربيع الياباني بكل ما يبذل له الرجال من مجهود.. بالبواخر، والروافع والسيارات والجماهير النشيطة. وكانت «ماي» تفكر في رسالة «في»:

«إنه في هذا العمل ـ المطلق كالحرب ـ على الأرض الروسية كلها، وفي إرادة الجماهير التي ترى في هذا العمل الحياة نفسها.. في هذا كله وجد أمواتها ملاذهم. وكانت السماء تتألق من خلال ثغور أشجار الصنوبر، كما تتألق الشمس، وانساب النسيم الذي كان يميل الأغصان في لين، على جسديهما الممددين. وخيل إلى جيسور أن هذا النسيم ينفذ عابراً جسده، كأنه نهر، كأنه «الزمن» نفسه، ولأول مرة، خطرت له هذه الفكرة وهي أن الزمان الذي يقرّبه من الموت، لا يفصله عن العالم، بل يربطه به في توافق مطمئن. وتطلع إلى تشابك الروافع على حافة المدينة، وإلى البواخر، وإلى الزوارق المنسابة على صفحة البحر، وإلى البقع الإنسانية الموجودة على الطريق وقال لنفسه: «كلهم يتعذبون.. وكل منهم يتعذب لأنه يفكر.. وفي الأعماق، لا تفكر الروح في الإنسان إلا بوصفه أبدياً.. والوعي بالحياة لا يمكن أن يكون إلا قلقاً. لا ينبغي التفكير في الحياة بوساطة الروح، بل بالأفيون. كم من آلام متناثرة في هذا النور، ستتلاشى حين يتلاشى الفكر!..» وضم في عرفان بالجميل أنبوبة غليونه، وقد تحرر من كل شيء، حتى من كونه إنساناً، متأملاً اضطراب كل هذه الكائنات المجهولة التي تسعى نحو الموت في الشمس التي تغشى الأبصار، وكلٌ يجاهد في أخفى أعماق نفسه قاتله المتطفّل. وحدث نفسه قائلاً أيضاً: «كل إنسان مجنون ولكن ماذا يكون المصير الإنساني إن لم يكن حياة من الجهود في سبيل توحيد هذا المجنون بالكون؟..» وتراءى له فيرال مرة أخرى في ضوء المصباح المنخفض أمام الليل المليء بالضباب، والتفت إليه وهو يقول: «كل إنسان يحلم بأن يكون إلهاً...»

وغزت الهواء خمسون صفارة في آن واحد: كان اليوم هو «وقفة» العيد، وفيه يتوقف العمل. وقبل أن يعتري الميناء أي تغيير، كان رجال صغار الأحجام ـ يظهرون ككشفان الكشافة ـ على الطريق الأيمن الذي يفضي إلى المدينة، وسرعان ما تغطيه الجماهير، نائية، سوداء، وسط ضوضاء آلات التنبيه: إنهم أصحاب العمل والعمال يغادرون مصانعهم معاً. والجماهير تتدافع كأنها تشن هجوماً، تحملها تلك الحركة القلقة التي يبدو عليها أي حشد حين يتأمله المرء من بعيد. وكان جيسور قد شاهد فرار الحيوانات نحو الينابيع، عند هبوط الظلام: كان واحداً منها، ثم بعضها، ثم جميعها، تهرول صوب الماء مدفوعة بقوة تهبط مع الظلمات، وفي ذاكرته، أضفى الأفيون على اندفاعها الكوني انسجاماً وحشياً، بينما بدا له الناس الضائعون في الجلبة البعيدة التي تحدثها أحذيتهم الخشبية، مجانين جميعاً، منفصلين عن الكون الذي يخفق قلبه في مكان ما من الضوء النابض هناك عالياً، فيأخذهم ثم يرمي بهم في العزلة وكأنهم حبات حصاد مجهول. وكانت السحب الخفيفة، المرتفعة جداً، تمر فوق أشجار الصنوبر القاتمة، لتذوب رويداً رويداً في السماء، وقد بدا له أن جماعة منها.. هذه

الجماعة بالذات ـ تمثل الرجال الذين عرفهم أو أحبهم، والذين أصبحوا أمواتاً. وكانت الإنسانية كثيفة ثقيلة، ثقيلة بلحمها، ودمها، وعذابها، لاصقة بنفسها التصاقاً مؤبداً، ككل ما يموت. بيد أن الدم نفسه، واللحم نفسه، والألم نفسه، بل الموت نفسه، تتلاشى هناك في الأعالي، في النور، كما تتلاشى الموسيقى في الليل الساجي: وذهب فكره إلى موسيقى كاما، وخيل إليه أن الألم الانساني يصعد، ويتبدد كأنه أغنية الأرض نفسها، وعلى السلام المرتجف، المختبئ في صدره اختباء قلبه، كان الألم ـ الذي تمت له السيطرة عليه ـ يطوقه على مهل بذراعيه الخاليتين من الإنسانية.

وردت قائلة: «هل تدخن كثيراً؟».

وكانت قد ألقت هذا السؤال من قبل، ولكنه لم يسمعها. وعادت نظرة جيسور إلى الغرفة، ثم قال:

ـ «اتعتقدين أنني لا أتكهن بما يدور في فكرك؟ وهل تعتقدين أنني لا أعرفه خيراً مما تعرفينه؟ وهل تعتقدين أنه ليس من اليسير عليّ أن أسألك بأي حق تحكمين عليّ؟».

واستقرت نظرته عليها وهو يقول:

ـ «أليست لديك أية رغبة في إنجاب طفل؟».

ولم تجب: إن هذه الرغبة العارمة دائماً تبدو لها الآن بمثابة خيانة. ولكنها تأملت في ذعر هذا الوجه المطمئن. وكان في الحقيقة قادماً إليها من أعماق الموت، غريباً كأنه جثة من القبور العامة. لقد نقشت أعمال كيو فيما فرض على الصين المنهكة من قمع، وفيما يعتري الجماهير من قلق أو أمل، وكأن هذه الأعمال نقوش الامبراطوريات البدائية في صخور شقتها الأنهار. ومع ذلك فإن تلك الصين القديمة التي ألقى بها هؤلاء النفر بلا رجعة في وجه الظلمات، تحدثني دوياً كهزيم السيل، لم تمح من وجه العالم، كما لم يمح معنى حياة كيو من وجه والده.

وواصل جيسور حديثه قائلاً:

ـ «الشيء الوحيد الذي أحببته قد انتزع مني، أليس كذلك، ومع ذلك تريدين أن أبقى كما أنا. أتعتقدين أن حبي لم يكن مساوياً لحبك.. انت، يا من لم يطرأ على حياتها تغيير؟».

ـ «كما لا يطرأ تغيير على جسم إنسان حي أصبح ميتاً...».

وتناول يدها، ثم قال:

ـ «أنت تعرفين هذه العبارة: «لا بدّ من تسعة أشهر لصنع إنسان، ويكفي يوم واحد

لقتله». وقد عرفنا ـ أنا وأنت ـ ما تنطوي عليه هذه العبارة من صدق بقدر ما يمكن أن تعرف... ماي، اسمعي: إن الأمر لا يحتاج إلى تسعة أشهر فحسب: بل لا بدّ من خمسين عاماً لتصنع إنساناً.. خمسين عاماً من التضحيات.. ومن الإرادة.. ومن... ومن أشياء كثيرة! وحين يتكون هذا الرجل، وحين لا يعود فيه شيء من الطفولة أو المراهقة.. وحين يصبح رجلاً ـ حقاً ـ لا يصلح عندئذ إلا لأن يموت».

ونظرت إليه في رعب، أما هو فكان يتطلع من جديد إلى السحب:

ـ «لقد أحببت كيو حباً قلما يكنه الآباء لأبنائهم.. وأنت تعلمين ذلك...».

وظل ممسكاً بيدها، ثم جذبها نحوه فوضعها بين راحتيه:

ـ «اصغي إلي: ينبغي أن نحب الأحياء، لا الأموات».

ـ «لست ذاهبة إلى موسكو لكي أحب».

وأخذ يتأمل الخليج الرائع، المشبع بالشمس، وكانت قد سحبت يدها.

ـ «على طريق الانتقام، تلتقي ـ يا صغيرتي ماي ـ بالحياة».

ـ «ليس هذا سبباً للبحث عنها..».

ونهضت، وأعطته يدها، علامة الوداع، ولكنه تناول وجهها بين كفيه، وقبلها.. لقد قبلها كيو على هذا النحو في اليوم الأخير.. على هذا النحو تماماً، منذ ذلك الحين، لم تضم رأسها يدان.

قالت في كبرياء مريرة: «لم أعد أبكي الآن..».

تمت